منادمة الحروب

أدب وحرب وسياسة

الجزء الأول

بقلم

أحمد رمزي

سفير مصر السابق بروما

١٩٥٣

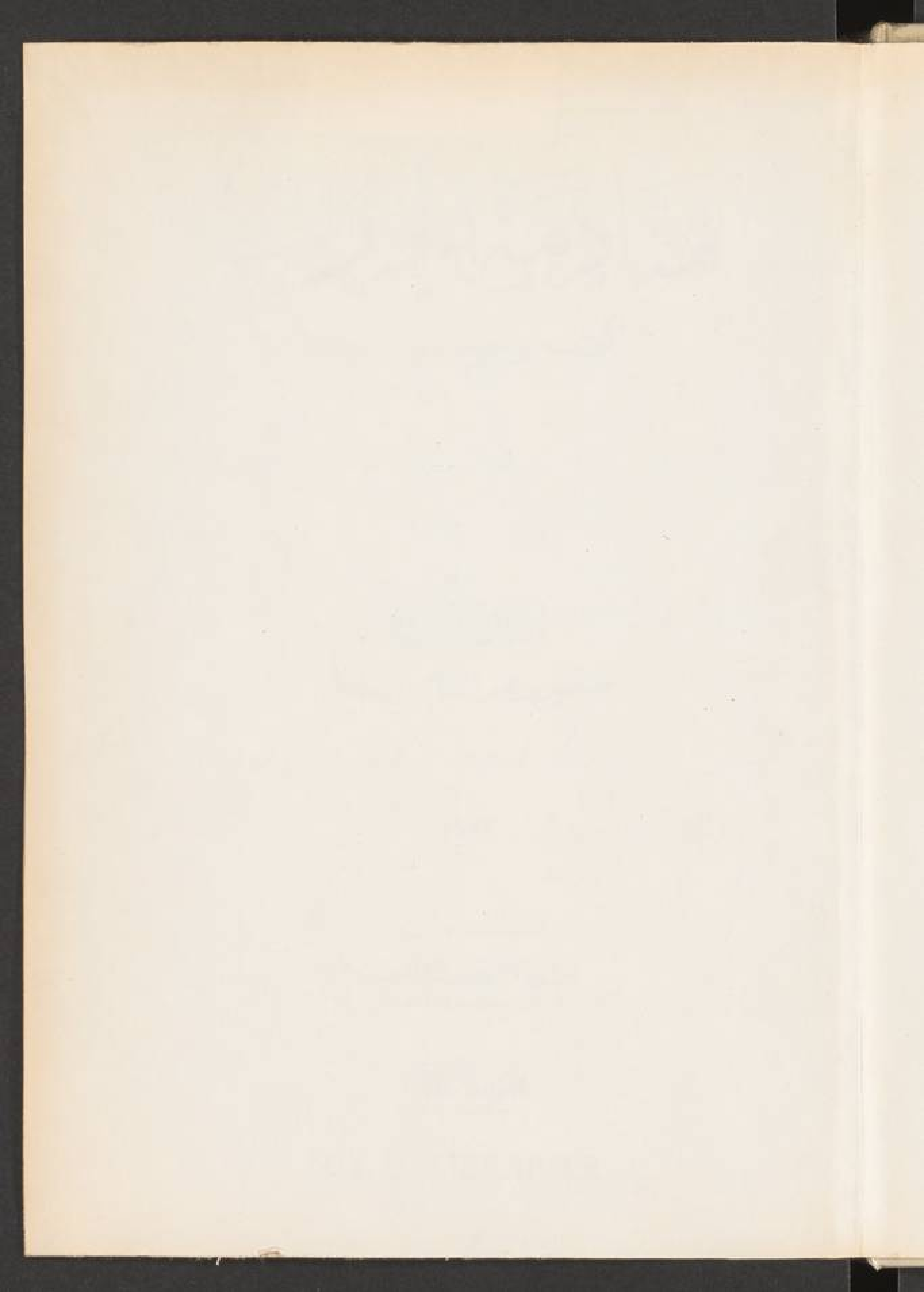
ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي


NEW YORK VNIVERSITY
PERSTARE ET PRÆSTARE
MDCCCXXXI
NEW YORK
UNIVERSITY
LIBRARIES




BOBST LIBRARY
3 1142 02821 6466

منادمة الحروف

أدب وحرب وسياسة

الى السيد مودو برجو
مع أطيب تمنيات المؤلف
أحمد رمزي
٢٢/١١/١٩٥٤

الجزء الأول

بقلم

أحمد رمزي

سفير مصر السابق بروما

١٩٥٣

ملتزمة النشر والطبع

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلي باشا - القاهرة

مطبعة لجنة البيان العربي

١ شارع [illegible]

« وما لنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون » :

(١١) سورة إبراهيم

اعتراف وشكر

إلى أولئك الذين حاربوني بسلاح الأضاليل والأكاذيب والافتراء . فلم يرعوا عهد ودٍ ولا ذكرى زمالة ولا وشيجة أخوة .

أقدم شكري

إذ أتاحوا لي بعملهم ، اتساع أوقات الفراغ أمامي ، فشغلتها بالبحث .

فإليهم

يرجع فضل إخراج هذا الكتاب المتواضع .

ولذا

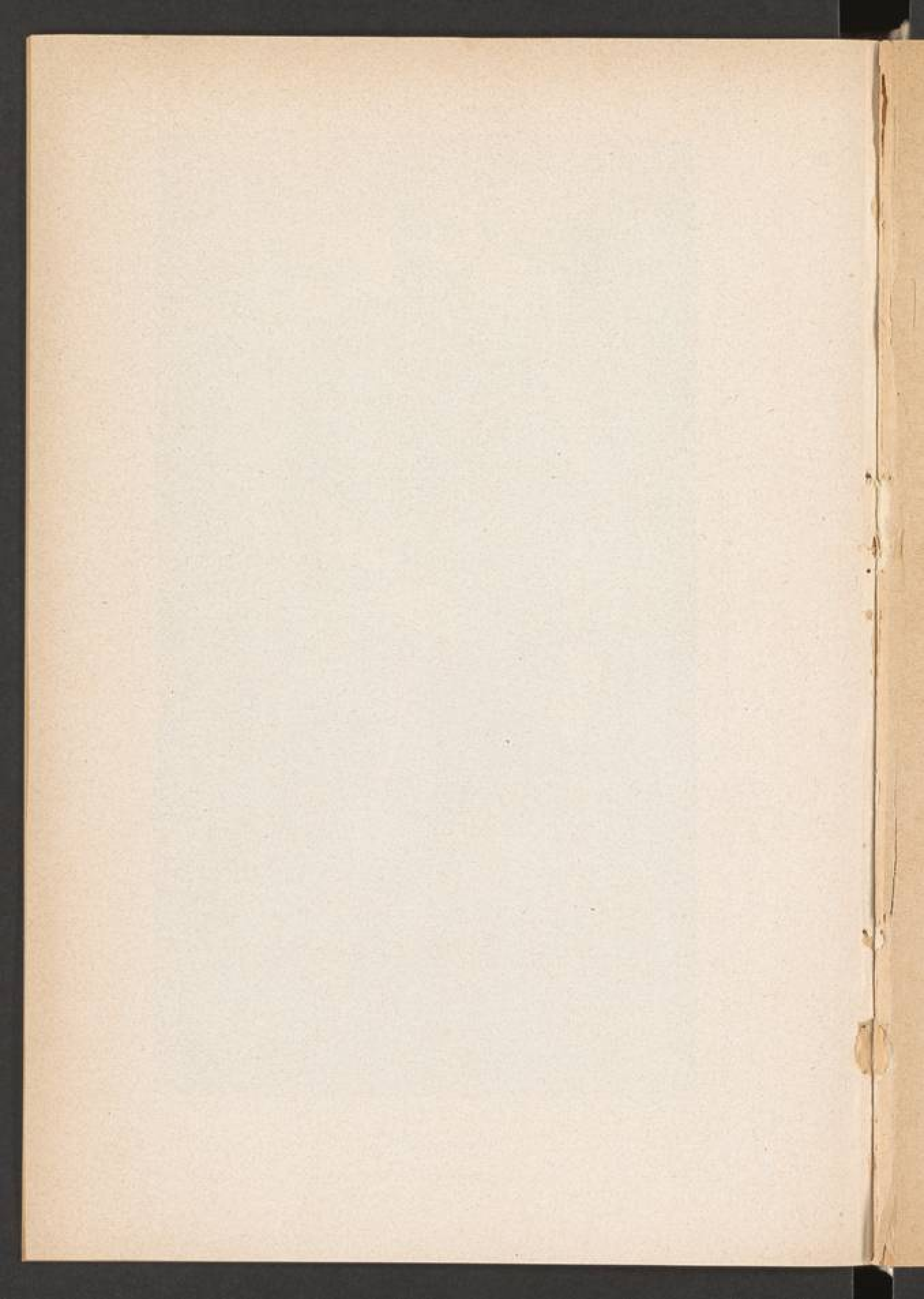
تراني أترنم عند إتمامي له بشعر القائل :

« حينما أقدم على اعتلاء أشد جيادي جموحاً ، لا أجد مُعيناً أقرب إليّ من رمحي ، لكي اتخذه متكأً ارتفع عليه » .

« وكلما وجهت هذا الرمح لأعدائي أحاربهم به ، رأيت أنهم يستحقون ثنائي عليهم ... »

« حينئذ ألقي به جانباً وأفضل أن أواجههم وأنا أعزل من السلاح » .

المؤلف





والد المؤلف

جيشـــــنا

إن آلام هذه الأيام لا تقاس بالمزمع أن يتجلى فينا .
أيها الرفاق فى الحروب والمعارك وإخوانى الجنود .
إننى أحبكم من أعماق قلبى .
وأعاهدكم كجندى أننى كما كنت فى الماضى .
سأكون اليوم وسأبقى غداً واحداً منكم .
(نيتشه فى نشيد المقاتلين)

كان أبى من المقاتلة وقد حارب مع الجيش المصرى فى حملة ١٨٧٧ ضد الروسيا ، فجرح فى الميدان واشترك فى معارك الحبشة والثورة العرابية ، وبقى جندياً فى روحه بعد إحالته إلى المعاش فنشأت وأنا أؤمن بقدسية الجندية ، وأجد الحرب أعلى مظهر لعظمة الإنسان ، وكنت أرتل شعر المتنبى فتأسرنى تلك الحيوية الجارفة والمقدرة على تصوير المعارك وقعقعة السلاح ، فقلت : إنه أكبر شعراء العرب لأنه أقدرهم على تحريك النفوس ، وإبراز معانى الغلبة والظفر فى الحروب . وقلت فى نفسى الجيش والأمة صنوان ، بل الجيش صورة مصغرة للأمة ، لأن عظمتها تظهر فى جيشها ، وقدرتها على التصادم والكفاح تبرز فى جنودها ، وفى جماعات الجيش وكتائبه وفرقه ، فالجيش كان فى ماضى مصر مرآتها ، وهو اليوم موضع آمالها ، وفيه ترتسم وتظهر وتبرز وتنعكس الميزات الثابتة والصفات العالية ، والمقسومات الجديرة بالإعجاب التى تملكها الأمة المصرية ولو قدر لى أن أختار مهنة فى حياتى لما اخترت غير الجندية مهنة ، ولا قبلت أبداً أن أترك الصفوف المتراصة من الجند ، ولا سلمت إلا أن أكون فى الطليعة حيث الأخطار تترى ، وحيث أواجه الموت وأنتصر على الصعب من الأمور .

إن الجيش مرآة الأمة تزيدها جلاء الحوادث الجسام فتنعكس عليها الصفات الخلقية والنفسية الكامنة فى الأمة والمتوارثة عن الآباء والأجداد ، ولقد تفرض أنظمة الجيوش على رجال الجندية نوعاً أو قالباً معيناً من النظام والطاعة والضبط والربط ، ولكن الصفات القومية التى أشرنا إليها لا يمكن إلا أن تظهر على هذه الأنظمة فى الحروب والمعارك حيث تبذل التضحية أمام الموت ، فتبدو نفسية الشعوب عارية كما هى لا شىء يخفيها ، هنا تبدو الخصال المتوارثة واضحة بيّنة ، لأنها متوارثة من الدماء التى أراقتها هذه الأمة المصرية العربية منذ أجيال فى سبيل الدفاع عن مثلها العليا « العروبة والإسلام » .

لذلك أحببت الجيش وجنده وأسلحته وأعلامه .

إنها تذكرنى بصلاح الدين و بيبرس ، وحروب التتار ومعارك الصليبيين بالمنصورة ، وحطين ، وعين جالوت .

وأحب الجيش لأنه مدرسة كبرى للشعب فهو الذى يغرس الروح العسكرية فى طبقات الأمة ، ويعلمها النظام ويدربها على السير والحركة ، ويجعل من هذا المواطن الذى يسير على مهل مطأطىء الرأس وهو حامل للمتاعب والهموم ، رجلا رافع الرأس ، يسير إلى إلى الأمام وهو واثق من نفسه ، مطمئن ليومه وغده .

إن مدرسة الجيش هى مدرسة الأمة والشعب ، يدخلها الشباب فتخلق من جماعات هذا الشباب المصرى كتائب متراصة مدربة منظمة ، تعرف قيمة الواجب وتتلهف إلى الطاعة والنظام وتلبى الدعوة للعمل والجهاد وحمل السلاح ، إنها تعلم الجماعات قيمة الزمن وفضل السرعة فى السير والهجوم والراحة ، وتغرس فيها حب اغتنام الفرص والمباغتة والملاحقة والتلاحم ، أن روح الجماعات عاتية فإذا صقلتها مدرسة الجيوش أصبحت روح الجماعات خالقة مبدعة منشئة عاملة . وهى أسمى درجة تصل الجماعات إليها .

ولذلك تنبه من قبلنا وقالوا : « ليس هناك أعظم ولا أدعى إلى الفخر والمجد من دولة تملك أكبر عدد ممكن الوصول إليه من الجنود المدربين على الحرب القادرين على حمل السلاح » .

وقال حكيم : « لا تظنوا أن قوة الأمة فى حصونها وأسوارها وأساطيلها وإنما قوتها وعمادها فى قيمة رجالها — أى جنودها » .

* * *

وأحب الجيش لأنه يغرس فى الأمة القوة الدافعة إلى القتال والحرب والبذل والتضحية ، وهذه هى روح الجندية التى إذا ثبتت جذورها فى قلوب أفراد الأمة وتعهدتها إرادة قوية ورأس حازمة ، تعرف دائماً كيف تخلق التسليح لنفسها وكيف توجد ما تحتاج إليه ، فيخرج من صفوف هذه الأمة الضابط الذى يقود والجندى الذى يقاتل ، والمهندس الذى يوجد المدفع وما يحتاج إليه من ذخيرة وطلقة . وبذلك تفرض الروح العسكرية على الأمة حياة جديدة فتعلم منها كيف تحرز النصر فى ميادين القتال تحت مختلف الظروف ومختلف الأجواء ، فيخرج من بين صفوفها القادة والزعماء بل تعرف الأمة عند اللزوم أن تقود نفسها بوحيها .

ولا يظنن أحد منا أن مصر العربية لم تذق طعم الظفر والغلبة ، لا بل إن هذه الأمة المصرية كتبت بدماء أبنائها أكبر الملاحم العربية ، وواجهت جيوشها أعظم الحروب والمعارك . فقد اشترك جندها فى فتوح المغرب والأندلس ، وعرفت رايات أهل مصر وقبائلها وسط المعارك ، وكانت لهم المواقف الخالدة أيام عاهل مصر العظيم احمد بن طولون فى حروبه مع دولة الروم .

ولما قامت الحرب الصليبية كانت جيوش مصر هى التى تتلقى وحدها حملات أهل أوربا ، وقد دامت قرنين تقريباً من الزمن ، فشهد العالم نهايتها على أيدى ملوك مصر وجندها فعلينا أن نذكر ذلك ولا ننساه .

ولا تزال الحصون والقلاع التى بناها الافرنج فى ربوع الشام تحمل الكتابات التى نقشها ملوك مصر وقوادها عند استيلائهم عنوة على هذه الحصون ماثلة للعيان فليقرأها من شاء وليتأملها دعاة التفكك والهزيمة .

فالجيش المصرى هو صاحب هذه الأمجاد ، وارثها من أسلافه الأبطال الذين حموا بسيوفهم معاقل العروبة .

وإذا نظر المصرى إلى القلعة فليعلم أن كل حجر فيها يحدثه عن بطولة أسلافه لقد نحتها وصف حجارتها إثنا عشر ألفاً من أسرى الفرنج أشغلهم صلاح الدين فى بنائها ، كانوا أسرى المعارك التى انتصر فيها .

لذا : أحيي مصر العربية فى جيشها أبعث إليه بإعجابى الدائم ، وأقول إنه عماد هذه الأمة ، والطليعة الأولى التى تسير نحو العلا والمجد .

نشرت فى مجلة « جيشنا » بالعدد ٢١٧ — ٢٢٠ سنة ١٩٥٠ وقد تنبأ المؤلف بنهضة الجيش المصرى ووثبته .

هـــانيبـــال

القائد الذى قال عنه خصومه « إن رأساً بشرياً آخر لم يحمل فى العصور القديمة بعض ما حمله رأس هنيبال من مشاريع جبارة عليها طابع الإقدام والمخاطرة . »

إذا كنت أعجب بمظاهر العظمة لدى قوادنا العظام من أمثال خالد بن الوليد وطارق بن زياد ، ومحمود بن سبكتكين ويوسف بن تاشفين ، وصلاح الدين ، وبيبرس ، أولئك الذين قادوا الجند ودوخوا البلاد ودانت لهم دنيا المعارك فإنى إذا جاء ذكر القائد القرطاجنى هنيبال أمام مخيلتى وقفت وقفة انتباه لآخذ التحية لذكراه . ولا لأنى أشعر بالحماس له والتعصب لأفريقيته وأصله الأسيوى ، ولا لأنى قرأت عن معاركه وأيامه ومواقفه وإنما لأنى أحبه فى نكبته كما أحبه فى انتصاراته وفى كلتا الحالتين أحبه من صميم قلبى ولذلك التأمت روحى بشخصه واتجهت نفسى إلى كل ما يتعلق به وببلده وأخذ قلبى يخفق لدى كل ما يشعرنى بذكراه .

وإننى أقرأ عنه وكأنى أرى أعلامه أمامى وأحس كأنى عشت معه وسرت وسط كتائبه ، وكنت جندياً من جنوده تظللنى راياته وأقتحم العقبات بأمره على قمم جبال البرانس ومضايق الألب وفى وسط سهول إيطاليا ، لقد مررت بأعالى مضايق الألب بين فرنسا وسويسرة فكان هنيبال على لسانى واخترقت سهول إيطاليا تارة بالقطار وأخرى بالطائرة وآنا بالسيارة فكنت أقول لنفسى هنا مر هنيبال وعلى مقربة منى انتصر هنيبال . إنه أكبر قواد العصور القديمة وأعظم رجال الحرب بل هو كما قال عن نفسه ، إنه لولا هزيمته فى معركة زاما لكان أكبر قواد الدنيا بلا منازع .

إنه بطل من أكبر الأبطال حمل رأسه أكاليل المجد وذاق طعم النصر في كل معركة دخلها ، وكانت عبقريته العسكرية تغطى على عمل كتائبه وجنده وتتغلب على عقبات الأرض وعناد الطبيعة وكانت تتملكه غريزة النصر والظفر وتسيطر على كل مشاعره وإحساسه . لم يكن يفوق أعداءه وحلفاءه وقومه في أمجاده وانتصاراته فحسب بل كان يفوقهم كذلك في فكرة وخلقه وإرادته وثباته وتصميمه .

ولهذا قال عنه خصومه أن رأساً بشرياً آخر لم يحمل أبداً في العصور القديمة بعض ما حمله رأس هنيبال من مشاريع جبارة عليها طابع الإقدام والمخاطرة . وقال آخرون إنه الأستاذ الأول لجنجيز خان وتيمور لنك الأسيويين بإرادته الحديدية وقوته الخارقة المبدعة في فن الحرب وقيادة الرجال واستخلاص النصر .

أما نهايته فكانت عظيمة في خاتمتها : لأن حياته بدأت كملحمة منذ كان في التاسعة من عمره ودعاه والده هملكار أن يحمل عبء القيادة عنه في جيش أسبانيا وجاءت حياته كملحمة غمرتها الحوادث وغمرت بحوادثها الدنيا ثم أتت نهايته كخاتمة مأساة انتهت بموت البطل فمات موت الأبطال حينما رأى نفسه غير قادر أن يبر بقسمه العتيد لوالده الذى لقنه أن يبغض روما القاسية حتى الموت وأن يحمل سيفه ليواجه ظلم روما وجبروتها إلى النهاية وألا يغمده ما بقى فيه قلب ينبض حتى يقضى على طاغوت هذه القوة الجامحة الرازخة على قلوب أهل قرطاجنة وعلى العالم ، لقد كانت نهايته عظيمة كما كانت حياته مملوءة بعظائم الأمور ودليلى على ذلك أن الإسكندر وهو رأس قواد الغرب مات وهو منهك القوى بعد ليالى السكر والترامى على الملذات التى قدمتها إليه حياة الشرق المهلكة ، فابتلعته بمعاصيه وآثامه دنيا الفجور ، وجاء قائد أكبر وأعظم منه هو نابليون فأعطته الدنيا سلطان المعارك وملكته قيادة جيوش فرنسا وأوربا ولما شرب كأس النصر حتى الثمالة تمايلت الدنيا تحت قدميه ولقى النفى والتشريد كما كان من حظ

هنيبال القرطاجنى ، ولكن البطل الأفريقى كان أصلب عوداً وأثبت إرادة منه لقد طلب نابيلون الرحمة من جلاديه والتمس العفو منهم . أما هنيبال فقد أبت نفسه أن يخضع لروما وسار نحو المشرق إلى مطلع سراج الدنيا حيث انتهت حياته بالموت مشرداً بعيداً عن الأهل والوطن فجاءت نهايته كما بدأت مثالية فى العظمة مثالية فى الفناء .

لقد اتجهت الأنظار إلى هنيبال منذ سنواته الأولى فأحبه الجند ورفعوه إلى العلا وتعلق به الشباب لأنهم رأوا فيه صورة منهم وتعلق به كبار القواد وكهول العسكر لأنهم تعرفوا فى جبينه على وجه هملكار العظيم قائدهم الذى قادهم فى حياته إلى المجد والنصر إنه يحمل المظهر الرائع الذى حمله والده فى تصميمه وقوته من قبل فى أيام شبابه وعلى وجهه ارتسمت أمارات العظمة والإرادة والحنكة التى عرفها الناس فى وجه هملكار وأعجبوا بها ، وفى عينيه لمع نفس الاشعاع الذى كان يشع فى عينى أبيه والذى كان يوليه الثقة ويدعوه إلى الحركة والإقدام إن فى عينيه ترتسم النظرة الصائبة التى قلما تخيب .

كان يجمع فى قلبه النقيضين : نفحة الطاعة وغريزة القيادة فكان يعرف كيف يصل إلى أن يجعل من جنان قائد الجند وقلوب أفراد الجيش قطعة واحدة متماسكة فكان يأمر فيطيع ويطاع ، وكان قلبه لا يعرف الخوف ولا الهلع أمام الموت والخطر فإذا به يواجه أعظم الأمور وأشد المواقف وهو هادىء هدوءاً لا يلبث أن يتملك الجيش بأكمله .

كان يقدم على العمل فيحتمل جسمه أشد الأعمال ، وكان يصبر عن الأكل والراحة ويقاسم جنده المشاق ويعطى لكل عمل مهما كان ضئيلا حقه من الاهتمام حتى إذا أتى وقت الراحة أعطى لجسمه ما يستحق ، ولم يحمله من اللهو والملاذ ما ينقص من قوة ونشاط هذا الجسم الذى وهبه للجيش وللجماعة وللأمة التى أنجبته ، لأن حبه للمجد ولعظمة بلاده تملك كل شىء فى نفسه فأصبح هذا

الحب قوة دافعة يلازمها الدوام والاستقرار طول حياته .

قد تفصلنا عدة قرون من الزمن عن هنيبال وأيامه ولكن آراءه فى الحرب وعبقريته فى سوق الجيوش و بصيرته فى ترتيب المصاف لا تزال عالقة بأذهان بعض المؤرخين . بل إن بعض معاركه لا تزال تتخذ أنموذجاً لفن القيادة فى الحروب و إدخال الحيلة على العدو . وأكثر من هذا أن فى الدور الذى لعبه فى معاركه ما يدعو إلى التأمل عند دراسة فن المفاجأة ، وطرق المبادرة واختيار ساعة الالتحام ودخول المعركة .

وقال كثيرون من نقاد الخطط العسكرية أن نابليون تأثر بنظريات هنيبال فلجأ إلى بعض خططه فى معركة « أوسترلتز » المشهورة بل تغالى بعضهم فنسب إليه أنها كانت صورة من معركة « كان » التاريخية . وذكر مكاتب حربى أخيراً أن خطة هنيبال فى « كان » نفذها الشيوعيون الروس فى معركة كوريا التى قذفوا فيها بالفرق الصينية أمام جيوش هيئة الأمم المتحدة وحاولوا الأطباق عليها من جانبين فلم يوفقوا وهذه هى معركة كان .

لقد جمعت روما العاتية من جحافلها ٨٠ ألفاً من المشاة ، ٦ آلاف من الفرسان لكى تقابل هنيبال ومعه ٤٠ ألفاً من المشاة ، و ١٠ آلاف من الفرسان وتركز الرومان فى مقاعد للقتال صفاً واحداً وعبأوا فى وسطه صفوفاً متتالية أملا فى سرعة مد الجانبين وتولى حماية الجناح الأيمن خيالة روما وحماية الجناح الأيسر خيالة حلفائها .

وصف هنيبال جنده على تعبئة تشبه تعبئة روما وكان على جناحه الأيسر فرق الخيالة من أهل أسبانيا وأهل الغال (أجداد الفرنسيين) وكان الوسط مؤلفاً من فرق المشاة من الأسبان والغال ثم العفريين ثم الأسبان والغال والعفريين على نظام الجيش الهندى البريطانى (كتيبة من الهندوس ثم كتيبة من السيخ ثم كتيبة من المسلمين). أما الجناح الأيمن فحمته فرق الخيالة النوميديين

(أجداد الفرق السباهية الجزائرية المشهورة من سكان المغرب العربى) .

ولمـــا تلاقت الجيوش على حافة نهر (أوفانتو) كان الرومان يستندون عليه بميسرتهم والقرطاجنيون بميسرتهم وحين هاجمت الخيالة الرومانية خيالة الغاليين ونشب القتال بدأ التلاحم فى غير مصلحة الأخيرين وفى تلك اللحظة وقع التصادم فى القلب فقذف هنيبال بالفرق الأسبانية والغالية من المشاة وحدها متريثاً فى الجانبين ، فجاء ضغط القلب الرومانى ثقيلا على الوسط القرطاجنى فتراجع هذا القلب ، واندفعت الفرق الرومانية وسط الثغرة التى انفتحت أمامهم .

إن المشكلة التى واجهها هنيبال منذ ابتداء المعركة هو كيف يتغلب على خصم يفوقه عدداً وأهبة ويحارب فى موطنه قد بدت له هينة حينما توهم الرومان أن النصر حليفهم واندفعوا يجنون ثمار ظفرهم بضربات موجهة إلى قلب جيشه لتحطيمه تحطيما ، فى تلك اللحظة التى خيل إليهم فيها أن النصر بات من حظهم قذف هنيبال بالجناحين ليطبقا على جانبى الجيش الرومانى وكان تقدم الخيالة الغالية سريعاً بعد أن سحقت ما أمامها من المشاة الرومانية حتى تمكنت فى نفس الوقت من الاتصال بالخيالة النوميدية واتجهت جميعاً لمهاجمـــة جيوش روما فى الخلف فاختل نظام الجانبين وبدأ الاضطراب فى الصفوف وهرب قائدهم تاركا مصير المعركة فى يد هنيبال ، الذى بادر إلى الصفوف الأمامية للاستفادة من الموقف والذى لم تشغله مفاجأة الخصم بهجومه الأول على القلب عن الحركة فأبقى جناحيـه على تعيئتهما الأولى مستنداً على قوتهما وعلى السرعـة فى الحركة عند ما يشاء واستعمل الحيلة فى الدور الأول من المعركة بالتراجع فى القلب وهو تراجع مصطنع .

ثم عالج الخصم بالمفاجأة غير المنتظرة فى الساعة التى اقتنع فيها بالنصر وكان هجومه من الجانبين شديداً لدرجة أدخلت الهلع والفزع .

وجاء اسدروبال القرطاجنى فجعل الهزيمة التى حلت بالرومان نكبة حينما

ظهر بفرق خيالته التى أطبقت عليهم من المؤخرة وقطعت خطوط مواصلاتهم .

يقول الكتاب العسكريون إن نابليون وجد نفسه يعالج نفس الموقف الذى كان فيه هنيبال : كلاهما يريد الدخول فى المعركة والالتحام وكل منهما يخشى التصادم ولا يقدر على المناجزة ولا يستطيع أن يدفع بالهجمة الأولى لما به من قلة عددية أمام خصم يفوقه عدداً وأهبة وتعبئة . فكان من كل منهما أنه تمهل خصمه ينتظر ما يبدو له من أخطائه ، فترك كلاهما للخصم فرصة ابتداء المعركة وخاتله مخاتلة بادعاء الهزيمة وتمكينه من نصر عاجل ، وفى اللحظة التى داخله فيها هذا الغرور أطبق عليه من الجانبين فإذاً به يسحق بين فكى الكماشة التى كانت مكونة فى معركة « كان » من الجناحين لجيش قرطاجنة . أما فى « اوسترلتز » فقد لعب الجناح الأيسر لنابليون الدور الأول وقامت مستنقعات وأوحال تلينز وسوكولونيتز التى حالت دون تقهقر النمساويين بالعمل الذى كان يجب أن يقوم به الجناح الأيمن لجيش نابليون .

ثم وقف هنيبال وقفته التى قضت عليه ، إنها وقفة المتردد الذى يحجم ولا يقدم ، وهنا استعجله للعمل أنصاره وأتباعه ، وطلبوا إليه أن يسير بكتائبه فى أثر فلول الرومان الهاربة ، ولما لم يجد إلحاحهم شيئاً صاحوا به « إن أمامك خمسة أيام لتدخل روما وتقتحم أسوارها ، فتفتح لك أبوابها وتجلس مجلس الحكم فى الكابيتول ، ويخضع لك قناصلها ويحكموك فيما شجر بينهم ويسلموا تسليما يا هازم الرومان وجحافلهم فى عشرين معركة » .

ولكن القائد القرطاجنى أسكتته الأقدار وأبت عليه أن يفتح فاه أو يبدى سبباً معقولا لتردده وإحجامه فتقدم إليه القائد « برقة » ومعناه الصاعقة فى لغتهم وأسمعه أغلظ العبارات وسط جموع القواد إذ قال : « إنك يا هنيبال تعرف كيف تنتزع النصر فى ساحات القتال ولكنك تجهل كيف تستغل نتائج ظفرك ونصرك ! » .

ونجت روما من هوان الهزيمة والاحتقار والزوال . ويقول مؤرخوها أن أهلها نسبوا نجاتها إلى معجزة خارقة وقوة سماوية لا تقهر وتداولوا فيما بينهم وفى محافلهم أن آلهة روما قد غمرت المدينة بعطفها وكلأتها بحمايتها ووقتها من شر يوم مستطير .

ومع هذا بقى اسم هنيبال لنا معاشر أهل الشرق العربى ليمثل لنا ولأحفادنا وللأجيال القادمة ، القائد العبقرى الخالد .

بادليو... فى الحرب الحبشية

وقع بين يدى أول أمس ملخص كتبته عام ١٩٣٧ عن مذكرات الماريشال بيترو بادليو القائد الإيطالى عن حرب الحبشية . وضع القائد مذكراته فى كتاب عقب دخوله مدينة أديس أبابا ، وقدمه إلى الزعيم موسولينى ، وكان هذا كافياً أن يثير رغبتى فى الاطلاع عليه بعد أن قضيت الشهور فى قراءة خطب موسولينى ومقالاته . ويعترف صاحب الكتاب بأن ما كتبه لا يعد تاريخاً رسمياً للحرب لأن هذا التاريخ يتطلب مجهوداً طويلا وجمع معلومات متفرقة ، ولا ينتظر الفراغ منه قبل سنوات عديدة . ولكن الكتاب مقتصر على مجرد سرد لحوادث القتال فى أثيوبيا ، كما كانت تبدو لبادليو القائد العام الإيطالى ، وهو ينظر للحوادث من قمة عالية ، فهو يعرضها بطريقة إجمالية عامة كما يراها بنظرته الشخصية كانسان ، فيشرح الحرب وأدوارها كما كان يراها فى مركز قيادته ، وهو لا يتأخر أن يكشف عما كان يجول بخاطره ، من إقدام وتردد ، ويعرض علينا بصراحة طريقة تفكيره . وتطور هذا التفكير ثم مسايرته للحوادث . وقال إن الفكرة الأولى التى أوجدها وألزم نفسه بها هى إحراز النصر على أى وجه يكون ، فكانت هذه الفكرة راسخة لديه رسوخ العقيدة التى تسلطت على لبه ، وكان يستمد منها دوافع العمل والتصميم والأخذ بالقرارات الحاسمة السريعة ، فلم تفارقه هذه العقيدة فى أشد الأوقات والأزمات ، وانتهى بها إلى قيادة القوات التى وضعت تحت إمرته بالنصر والظفر إلى النهاية .

ويقول بادليو فى كتابه : « لعل أعظم ما واجه المسئولين عن قيادة الحرب الحبشية ، هو ضرورة الحصول على نصر سريع حاسم بأقصى سرعة ممكنة ، لأن

عامل الزمن كان يعمل ضد إيطاليا » وقد كتب موسولينى فى مقدمة الكتاب ما يأتى : « إن غاية كل حرب هو إحراز النصر ؛ أما الحرب الحبشية فكانت تستلزم فوق هذه النتيجة الحتمية أن يكون إحراز النصر كاملا فى غير إبطاء أى بسرعة فائقة » .

والمتتبع لحرب فلسطين يتفق معى فى أن إحراز النصر فيها كان يستلزم السرعة الفائقة والوصول إلى احتلال أكبر مساحة فى أقصر وقت ممكن ، وهذا ما لم يلتفت إلى تحقيقه المسئولون عن حملة فلسطين .

ويقول بادوليو إنه تولى القيادة فى ١٥ / ١١ / ١٩٣٥ ودخل عاصمة الحبشة فى ٥ / ٥ / ١٩٣٦ فكأنه لم يأخذ فى العمليات التى قام بها سوى ٤ أشهر وأيام معدودات .

وللوصول إلى نتيجة مثل هذه حشدت إيطاليا أكبر قوة عسكرية فى القارة الإفريقية إذ جمعت ٣٠٠ ألف مقاتل إيطالى و ١٠٠ ألف عامل وقوة من الطائرات عمادها ٤٠٠ طائرة كما جمعت أكثر من ١٠٠ ألف من الجنود الإفريقية الملونة (السمر والسود) — وكانت العمليات الحربية التى قامت بها تمثل فى اتساعها وتفرعها أكبر حرب للاستعمار رأتها القارة السوداء حتى ذلك التاريخ . فإذا أضفنا وسائل الفن الحديث للقتال وسوق الجيوش وتعبئتها ونقل المؤن وإنشاء الطرق جاءت هذه الحرب بمثابة فتح جديد للحروب الإفريقية .

ولهذا فإن الدراسات التى قامت على معارك حرب الحبشة كانت ذات أهمية خاصة ، ولا أتهم بالمبالغة إذا قلت أن قواد الحلفاء الذين خاضوا غمار الحرب العالمية الثانية استفادوا كثيراً من دروسها ، ثم أقول أنه من دروس الحرب العالمية الثانية ومعاركها فى القارة الأفريقية ما يدعو أيضاً إلى الاستفادة من ناحية الاستعداد للحرب ووضع خططها فى المستقبل : لأن عمل كل فئة استفاد منه من جاء بعدهم وهلم جراً ..

ولقد تبين لى من الأطلاع على ما كتبه بادوليو أن إيطاليا كانت تضع الخطط منذ سنوات طويلة للحصول على النصر فى الحبشة فى حالة اشتباكها بالحرب معها — ولقد أخذت أهبتها منذ سنة ١٩٢٥ فبدأت تعيد النظر فى أنظمة الجيش وتهيئة قواتها العسكرية بالمستعمرات .

واختارت لاتمام هذا العمل الابتدائى نخبة من ضباط الجيش الذين يعملون بهدوء وصمت : ومداومة وعناد .

وكان أول ما اهتمت به فى نظامها الابتدائى العسكرى تكليف وزارة الأشغال العامة بإنشاء شبكات محكمة لطرق المواصلات فى ارتريا والصومال توصل إلى الحدود الحبشية .[1]

وكان الاتصال دائماً بين رئيس هيئة أركان حرب الجيش الإيطالى ووزارة الخارجية مباشرة ، ولما تولى بادوليو هذه الرياسة كان يخوّل إليه حق الاطلاع باستمرار على دقائق العلاقات السياسية وتطورها بل كان يؤخذ رأيه فى أهم ما يدور البحث فيه بين بلاده و إمبراطورية النجاشى .

وكان من واجبه أن يرقب بانتباه وعناية تامة كل حركة يقوم بها النجاشى لتنظيم بلاده سياسياً أو محاولته تركيز السلطة فى يده ، وكان من أهم ما تخشاه إيطاليا هو أن تنجح الحبشة فى مشروعها الذى يرمى لإيجاد جيش منظم على الأساليب الأوروبية ومزود بالأسلحة الحديثة ، فينتهى النجاشى أن يوفق فى الاستفادة من مزايا وصفات قومه الحربية وطبيعة أرض بلاده .

وكان الحبشة خالية تماماً من تلك الطبقة الممتازة من الضباط الوطنيين الذين يفكرون بتفكير الأوربيين أو يعرفون طرق الحرب الحديثة وخاصياتها وماتتطلبه من فن ومقدرة ، وما تستلزمه من نظرة نافذة واعية ، حتى يتمكن أصحاب هذه المهنة من وضع الخطط الحربية وتنفيذها .

---

(١) سبق لى تنبيه السلطات المصرية بتقرير مفصل عن ذلك أرسلته إلى وزارة الخارجية .

ويذكرنى هذا بما قرأته عن كلام مصطفى كمال الزعيم التركى الذى أسند أسباب نهضة تركيا الحديثة إلى تلك النخبة من الضباط العظام الذين لولا نظرتهم الإيجابية لضاعت بلادهم كما ضاع من قبل استقلال بخارى ومراكش وتونس ومصر : فهذه النخبة من الضباط الذين يجمعون بين العلم والفن العسكرى الأوربى ، والجرأة المستمدة من الشعور القومى هى التى كان بوسعها إنقاذ البلاد ، وهى التى اطمأنت إيطاليا من عدم وجودها ولم يكن هناك من يحل مكانها لأن إدراك الساسة الملكيين للأمور محدود ، ونظرتهم قاصرة وكل هذا يبعدهم عن فهم الحقائق وضرورات العصر الحالى فكانوا يحضرون أنفسهم للهزيمة والإبادة .

ويقول بادوليو أن النجاشى أخذ فى السنوات الأخيرة يلجأ إلى الاستعانة ببعض الاخصائيين من الأجانب الذين لبوا دعوته وقاموا يرسمون له الخطط ، فاشتد قلق السلطات الإيطالية خوفاً من أن تستعد الحبشة عسكريا تحت إشراف هؤلاء الضباط الأوربيين — فتنشئ لها جيشاً وطنياً قد يقف عقبة فى سبيل أطماع إيطاليا أو يزيد مشاكل الفتح وتكاليف الحرب القادمة . ولذلك رأت الحكومة الإيطالية أن الساعة قد أزفت لمواجهة المسألة الحبشية بالفصل فيها قبل أن يستفحل أمرها : وأن تضرب الحبشة ضربات حاسمة وبسرعة لكى تضمن تصفية هذه المملكة تصفية نهائية وبطريقة لا تمكنها من القيام مرة أخرى .

ويستمر بادوليو يحدثنا عن الحبشة فلا يستهين بها وإنما يقرر أن المعلومات كانت تصل إلى إيطاليا باستمرار من أنحاء البلاد المختلفة عن كل صغيرة وكبيرة فيها . وقد أدى جمع هذه المعلومات وتصفيتها بيد الخبراء إلى أن أثيوبيا بوسعها أن تجند قوة محاربة تتراوح بين ٢٠٠ و٢٥٠ ألف مقاتل وأن تحشدها فى الجبهة الشمالية وأن تسوق قوة أخرى تتراوح بين ٨٠ و١٠٠ ألف مقاتل لجبهة الصومال الإيطالى وفى طاقة البلاد تكوين احتياطى من القوات المقاتلة لشد أزر الجيشين : أما من ناحية التسليح فقد أتت الأخبار الموثوق بها تقرر أن القوات مزودة

بأسلحة حديثة خفيفة ولـكنها من عيارات وطرز مختلفة مما يسهل وقوع الأخطاء في استعمال الذخيرة : (يلاحظ أن الدول الغربية كثيراً ما تلجأ إلى هذه الوسيلة بالذات لعرقلة القوة المقاتلة لدى الأمم الشرقية وهي : ناحية تعدد أصناف الذخيرة وتعدد أنواع الأسلحة المختلفة العيارات لما يلازم هذا النوع من إخطاء في توزيع الذخائر على الوحدات المقاتلة) .

وجاءت إلى رئاسة أركان حرب الجيش الإيطالى معلومات دقيقة عن كافة أنواع الأسلحة التى شحنت فى السنوات السابقة للحرب من مدافع و بندقيات رشاشة وأسلحة للمشاة ، وعدد الطائرات والسيارات المدرعة وما جاء للمدفعية من مدافع ميدان ومدافع مضادة للطائرات — مما أمكن أن يعطى فكرة عن محاولة إنشاء قوة من المشاة على الأقل منظمة على الأسس الأوروبية .

ولـكن المطلعين على الشئون العسكرية كانوا على ثقة تامة من عجز الحبشة عجزاً تاماً وعدم قدرتها على توجيه أية حملة كاملة الأهبة والاستعداد لاكتساح إحدى المستعمرتين الإيطاليتين . وذكر بادوليو تبريراً لهذا العجز سببين أساسيين الأول مادى راجع إلى طبيعة الأراضى وخلوها من طرق المواصلات التى تسهل الحشد وتمكن من سوق الجيوش وحشدها فى أماكن التجمع اللازمة لها .

الثانى أنه إذا وجدت هذه المواصلات فالبلاد مفككة داخليا وظروفها السياسية والاجتماعية لا تمكنها ، من أخذ هذا العبء عليها . وأخيراً فهى خالية من كل المسائل المادية والأدبية التى تجعل تجهيز هذه الحملة موضع تفكير .

إذن فهو مطمئن إلى أنه صاحب اليد الأولى فى توجيه الحرب الموجهة التى يريدها وهى بطبيعة الحال ستكون هجومية من جانبه ، دفاعية من الجانب الآخر .

ولن تكون حرباً ثابتة وراء الأكمات والحصون والخنادق بل ستكون حرب حركة فى أعلى مظاهرها فهى فى حاجة إلى إحكام التدبير والخطط وستحتم

احتلال أماكن بعيدة والتوسع فى الزحف بشكل غير معهود فى السابق بل تفرض أشغال العدو وأحكام المباغتة والاستعداد لأخذ القرارات السريعة الحاسمة وما يستلزم ذلك من الجرأة والثقة فى النفس حتى يضمن القائد سرعة التقدم وضمان الوصول إلى الهدف المعين فى الوقت الذى تحدده القيادة العامة .

لهذا كله يشير بادوليو فى القسم الأخير من كتابه إلى أن أول أمر تستلزمه حرب الحركة والاكتساح هو إيجاد قواد أكفاء ذوى شجاعة للاضطلاع بالمسئوليات الكبرى وليس من السهل العثور على هذه الفئة الممتازة فى أى جيش أوروبى إذا لم يدرب أفراده من المبدأ لهذا الغرض وتعطى لهم حرية واسعة للعمل وقت التدريب وأن يكون الاختيار منصباً أولا على الكفاءة والاستعداد والموهبة فليس كل ضابط يصلح لهذا الاختيار وليس كل قائد لديه الاستعداد الشخصى لمثل هذه الأعمال .

وقد نجح بادوليو فى إيجاد قوة من الضباط الأكفاء من الناحية الفنية أى فى القيادة وفى وضع الخطط للتعبئة وسوق الجيوش ، وقد أشرف بنفسه على امتحان معلوماتهم وعرف عن كثب مدى إدراكهم للأمور ، ولذلك مهّد لهم طرق الاشتراك فى الحرب الحبشية مشيراً إلى أنها الفرصة الوحيدة التى سنحت لهم لإظهار صفاتهم العسكرية الممتازة ومقدار ماوصلوا إليه من معلومات وما أتقنوه من فن حربى

وأشار إلى ما لازم إيطاليا من توفيق فى تموين جيشها « بكادر » أى مجموعة هائلة من ضباط الصف الذين لهم دراية خاصة ومقدرة على فهم التنظيم والعمل بوحيه وروحه وهى صفات تستلزم المران الطويل ويخلقها ويبرزها التدريب الفنى والتربية العسكرية المبنية على أداء الواجب: وقال أن هذا الكادر هو عدة الجيوش المحاربة .

وهكذا استمر الماريشال الإيطالى يحدثنا بأسلوبه الشيق ويقول إن الحرب الحبشية كانت تجربة ولكن قاسية ودخلتها دولته وخرجت منها منتصرة بفضل

العناية التى بذلت فى رفع مستوى الجنود والضباط على السواء . وقال أنها كانت فى وجهة نظره مواجهة المجهول والتغلب على أشياء غير منتظرة ، ولا مفروض وقوعها . وكان كقائد واقعاً تحت تأثير الزمن كعامل فعال فكان يطلب إليه إتمام عمل معين بأقصى مايتطلب من السرعة وفى أقصر وقت ؛ وكان يضع خططه ويجهز نفسه لسوق وحدات بقصد احتلال مراكز معينة ، فتصدر إليه أوامر من روما بتغيير الخطة والسير بغير إمهال لناحية ، فكان يلبى هذا الأمر ولكنه يسير بوحى نفسه فلا يغير خطته الأولى متحملا المسئولية إلى النهاية .

قال إن أكبر عوامل النجاح هو التنظيم الذى مكنه من عمل المستحيل والذى بدأ بتفريغ ونقل ملايين الأطنان من الذخائر والمؤن فى بلاد لم تستعد لتلقى هذه الكميات الهائلة من العتاد ، ثم سار فى التغلب على الطبيعة بإنشاء الموانى والأرصفة والطرق والكبارى وتحريك نصف مليون رجل ودفع ملايين من الدواب وآلاف السيارات . كانت الحرب آلة محكمة الوضع ، ولذلك تغلبت على العقبات وأخضعت الطبيعة . وتلمح من ثنايا كلماته : أن إرادته تغلبت فى النهاية على أوامر روما وما تحمله من متناقضات وجهل بشئون الميدان ، وقرر أن مثل هذه المصاعب أولى مظاهر المشاكل والمتاعب التى تواجه القائد فى الحروب والتغلب عليها أول مظهر لصفات القيادة الحاسمة الجريئة التى إذا وضعت الأقدار بين يديها مقدرات المعارك والحروب فعليها أن تستفيد منها و إلى النهاية وقال :

«إن الأقدار تأتى بها مرة واحدة فى حياة الشعوب والقادة ولن تتكرر مرة أخرى فمن العبث التردد والوقوف والتراجع إزاءها لأنها تخضع المثل اللاتينى القائل» :

Audaces Fortuna Juvat

إن الحظ يبتسم دائماً لأصحاب القلوب الجريئة والعزائم الصادقة

المشاة ملكة الجيوش
بحث فى خاصياتها وعملها فى الحروب

ليس هناك أعظم ولا أدعى إلى الفخر والمجد من دولة
تملك أكبر عدد ممكن من الجنود المدربة على الحرب .

١ — المشاة هى الأمة :

المشاة صورة مصغرة للأمة المأخوذة منها تظهر فيها المميزات الجديرة بالإعجاب فى هذه الأمة ، فإذا اجتاحت البلاد الصدمات العنيفة أثرت كل صدمة فى نفسية المشاة وكان لكل منها رد فعل فى أفراد جماعاتها يؤثر فى روحها المعنوية وفى قيمتها العسكرية . وإذا جد الجد وانتابت الأمة الحوادث الجسام لا تلبث أن تظهر الصفات الخلقية الكامنة فيها والمتوارثة عن الآباء والأجداد — خصوصاً إذا كانوا أهل كفاح وجهاد وقتال ، أقول لا تلبث الصفات العظيمة أن تبرز فى صفوف المشاة قبل أى سلاح آخر من أسلحة الجيش المختلفة وتجبّ كل العوامل الأخرى بل تغطى أحياناً على الأنظمة التى يخلقها رجال الجندية . فالمشاة دائماً تعبر عن وجه الأمة الصحيح وتستوحى من مزاياها الخلقية المنحدرة من سنوات العراك السالفة ومن الدماء التى أراقتها الأمة منذ أجيال فى سبيل المجد والعظمة .

٢ — استقلالها :

المشاة هى السلاح الوحيد بين أسلحة الجيوش الذى كان يعد نفسه ولغاية هذه الحرب القائمة — مستقلا لحد ما عن غيره ذلك لأن جندى المشاة غير مرتبط بجواده

كجندى الخيالة ولا بمدفعه كجندى المدفعية ولا بدبابته كجندى الدبابات — بل هو جندى يعتمد على نفسه منفرداً وعلى زملائه وعلى قائده قبل أن يرتبط بالآلة التى يستعملها أو تنقله من مكان لآخر :

مميزاتها :

جنودها قادرة على المبادرة والزحف ودخول المعركة والتلاحم والتغلب على المصاعب واقتطاف ثمرة الغلبة والنصر واحتلال الأراضى المنتزعة ثم المحافظة علي ما اكتسبته من المواقع وحمايتها . وكان بوسعها أن تقوم بكل ذلك أو بعضه وأن تتمه بمساعدة غيرها من الأسلحة ولكن هذه الأسلحة المختلفة لا يمكنها أن تفعل ذلك منفردة بدون مساعدة جندى المشاة ووحدات المشاة التى هى ألزم لها من غيرها قبل الاشتباك وبعده وفى إبان المعركة وعند اختتامها .

٣ — سيدة المعارك :

فهى كما أعرب هندبرج أكبر قواد الحرب الماضية حينما سئل فى مستقبل الطيران وإدخال الأسلحة الحديثة عن رأيه فقال « إن كل معدات الدمار ووسائل النقل بما فيها الطيران قد أعدت لخدمة المشاة التى كانت دائماً وستبقى ما دام الإنسان إنساناً سيدة المعارك » ولم يفقد هذا الكلام أهميته إذا نظر إليه بأن هذه الحرب لم تمكن سلاحاً جديداً من كسب معركة وحده ولكنها لم تترك المشاة كما كانت فى الماضى إذ شاركها فى بعض هذا الشرف غيرها من الأسلحة الأخرى مع بقائها سيدة المعارك والحروب .

٤ — عمادها الجندى :

ذلك لأن كل سلاح مرتبط بآلته . أما المشاة فعمادها الإنسان وروحه المعنوية ونفسيته وأعصابه فهى تشتبك فوق كل أرض وجبال وصحراء ومستنقع وفى كل وقت نهاراً وليلا تحت أشعة الشمس المحرقة أو الضباب والجو القاتم أو تحت وابل

من الامطار والقذائف أو تحت صيب من القنابل الملتهبة والمتفجرة .

٥ — جندى المشاة :

أن هذا الجندى الذى يغطى رأسه بخوذة من الصلب المنيع ويضع على صدره كمامة يستعملها لتقيه عند اللزوم من شر الغازات الخانقة ويحمل على ظهره حوائجه وعتاده هو جندى المشاة سلاحه البندقية العادية أو البندقية الرشاشة ويحمل بوسطه حربته معلقة بحزامه من ناحية وآلات الحفر من ناحية أخرى وبين ذلك أكياس الذخيرة وآلة قذف قنابل اليد تلك صورته فى كل جيوش العالم المقاتلة . يدل مظهره على أنه قد أتم تدريبه فهو مستقيم القامة عريض الأكتاف تام النمو قوى العضل غير منحن الظهر يسير بخطوات ثابتة . ترى سيماء الرجولة والجرأة والإرادة ماثلة فى وجهه وترتسم فى عينيه علائم التصميم والطاعة ذلك لأنه تلقى تدريباً تاماً يجعله قادراً عقلياً وجسمانياً على أداء واجبه واستعمال أسلحته إذا أمر بذلك . وهو يكون من شخصيته وحدة قائمة على حب النظام وتقديس الأمر وإطاعته أمام ضابطه وبحضور زملائه — تتجه أنظاره دائماً إلى من هو موكل بقيادته منتظراً منه طرفة عين ليقوم بتنفيذ أمره أو فهم ما يجول بخاطره وهو لن يتغير سواء أكان فى السكنة أو فى إبان المعركة أو إذا انفرد وحده لمواجهة العــدو . لا يعرف شيئاً ولا يسلم بشىء غير أداء الواجب وإلى النهاية ، له أعصاب هادئة لا تضطرب أمام الخصم ولا تهتز بسماع أصوات المدافع إذا قصفت ، ولا أزيز الطائرات إذا زمجرت ذلك لأنه تخرج من مدرسة تهزأ بالأخطار وقد أوصلته إلى السيطرة على نفسه فأماتت صغائر الغرائز ومواضع الضعف التى فى الغير ومكنته من مواجهة أشد المواقف هولا وعودته تلقى الأوامر وتنفيذها بلا تردد ولا تأفف فى وسط النيران وعند الخطر ومرنته أن يقود زملاءه إذا فقد ضابطه وأن يقود نفسه إذا فقد زملاءه .

٦ — تربيته وتدريبه :

ولقد تربى جندى المشاة على تحمل التعب والسير على الشاق بالحرمان وأن يقابل الخطر بنفس مطمئنة هادئة وروح معنوية عالية كما قد أشرب وأخذ نفسه على أن يضع ثقته و إيمانه فى رؤسائه ومن هم أعلا رتبة منه ثم فى زملائه فى وحدته . هذا هو جندى وحدات المشاة من المقاتلة وما يجب أن يكون عليه من الأهبة النفسية وصفات الجندية وهى صفات تنطبق على غيره من جنود الأسلحة ولكن رأينا أن نضعها هنا لأنه كما قلنا عنوان الجيش ومظهر استعداد البلاد للتضحية .

٧ — الخاصيات العامة للأسلحة :

يتكون كل جيش من عدة أسلحة . سلاح المشاة وسلاح الخيالة وسلاح المدفعية وأصبح الآن لدينا سلاح المهندسين والإشارة والسيارات والمدرعة والمصفحة والدبابات والطيران وغير ذلك ويلزم لفهم هذه الأسلحة الإلمام بالخاصيات العامة وهى التى تنطبق عليها جميعاً قبل الدخول فى خاصيات سلاح المشاة وهى :

١ — قدرة هذا السلاح على الحركة (Mobilité).

فنفهم مدى سرعته للانتقال على الطرق المعبدة وغير المعبدة وعلى الأرض المنبسطة والأرض الجبلية وعلى السير ليلا ونهاراً وضبط كل ذلك بالزمن والدقة المطلوبة .

٢ — احتمال هذا السلاح للعراك والمصادمة ومقدار مقاومته وتأثيرها فى حالة الاشتباك أو فى حالة السير ومقدار الزمن اللازم للانتقال فى حالة السير إلى موقع القتال .

٣ — قياس قوته المدمرة فى الأحوال جميعا .

٤ — مرونة هذا السلاح ومقدرة وحداته على التجمع والتعبئة بأشكالها ومعرفة الزمن الضرورى لكل عملية من هذه ثم للزحف بمعداته وتشكيلاته حتى وصوله إلى ساحة العمل ثم مقدرته على تغيير وجهة السير من جهة لأخرى تحت تأثير طبيعة الأرض وتحت ضغط المؤثرات الجوية .

* * *

فهل غيرت الحرب الأخيرة أشياء من هذه هذه الخاصيات ؟ لا ! لقد أثبتت تجاربها أن المشاة لا تزال كما قلنا سيدة المعارك ، بل جاءت الأيام فأخرجت من صفوف المشاة : كتائب الفدائيين ثم وحدات جنود المظلات ، وسيسير المستقبل ليؤكد معنا دائماً بأن المشاة هى دعامة الجيوش .

خطرات فى الحرب..

تعاريف أولية

الحرب نضال بين إرادتين ، على رأس قوتين مسلحتين فى حالة تصادم ، إذا وهنت إحدى الإرادتين أو تطرق اليأس إليها ففقدت الأمل فى الغلبة والنصر كانت الهزيمة عاقبة لها . كان على بن أبى طالب بطلا من أبطال العرب . قال يوماً مخاطباً جنوده : « فسوّوا صفوفكم كالبنيان المرصوص وقدموا الدّارع . . واستعينوا بالصبر والصدق فإنه بقدر الصبر ينزل النصر » . وهذا القول الذى صدر منذ ١٣ قرناً يصدق عن الحرب فى مجموعها إلى اليوم ، لأن العوامل النفسية هى أول ما يساعد على النجاح فى الحروب وإحراز النصر فى ميادينها . وعليه يكون الأساس الأول الذى تبنى عليه تهيئة الأمة لحمل السلاح هو العمل على غرس الروح العسكرية فى نفوس أفرادها وتربية قوة الإرادة والثبات فيهم مع الثقة فى النفس ، والاستماتة فى الدفاع ، وتعويدهم الإقدام والجرأة لمواجهة الأخطار وتحمل المتاعب والمشاق . والمعركة فى صورتها البسيكولوجية جهاد نفسى بين قائدين . والجيوش المتلاحمة يمثل كل منها آلة محكمة التركيب والوضع ، خاضعة لسلطة وحدة واحدة . والغرض من تنظيم الجيش وتقسيمه إلى فرقة وسرية وكتيبة (أى فرقة وبلوك وأورطة) ، هو إحكام سير هذه الآلة وجعلها جسما حساساً مثل جسم الإنسان بنظامه العصبى : الرأس تحرك كل طرف فيه وتشعر فى الوقت نفسه بما يمس أو يصيب أى عضو فيه .

كذلك الجيش مع رئاسته . فبالتدريب والضبط والتنظيم ، تصل إرادة القائد من أعلى إلى أسفل متدرجة من ضابط إلى ضابط حتى تصل إلى الجندى

البسيط الواقف فى الصف الأمامى ، فى مواجهة العدو . وإرادة القائد هى مركز التحريك والقيادة والسوق والتجميع . فهى التى تصدر الأوامر بجمع الوحدات ونقلها وتوزيعها وتحرك القوات والأسلحة المختلفة ، وتعبئتها فى أماكنها ثم توحد مجهوداتها وترسم لها أعمالها وطريقة مساعدة بعضها لبعض ، وفى النهاية تسيرها متكاتفة متعاونة نحو الهدف المقصود .

ويضع القائد قبل التلاحم أو الاشتباك فى القتال خطته التى يحكم تفاصيلها ودقائقها . فإن أتمها وأخذ بها عليه أن يتبعها دائماً فلا يخرج مطلقاً عن دائرتها ، فإذا سببت الظروف أو ألجأته الحوادث أن يحيد ولو مؤقتاً عنها فمن واجبه أن يعود فى الحال إلى اتباعها . . وإذا دخل القائد المعركة أتته المعلومات وأخبار الحوادث أولا بأول ، تترى من كل جانب ، فيشرف على سير الحركات الحربية وعلى تطور أدوار القتال ويراقب تنفيذ أوامره وتأثيرها ونتائجها . ولكن أهم عامل فعال بين يديه هو أنه ، رغم اشتباكه ، لا يزال يسيطر على اختتام المعركة ونتيجتها بقوات الاحتياطى التى يحرص كل الحرص على الاقتصاد فى استعمالها وإن تكون مؤلفة من قوات كاملة العدة والعدد ، قوية نفسياً ومستريحة جسمياً . فإذا أذنت الساعة الفاصلة دفع بها جميعاً نحو العمل بغير تردد ولا أحجام حتى لا تفلت من يديه فرصة إحراز نصر كامل بمعنى الكلمة والنصر فى نظر الفلسفة يتم إذا تصدعت بالقوة ووهنت إرادة الخصم . ولكن الحرب كما سنرى عمل وحركة ونتيجة ، فما يصلح للتعارف عليه بين الفلاسفة لا يقنع العسكريين . ويقول بعضهم : النصر يتحقق بإبادة قوى العدو الرئيسية فى الميدان ، وهذا أيضاً لا يكفى لتعريف معنى النصر الحربى تماماً . فالنصر يتحقق بتدمير العدو والقضاء عليه وهذا يتطلب إبادة قواه الرئيسية وتشتيت وحداته المجمعة وإصابته مادياً بإسكات بطارياته وتحطيم استحكاماته وافناء قوة المقاومة وروح الدفاع التى لديه وللوصول إلى هذه النتيجة يجب أن تتملك إرادة القضاء على العدو ، عقيدة القائد

(١) راجع مؤلفات وزارة الحربية المصرية .

الذى يحرك الجيش ، ورأس الجندى الذى ينفذ الأمر الصادر إليه بالتقدم ، وتفكير المهندس الذى يخترع ويبتكر آلة القتال من سلاح وطلقة . وإذا تحقق النصر نحدد مداه وقيمته وأهميته حينما نعرف عدد قوات العدو التى أبيدت أو أسرت أو تشتت ، ونقارنها بمساحة الأرض التى انتزعت عنوة منه مع أهميتها من جهة مواردها الاقتصادية وما عليها من طرق المواصلات والنقل وطبيعتها الطبوغرافية أى من ناحية جبالها وأنهارها وتضاريسها الأرضية ومقدار صلاحيتها للدفاع والهجوم .

أركان وضع الخطط الحربية .

إذا رجعنا إلى تاريخ الحروب والمعارك الخالدة التى اكتسبها كبار قواد العالم لا نجد أن أحداً منهم قد حصل على كل ما يبتغى من العناصر الأساسية التى تجعل النصر نتيجة محتمة أمامه ، قبل اشتباكه فى الحرب . ولذلك لا ينتظر أى قائد ما فى حياته العسكرية إذا دعى يوماً لوضع خطة حربية أن يساعده الحظ فيجد بين يديه كل ما يتطلبه وضع خطة من قواعد ومعلومات تامة عن العدو وحركاته لكى يصل إلى وضع تصميم يستحق أن يوصف بالكامل .

ولكن لكل خطة أركاناً وعناصر أساسية ، وهى وإن بدت لأول وهلة بديهية ، إلا أنه يجب على القيادة دائماً الأخذ بها فى تقرير الخطط والتصميمات وبحثها ودرسها قبل أخذ قرار للعمل ، وهذه الأمور يمكن إرجاعها من جهة طبيعتها إلى ثلاثة أقسام : (١) حقائق (٢) فروض (٣) استنتاجات .

١ — الحقائق : هى الأمور الثابتة المعلومة لدى القيادة علماً تاماً وهى :

(١) الغاية أو الغرض النهائى الذى يعمل القائد لتحقيقه : أى أن كل خطة أو تصميم يجب أن يرسم له هدف يرمى القائد للوصول إليه .

(٢) العمل الذى يوصل إلى تحقيق هذا الغرض .

(٣) عدد الوحدات والأسلحة التى تعمل تحت قيادته .

(٤) مراكز الوحدات والجهات التى تعمل فيها ونقط تجمعها ومقدار ما لدى كل منها من المؤن والذخائر .

(٥) حالة الجنود المعنوية وحالة المهمات والأسلحة ووسائل النقل الميكانيكى والدواب .

(٦) طبيعة الأرض التى يعمل الجيش فيها ، لمعرفة ما يعترض الجنود من مصاعب وما يواجههم من تسهيلات ، كل هذا مع مراعاة طبيعة هذا العمل المنتظر القيام به وتقديرها .

الفروض : هى كل ما ينتظر القائد حصوله وتحقيقه ولكنه لا يجزم بتحديده ولا يحكم بصحته نهائيا .

الزمن والمسافة اللازمين للقيام بحركة ما وقت المعركة

يعرف القائد المسافة بين موقع وآخر والزمن للوصول إليه من خريطته ، ولكن وجود جيش معاد ينقل هذه المعلومات من حقائق إلى فروض لأن المراكز التى يحتلها العدو وحالته ومقدرته تجعل من العسير تحديد الزمن والمسافة والعمل بالضبط ، فإذن يلجأ القائد فيفرض للعمل زمناً ومسافة حسب الحالة التى يراها أمامه .

١ — المعلومات والأخبار : لا يسع القائد أن يأخذ المعلومات والأخبار التى ترد إليه كقضايا مسلمة خصوصاً إذا توالت الحوادث بسرعة ولكنها تعود فتسترجع قيمتها الاحتمالية حينما يتكاثر ورودها ويكون ذلك عادة إبان فترة السكون التى تعقب الاشتباك فى معارك — خصوصاً فى حرب الخنادق فإنها تصير حينئذ من الأركان التى تؤخذ فى الاعتبار عند وضع خطة جديدة أو أخذ قرار حاسم .

أما فى حرب العراء — أى التى تشتبك فيها وحدات عديدة على جبهة منبسطة حيث يسهل تحريكها ، فإن المعلومات تأتى فى كثير من الأحيان غير متفقة مع الحقيقة أو غير مفهومة فلا يمكن الاعتماد عليها لما تحمله من النقص والتشويه والمبالغة .

٢ — الاستنتاجات : وهى الأمور المحتملة الوقوع أى التى يتضور القائد حصولها فيستعد لها كيلا يفاجأ بحدوثها وهى :

(١) رد الفعل الذي تحدثه لدى العدو حركة حربيـة يقوم بها القائد . ويصعب التكهن بذلك واستنتاجه إلا فى حرب الخنادق حيث تثبت القوات فى مواجهة بعضها بعضاً ويمكن الحصول على معلومات أوفى .

(٢) تصميمات العدو وخطته وما ينوى عمله : ويمكن الوصول إلى استنتاج ذلك بالتحليل والاستقراء ودراسة المركز الذى يحتله العدو والطرق التكتيكية المعتاد لديه اتباعها .

هذه هى الأركان الأساسية التى تبنى عليها الخطط الحربية . والخطة التى توضع على هذا الأساس لا تكون قد خرجت بعد عن الحيز النظرى ولا تكون لها أية قيمة حربية إذا لم يأخذ القائد بالاعتبار الأول حالة الجنود النفسية التى يجب تعهدها وملاحظتها وتقويتها قبل الإقدام على أى عمل حربى .

ويتوقف نجاح أى خطة على مقدرة الضباط المكلفين بتنفيذها وكفاءتهم مما يستدعى ملاحظة وتدقيقاً فى تخيرهم وفى توزيع العمل أو تقسيمه عليهم كلا حسب كفاءته واستعداده لتنفيذ المعول القيام به .

ولا يغرب عن بال القارى أن الأركان التى ذكرناها ليست نهائية أو أننا جئنا بتعدادها على سبيل الحصر ، إذ قد يعرض فى سير الحوادث ما يفاجأ به القائد المسئول فيجب أن يمرن نفسه على الهدوء التام وأن تتملكه دائماً إرادة

قوية ورباطة جأش هائلة حتى يسيطر على السير بالمعركة رغم مايعترضه من المصاعب والمفاجآت ويجب أن يعرف كيف يجازف ولا يفقد أبداً غريزة الهجوم .

أصول الحرب :

لا يقتصر نشر الثقافة العسكرية بين رجال الجيش العامل وأفراد الأمة على إيجاد نخبة من الضباط القادرين على تحمل المسؤولية والقيادة بل يساعد أيضاً على توحيد وجهة نظرهم وتفاهمهم وتعاونهم وفى ذلك قوة عظيمة للبلاد .

وقد بنيت العلوم العسكرية على تجارب عديدة هى تراث القرون الماضية ، فهى علوم تجريبية وضعية غرضها الأول تربية النفس على النظام والطاعة وجعلها قابلة للعمل تحت خاصيات الحروب وطرقها وأساليبها المختلفة .

وأصول الحرب هى تلخيص المبادىء الأولى لهذه العلوم ويمكن اعتبارها كانموذج عند القيام بعمل من الأعمال الحربية وليس معنى ذلك أن تطبيقها يجعل النصر نتيجة محتمة لها واتباعها يخلق ظروفاً تجعل النصر أقرب إلى الوقوع كما أن مخالفتها أو الخروج عن قواعدها يخلق ظروفاً تساعد على الهزيمة.

وإذا كان الألمام بها ودراستها تفصيلا يعد علماً من العلوم الوضعية الثابتة القواعد فإن أحراز النصر بها يعد فناً من الفنون ، لأن تطبيقها فى الميدان وتنفيذها فى الحرب يحتاجان إلى شخصية مدربة على البصر البعيد فى الأمور وعلى مقدرة فى أخذ القرارات الحاسمة السريعة وهذه صفات يصل إليها الإنسان بالتدريب على السكينة وضبط النفس وتثبيتها لتقوى على مقاومة المؤثرات التى تهدم العزيمة : — هذه المؤثرات من طبيعة الوسط المحيط بكل قائد تسببها نفسية الضباط الذين يعملون معه أو تأتى نتيجة لحالة نفسية يخلقها العدو بتعمد فيها إذاعة أخبار كاذبة — .

فاعظم ما يصل إليه التعليم والتدريب العالى هو خلق هذه الصفات الممتازة فى نخبة من الشبان مدة دراستهم ثم تعهدهم بعد ذلك بالرياضة والتمرين حتى يعتادوا على تنميتها فى أنفسهم ويكون ذلك باتصالهم بالجنود اتصالا من طبيعته أن ينمى روح القيادة فيهم مع البصر والتدقيق النفسى بحيث يصلون دائماً إلى السيطرة على الحوادث وتنفيذ النصر بالعزيمة .

ونذكر فيما يلى فذلكة صغيرة عن أصول الحرب والمباديء العسكرية التى يصبح أن توضح كأنموذج أمام من يريد التوسع فيها .

١ — مذهب كارنو : كتب كارنو وزير الثورة الفرنسية وواضع أنظمة جيشها كتاباً تاريخياً إلى أحد القواد الذى كان يعمل على نهر الرين قال فيه . .

« إن ما يجب عليك عمله هو اجتذاب العدو إلى معركة كبيرة فاصلة يتحقق النصر فيها على سطح بلاده ، وأحذر أن تقف موقف المدافع فإن ذلك يقلل من من شجاعة جنودك ويزيد فى قوة خصمك » .

هذا المبدأ ظاهر واضح ويمكننا أن نذكر له لمثالين مأخوذين من تاريخنا القديم الخالد ، معركتين خالدتين من عصر البطل العربى عمر بن الخطاب .

(١) القادسية . . . وهى معركة فاصلة نهائية تحقق النصر فيها على أرض العدو وكانت نتيجتها تصدع ملك الأكاسرة النائمين وزواله .

(٢) اليرموك . . . معركة فاصلة نهائية تحقق النصر فيها على أرض العدو وكانت نتيجتها تحرير سوريا من ظلم بيزنطة المنحطة وفوضى حكمها وارجاعها إلى حظيرة الوحدة العربية التى سارت من نصر إلى نصر .

الأولى فخر لسعد بن أبى وقاص والثانية مفخرة لخالد بن الوليد وفى المعركتين تفوق الهجوم المستند إلى الصفات الأدبية على الجنود المرتزقة رغم تسليحهم .

٢ — تفوق الهجوم : هذا المبدأ أهم المبادىء الحربية .

لأن الهجوم له غاية وغرض معلومان وهو يرمى إلى تحقيق نتيجة معينة .

إذن إرادة القائد المهاجم ظاهرة بينه معروفة ، ينتج منها إزدياد الروح المعنوية والقوة النفسية فى جنوده وضباطه ، وتتهيأ له الفرص العديدة التى يمكن الاستفادة بواسطتها من أخطاء العدو . كما أن كل حالة محاطة بالابهام والغموض بين جيشين متقابلين يمكن إظهارها بالهجوم الذى يقوم به احدهما لأن الهجمات تجتذب إليها القوات المجمّعة التى يستفيد منها المهاجم بطريقة غير مباشرة إذ يصل إلى تحقيق حماية إجزاء من الجبهة كانت معرضة لهجمات قد يقوم بها العدو . وتزداد أهمية الهجوم ونتائجه كلما إزداد عدد الوحدات التى تشتبك فيه .

أما الدفاع فينحصر فى المحافظة على المواقع المحتلة والاحتماء والوقاية ، مما ينتج عنه الخضوع لإرادة العدو والتعرض له من جهة تسرب المعلومات والأخبار التى يستقيها ، والاضطرار للقتال فى ظروف غير مضمونة أو تعريض قوات كافية للتصادم مع قوات تزيد عليها فينتج من ذلك افناء جزء منها . أى أن القائد الذى يخضع لمثل هذه المؤثرات ، يسعى لتوجيه الاحتياطى الذى لديه وافنائه فى فى مناوشات وتعرضات[1] يغصبه الخصم عليها فيؤدى هذا فى النهاية إلى الضعف والجمود والاكتفاء بالموقف السالب الذى يسبب الهزيمة .

ففى هذه الظروف لا يمكن المـــدافع أن يثبت إلا بالقيام بالهجمات المضادة — إذا كان يملك قوات وافية — فإن الانتقال من الدفاع إلى الهجوم يخفف من عبء الدفاع كثيراً ، فإذا تبودلت أو توالت الحركتان واحدة بعد الأخرى فإن الأسلحة الأوتوماتيكية الحديثة تضمن لمدافع مستحكم فى مواقع محصنة دفاعاً طويلا ولو أمام قوات تزيد عدداً عليه .

٣ — ضرورة الوصول إلى نتيجة فاصـلة : قلنا أن الحرب حركة وعمل ونتيجة وأن الوقائع الحربية تستلزم أن يكون لها غرض أو نتيجة . فالقائد الذى يرسم ويضع خطته يجب أن يجعل أمام عينيه تحقيق نتيجة فاصلة ، فإن لم تـكن فاصلة فلتكن على الأقل ذات أهمية كبيرة فى سير أدوار الحرب .

(١) التعرض هو كل هجوم موضعى .

أما إذا اكتفى بالوصول إلى نتيجة قليلة الأهمية أى ثانوية بينما يكون العدو من جهته يسعى إلى تحقيق نتائج أخرى كبيرة ذات مرمى واسع فلا تلبث الحوادث أن تخيب ظن الأول ولا تمكنه من تحقيق غرض بسيط مثل الذى وضعه أمامه . كذلك الاقتصار على القيام بعدة مناوشات أو هجمات بسيطة لا يمكن اعتبارها حركة واسعة النطاق ، فهذه الهجمات لا يكون لها نتائج ملموسة ظاهرة تعادل ما تكلفه من الخسائر فى الرجال والذخيرة . ويركن البعض إلى استعمال طرق الحيلة والخدعة فى القيام بحركات لا معنى لهـــا فهذه سرعان ما يفتضح أمرها إذا تكررت وتفقد كل أهمية ولا تترك غير الأثر السيء والخسائر . وكل عمل حربى يقدم عليه القائد من غير أن يستعد له بالوسائل الكافية يحمل معه جرثومة الفشل كما أن الأوامر التى يصدرها بدون تمحيص ولا تثبت فيتضح عدم إمكان تنفيذها تعتبر إذا لم تطبق وتحقق أغراضها تعدياً على النظام فى الجيش فلتحرص القيادة العامة من إصدار مثل هذه الاوامر .

فاتباعاً لهذا المبدأ يجب الحصول فى المواقع الحربية على نتائج فاصلة ولتحقيق ذلك يجب الاستعداد واتمام الاهبة بوسائل كافية وعدم التراجع أمام الأخطار أو المشاق كما يلزم عدم التردد أمام ما ستكلفه هذه النتائج من الخسائر فى الرجال والذخائر — هذا مع التوجه إلى الحقائق دائماً فلا يتوهم القائد القدرة على انجاز أعمال تفوق الطاقة التى لديه ، أى يجب الموازنة بين الارادة والمقدرة .

٤ — المفاجأة : هى المباغتة فى العرف العادى ويكاد يتصور القارىء لأول وهلة انتظار جماعة من الناس لفريق فى كمين ثم مباغتتهم ، ويقول البعض فى كتبهم هى التفوق على العدو فى الحيلة والخدعة . وإنما المطلوب هنا هو الاستعداد للمفاجآت مدة السلم وقبل دخول فى المعارك الحربية وفى مدة القتال ويكون ذلك باتباع ما يأتى :

١ — يراعى فى تنظيم الجيش العامل فصل وحدات وأصناف تُدرّب تحت نظام وأساليب سرية خاصة لا يتمكن العدو أو الدول الأخرى من اكتشاف سرّها ، وتلجأ الدول إلى تطبيق ذلك بإيجاد فرق وأسلحة ممتازة تمرنها سرياً فى المستعمرات البعيدة عن أنظار الناس . ومن قبيل المفاجأة أيضاً إدخال أنظمة « وتكتيك » الجيش العامل على وحدات من الرديف وتدريبها سراً على ذلك .

٢ — يراعى مدة السلم درس مختلف الأسلحة وإدخال التحسين عليها بطريقة سرية لا يعلن عنها كما حدث مدة الحرب العظمى فى الميدان الغربى من إخراج أسلحة جديدة استعملت فى الخنادق وفوجئ الحلفاء من ناحية الألمان باستعمال الغازات الخانقة . ومن المفاجآت أيضاً صنع كميات هائلة من الذخائر الحربية استعداداً للحرب . ومن قبيل ما يخدم المفاجأة فى الحروب ما تبذله الدول من إدخال التحسين العلمى والفنى على الأسلحة والمفرقعات المختلفة ولا يكتفى بتشجيع المخترعين فحسب بل ان المصلحة تقضى بتقديم برنامج واسع النطاق ومكون من عدة خطط لعلماء البلاد والمختصين منهم فيكاف كل واحد منهم بدراسة نقطة معلومة ليصل إلى نتائج تتفق مع أغراض الهيئات العسكرية واتجاهاتها هذا مع تشجيع الصناعة الوطنية ومدّها بالأموال لصنع آلات الحرب الحديثة وتصديرها إلى الخارج إذا زادت عن حاجة الجيش وذلك لكى تكون معامل البلاد على أهبة تامة واستعداد لتقديم ما يطلب منها فى حالة الاشتباك فى حرب من الحروب .

٣ — المفاجأة بواسطة الحركات والهجوم — أصبحت فى الحرب الحديثة صعبة خصوصاً بين جيشين متقابلين نظاميين نظراً لوجود سلاح للطيران الذى يقدم المعلومات عن كل ما يجرى من الاستعداد فى المؤخرة ويمكّن العدو من معرفة كل ما تم وراء الخطوط الأمامية من تجمع وحشد واستعداد . هذا ولا ننس مع ذلك الإشارة إلى التسهيلات الكبيرة التى تقدمها وسائل النقل الحديثة

خصوصاً السكك الحديدية والسيارات مما يجعل من السهل حشد قوة كبيرة لا يستهان بها كما توجد عدة وسائل لإخفاء أغراض القيادة . ولكن المفاجآت أصبحت فى الوقت الحاضر معلقة بالخطط والقرارات التى سبق تدبيرها و إقرارها عند وضع وتصميم الخطة الأساسية الأولى و إذا حدثت المفاجأة فى ناحية من نواحى جبهة منتظمة فإن ذلك يكون لكسب الوقت ليس إلا

٥ — المجازفة : هل يجازف القائد أحياناً للحصول على غرض أبعد من الغرض الذى وضعه فى خطته وجعله نصب عينيه ؟ تنص التعليمات العسكرية دائماً على الاحتراس من ذلك والابتعاد عن المجازفة لما فيها من أخطار ولكنها تصبح فى بعض الأحيان ووسط المعركة ضرورة من الضرورات فيصير الاحتراس قاصراً على اختيار الوقت المناسب لوضع المجازفة فى حيز التنفيذ واتخاذ الوسائل اللازمة لها ودراسة كل ما يحتمل حدوثه أو ينتظر من رد فعل لها فى نية العدو وعمله . والإقدام على المجازفة يستدعى وجود خطة لها يجب أن تكون مرنة وقابلة للتوسع ما أمكن .

٦ — تفوق الكثرة العددية : تعتبر الكثرة العددية أهم ضمان لإحراز النصر وهى خير ما يعتمد عليه لأحكام الوقاية فى حالة التعبئة والسير والتلاقى ، يطمئن القائد بها على جيشه من مفاجآت العدو ومباغتاته و يصلح بها الأخطاء التى ترتكب من ناحية عدم توافق وصحة المعلومات التى تصله من قوات الوحدات والفرق الأمامية عن حقيقة ما لدى العدو من قوات متجمعة واستعداد .

ولا يستطيع القائد مهما علت كفاءته فى فن الحرب والقيادة أن يستفيد من كثرة عددية مكونة من جنود غير مدربين تدريباً كافياً على خاصيات الحروب فإن للكفاءة حداً لا تتعداه .

كما أنه يعد مستحيلا فى الوقت الحاضر أن ينتصر قائد — فى معركة قد نشبت فعلا تحت نظام الحرب الحديثة — أمام قوات للعدو تعادل فى مجموعها مثلى القوات التى تحت قيادته حتى ولو كانت الأخيرة من أحسن الجنود تدريباً . فى

مثل هذا الموقف تسترجع لا محالة الكثرة العددية قيمتها وأهميتها كعامل فعال فى اكتساب المعركة .

ولهذا وضع مبدأ الكثرة العـــددية كأساس لتنظيم الجيوش لدى الأمم الكبيرة لأن عليها يتوقف إحراز النصر فى النهاية ، ونخلص من ذلك بنتيجة هامة هى :

ان القانون الأساسى والدستورى والتشريع الخاص بالتجنيد والخدمة العسكرية العامة يجب أن يراعى فى وضعها أن تضمن الحصول على أكبر عدد ممكن من الجنود المدربين عند الدعوة إلى التعبئة العامة . ومن هنا اتجهت الأفكار إلى تقسيم البلاد إلى مناطق عسكرية تحوى كل منها عدة مراكز للتجمع والحشد ، هذا مع مراعاة جعل التشريع الإدارى متفقاً مع الغاية العظمى للبلاد أى جعله مرناً يسهل الاتصال بين السلطات العسكرية والهيئات الإدارية التابعة لوزارة الداخلية ، بل يمكن القيادة من مباشرة سيطرتها الفعلية على الإدارة الداخلية بشكل يضمن لها إعطاء نهاية ما يمكن من التعاضد والسرعة فى تنفيذ أوامر التعبئة .

ولا ننس دائماً أن جيشاً مدرباً تدريباً عسكرياً وفنياً كافياً يصلح الاعتماد على أفراد وحداته — لحد ما — فى مهمة تدريب الجماعات التى تدعى للخدمة العسكرية عند التعبئة العامة إذا لوحظ مدة السلم ترقية معلومات الصف ضباط والاكثار منهم إكثاراً يتفق مع تلك الغاية .

٧ — تعبئة القوات : التعبئة العامة هى دعوة الأفراد القادرين على حمل السلاح للانضمام إلى وحداتهم ، وهى قل أن تنفذ إلا فى الحالات الخطرة التى يعرض فيها كيان الدولة للخطر ، لأن الدعوة تبدأ عادة بعدة أصناف أى مواليد عدة سنوات وبما أن الحرب الحديثة جعلت واجب القتال عبئاً على المجموع بأكمله فإن المستقبل سيحتم أجراء هذه التعبئة العامة كلما ظهر فى الجو خطر الحرب ، فهى تمثل النهاية العظمى لما فى وسع أمة من الأمم أن تقدمه من الرجال

لـكى تحرز النصر فى ميدان القتال . ولمـا كان العصر الحالى عصر القوة المادية الممثلة فى قوة التسليح والتدريب أصبحت عظمة الأمم تقاس بما يمكن أن تقدمه من الملايين القادرة على حمل السلاح ولهذا اتجهت إرادة الأمم القوية إلى الإكثار من النسل والمواليد وتشجيع الزواج لـكى تضمن مستقبلها وتأمن على كيانها وهذا لا يتحقق فى الوقت الحالى بغير الملايين العديدة التى يمكن دعوتها للانضمام للجيش عند الحاجة .

واتباعاً لمبدأ الاستفادة من الـكثرة العددية تتطلب التعبئة تجميع وحشد أكبر عدد من الجنود فى أقرب وقت ممكن .

فالقيادة العامة عند إعلان الحرب تحمل بمقتضى هذا المبدأ مسؤولية كبيرة على أكتافها إذ لا يكفى أن يكون لدينا ملايين لحمل السلاح بل الأهم هو تجهيز هذه الملايين وتجميعها وسوقها وهو ما يقصد بالتعبئة والوصول إلى ذلك تضطر القيادة إلى تعديل خطتها أحياناً وإلى تضحية عدة مسائل هامة .

فلا يكفى أن توضع قواعد التعبئة وقوانينها وأن تسير على طريقة « ديناميكية » بل يجب أن تستكمل شروطها الأساسية لـكى تؤدى الغاية المتوخاة منها .

ولبيان ذلك نضع المبدأ الآتى :

إن أية وحدة من وحدات الجيش ولتكن فرقة — أى إثنى عشر ألف مقاتل — تعد فى حالة تعبئة للحرب حينما تستكمل حشد جميع رجالها وضباطها ثم تنضم لوا آتها وأقسامها وأسلحتها — مشاة وخيالة ومدفعية ومهندسين وأشغال عسكرية وقوات الطيران ثم مدفعيتها المضادة وأقسام المواصلات من تليفون و برق ولاسلـكى — بشكل يمكنها من الاشتراك فى موقعة حربية عامة ، فى الزمن وفى الجهات والمسافات المختارة لها ، بناء على البرنامج الذي وضعته القيادة العامة للحرب .

من هنا تعرض الصعوبات الكثيرة والمتشابكة فى الحروب الحديثة ولكن العلم الحديث يسّهل كل ما يبدو صعباً و بعيد المرام ولا نزاع فى أن وجود نخبة من الضباط المختصين فى فن التعبئة المتشبعين بروح التنظيم يجعل تعبئة عدة ملايين من أسهل الأمور كما حدث فى الحربين العالمية الأولى والثانية .

ويمكن الإشارة هنا إلى أن تعبئة القوات الفرنسية فى حروب السبعين كانت مثالا للفوضى والاضطراب وهذا ماتحاشته القيادة الفرنسية فى سنة ١٩١٤ فكأنها استفادت من تجارب ودروس الماضى فائدة لا مثيل لها .

وتأخذ التعبئة مدة طويلة من الزمن قد تكون عدة أيام وفى هذا ضياع للوقت قد يؤثر فى سير الأعمال الحربية الأولى ويكون لها رد فعل على النتائج المقبلة أو على سير الأعمال الجديدة ولذلك يلجأ القائد العام إلى سحب القوات الأمامية والجلاء عن جزء من أراضى دولته أو أراضى حلفائه رغم ما يقابله من المصاعب وما يعرّض له من الأخطار والمجازفة أحياناً .

ومن ذلك نشأ اعتبار التعبئة المكونة من جيوش كبيرة وضبطها من جهة الزمن والمسافة فناً من الفنون العسكرية الصعبة التى لها الخطط وتدرس بانتظام وتدقيق فى رئاسات الأركان حرب العامة كما تدرس المسائل العلمية العويصة فى معامل الهيئات العلمية .

فمن القبيل ما يعرض من المسائل لدى التعبئة ما يأتى :

إذا وزعت قوات على جبهة متسعة الامتداد تعرضت هذه القوات للهزيمة على دفعات متتالية وكذلك تعرضت لنفس الخطر كل قوة تأتى من الخلف لمساعدتها .

كل قوات مجمعة بدون تقسيم للمناطق ولا توزيع لمراكزها تختل حركتها بعكس القوات الموزعة فنياً على جبهة متسعة فإنه يسهل تحريكها بسهولة وتمكن قائدها من إخفاء أغراضه عن العدو .

كل قوة معبأة فى ميدان قتال لا يمكنها أن تنفك قبل أن تحارب لأن نظام الحروب الحالية لا يمكنها من أن تسترد حريتها التامة فى التنقل من جهة لأخرى قبل مضى زمن يختلف باختلاف كثرتها العددية .

من ذلك نرى بعض ما يعرض من المسائل والنظريات الصعبة عند وضع خطة للتعبئة العامة على جبهة قد تمتد مئات الكيلومترات مما يستدعى زيارتها مراراً لمعرفة طبيعتها ودراسة مواقعها دراسة تفصيلية وافية . ولذلك لا نبالغ إذا قلنا أن معلومات الضباط تقاس أيضاً بمقدار ما لديهم من المعلومات الجغرافية والطبوغرافية المستفيضة عن بلادهم من كل جهة من نواحيها .

٨ — الاحتماء والوقاية : غرض الاحتماء والوقاية هو ضمان حرية العمل فى الحرب حسب الخطة الموضوعة فإذا أتمت التعبئة برامجها اتخذت القيادة الاحتياطات اللازمة لكى تتمكن من تحريك القوات التى لديها بدون أن تتعرض للمفاجآت التى يسببها العدو الذى يتبع أيضاً خطة له . ويساعد القيادة على ذلك قسم المخابرات العسكرية الذى من واجبه الأول استقاء المعلومات والأخبار عن العدو ثم منع العدو من الحصول على هذه المعلومات عن الجيش .

ويعد شرط الاحتماء والوقاية متوفراً لحد ما لجيش من الجيوش الكبيرة إذا أتمت الوحدات الكبيرة تعبئتها التامة فينحصر واجب القيادة فى تحقيق الاحتماءات الموضعية إذ توضع كل فرقة أو وحدة فى المكان الذى يضمن تعاونها مع الوحدات والفرق الأخرى ويعد هذا أول عمل نحو بدء الحركات الحربية التى ترمى إلى إنجاز الغرض الأساسى الموضوع فى الخطة العامة .

فإذا أتمت هذه الوحدات تجمعها وتشكيلها فى الأماكن المخصصة لها لا يكون لدى القائد طريقة يضمن بها حريته فى العمل أوفق من البدء بدون إضاعة وقت بتنفيذ المقدمات الأولى لخطته الحربية لأن هجوماً سريعاً يدفع بنشاط وجرأة يؤثر تأثيراً شديداً فى العدو ويضطره أن يدافع عن نفسه ويقضى على مشاريعه التى ينوى

القيام بها ويجعله يتبع إرادة المهاجم ولا شك فى أن النتائج تكون عظيمة إذا كان الهجوم بطريقة المباغتة غير المنتظرة . ولكن عملا مثل هذا يستدعى أولا تنظيم الحركة المراد القيام بها بتجميع قوات كافية من الاحتياطى .

ويلاحظ القائد أن الاكتفاء بما تتخذه الوحدات التى تحت قيادته من وسائل الحماية ثم الاكتفاء بترك ما يخص القيادة منها على عاتق قسم المخابرات لأركان حربه فيه خطورة كبيرة خصوصاً فى حالة الاشتباك مع خصم عنيد رابط الجأش معتاد على خفة الحركة وعلى خوض العمليات الحربية تحت خاصيات الحروب الحديثة .

ومن هنا نشأت فكرة اعتبار تنظيم الوسائل العامة التى تضمن تأمين وحماية الجيش المكون من وحدات كبرى كمبدأ حربى أعلى . يساعد طبعاً على تطبيقه ما تتخذه الوحدات الصغرى — فرقة أو لواء أو كتيبة — من احتياطات تأمينية فى حال تشكيلها وتعبئتها واحتلالها لمراكزها وهى احتياطات «تكتيكية» معروفة لكل وحدة من هذه .

ولكن تبقى لرئاسة الجيش العامة مهمة تنظيم وسائل الاحتماء والوقاية على أساس أكبر مبنى على علم « الاستراتيجية » وعلى الاستفادة من تعاون الأقسام المختلفة كما قدمنا .

ولا نرى بأساً من الإشارة هنا إلى أن تطبيق هذا المبدأ فى قيادة وسوق ثم تحريك الوحدات الكبرى لا يزال موضع بحث رجال الفن العسكريين بانتظام واستمرار عند وضعهم للخطط الحربية العامة مما أدى إلى تفرع وجهة نظرهم .

فالمذهب العسكرى الألمانى الذى وضع أسسه المارشال « مولتكا » ومن شرحه بعده من النقاد الحربيين الألمان خصوصاً الكولونيل جنرال الكونت « شليفين » رئيس الأركان حرب العامة لبروسيا سابقاً يختلف عن المذهب العسكرى الفرنسى الذى أخرجه نابليون فى حروبه ثم اتبعه المارشال « فوش » .

لأن كلا من المذهبين يفهم تنظيم تأمين وحماية الجيش المكون من وحدات كبرى على أساس خاص به .

٩ — التصرف فى القوى : لا نميل إلى استعمال كلمة إدخار القوى ولا اصطلاح الاقتصاد فى القوى لأن القصد ليس التوفير فى استعمالها وإنما القصد هنا هو حسن التصرف فى توجيه القوى المكون منها الجيش واستعمالها بالحكمة التى تستلزم كسب المعركة .

والغرض من التصرف فى القوى هو توزيع القوى حسب الغرض الذى تسعى القيادة لتحقيقه فهى تدرس بدقة الهدف الأساسى المراد تحقيقه وهو واحد لا يتعدد وبطبيعة الحال هناك أغراض ثانوية يجب أن يعمل حساب ما تستلزمه من القوى . فالقصد من حسن التصرف هنا هو أن يعرف بدقة ما يلزم من القوى للغرض الأساسى ولكل غرض ثانوى مع حساب ما قد ينتج من الارتداد والتراجع أمام الأغراض الثانوية وما يكلف ذلك من استهلاك قوى الإنسان والذخائر .

وهذا هو الفن فى قولهم التصرف فى القوى ...

ألمانيا تسلح رشيد عالي الكيلاني

صفحات تاريخية عن الحرب الثانية

١٩٣٩ — ١٩٤٥

حينما أعلن تسليم فرنسا ، بقيت الحالة هادئة إلى الأيام الأولى بأراضي سوريا ولبنان فلم نشعر بعد يومين إلا وقد انقطعت المواصلات مع الخارج وبقينا لمدة ثلاثة أيام في عزلة كاملة عن العالم ، وكانت السلطات الفرنسية في حيرة تامة ، لأن أسلاك المخابرات التليفونية والبرقية قطعت ودمّرت في عدة جهات ، وكان عذر هذه السلطات ما يأتي : « إن هذا التخريب من عمل الجنديين البولونيين والتشيك ، الذين كانوا يقضون مدة تدريبهم بالبلاد ، فلما سمعوا بشروط الهدنة رفضوا التسليم واتجهوا بأسلحتهم إلى فلسطين للانضمام إلى القوات البريطانية المعسكرة هناك وليس بينهم فرنسي واحد » .

هكذا بدأت حكومة فيشي عهدها بسوريا ولبنان ، ببلاغ كاذب مع العلم بأن عدداً من الفرنسيين التحق بهذه الحركة وعضدها واستمر يواليها كما ظهر بعد ذلك .

وأعقب هذا صدور تصريح بريطاني يقول « إن الحكومة البريطانية لن تسمح لأية قوات ألمانية أو إيطالية باحتلال أراضي سوريا ، كما أنها لن تقف مكتوفة الأيدي أمام أي حادث اضطراب أو ثورة في الأراضي السورية واللبنانية » .

وقد قابلني المستر هافارد القنصل العام البريطاني في بيروت ، في اليوم التالي لصدور هذا التصريح ، وسلمني نسخة منه ، وقال : « إن الحالة ستبقى كما هي بغير تغيير وإن القوات البريطانية لن تحتل هذه البلاد » لم يحدث شيء مما أشير إليه

فى هذا التصريح» وأضاف قوله : « إن الرعايا البريطانيين باقون كما هم ولن يغادروا سوريا أو لبنان ، ولا صحة للاشاعات التى دارت حول ذلك وما قيل من التنبيه عليهم بمغادرة البلاد » .

أما الموقف الرسمى فى دوائر المفوضية العليا الفرنسية فقد عبّر عنه المسيو كونتى مدير الدائرة السياسية بقوله « إن التصريح البريطانى لم يأت بشئ جديد يغير الحالة الراهنة لأنه لا يوجد فى شروط الهدنة المعمول بها أى نص يعطى الألمان أو الطليان الحق فى احتلال أية منطقة من الأراضى المشمولة بالانتداب الفرنسى ، علاوة على ذلك فإن القوات الفرنسية الموجودة بها كافية لحفظ الأمن والنظام ، ولا توجد أية فكرة للقيام بثورة أو عصيان بين السكان » .

ولما سألته : « هل تنص شروط الهدنة على بقاء القوات العسكرية الموجودة فى الشرق فى حالة تعبئة كما هى عليه الآن » .

أجاب : « إن قوات الحملة الفرنسية التى يتولى قيادتها الجنرال متلهوزر[1] سوف يتم تسريحها تدريجا وستأتى بواخر فرنسية لإعادة وحداتها إلى فرنسا ، ولن يبق فى سوريا ولبنان سوى القوات العسكرية ، المعتاد وجودها وقت السلم وهى المكونة من جيش الشرق ، وهذه لا يمكن بالضبط تحديد عدد وحداتها ، ونظراً لتسريح الجيش الأول ، فسيغادر الجنرال الأراضى السورية فى أول فرصة إلى فرنسا» ، ولما استعلمت «هل ستأتى لجنة من الضباط الألمان والطليان للاشراف على عملية التسريح واستلام الأسلحة والمعدات» ؟ قال « إن شروط الهدنة لا تنص على شئ من ذلك وهذه أمور متروكة لتصرف الحكومة الفرنسية ولما كانت مدة الهدنة بمثابة حالة مؤقتة فإنّ هذه البلاد لن تنزع إدارتها من يد فرنسا ولن يطرأ عليها تغيير سياسى قبل عقد مؤتمر الصلح » .

هذه صورة تبين الحالة التى كانت عليها البلاد فى شهر يولية ١٩٤٠ ، حينما تسلمت حكومة فيشى مسئولياتها ولقد بدأت عهدها باستدعاء الجنرال متلهوزر ،

---

(1) Mittelhauser.

ذلك الجندى الألزاسى الذى كان يبدو بروسياً فى مشيته وحركاته إذ كان يشبه لودندورف القائد الألمانى لحد كبير ، وعينت مكانه الجنرال فوجير ، وهو من رجال حكومة فيشى إذ يتمتع بثقة المارشال بيتان ويعمل على تنفيذ خططها ويضرب بيد من حديد على العسكريين الذين تحدثهم أنفسهم بممالأة حركة فرنسا الحرة أو إبداء العطف عليها ، وكان الذى يتولى رئاسة مكتبه الكابيتين دى لاتور وهو من موظفى شركة القنال بمصر وتربطنى به روابط صداقة منذ أيام الجنرال فيجان ولذلك جمعنى بالجنرال فوجير فوجدت نفسى أمام جندى فى العقد السادس يحلى صدره بوسام اللجيون دونور ، وهو يبدو أصغر من سنه وقد لوحته شمس إفريقيا وإقامته الطويلة بالمستعمرات ، فظهر أسمر اللون ، عصبى الحركات ، وكان رأيه فى الحرب واضحاً ويتلخص فى أنه لا يؤمن بانتصار بريطانيا عسكريا لأن التدريب العسكرى الألمانى والتكتيك الحديث للوحدات الميكانيكية المصفحة قد جعلا شقة التباين متسعة بين الفريقين وليس من السهل تداركها ولا يوجد متسع من الوقت لذلك .

وكان فوجير عسكريا بمعنى الكلمة شديد الوطأة على رجاله ، وقد وفق فى تنفيذ سياسة فيشى ، ويرجع نجاحه إلى أن الوحدات التى دعى لقيادتها مكونة من جنود مختلفة الجنس واللون لا تربطها غير رابطة التدريب العسكرى الفرنسى هذا التدريب الذى اختارته حكومة الجمهورية الثالثة لجنود مستعمراتها ، فكان يسهل عليه أن يقمع بشدة أى بادرة عصيان تبدو فى أحد الفيالق ، وكان موضع اهتمامه وقلقه كادر الضباط ، وضباط الصف وهم فرنسيون لا يخضعون بسهولة ، وقد تمكن فريق منهم وهم المتحمسون من مغادرة وحداتهم خلسة إلى فلسطين والانضمام لحركة فرنسا الحرة ، وبقى بالجيش من يوثق بهم ، وهؤلاء تلقوا الترقية الموعودة قبل أوانها جزاء إخلاصهم للعهد الجديد ، وبعد خروج من مسّهم قانون التقاعد الذى بدأت فيشى فى تنفيذه .

ولقد أقامت السلطات الفرنسية عرضاً عسكرياً لمختلف الوحدات مع بعض مفرزات[١] من جيش الشرق ، وذلك بمناسبة تعليق الجنرال فوجير الأوسمة المنعم بها على بعض من تركوا خدمة الجيش وعددهم ٢٧ ضابطاً فرنسيا ، وقد لاحظنا أن جنود الوحدات كانت ترتدى الملابس والأحذية الجديدة ، وكان منظر جنود المستعمرات من السنغال بأحذيتهم الحمراء وهى تتيه عجبا من المناظر التى لا تنسى فكان أول عرض تقيمه فرنسا بعد نكبتها لتقضى على الإشاعات السائدة ، بأن الجيش الفرنسى قد نزعت أسلحته .

ولكن المطلعين على الأمور عرفوا الغرض الأساسى من كل هذه المحاولات فقد وصلت بالفعل بعثة عسكرية محورية ، وأخذت تقوم بأعمالها فى المعسكرات والمطارات وتجرد ما تحويه مستودعات الذخيرة ، وكان مجيئها وعملها محاطين بالكتمان الشديد ، ولولا بعض الحوادث التى أثارها الضباط الطليان ، لما تنبه أحد لذلك .

ففى إحدى الليالى بفندق مشهور من فنادق بيروت ، لمحت مجموعة من الضباط الطليان بملابس ملكية وفى أثناء جلوسى دخل ضابط طويل القامة ما لمحنى حتى بادر بتحيتى ، ومصافحتى والجلوس معى ، وأخذ يحادثنى عن تركيا ، وقد تذكرت هذا الضابط فإذا هو مدير مطار شركة الأليتوريا فى بيوك درة على البوسفور وكان كثير التردد على السفارة المصرية وله حوادث غرامية كثيرة — ولقد دهشت فى اليوم التالى حينما لقينى فتجاهلنى تماما[٢] .

أما الحادث الذى نبه الناس فهو ما بدر من هؤلاء عند زيارتهم لمطار الرياق الحربى فإن تبجح بعض الضباط الطليان أثار هائجة الضباط الفرنسيين . فتبادلوا عبارات غير لائقة منها قول ضابط فرنسى مسئول : « لقد كنت أظن نفسى أنى أمام ضباط ألمان لا طليان » فعد ذلك إهانة ، وأوقفت السلطات هذا الضابط ،

---

(١) المفرزة فى الاصطلاح العسكرى Detachement .

(٢) هو كولونيل طيران وقع فى أسر الروس بعد ذلك .

وانسحب الضباط الطليان من المطار وقيل إن الفرنسيين فى حالة تمرد ظاهر، فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إصدار بلاغ رسمى يتلخص فى :

١ — إن أحكام الهدنة لا تحوى أية مادة سرية تتعلق بسوريا .

٢ — إن جميع التدابير قد اتخذت للمحافظة على الأمن الداخلى .

٣ — إن الجيش الفرنسى يرد كل عدوان خارجى .

٤ — إنه لا يمكن التسليم بقبول أى تأثير أو نفوذ أجنبى فى أراضى الانتداب .

٥ — إن المفوض الفرنسى يؤيد سياسة حكومة فرنسا الشرعية التى يرأسها المارشال بيتان .

لقد عرف عهد فيشى بسوريا بأنه عهد المتناقضات فكان على حكومة الانتداب أن تقنع الناس بأنها على الحياد ، وأن تحتفظ بسلطتها وبالحالة القائمة ، وأن توفق بين مطالب لجنة الهدنة والظهور بمظهر الاستقلال ، ثم كانت عليها مهمة تطهير الجيش الفرنسى والإدارة من العناصر التى تميل إلى فرنسا الحرة والديمقراطية .

وكان عليها تسريح الجيش وترحيل أفراده ، ثم أن تسرع فى الإفراج عن رعايا المحور وتعيد إليهم أموالهم ، وأن تفرج عن عدد كبير من الطابور الخامس الذى اشتغل جهاراً مع الألمان والطليان وأن تعيد إليه إعتباره ، ثم كان عليها أن تنشط للرقابة على الصحف فتمنع دعاية بريطانيا وتتساهل مع دعاية المحور ، إلا إذا كانت ضد الأمن العام أو تدعو إلى الهياج .

ولقد شعر الناس جميعاً أن الحياد المزعوم غير موجود ، فإن الطائرات الايطالية كانت تضرب مدينة حيفا فتضطر للنزول أحيانا عند إصابتها بعطب فى مطار بيروت فاتخذت السلطات معها فى مبدأ الأمر الاجراءات التى ينص عليها القانون الدولى فى باب الحياد ويفرضها على الدولة المحايدة ، ولكن لجنة الهدنة اعترضت على ذلك وأفهمت حكومة فيشى أن شروط الهدنة لا تجعل من فرنسا

ومستعمراتها بلداً محايداً فأفرجت السلطات عن الطائرين والطائرات ، وكانت بعض الجرائد شديدة الحملة على بريطانيا وحلفائها ولما تعرضت لها الرقابة بالحذف والتعطيل لجأ أصحابها إلى لجنة الهدنة المحوريه فأوقف المحوريون الرقابة والحكومة عند حدها ، وهنا انطلقت الجرائد بشدة تهاجم بريطانيا وحلفاءها ولم تعد تقيم وزناً للمفوضية الفرنسية ولا لرجالها .

فى وسط هذه الأزمات جاء الجنرال دنتز وهو الزاسى ، واستقبل فى بيروت استقبال الملوك وحيته الجرائد الموالية لفرنسا بقولها : « اليوم يحملك طراد فرنسى إلى بيروت لتتسلم أزمة الأمور بين يديك وتسوس شعباً حفظ ودكم قبل محنتكم وفى أثنائها وشارككم فى مصابكم القومى » .

ولما وصل الجنرال أذاع تصريحاً جاء فيه : « ثقوا أن فرنسا مصممة على متابعة مهمتها السامية وحدها دون إشراك أحد معها فى هذه الديار والعمل لكل ما يؤمن رفاهية سوريا ولبنان » .

كلنا نعلم الآن السياسة التى حملها الجنرال والتجارب التى قام بها وليس هنا محل بحثها وشرحها وسنقوم بأداء هذا فى وقته ، ولكنه جاء والناس تتساءل كيف يحفظ سلطة فرنسا والأعاصير تهب فى العراق ومصر وغيرهما .

وقد صادف وصوله قيام الهجوم المحورى على سيدى برانى فى الحملة الأولى على مصر ، ولكن هذا الهجوم ردّ بهزيمة ساحقة لموسولينى ، فاتجهت الأنظار إلى العراق ولغاية كتابة هذا لم تعرف كيف بدأت حركة رشيد عالى وما هى بواعثها وما تم وراء الستار لدفعها .

وقد أختير لها وقت مملوء بالمشاكل فقامت دفعة واحدة وكان أثرها عميقاً فى الأراضى المشمولة بالانتداب الفرنسى سيما فى وقت يسيطر فيه الجنرال دنتز وتقوم بجواره كما قلنا بعثه من الألمان والطليان .

ولقد كان وقعها شديداً على نفسي نظراً لما أحفظه من المحبة والود لإخواننا العراقيين ولما أخذت نفسي عليه من إيماني بالمثل الديمقراطية وحرية الفرد ، ولاشك في أن منزلة العراق لدى كمنزلة مصر بلادى ولو وقفت مصر هذه الوقفة لما ترددت لحظة واحده في موقفي الذى وقفته ساعتئذ .

وها قد انتهت تلك الأيام بتجاربها المرة ودروسها القاسية ، ولقد سمعت الكثير من القول واشتبكت في نقاش مع الناس ولا أزال أحتفظ بمجموعة كاملة من النشرات التي كانت توزع ولكن الذى لا أنساه هو ما لاحظته من أن أشد الناس تحمساً لبعض الدعايات الأجنبية قد انقلب بعد فترة إلى أكثر الناس دعاية لفكرة أخرى تناقضها .

كل هذا جعلني أنفر من الحماس المفتعل الذى يصيب بعض الأوساط الشرقية وأرى أن أعظم الناس تحمسا لمبدأ وفكرة هم أسرعهم هربا منها عندما تتغير الأوضاع . فلا حول ولا قوة إلا بالله .

كيف حفظ الجنرال دنتز سلطته وحافظ على أراضى سوريا ولبنان طول هذه الأيام العصيبة مع فريق من الموظفين والضباط لا يفكرون بتفكيره ؟

وكيف عالج المشاكل التي عرضت عليه ؟ أمور سأعود إليها يوما من الأيام .

وأخيراً كيف وافق على تسليم الأسلحة وشحن القطارات وإرسالها إلى العراق ؟ مع مخالفة ذلك للسياسة التي اتفق مع حكومته عليها .

وليس هنا موضع الإجابة على هذه الأسئلة التي تحتاج لذكر الحوادث التي مرت وشرحها وربطها ، ولكن السؤال الأخير يستدعى أن نلم ببعض الأمور التي كثر التحدث عنها قبل قيام حركة رشيد عالى .

فقد علمت من مصادرة موثوق بها أن تسريح جيش الشرق الفرنسى سيترك كميات كبيرة من أسلحة المشاة والمدافع السريعة الطلقات ومدافع الميدان

من عيار ٧٥ و بعض الطائرات فلماذا لا تباع هذه الأسلحة والذخائر لبعض الدول الشرقية المستقلة ؟ لم يكن هذا الرأى موافقاً لسياسة براين لأن لجنة ويسبادن صممت على حصر وختم مستودعات الذخيرة ووصلت فى تحرياتها إلى أبعد النواحى التى كان يحتلها الفرنسيون حتى فى أنحاء الصحراء . ولم تكن ألمانيا تثق بالعرب بالقدر الذى توهم بعضهم أنها وصلت إليه . كما لم تؤمن بقدرتهم ولا طاقتهم العسكرية

وكان مرور الأسلحة والذخائر إلى العراق يتطلب الحصول على موافقة تركيا أولا لمرور الخط فى أراضيها ، وقد أرسلت البرقيات إلى حكومة أنقرة وهى تتلخص فى أن قطارات محملة بالأسلحة والمدافع ستمر بالأراضى التركية وتخترق الحدود فى شمال حلب ثم تعود فتدخل الأراضى السورية عند نصيبين لتقوية الحاميات الفرنسية فى القامشلى والحسجة ، ولم يكن فى هذا الطلب ما يدعو لاثارة الشكوك التركية سيما وقد طلب هذا مراراً قبل ذلك . فجاءت الموافقة من الحكومة التركية سريعة .

وحمل قطار بأسلحة المشاة وذخيرتها مع بطارية كاملة من مدافع ٧٥ وذخيرتها وتحرك القطار عن طريق حلب ، ومر على الأراضى التركية ودخل ثانية الأراضى السورية ولكن بدون أن يقف ، ولما وصل إلى قرب الحدود العراقية أوقفه الضباط الفرنسيون فى محطة تل كوتشوك ، وراجعوا القيادة فى بيروت فسمحت بمروره إلى العراق ، وقد كان رد هؤلاء الضباط سريعاً إذ فقد ملف هذه الذخائر بأكمله مع بيانات عنها وما دار بشأنها من مخابرات من أرشيف رياسة أركان حرب الجيش الفرنسى فى بيروت وسلم إلى السلطات البريطانية ، ولذلك لم تتمكن السلطات الفرنسية إلا أن تتراجع منهزمة ولم تعد تفكر فى إرسال قطارات أخرى .

وكان رأيها فى ذلك غريباً ويتلخص فى أن هذا العتاد والسلاح قد ختم بواسطة لجنة الهدنة فمجرد وضع الختم عليه يخرجه من ملك الحكومة الفرنسية ويجعله تحت تصرف اللجنة المحورية التى تملك حق إرساله إلى الجهة التى تشاؤها.

لم يكن أحد من الناس يتوهم فى صحة هذا بل كانت الآراء متفقة على أن حكومة فيشى تلعب لعبة خطرة ، وكان الرد من ناحية الحلفاء حازماً إذ بعد أيام معدودة أخذت طائرات الحلفاء تحلق فى سماء سوريا ولبنان وتقذف مطارات الرياق وتدمر والمزة بقنابلها .

كذلك انتهت حركة رشيد عالى وكانت نهايتها سريعة بقدر ما كان ابتداؤها ودفعتها سريعة وهكذا تعود الشرق أن تقوم حركاته لتهمد بسرعة .

ولقد صدق الغازى أتاتورك فى قوله : « إن أهم عناصر نجاحه هو أنه عرف المدى الذى يمكن الوصول إليه ، والحد الذى يجب أن يقف عنده فلا يتعداه » .

من صحائف الحرب العالمية الثانية ...

الجنرال كوليه الفرنسى

ينضم مع الجراكسة إلى الحلفاء

كان شهر مايو من الشهور المملوءة حوادث ومفاجئات ، وعاينت بحكم الضرورة شيئاً منها ، فقد استمرت حركة رشيد عالى بالعراق ، وأصاب سوريا ولبنان الكثير من أثرها ، فكثرت الاجتماعات والحفلات التى ألقيت فيها الخطب الرنانة التى تدعو إلى التطوع ، وتألفت الجمعيات واللجان لجمع المتطوعين للمال ، وكانت الصحافة تزيد النار اشتعالا بمقالاتها ، حتى وصل الحماس أشده وقامت المظاهرات واتجه فريق لمهاجمة الصحف المعتدلة أو الواقفة على الحياد ، وكانت الجرائد تكتب بالخط العريض أشياء بعيدة عن التصديق ، وانتشرت الإشاعات بأن المحور على وشك أن يطلب رسمياً المرور من سوريا ، وأن غزو مصر قد قرب وأن البحر المتوسط سيفتح عن قريب وغير ذلك من أنواع الدعايات . أما الأخبار التى وصلت إلينا من تركيا بعد زيارة وزير داخلية رشيد عالى للعاصمة التركية ، فتجمع على أن الألمان قابلوا الحركة بفتور واضح فاصبح الكثيرون يجزمون بقرب انهيارها .

أما القتال فى العراق فقد أصبح منحصراً فى مطار الحبانية واقتصر على تبادل نيران المدفعية ، وكثر الكلام عن جبهة البصرة ثم اتضح أنها لم تتعد مناوشات بسيطة ، وكان مرور الوقت يضعف من حماس الجماهير ويزيد عدد المتشائمين فأخذوا ينتقدون جهارا ثورة العراق ويقولون أنها جاءت قبل الأوان .

وكان الألمان والطليان يتابعون احتلال جزر بحر إيجة ويمهدون لهجومهم

على مصر فعزلوا حامية طبرق وشدّدوا الحصار عليها واتجهت دورياتهم نحو السلوم .

فى هذه الأثناء جاءت أخبار موثوق بها عن قيام مفاوضات بين الأميرال دارلان الفرنسى ومندوب هتلر فى فرنسا يقصد منها عقد اتفاق بين البلدين ، يرمى إلى اشراك فرنسا فى تنظيم أوربا الجديدة ، وكان لا بد لهذه المفاوضات من أن تتناول مسائل الشرق والدور الذى يمكن لفرنسا أن تلعبه ، وقد ظهرت نتيجة هذه المفاوضات فى ناحيتين : الأولى عسكرية والثانية سياسية .

فمن الناحية العسكرية تأخرت عمليات التسريح ثم وصلت جماعات من الضباط الفيشيين ليحلوا مكان من رأت القيادة أبعادهم إلى فرنسا وأخيراً أفرج عن بعض أسراب من الطائرات الفرنسية .

أما الناحية السياسية فظهرت فى القرار الذى اتخذته الحكومة الفرنسية باخراج القناصل البريطانيين من بلاد الشرق الخاضعة لانتدابها .

وبهذا القرار انتهت مهمة المستر هافارد القنصل البريطانى فذهبت لتوديعه فى مصيف عالية ، وهى الجهة التى اتخذت فيها القنصلية العامة مكانا لها بعد نقلها من بيروت .

وقد ظهر لى المستر هافارد متأثراً من هذا القرار ، وأفهم تأثره جيداً فهو متزوج من سيدة فرنسية ، وأمضى سنوات من زهرة عمره يعمل باخلاص على توثيق العلاقات بين الدولتين فى منطقة من أخطر المناطق حساسية ، وفى أشد الأوقات اضطرابا قال لى « أن الفرنسيين يتهموننى بأننى كنت المحرض على ضرب المطارات والحقيقة أننى برىء من ذلك ، وكان مجىء الطائرات البريطانية رداً على نزول الطائرات الألمانية ، فلم تقصد طائراتنا سوى تحطيمها وإصابتها بالتلف والدليل على ذلك قلة الخسائر » ثم أضاف « وقد بعثت المفوضية الفرنسية إلى باحتجاج شديد فاردت بكل قواى إلا يتسع الخلاف فلم أوفق » .

وكان القنصل العام البريطانى رجلا طيب القلب ، ذا نفس إنسانية عالية ،

وعلى كثير من التواضع وجميل الشمائل ، وقد ترك أحسن الأثر بين أصدقائه وعارفى فضله ونبله ولا يزال هؤلاء يذكرون زيارته للقنصلية العراقية فى عيد ميلاد ملك العراق وذلك رغم قيام ثورة رشيد عالى ضد بلاده . ولقد كان صديقاً لفرنسا ولم يكن ليصدق أن تنقلب حكومة المارشال بيتان من الصداقة والتحالف وزمالة السلاح إلى دولة عدوة لبلاده فكان ينظر لمعالجة الأمور على أنها من المسائل التى يختلف عليها محلياً ويمكن فى النهاية تسويتها .

فوجئت وسط هذه الحوادث التى كانت تتوالى علينا بسرعة ، بنبأ غريب عن مصر فقد نشرت الجرائد فى ٢٥ مايو سنة ١٩٤١ برقية من القاهرة مؤرخة فى ٢٤ منه هذا نصها : « لا تزال الدوائر المصرية مهتمة باختفاء على ماهر رئيس الوزارة الأسبق وعبد الرحمن عزام قائد الجيش المرابط والوزير السابق وعزيز على المصرى ، ويقال أن هؤلاء حاولوا القيام بثورة عسكرية مسلحة بالاشتراك مع ضباط الجيش المصرى ضد الاحتلال الانجليزى ولا يعرف ما إذا كانوا قد غادروا مصر أو أن السلطات البريطانية اعتقلتهم ويجرى البحث عنهم بدقة فى الأراضى المصريه » .

ونظرة واحدة إلى هذه البرقية وإلى ما يقال عن مصدرها لتحكم من أول وهلة أنها مختلقة ، ولكن انتشارها بين الجماهير ، قد جعلنى لمدة ساعات تحت وابل من الأسئلة والمكالمات التليفونية ، إذ كان الشعب ينتظر قيام حركة على مثال حركة رشيد عالى ، واعتقد أنه من واجب الممثل السياسى فى مثل هذه الظروف أن يكون رده حاسماً وسريعاً ، واعتقد أنه ليس من مصلحة البلاد اضاعة الوقت فى التردد والتحفظ ، ولذلك فإنى لم أترك الفرصة تمر انتظاراً لتعليمات مصر ، ثم كيف اتصل بها والمواصلات بطيئة ؟ وكم من الوقت يضيع حتى يصل الرد إلى ؟ وعليه فقد بادرت بالاتصال تليفونياً بمكتب مطبوعات المفوضية الفرنسية وطلبت إليه أن تمنع الرقابة نشر أخبار عن مصر قبل أن نتأكد من صحتها . ثم اتصلت

بكافة الجرائد المحلية التى تصدر ببيروت ودمشق وامليت عليها تكذيباً قاطعاً لهذا الخبر الذى ليس له نصيب من الصحة ، وقد نشرته جميعاً وكان مما لفت نظرى أن بعضها ، نشر الخبرين معاً مما يدل على أنها رصت حروف الخبر الأول ثم صعب عليها حذفه بعدما جاءها التكذيب فجمعتها فى عدد واحد .

انقطعت فى هذه الأثناء المخابرات التليفونية مع مصر ووضعت رقابة شديدة على المكاتبات وكانت البرقيات الرسمية تأخذ أربعة أيام وأحياناً أسبوعا للوصول إلينا ، ولذلك كنت أتوجه بالبريد إلى حيفا لتسليمه إلى القنصلية المصرية هناك فكنت أسافر إليها فى أيام الجمعة عادة ، وكان يوم الجمعة العطلة الرسمية .

ففى يوم من العشرة الأيام الأخيرة لشهر مايو قمت كعادتى فى الصباح الباكر من بيروت — وأنا لا أعرف شيئاً عما تخبئه الأقدار لهذا اليوم — قمت متجها إلى حيفا فلما وصلت الناقورة اللبنانية أبلغت الموظفين المختصين أننى لن أبق فى حيفا وسوف أعود فى المساء للمرور من الحدود الفلسطينية ، وكان بين موظفى الجوازات الضابط « أبو على » ، وهو بريطانى وقد أطلق عليه العرب هذا الاسم فاوصيته بابلاغ الجهات المختصة ، إذ أن الحدود تقفل عادة فى الساعة السادسة وقد أصل متأخراً ، فلا أمنع من المرور .

وقد أمضيت بعض الوقت بحيفا فوصلت إلى الناقورة فى الساعة الثامنة و بعد التأشير على جوازات السفر ، وبينما السائق يستعد لدخول البوابة ، إذا بضابط بريطانى يطلب محادثتى ، ويرجونى أن أرافقه ، فنزلت وسرت معه إلى المكتب فإذا هو بهدوء وصوت خافت يقول : « لا تؤاخذنى على إزعاجك ولكن الأوفق لك أن تحادث نقطة الناقورة فى لبنان وأن تعلمهم بأنك قادم إليهم بعد دقائق » ، و بعد ثوان ردت الناقورة اللبنانية وكانت أجابة الموظف اللبنانى : « تفضل نحن بانتظارك » ، فنصحنى الضابط البريطانى أن أطلب محادثة ضابط النقطة الفرنسى ولما أعطيت له المكالمة وأبلغته بأننى قادم : « قال أن لديه أوامر بقفل الطرق ومنع

أى مرور من فلسطين لحين صدور أوامر أخرى ولكن هذا لن يسرى عليك لإرتباطنا معك عند مرورك قبل الظهر ، وأرجوك أن تكون الأنوار على أشدها وألا ينقطع الكلاكس أو صوت النفير من وقت خروجك من أرض فلسطين حتى تصل إلينا وإذا قابلتم أحداً وأشار إليكم يتحتم عليكم الوقوف ، لأن الأوامر قد أعطيت مشددة باطلاق النيران ، ومع ذلك فسألقاك على مدخل المحطة ، ولما انتهت المكالمة التفت إلى الضابط البريطانى وقال : « كنت أخشى عليك أن تذهب بغير علمهم فقد كان من المحتمل أن تقابل بنيران المدافع الرشاشة » ، قلت « وهل تظن يعملها الفرنسيون » ؟ قال « نحن أمام حالة طوارىء ، وقد تقوم الحرب بين ساعة وأخرى » . فشكرته على حضور ذهنه ونصيحته التى لولاها لتعرضنا لخطر جسيم ، ولما فتحت البوابة الثانية وولجنا إلى الرحبة التى بها الجمرك « والبلوك هاوس » الذى على شاطىء الجرف رأيتها تموج بجماعات من الجنود البريطانيين يتهامسون ولم أكن أتصور أنها تحوى هذا العدد وهم جميعا بأسلحتهم الكاملة وعلى رؤوسهم الخوذات وكثيرون منهم يحملون رشاشات « تومى » — أدركت حينئذ ما هى حالة طوارىء — والغريب أننا أمضينا وقتا ليس بقصير على مقربة من هذه الجماعات فلم نسمع لها صوتاً ولا حركة .

وما أن تركناهذا المكان حتى فتحنا الأنوار لنهايتها وبعد أن قطعنا مسافة لا تزيد عن كيلو متر ونصف من ناقورة فلسطين ، قابلتنا أول داورية لبنانية مكونة من جنديين من عساكر الجندرمة يسيران على مهل ، وكان بوق السيارة والكلاكس لا ينقطعان فوقفنا وسألناهما هل من جديد ؟ قالا : « كل شىء هادىء » وعند اقترابنا من الناقورة اللبنانية ، ركب معنا كابورال فرنسى ، وقال : إن الكابيتين كلفه بمرافقتنا ولما دخلنا المركز استقبلنا الموظفون بالترحاب المعتاد وأتموا الاجراءات بسرعة تدل على اهتمامهم بنا وقلقهم علينا ، وحضر الكابيتين فأبلغنى « أن سفرنا قد يتأخر مدة ربع ساعة لأجل سلامتنا » ، وقلت « ما السبب » ؟ « أجاب يلزم له أن

أن يتصل بالنقطة العسكرية فى اسكندرونة » ، قلت « لعلك تعتقد أننى متجة رأساً إلى تركيا حتى تعلم المراكز العسكرية كلها على الساحل حتى الحدود التركية عند اسكندرونة » ، قال « لا وإنما أردت أول مركز عسكرى على الساحل بعد الناقورة وسأكلفه بتبليغ المراكز الأخرى » ، قلت « وهل يلزم أن نقف لكل هذه المراكز » « قال نعم لأن حالة الطوارئ معلنة والطرق مسدودة و بعض المنافذ ملغومة » .

و بدأ اتصاله ونحن نسمع صوته وطلب إبلاغ كل مركز بوصولنا وقيامنا حتى بيروت ، فشكرته على اهتمامه هذا وقلت له أرجوا أن تكون حالة طوارى كاذبة فضحك بعد أن تبادلنا الدخان إذ ملأ كل منا « بيبته » من التبغ الذى يحمله الآخر وانصرفت .

وكان خروجنا من الباب كافياً ليكشف لنا الحقيقة ، إذ واجهتنا أول وحدة من جنود المغرب الأقصى المراكشيين وهم يهدرون بألفاظ لا أفهمها ومعهم المدافع الرشاشة والذخيرة محملة على البغال والبنادق السريعة الطلقات على أكتافهم وهم يتراصون فى أرتال طويلة لا تدركها العين وسط الظلام ثم يسيرون متجهين إلى الشرق حيث التلول الواقعة بين لبنان وفلسطين.

إنك لا تتصور ماتراه مرتسما على وجود عدد كبير من الرجال يساقون إلى معركة لا يعرفون متى تبدأ ، القلق يبدو ظاهراً فى كل ما يحيط بنا — كانت السماء نمير واضحة لأن السحاب فيها يسير أفواجاً يتبع بعضه بعضاً بفواصل تظهر القليل من النجوم . وكان الحيوان الذى يحمل المدافع والذخيرة يشعر ويحس بقرب قيام الزوبعة فتراه يسير بخطوات متئدة .

كنت تلمس هذا القلق فى رجال الجبهة الانجليزية حيث الجماعات تتحادث همساً وتلمسه فى الجبهة الفرنسية إذ الهـــدوء البعيد عن طبيعتهم المرحة والذى لا يقلقه إلا صوت المراكشيين يدفعون الدواب فوق الصخور لترقى التلول التى على جانب الطريق ، وكان على جانبيه صفوف من الجزائريين بطرابيشهم الحمراء

الصغيرة ، و بنادقهم الطويلة تجدهم أقل جلبة من المراكشيين ، وهم بانتظار القيام بعمل لا يدرون عنه شيئا ، هذا منظر الحرب وهو رهيب فى ساعات الانتظار الطويلة ، واعتقد أن احتمال الاشتباك فى القتال أخف وطأة من هذا السكون المخيم الكابس على الأنفاس الذى يسبق العاصفة . .

وخرجنا من كل ذلك متجهين إلى مدينة صور والسيارات العسكرية تتجمع على الطريق وتتجه إلى الشرق وكنا قد قطعنا الجرف العالى وظهرت الوديان فما اقتربنا من المفرق الذى يقع على طريق صور ومدخلها ، حتى تقدم من خلف الأسلاك الشائكة جندى جزائرى شاهراً السلاح قائلا — هالط — أى قف فإذا الطريق محكمة السد ، فأعلمناه أن لدينا أمر بالمرور ، ولم يغير وضع البندقية عن وجه السائق ، حتى تقدم الضابط الفرنسى وأخرج بطارية للاضاءة واطلع على جوازات السفر ودار حول السيارة مفتشاً ، ثم أذن لنا بالتحرك وفى هذه الأثناء كان خمسة من الجزائريين ، يزحزحون هذا الحديد المدبب ليفتحوا لنا الطريق ، بعد أن أمضوا أكثر من خمس دقائق فى هذا المجهود .

ولقد تكرر هذا العمل خمس أو ست مرات إن لم يكن أكثر من ذلك ، وأخيراً عند مدخل بيروت ، وكان السكون مخيما علينا طول هذه المدة ، ولم يكن أحد ليعرف شيئاً عن أحاديثى مع الضابط ، وإلا لتعذر إقناعهم بالسير فى طريق مملوءة بالألغام ، ولكنهم شعروا بأشياء غير عادية حولهم ، وكان كل منا يفكر فى شئ واحد هو الوصول سريعاً إلى بيروت قبل اشتباك القتال ، وأخيراً وصلنا فى منتصف الساعة الواحدة أى قطعنا الطريق الذى يستغرق ساعتين فى أربع ساعات ونصف وكانت رحلة قاسية ولكنها تجربة لن تسمح الأيام بمثلها .

ما الذى حدث فى ذلك اليوم ؟ ولماذا أعلنت القيادة حالة الطوارئ على الجبهة ؟ لقد كان من سوء حظى أن اليوم الذى اخترته للسفر كان هو اليوم الذى

اختاره الجنرال كوليه الفرنسى لـكى ينضم إلى الحلفاء مع فرق الجراكسة إلى القوات الفرنسية بفلسطين متجها لحدود شرق الأردن ، ولإعطاء فـكرة عن حالة الرعب والفوضى التى سبَّبها هـذا العمل فى صفوف الفرنسيين نذكر : أن الوحدات الفرنسية الخالصة سحبت بأ كملها من جميع الجهات وارسلت إلى الشمال حيث حدود تركيا ، ووضعت نقط للمراقبة شديدة على كل الطرق ، واحتلت وحدات السنغال والمغاربة والفرقة الأجنبية كل الجهات الجنوبية ، ثم أنزلت وحدات البحارة لحفظ النظام بين القوات الفرنسية الخالصة ، ذلك لأن البحارة بعد إغراق الأسطول أصبحوا أشد الناس عداوة لبريطانيا ولـكل من يعطف عليها واستمرت هذه الوحدات على إخلاصها لدارلان وحكومة فيشى وكانت شديدة الوطأة فى قمع حركات مواطنيها الأحرار .

و بقى الموقف خطيراً جداً فى الأيام التى تلت هذا الحادث ، وكان الجنرال دنتز يعتمد على جنود المستعمرات ولـكنه كان يخشى أن تمتد حركة العصيان بين الجنود الفرنسيين البيض لميولهم إلى حركة الفرنسيين الأحرار .

* * *

كان الجنرال كوليه من أغرب الشخصيات التى يمكن تصورها ولقد قرأت عنه وسمعت أخباره ، ولما ذهبت لدمشق واتصلت برجال فرنسا هناك ، كان من الطبيعى أن أتصل به ، فإذا هو يعرف عنى كل شئ ، عن أسرتى ودراستى وخدمتى وكل ما يمـكن أن يعرفه إنسان عنى وكان ظريفاً معى بينما كنت أنفر من لقياه ، نظراً لما سمعته عنه ، ولـكن طبيعة العمل جعلتنى على اتصال به ، فـكنت فى كل مرة أقصده لعمل ، أرى من جانبه استعدادا وتسهيلا ، ودقة فى إجابة طلباتى ، لم أعهدها من قبل لدى أى سلطة محلية أو فرنسية وكنا نشكو انتشار زراعة الحشيش ، وفى يوم جاءنى بملف مملوء بالمعلومات الثمينة وقال إننى أضع كل رجالى للقضاء على هذه الزراعة .

وكثيراً ما طلب إلى أن أزور بعض الثكنات العسكرية ولكنى كنت أعتذر بقصر الوقت وعودتى لبيروت وكان كوليه شديد الوطأة على نفسه لا يرحمها ، وكان نفوذه بارزاً فى كل جهة ، تعرفه سوريا بأسرها وأناس كثيرون من أهل فلسطين وشرقى الأردن ، وإذا نسيت فلن أنسى اليوم الذى رأيته واقفاً أمام الجنرال ديجول فى بيروت ، وكان كوليه قصيراً والأخير عملاقا وما لحنى كوليه حتى خف للترحاب بى وسار بى إلى الجنرال دى جول وكنت قد قابلته مرتين قبل ذلك فقال «إنى أعرف قنصل مصر» فقال كوليه «لا أقدمه بصفته الرسمية بل كصديق أعزه وأنى لمدين بحياتى إلى شخص من عائلته »، وقال كلاماً لم يأت بعد الوقت الذى يسمح بنشره ، وكان دى جول ظريفاً حينما صافحنى بشده مرة أخرى .

ما وصل كوليه إلى شرقى الأردن حتى لحقت به جماعات الجراكسة كوكبة وراء كوكبه وأذاع نداءً حاراً إلى الفرنسيين يدعوهم إلى الانضواء تحت لواء فرنسا الحرة وأشار فيه إلى الحوادث المتتالية التى أشرنا إليها وأهمها تسليم المدافع والذخائر إلى رشيد عالى ونزول الألمان بطائراتهم فى المطارات الفرنسية .

أما الجنرال دنتز فأذاع أن عملية كوليه لم تنجح بدليل أن ٨٦ فارسا كانوا قد اجتازوا الحدود قد عادوا ومعهم ضباط الصف الفرنسيون — وكانت مفرزة من فرسان الجراكسة فى طريقها للانضمام إلى الوحدات التى عبرت الحدود فتصادمت مع حرس الحدود فقتل ضابطان فرنسيان أثناء القتال ، وقد شيع جثمانهما باحتفال عسكرى وخطب الجنرال دنتز مشيراً إلى الظروف المؤلمة التى أدت إلى مصرعهما .

* * *

هذا ما حدث فى اليوم التاريخى الذى وضعتنى الصدف فى طريقه ولم أكن لأعلم شيئاً مما كان سيحدث ولكن هذا اليوم أدى إلى توثيق علاقتى الشخصية

مع الجنرال كوليه بعد عودته من فلسطين هذه العلاقة التي بقيت طول مدة إقامته بسوريا ،ولسوف نعرض لها حينما نذكر الأدوار التي أدت عودة الدستور والحياة النيابية لسوريا وإلى سياسة الجنرال ومقدرته وسيرته في المدة التي تولى فيها مركز نائب المندوب السامي الفرنسي بدمشق عند دخول الحلفاء وعودته إليها .

لقد انتهى هذا العهد وذهب الجنرال كوليه بعيداً عن دمشق ، وافى ربه فهو ملك للتاريخ الآن ، وإني لأرجو المولى أن يوفق بلاد الشرق لرجال يخدمونها كما خدم كوليه وطنه فرنسا . . وأفنى زهرة عمره من أجلها . . .

صحائف تاريخية عن الحرب الماضية :

كيف قررت حكومة فيشي إغلاق دار القنصلية الملكية المصرية ببيروت في عام ١٩٤١ وكيف تراجعت ؟

يخيل إلى كثيرين أن الموظف بإحدى وظائف السلك السياسى رجل محظوظ ، قد انتهى جهاده وقلقه فى اليوم الذى يعين فيه خارج مصر ، لأنه سينعم بالمرتبات العالية ويدخل حياة تغمرها الحفلات والدعوات ، فلا يشغل نفسه بغير التأنق فى ملبسه والسعى وراء الترقية عن نفسه ثم النظر فى قائمة ترتيب أقدميته وانتظار دوره للترقية ، وهذا أن صدق على كثيرين فلا يصدق على بعض منهم إذ فيهم من هم من خيرة شباب مصر .

ولا يدور بخلد أحد من الناس أن بعض الوظائف الرئيسية تحتاج إلى كثير من الشجاعة الأدبية وقوة الأعصاب والجرأة فى الأخذ بالقرارات السريعة وتنفيذها ، إذ أن الممثل السياسى عرضة لكثير من الأخطار والمفاجئات ، فقد توجده الظروف السيئة فى مكان فيصبح وقد انقطعت الصلات بينه و بين بلاده وحكومته ، ذلك دون أن يلقى أية مساعدة أو توجيه من مصر قبل نزول الحوادث المفاجئة وتوالى المصاعب . ومسئولية الممثل تختلف عن سائر المسئوليات ، فهو أن أخطأ تحمل وحده نتيجة إخطائه ، و بوسع حكومته أن تتبرأ منه وأن تؤاخذه بشدة ، و إن لازمه الحظ والتوفيق ، كان هذا من حظ بلاده ولا حق له بأن يدعيه لنفسه ، ذلك هو القانون الصارم الذى يقبله من يدخل هذا السلك ، وهذه تقاليده لدى مختلف الأمم والشعوب فاذا كان هذا هو حال الممثل السياسى فى سائر العالم، فما بالك بمن لا يعلم شيئاً عن رأى الحكومة التى يمثلها أو رغباتها أو اتجاهاتها، وهو عرضة لأن يفاجأ كل يوم فى شىء من ذلك ، وقد تتخذ بشأنه أخطر القرارات وهو بعيد عنها يجهلها تماماً ، لأن التقاليد التى اتبعت بوزارة الخارجية المصرية تجعل هذه الأمور فى حيز المحرمات التى لا يرقى إليها سوى طائفة من الناس المحظوظين

ولا يصح أن يتحدث عنها أو يلم بها أو يسمو إلى مداركها من لم تسعده الظروف فيكون من مصافهم وفى زمرتهم .

وهذا ما حدث معنا فى بيروت حينما دار القتال فى العشرة الأيام الأولى من شهر يونيه عام ١٩٤١ بين الجيوش الفرنسية التابعة لحكومة فيشى وبين الجيوش البريطانية ، فواجهنا موقفاً لم يواجهه أحد من قبل ، إذ وجدنا أنفسنا فى بلاد لم تقطع حكومتها علاقتها بنا ، ولكن جيوش حليفتنا تهاجمها ، وتتخذ بلادنا قواعد حربية لها . وكان الرأى أن حكومة مصر على الحياد ولكن أراضيها ليست كذلك ، وكان علينا أن نستمر فى القيام بواجباتنا الرسمية وأن نبذل العناية والرعاية المفروض تقديمها للرعايا المصريين ، ثم المحافظة على علاقات المجاملة والود مع سلطات فى حالة حرب مع حليفتنا .

وليس من السهل الوصول إلى ذلك ، إذ كان القلق يزداد كل يوم ، وهذا يسبب الشكوك والمتاعب ، فكانت السلطات الفرنسية تبدو حيناً مسالمة ، ثم تبدو أحياناً وقد كشرت عن أنيابها ، وكانت البلاد مملوءة بالجواسيس من الجانبين البريطانى والمحورى وكلاهما يتتبعنا ، وكنا نقابل ممثلى إيطاليا فى الطرقات وفى المحافل فيقطعون الطريق علينا ليروا هل نحييهم أم نتجاهلهم ، وفى هذه الأيام العصيبة قبض على عدد من المصريين اتهمتهم السلطات العسكرية بأنهم يقومون بالدعاية لبريطانيا ، فكان علينا واجب حمايتهم والدفاع عنهم ، واختيار الطريقة والأسلوب اللذين يتبعان فى الدفاع للحصول على الأفراج عنهم ، دون المساس بسمعة الحليفة والمبادئ التى تحارب من أجلها حتى لا يتخذ دفاعنا حجة علينا فتذيعه وكالات الأنباء المحورية وتستغله فى دعايتها ضد بريطانيا على ألسنتنا[1] .

وكان بريد القنصلية العامة فى مصر مراقباً وكذلك المكالمات الخارجية ثم أصبحت المكالمات التليفونية المحلية كلها تحت الرقابة الشديدة يرصدها فرنسى

(١) كثيرون لم يفهموا هذا الموقف ولم يقدروه وأغلب الظن أن المسئولين فى وزارة الخارجية وقتئذ لم يكونوا على أى وعى سياسى ... بل كان همهم المحافظة على مراكزهم .

ممن عاشوا ونشأوا بمصر وألفوا اللهجة المصرية ، وكان يلذ لنا معاً كسته أحياناً ففي ليلة من الليالى ، حادثنى قنصل تركيا العام باللغة التركية ، فرد علينا صوت بأن نتكلم بلغة مفهومة ، فأخبرته بأن موظفى المفوضية من الأرمن كثيرون ، وهم يعرفون جيداً التركية فما عليه إلا أن يستعين بهم .

ومما يحز فى نفسى أن المصريين فى مدة هذه الحرب لقوا من الجانبين عنتاً كبيراً فاتهموا فى مدة حكم فيشى بأنهم دعاة لبريطانيا ، ولما جاء الحلفاء اتهموا بأنهم دعاة للمحور ، ولا أعلم بالضبط على من تقع مسئولية ما كانوا يلقونه ولكن الذى أقرره هنا هو ما وقع بالضبط لا من قبيل الأساطير ولو كان فى دولة أخرى لأجرت تحقيقاً فى ذلك (١) .

فقد تسلمت برقية من حلب تعلمنى بأن عضو بعثة الآثار الإسلامية التابعة لجامعة فؤاد الأول قد قبض عليه ، فبادرت بالاتصال بالمفوضية الفرنسية ، وكتبت إليهم محتجاً لاعتقالهم موظفاً مصرياً يقوم بعمله بناء على اتفاق سابق بين الحكومتين فجاءنى الرد بأن تحريات المندوب الفرنسى بحلب تدل على أنه يقوم بدعاية شديدة لبريطانيا ، ولما أشرت إلى أن هذا العمل يعتبر غير ودى نحو بعثة علمية وقد تستغله الدعايات القائمة فيكون له أثر سئ بمصر يترتب عليه التضييق على حرية المؤسسات الفرنسية بمصر إذ يسهل جداً أن يتهموا بدعاية للمحور — أفرج عنه بشرط الإقامة فى بيروت وأن يكون تحت مسئوليتى . ومن الغريب أن هذا العمل تكرر بعد دخول الحلفاء . فقد قبض على هذا المبعوث مرة أخرى ولما وجهت السلطات العسكرية كانت إجابتها أن السبب هو ما يقوم به من دعاية للمحور ، ولما واجهت الجهات المسئولة بصورة من إجابة حكومة فيشى السابق ذكرها اقتنعت بخطئها وقررت الإفراج فوراً وقلت لهم كيف ينقلب كل واحد من رجالنا فى برهة وجيزة من داعية بريطانى إلى داعية للمحور .

---

(١) المدهش أن وزارة الخارجية المصرية لم تقدر شيئاً من ذلك بل تجاهلت كل المواقف التى تدل على شهامة ورجولة فى حماية رعاياها ولم تبعث بأية تعليمات فى كل هذه الشئون .

نلمس مما تقدم بعض المصاعب التى كان يواجهها الممثل المصرى فى الخارج وهو منقطع الصلة بحكومته، أو حينما يصبح مضطراً أن يعمل بوحى ضميره وأن يتحمل المسئولية وحده، ولكن الذى لم نستعد لتلقيه هو أن يصدر أمر بإغلاق القنصلية العامة وإخراج موظفيها بأ كملهم من البلاد هذا الأمر جاء إلينا بغتة وعلى غير استعداد لتلقيه.

فقد جاءنى قنصل اليونان العام وأعلمنى أن أحد أصدقائه بالمفوضية اتصل به وأبلغه بأن المندوب السامى وصلته تعليمات من حكومته بإخراج ممثلى مصر واليونان من البلاد المشمولة بالانتداب، أسوة بما تم مع ممثلى بلجيكا وتشيكوسلوفاكيا وبولونيا وكنت أجهل تماماً رأى الحكومة المصرية ولا توجد طريقة للاتصال بها والحرب قائمة بين الفرنسيين والبريطانيين وعليه استقر رأينا أنه عند مفاتحتنا بهذا الأمر أن تكون إجابتنا واحدة، وفى هذه الأثناء كان الجيش البريطانى قد اكتسح الجزء الجنوبى من سوريا واحتل مدينة دمشق، فقررنا سوياً أن نبلغ الفرنسيين أنه فى حالة سفرنا سنعود من تركيا إلى العراق ومنها إلى دمشق لنستقر بها، وفى اليوم التالى حضر رئيس الدائرة السياسية وأبلغنى نص البرقية التى وصلت إليه من حكومة فيشى، فكان ردى بسيطاً يتلخص فى الجملة التى اتفقت عليها مع قنصل اليونان، فعلق عليها بأن الأمور لم تصل بعد إلى هـذا وإن المفوضية لم تقرر رأياً للان وهو يبادر كصديق بأعلامى بحالة قد تطرأ فى أى وقت، فشكرته على ذلك وفى عصر ذلك اليوم حادثنى القنصل العام الأمريكى وقال أنه يرغب أن يرانى لأمر هام ولما حضر أخرج من جيبه صورة برقية وردت إليه من واشنجطون تخبره بتفاصيل مكاتبات ومفاوضات دارت بين مصر والولايات المتحدة بشأن تسلم القنصلية العامة فى بيروت وتولى مصالح المصريين بأراضى سوريا ولبنان [١].

وكان ينتظر منى أن أطلعه على تعليمات مماثلة لما وصل إليه من لدن حكومته فدهش حينما وجد أننى أجهل كل شيء، وإن حكومتى استصغاراً لشأنى قد تركتنى فى حالة مضحكة وهنا أبديت شكرى لأنه أزال عن نفسى عبئاً كبيراً إذ كنت

(١) هذه المفاوضات التى بقيت مجهولة لنا تماماً مع أنها تتناولنا فى الصميم ...

أفكر هل يقبل منى هذا التسليم ، إذا فاجأتنا الحوادث بتطورات سريعة ، وأعلمته بزيارة رئيس الدائرة السياسية لى وما دار من الحديث فيها .

ومضت أيام وحوادث الحرب والغارات الجوية التى لا تنقطع ، تكاد تشغلنا عن كل شىء ، وفى صباح أحد الأيام ، حادثنى مدير الدائرة السياسية ، وقال لى أنه يرغب فى أن يبلغنى أخباراً سارة فذهبت إليه بالمفوضية ، ولما دخلت بادر بإعلامى أن حكومة فيشى قد وصل إليها نبأ إغلاق القنصليات الفرنسية فى الموانىء المصرية ، وأن لجنة الهدنة (وكان مقرها مدينة ويسبادن بألمانيا) أخذت تلح على فرنسا وتطلب إليها إغلاق قنصليتى بيروت ومرسيليا المصريتين لتقابل عمل الحكومة المصرية بمثله حينما قررت إغلاق قنصليتى بور سعيد والإسكندرية ولكن المندوب السامى والمفوضية رفضا هذا الرأى فيما يختص ببيروت احتفاظاً بك ولكى تشاركنا فى مصاعبنا ، فضحكت[1] وقلت « لعل تكون لهذه المصاعب نهاية » وانتقلنا لحديث الحرب وقد بدأت تقترب من بيروت . . .

و بعد عشرة أيام من هذا الحديث وصلتنا برقية مفتوحة من المفوضية الملكية المصرية بأنقرة تقول بتسليم القنصلية العامة إلى قنصل أمريكا ، فاطمأنت نفوسنا ، ولكن مدافع الإنجليز كانت أصواتها تسمع بانتظام فى أوقات معروفة وكانت طلقاتها أحياناً شديدة متتالية وسريعة ، وأحياناً متقطعة ، ولكنها أخذت تقترب على كل حال وفى اقترابها نجاة وخلاص من حالة شاذة إلى حالة أكثر اطمئناناً وثباتاً .

---

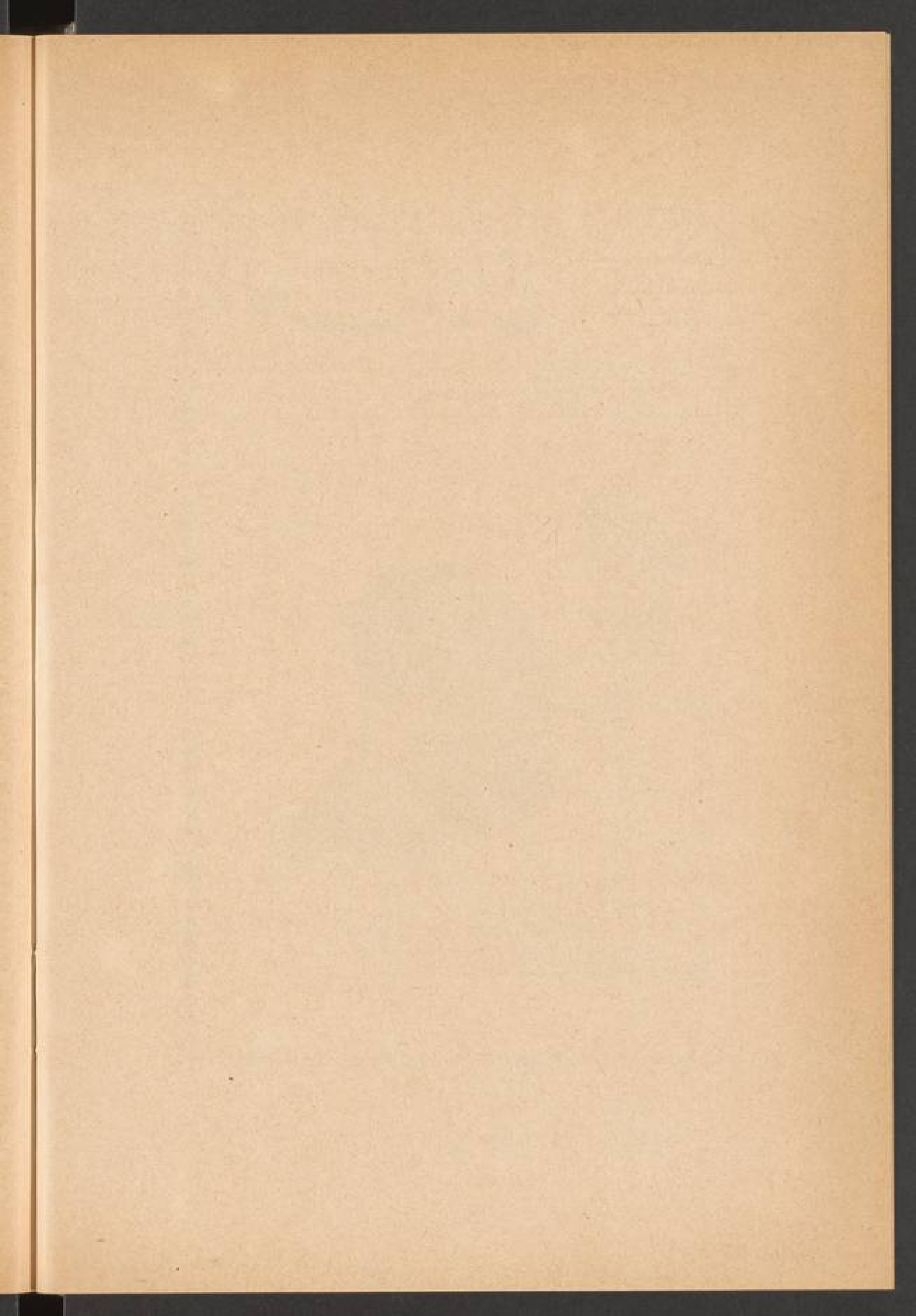
(١) لأن الحكومات الأوروبية وقت ضعفها تلجأ فى كثير من الأحيان إلى الألاعيب التى كثيراً ما تعيبها علينا اذا أخذت بها الأمم الشرقية .. وهى معذورة بضعفها .



السنة الاولى ـ العدد ٩ . دمشق : الاثنين في ١٠ ربيع الثاني ١٣٦٣ و ٣ نيسان ١٩٤٤

لم اذهب جهودي مع الدخان . . .

لقد عملت طويلا وبحثت كثيراً ، وفي اليوم القريب الذي تتحقق فيه الوحدة العربية يقول المنصفون : ان « الجندي المجهول » احمد رمزي القائم باعمال مصر في سورية ، قد خدم مصر وسورية وساهم في تحقيق الحلم العربي الجميل وفي خلق الوحدة الكبرى



مصر تواجه أحداث لبنان سنة ١٩٤٣

وما استغربت عيني فراقا رأيته
ولا علمتني غير ما القلب عالمه
(أبو الطيب)

كان حديثي مع المغفور له سعد الله الجابرى ، فى أحد صالونات قصر الزعفران بالقاهرة المعزية ، فى عصر يوم من أيام شهر نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، عند نهاية حفلات الاستقبال الرسمية ، التى أقامتها للوفد السورى مصر بأسرها ، وكانت مشاورات الوحدة مع سوريا ، قد انتهت بوضع أسس جامعة الدول العربية ، وهى للمفاوضات التى حضرت جلساتها ، فى الاسكندرية ثم فى القاهرة .

وقد اقتنعت فى هذه المقابلة ، وبعد الذى سمعته من فم الجابرى بأن مأموريتى فى سوريا ولبنان قد انتهت . . . وهكذا شاءت الأقدار مرة أخرى فى حياتى ، أن أتلق حكم الأقدار بمفردى — ولذلك فاتحته بتصميمى على البقاء بمصر وأن أحرم نفسى من شرف مرافقة الوفد السورى فى عودته إلى بلاده ، كما كنت قد رافقته فى الحضور لمصر ، وأعلمته بأننى إذا جئت يوما لسوريا ولبنان فسيكون سفرى للتوديع ، واستصحاب زوجى وولدى اللذين تركتهما فى بلاد أعزها ولها المنزلة العليا فى قلبى .

وبهذا آمنت بأنه قد انتهت أحسن السنوات التى قضيتها فى عمرى ، حاملا أعباء لا يتسع الوقت لسردها ، وكنت موقناً بأن العناية الإلهية التى لا زمتنى ، هى التى يعود إليها فضل ما صادفنى من توفيق ونجاح ، ولولا هذه النفحة الربانية لما أصابنى من الخير شىء .

وقمت إلى المطار فى اليوم التالى ، لتوديع سعد الله الجابرى وجميل مردم ومن كان معهما فى سفرهم على الطائرة إلى دمشق ، ولم يثر تخلفى أية دهشة لديهم فقد كانوا جميعاً يعرفون عن حالى أكثر مما أعلم ... للأسف

زد على هذا أننى لم أسمع فى المحيط الحكومى لدينا فى مصر ، أى فى الرياسة أو فى وزارة الخارجية أى تعليق على هذا التخلف ، كما لم تبد أية أشارة بسيطة أو لفتة ، تدعونى للسفر إلى المفوضية ، التى أتولى العمل فيها وأمثل بلادى على رأسها كقائم بالأعمال فى دمشق ولبنان .

ولما عدت لمنزلى ، كنت مطمئنا مرتاح الضمير إذ غدوت كرجل كان يحمل عبئاً ثقيلا وألقاه عن أكتافه ثم التمس الراحة والدعة ، وطرأت علىّ فكرة الذهاب إلى بلدتى والأشتغال بالزراعة ، وأن أعيش معيشة الملاك الذين يقضون وقتهم بين الكتب وتحت ظلال الأشجار العالية وفعلا ذهبت بالسيارة إلى الريف ، حيث أمضيت يوماً أو يومين نسيت فيهما نفسى ، وأصبحت لا أتوقع بأى حال أن تقذف بى الاقدار مرة أخرى وسط تيار العمل الجارف المتلاطم الأمواج . بل كنت أردد قول القائل : « يا إلهى .. لقد كنت بعيداً عن كل هذا ولكن شاءت أرادتك ، أن أعيش وسط غمرات الحوادث ، لأعلم منها مالم أكن أعلم ، ولكى أواجه كل يوم حدثا جديداً ، فأرفع عنى هذا العبء وأحشرنى فى زمرة المنسيين الذين يرضون بما قسم لهم » : وقد استجيب هذا الدعاء بعد عشرة أشهر وكنت قد استرحت من أثر الحفلات وأيام المقابلات المتتالية . فلما عدت إلى قاهرة المعز لدين الله ، انقطعت عن ارتياد محافل الناس، وانكفأت على نفسى ولم أطق أن أذهب لوزارة الخارجية حتى لا ألتقى بأى إنسان أعتقد أنه يقدرنى أو يبادلنى الود ، فيظن بى الظنون ، ويذهب إلى أننى أحاول استدراجه لمعرفة حقيقة ما يدور حولى ، وماسيقرر بشأن مستقبلى . وقالت

لنفسي « لقد عرفت ما قُدّر لي ، وها أنا على استعداد لتلقى أحكام هذا القدر مهما كان وقعها شديداً علىّ » .

* * *

وفي يوم من الأيام ، إذا برسول يبحث عني في كل مكان ، فلما عثر علىّ في منزل لأحد أقاربي أخذني بسرعة لمقابلة رئيس الحكومة الذي يدعوني لأمر هام لا يحتمل التأجيل والأرجاء والأبطاء ، فلبيت هذه الدعوة وذهبت توا إلى دار الرياسة حيث استقبلني الرئيس الجليل مصطفى النحاس في الحجرة التي يشغلها الآن وزير الاقتصاد الوطني ، وهناك وجدت معه المرحومين صبري أبو علم وأمين عثمان والدكتور صلاح الدين . ودار حديث حول حوادث لبنان ، وقد قيدته في وقته بتفاصيله ، وكان التساؤل . . . هل أسافر أو أبقى ؟ . . . وإذا سافرت . . . كيف أدخل لبنان ؟ . . . وإذا قامت مصاعب وعقبات ما العمل في تذليلها ؟ .

وجاء القرار الذي يحتم سفري فوراً إلى مكان عملي ، لمواجهة الحوادث التي هدّدت لبنان وكيانه وعصفت بدستوره ورئيس جمهوريته وبرلمانه ، وحكومته .

ولقد كانت المقابلة في منتصف الساعة الواحدة ، وبعد ساعتين كنت أنهب الطريق بالسيارة إلى الاسماعيلية .

انني لا أزال أذكر كلمات الرئيس النحاس وتساؤله عن راحتي وأين تنام ؟ قلت ... في الطريق . قال : أي طريق ؟ قلت في الصحراء ... وكانت سيارتي آخر سياره تمر من جمرك الاسماعيلية في ذلك المساء لتأخذ الطريق الصحراوي إلى الحدود ، وكان خروجي من دار الرياسة مسرعا بطريقة لفتت أنظار الصحفيين الذين تساءلوا عن وجهتي فقلت لهم :

كلما رحبت بنا الروض قلنا حلب قصدنا وأنت السبيل

قالوا ... إذن سوريا تقصد . قلت : نعم .

وأمضيت الليل أقطع فيافى سيناء، واسترحت ساعتين بأبى عويقلة ، ودخلت فلسطين عند بزوغ الفجر ، وبعد ساعة وصلت بئر السبع ثم بعد ساعتين ونصف كنت على أبواب حيفا .. فإذا « البالستين بوست » تنشر خبر سفرى من مصر ، وأن وجهتى دمشق فمن من رجال الصحافة أعطاهم أخبارى ؟ لا أدرى .

ولما أطلعت على هذا النبأ ، وكنت على أبواب « محل اسبينى » المشهور بحيفا فكرت فى أمرى ... وقلت لنفسى :

« أحقاً أسير إلى مرج ابن عامر والقنيطرة ثم دمشق أم اتجه إلى الناقورة » وفى لحظة قررت السير إلى لبنان وليكن ما هو مقدر فى علم الله .

ودخلت بيروت وأمضيت لحظات بالمفوضية ، ثم خرجت منها مسرعاً إلى إلى بيت الرئيس المعتقل بشارة الخورى ، وفى صالون داره استقبلتنى السيدة الفاضلة عقيلته ، وأعربت لها عن عواطف مصر كلها « ملكا وحكومة وشعباً » فاذا بالمطران مبارك يصيح قائلا « قل لدولة مصر لبنان يريد رئيسه » وخرجت من الدار فاذا بالجموع تحملنى على الأعناق ، وتأبى أن تطأ قدماى الأرض وإذا هتافها يشق عنان السماء « نريد أن يعود الرئيس لشعبه » .

وعدت إلى المفوضية لأستريح ، فإذا بالوفود إليها تترى من مختلف الهيئات والطوائف ، وكنت تعباً مجهداً ، فاذا بهذا الجسم الذى لم يذق النوم إلا لماما يحتمل كل شىء ، وإذا بحيوية تتملك كل جوانحى ونفسى، فأنسى الغداء والعشاء ثم جاء المساء فإذا أمامى مجموعة من الجرائد والنشرات والقرارات ، يتحتم على أن أقرأها لأعلم بنكبة لبنان وما حدث مدة غيابى ، وعكفت على قراءتها حتى حتى منتصف الليل ...

ما الذى حدث ؟

* * *

إن الذى عاش الأيام التى رآها لبنان فى النصف الأول من نوفمبر ١٩٤٣ لا يمكن أن ينساها ، انها أيام الإرهاب الفرنسى ، كان الحكم العسكرى فى كل مكان ، ولا أزال اذكر مرورى من صيدا ، وكيف منعت من دخولها فسلكت الطريق الذى يدور حول المدينة ويخترق حدائقها،لأن الشارع الرئيسى كانت تحتله شراذم الجنود السنغاليين ، كان أثر اطلاق الرصاص واسالة الدماء لا يزال جاثماً على صدور أهالى صيدا .

ولقد جاءنى الأستاذ كاظم الخليل ، وسلّمنى تقريراً مطولا عن تلك الحوادث التى تسببت فى إصابة ٣٢ شخصاً بينهم أطفال صغار .

ان البلدة التى تواجه الموت فى شوارعها ، تلمح فيها روحا يعلو و يغلب قعقعة السلاح وأصوات الرشاشات ، وترى فى عيون المعتدين بريقا يشعرك بأن الجند الذى أطلق الرصاص فى الصباح على الناس ، يخشى مجىء الليل و يترقب السلامة عند طلوع الشمس ، أنه يخاف صاحب الدار وهو عدو رهيب .

وكانت بيروت محتلة فى شوارعها ومبانيها ، تسير فيها السيارات المسلحة ، وتتقابل فيها الدوريات من مختلف الأجناس التى تتألف منها الفرق الفرنسية .

لقد رأيت هذه الجنود أمامى منذ سنة ١٩٣٩ ، وتعرفت على أسلحتها وأرقام الآلايات والفرق ، ورأيتها تحارب فى الميدان ، وكان المستشفى العسكرى أمام شبا كى يتلقى الجرحى ويخرج منه الموتى ، حقاً أن صناعة الموت تحمل معها الحياة ، والقلب الذى يواجه الفناء كل يوم ، هوالذى يستحق أن يعيش أما الذى يخشى الموت فلا يستحق الحياة . أمضيت الساعات أقرأ الوثائق التى أعلنت بها فرنسا هذا الانقلاب المشئوم فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ، أنها تبدأ كما كان يبدأ

الجنرال ماكسويل البريطانى أوامره للمصريين فى سنة ١٩١٤ ...

« أنا جان هللو » سفير فرنسا ، المندوب العام المفوض لفرنسا المحاربة فى الشرق .

أقرر ...

حل مجلس النواب :

أوقف تطبيق الدستور اللبنانى ؛ أعين رئيس دولة ...

يعين رئيس الدولة رئيساً الحكومة ووزراء يكونون مسئولين تجاهه ...

ثم أقرأو : « أيها اللبنانيون » .

« لقد دقت الساعة التى يجب أن يوضع فيها حد للمناورات الطائشة ...

فى هذه الساعة الخطيرة أجدّد لكم علنا عهد فرنسا بأنها لا تزال مصممة على منحكم الاستقلال التام .. » هكذا ... ثم يصدر بلاغ رسمى يقول .

« تحذر دار المندوب السامى الرأى العام من الأنباء الوهمية أو الكاذبة التى تذيعها محطات الأذاعـــة المصرية والفلسطينية مستهدفة أثارة الخواطر والاضطراب » .

ثم يليه بلاغ آخر : « تلقت وكالة روتر عن الحالة فى الشرق بعض الأنباء الكاذبة ، والمندوبية العايا لفرنسا تكذب هذه الأنباء » وأخيراً أسمع :

« هل حصل تدخل مرة فى شئون فلسطين أو الهند البريطانية عندما رأت انجلترا من واجبها اتخاذ بعض التدابير » ، لقد أظهرت هذه البلاغات وقوع أزمة بين الحليفتين بريطانيا وفرنسا .

وفى صباح اليوم التالى لوصولى زارنى وفد من أعضاء المجلس النيابى المنحل وسلّمنى نسخة من المرسوم الذى أصدرته الحكومة الوطنية وقد تضمن ما يأتى :

١ — أن يمارس مجلس الوزراء سلطة رئيس الجمهورية المعتقل .

٢ — أن يقوم نائب رئيس الوزراء مقام رئيسه ويتولى وزارتى المالية والخارجية . وعليه التوقيعات من قرية بشامون .

وسلمنى الوفد صورة من محضر الجلسة التى عقدها مجلس النواب فى منزل أحد وجهاء بيروت[1]، وفيها اتخذ قراراً بمنح الثقة للحكومة الوطنية واحتج على أعمال العنف والعدوان على دار المجلس وبعد خروجه زارنى من رجال السلك السياسى ، وزراء أمريكا والعراق وبلجيكا ، واستمرت الوفود الشعبية تأتى لبعد الظهر وفى الساعة السابعة أبلغت بأن الحكومة السورية ستلتقى بالجنرال كاترو فى اشتورة وأن هذا اللقاء يستهدف غير تناول الغداء تبادل الرأى وأنه سينتج أثراً سيئاً على حوادث لبنان الجريح بل سيترك غيوماً فى علاقات الشعبين الشقيقين .

فأخذت على عاتقى أن أحول دون وقوع هذا الخطأ ، ورغم الأوامر الصادرة بعدم الخروج ليلا ، جازفت بنفسى وخرجت بعد الثامنة ووجهتى دمشق ، ولم تعترضنى الدوريات حتى ساحة البرج ، ومن هناك تبعتنى سيارة مسلحة برشاش ، وعند قرن الشباك انضمت إليها أخرى ، وأمرت السائق أن يقلل من سرعته ، بحيث نسير مع السيارتين فى طابور واحد وسرعة مماثلة ، وقلت له : أى مخالفة لهذا الأمر تعرضنا لإطلاق النيران ، ولا مسئولية على أحد لأننا خالفنا أوامر السلطات العسكرية ، وعندما وصلنا « عالية » (حيث يوجد طريق منها ينحدر إلى بشامون) وقفت إحدى السيارتين المدرعتين ، واكتفت الأخرى بملاحقتنا

وكانت جميع الطرق محروسة وقد ظنوا حتى تلك اللحظة أننى أراوغهم وعند مرتفع ظهر البيدر ، توقفت الثانية عن السير وراءنا ، حينما تأكدت أن طريقنا إلى دمشق لا إلى حكومة الجبال ....

ووصلت عاصمة سوريا فى الحادية عشرة مساء، وما كدت أدخل قاعة الطعام

---

(١) هو منزل آل سلام : ومنهم رئيس الوزارة الصديق صائب سلا ..

بفندق أوريانت حتى لمحت سعد الله الجابرى ، فتوجهت إليه رأساً ودار حديث قصير أعلمته فيه بما أتيت من أجله وسلمته صورة من احتجاج مصر على حوادث لبنان ، وطلبت إليه أن يكون احتجاج سوريا فى أسلوب لا يقل قوة عن احتجاج بقية البلاد العربية ، وأن حوادث لبنان امتحان لقوة النظم الديمقراطية ، وأن أىّ تساهل سيعرّض كيان سوريا نفسه للأخطار ، وانتقلت إلى اجتماع اشتورة فقلت له : « كيف يقبل رجال الشام تناول الطعام على أرض الوطن اللبنانى الجريح وهو فى محنته » ولما لمس الجدّ فى حديثى قام فى الحال إلى دار رئيس الجمهورية ووعدنى وعداً أكيداً أن يمهد لعمل حاسم .

ونمت ليلة هادئة ، وفى الساعة السابعة ، دق باب حجرتى ، فإذا بوزير الخارجية الرئيس جميل مردم ، يخبرنى بأن دعوة « اشتورة » قد ألغيت وأن المقابلة ستكون فى بيروت ، وسلمنى صورة من المذكرة التى وضعتها حكومة دمشق بدل المذكرة التى كانت تنوى إرسالها .

وحمدت الله على أن المخاطرة فى بعض الأحيان قد تكون فيها منجاة وقد تكون خير حافز للنفوس العاملة على أخذ الأمور بالحزم والعزيمة .

* * *

وعدت فى المساء إلى بيروت ، وفى اليوم التالى زارنى الوزير البريطانى الجنرال سبيرز ، أو علمنى أنه تلقى من مركز الجيش التاسع البريطانى الذى يتولى قيادته الجنرال هولمز مايفيد بأن الجيوش الفرنسية تحرّكت صوب بشامون حيث تقيم الحكومة الوطنية وأن بعض القطع العسكرية ركبت رشاشات ومدافع سريعة الطلقات على بعض أكمات الجبال ،وأن رجالا من الجيش البريطانى سمعوا تبادل إطلاق النيران .

ولما كانت المعلومات التى لديه تجعله يعتقد باستحالة المقاومة من جانب اللبنانيين لعدم تكافؤ القوى ، فهو يخشى أن يقبض على رجال الحكومة الوطنية

ويعاملون كثوار ، ولذا تشاور مع رؤساء الهيئات السياسية المعتمدة لدى الجمهورية اللبنانية على قبول كل من يلجأ إلى دور المفوضيات . فقلت له أنني مستعد لقبول أربعة من زعماء الحركة إذا طلبوا منى ذلك « فقر الرأى على أن يكون صبرى حمادة وثلاثة من نصيبي، وحبيب أبو شهلا والأمير مجيد ارسلان من نصيب البريطانيين » .

ووعد بأن يرسل سيارة عسكرية لحملهم إلى فلسطين بمجرد وصولهم إلى بيروت وقضائهم الليل بالفوضيات ، ثم تحرسهم قوة من الجيش التاسع .

وكان مما قلته له : « أن موظفى القنصلية البريطانية العامة لجأوا إلى مفوضيتنا حينما كانت قنصلية عامة يوم أن قامت الحرب بين جنود بريطانيا وحكومة فيشى فلم أتردد لحظة واحدة فى حمايتهم تحت العلم المصرى حتى جاء القنصل العام الأمريكى « المستر انجرت » وتسلمهم بعد الساعة العاشرة مساء من دارنا فكيف أتردد فى قبول وحماية رجال وطنيين يدافعون عن بلادهم وكرامتهم » .

وفى نفس الوقت جاءنى رسول من الحكومة الوطنية يحمل نسخة من بلاغ أصدرته عن حادث الجنود الفرنسيين وأسباب تبادل الطلقات النارية ويحمل إلى تحيات رجالها وثباتهم إلى النهاية .

وفى اليوم التالى بلغنى من أوثق المصادر العسكرية أن أوامر الجنرال هولمز قد صدرت إلى القوة الفرنسية بالعودة إلى مراكزها التى كانت تحتلها وأن القيادة الفرنسية شرحت الموقف لقيادة الجيش التاسع وتتلخص إجابتها فى ان العمليات التى قامت بها لم يقصد منها الالتحام بالوطنيين اللبنانيين ، وإنما كانت القوة تقصد فى تحركاتها وحشودها حماية مستودع للذخيرة فى تلك الجهات وكانت تخشى أن يقع بأيدى الثوار : لقد أنقذ هولمز حكومة لبنان الوطنية بموقفه الحاسم .

وفى ذلك اليوم بالذات بعث الجنرال كاترو مبعوثاً هو المسيو بار الموظف بدار المندوب السامى أرسله إلى الحكومة الوطنية اللبنانية لمفاوضتها على أسس الاتفاق فتمسكت بعودة الحالة إلى ما كانت عليه قبل ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ أى قبل الانقلاب الفرنسى . وأحتل كاترو المكان الأول وبدأت الأزمة تسير فى طريق الحل ...

كسب الحرب يحتم على الدول الديموقراطية الكبرى أن تسهر على حماية سيادة الوطن

سيجد القارىء فى خلال قراءته لهذه المذكرات و بين سطورها تفسيراً للحوادث التى مرت عليه فى القسم الأول[1] منها ، وهوالذى عرضت فيه العوامل النفسية التى كنت أعيش تحت تأثيرها ثم ما تلاها من الحوادث فجاءت أمامه كشريط انطبعت عليه عدة صور لما رأيته فى تلك الأيام ، وسيطلع القارىء فى هذا القسم على شرح بعض ما جاء غامضاً ، وعلى الأخص الظروف التى جعلت الفرنسيين يحجمون عن مداومة اطلاق النيران فى رابية بشامون، حينما وجه إليهم الجنرال هولمز البريطانى قائد الجيش التاسع ، أمراً عسكرياً يستعلم فيه عن حركات جنودهم والغريب أن هذه الحوادث أثارت العالم ا كله وتحدثت عنها الصحف فى مشارق الأرض ومغاربها ولكن حينما يتحدث السياسى الأمريكى المشهور المستر سمنر ويلز عن انقلاب لبنان سنة ١٩٤٣ فى كتابه « هذا الزمن الحاسم » تقرأ فى صفحة ٢٠٥ أنه يخلط بين سوريا وشقيقتها لبنان فهو يصر على أن الانقلاب وقع فى سوريا ويقول « ان الجنرال ديجول باشتراك المسيو هيللو أمر بالقبض على رئيس جمهورية سوريا ووزرائه » وسمى هذا القرار عملا بعيداً عن اللياقة وإن كان ما جاء فى كلامه — لو شئنا ترجمته حرفياً — أشد وقعاً من هذا بكثير إذ يصف من أصدر هذا الأمر بالغباوة والسخف .

وتهمنا الفقرة هذه بالذات لأنها تقنعنا بأن السياسيين العالميين يضعون خطوطاً عامة للسياسة العالمية وليس لديهم من الوقت ما يسمح لهم بأن يشغلوا أنفسهم ببحث أو فهم مسائلنا الكبرى فكيف نطلب منهم أن يلموا بمسائلنا الصغرى . إننا نطلب المستحيل ونبدو لهم أحياناً فى منتهى البساطة . . . وأظن أن فى هذا القدر الكفاية .

---

(١) مصر تواجه أحداث لبنان صفحة ٦٥ .

لقد أعطيت للقارىء فى الحديث الماضى صورة عن الحالة التى عشتها فى الأيام الأولى وقد قال بعض خصومى أننى أعطيت لنفسى لوناً براقاً والحقيقة المجردة عن أى مبالغة هى ما رسمته ، ولقد أشرت إلى توالى اجتماعات الممثلين السياسيين المعتمدين لدى الجمهورية اللبنانية أو الذين اعترفت حكوماتهم باستقلال لبنان ، وكانت هـذه الاجتماعات تدور غالباً فى السفارة الأمريكية أو فى المفوضية المصرية ، ويرجع أكثر نشاط الممثلين إلى الروح التى أوجدها المستر ودذورث الممثل الأمريكى وليس لى أن أوفيه حقه هنا ، لأنى سأفرد لشخصيته ومكانته وأثره مكاناً خاصاً عند نشر كتابى « خمس سنوات فى سوريا ولبنان » كما أشير إلى المسيو ديلكوين الممثل البلجيكى الذى أمضى سنوات بمصر ، فقد كانت اتصالاته المباشرة والطيبة مع الفرنسيين خير معوان لزملائه على تفهم وجهات نظر هؤلاء أما المفوضية المصرية فيكفى أن أقول أنها أصبحت مرآة صادقة لروح الشعب اللبنانى بأحزابه وطوائفه وعناصره بشكل لم يعرف من قبل ، وانى لا أزال أحتفظ بعلاقات وثيقة ولا أنسى ما حييت عواطف اللبنانيين والسوريين الأحرار نحوى حينما تركت البلدين ، ولذلك احتلت المفوضية مكاناً مرموقاً واتجهت إليها الأنظار والآمال ، وكانت منها تصدر الأخبار الصحيحة التى تعبر عما يجيش بصدور أهل لبنان و بلاد العرب كافة . . . .

وقد تبين لى من استعراض الحوادث أننا أزاء أربعة اتجاهات أو حلول :

أولا : حل تفرضه فرنسا وحدها للخروج من المأزق ، وهذا يمثل رغبة الجنرال ديجول ولجنته بالجزائر .

ثانياً : حل يقبله لبنان من جهة ويتم على أيدى الفرنسيين والإنجليز مشتركين من جهة ثانية .

ثالثاً : حل يتم بين لبنان مع اتفاق الدول الكبرى : فرنسا وانجلترا وأمريكا .

رابعاً : حل يتم بين لبنان وهـذه الدول الثلاث مع اشتراك الدول التى اعترفت باستقلاله ويكون خطوة أولى لظهور ميثاق الأطلنطى وفـكرة الأمم المتحدة فى ميدان السياسة العملية لأول مرة .

إن الأمم العربية قامت بإرسال احتجاجها وتظاهرت جماعاتها ضد الانقلاب ولم تـكن تملك غير هذا للتأثير فى المحيط الدولى فهى فى الحقيقة كانت تسير فى فلك السياسة العالمية التى تضعها بريطانيا وأمريكا ، وقد كان أكرم لعزتها أن تسير فى هذا الطريق الأخير وأن يأتى عملها مطابقاً للنظام الذى سيتمخض عنه العالم الجديد وهو نظام الأمم المتحدة والذى كانت تباشير مجيئه على ألسنة السياسيين وكان هذا رأيى دائما ، وهو ما سرت عليه فى مباحثاتى ومواقفى بكل صراحة وجرأة.

ولم يشأ الجنرال اسبيرز أن يشترك فى المباحثات والاجتماعات التى كانت تدور وإن جاء تعبيره عن رأى حكومته واضحاً بصورة لا تقبل الشك ، فهو يصرح لنا من أول يوم : « بأنه غير موافق بتاتاً على حصر المسألة بين فرنسا ولبنان وهو مندهش من تصرفات بعض رجال الإنجليز فى الجزائر الذين يقولون بهذا القول ، وكان يشير دائماً بأن الفرنسى يصعب عليه أن يسلم بما فى يديه وأنه غير واثق من النتيجة حتى بعد إيقاف إطلاق النيران ، ولذلك احتاط لكل أمر واستعد لكل مفاجأة » وكان مما قاله لى بعد عودته من القاهرة :

« لقد تأخر الجنرال كاترو بالقاهرة فى سفره إلى بيروت التى وصلها يوم ١٦ نوفمبر ، وتحادث مع المستر كايزى هناك مرتين ليكسب الوقت ولـكنه شعر من أول مقابلة أن الاعتذار دائماً بعرض الأمر على لجنة الجزائر أمر لن يجدى شيئاً هذه المرة » .

« فأما أن يكون الجنرال كاترو مفوضاً لحل الأزمة وإعادة الدستور اللبنانى والإفراج عن رئيس الجمهورية والحكومة المعتقلة ، وإلا فليترك لجنة الجزائر الفرنسية تتلقى اللطمات بمفردها نتيجة لأخطائها » .

« أن الجنرال ديجول لأسباب داخلية فرنسية ، يلجأ أحيانا إلى إستعمال كلمات نابية وعصبية ، ونحن نعلم حاجته لذلك ، ولكن لا تقنعنا هذه الأساليب لكى تؤثر على سياستنا فى لبنان الذى اعترفنا باستقلاله فأما أن يحصل لبنان على حقوقه وتعود إليه كاملة مع الضمانات الكافية بحيث لا تنزع من يده مرة أخرى وأما أن انسحب كممثل لبريطانيا من الميدان وأعود لبلادى » ، وفى مقابلة ثالثة صرح لى : « بأن العالم الجديد الذى نحارب من أجل الوصول إليه ، لن يقبل هذه الأساليب مرة أخرى فى السياسة كوسيلة لحل المشاكل التى تعرض . أن كسب الحرب القائمة يحتم على الدول الديموقراطية الكبرى أن تسهر على حماية ميثاق الأطلنطى وتنفيذه ، وأن تغرس الثقة فى نصوصه وتتعهدها لدى الشعوب المتطلعة إلى الحرية ، وأن يكون هدفها تأييد استقلال هذه الأمم فتساعدها على الوصول إلى حقها فى تقرير المصير والتمتع بمنزلة الأمم الحرة » .

« إنه من العار علينا أن نتراجع أمام أول امتحان تعرض فيه المبادئ التى نحارب من أجلها للتجربة القاسية . كيف ينتظر الساسة منا أن يصدقنا العالم بعد ذلك ؟ . إننا دخلنا هذه التجربة القاسية ونحن على علم بمتاعبها ، لأن الدعاية قائمة ضدنا فى كل مكان ، وقد بعثت الأساليب الكلاسيكية البائدة التى تعتمد على إثارة النعرات الدينية ، والتفرقة بين المسلمين والمسيحيين ، ولكننى واثق من أن شعب لبنان سيتغلب على هذه العقبات . لأن هذه الأساليب لم تعد تنطلى عليه . نعم إن الموقف لا يزال خطيراً ، وستمر أيام صعبة ، ولكن النتيجة التى أمامنا واحدة . وهى العودة إلى النظام الذى كان قائماً فى ١٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ . لقد أرسلنا احتجاجاً فى صيغة معتدلة إلى الجزائر ، ولم تكن عباراته تنم على شئ ، ولكننا اضطررنا أن نهدد بعد ذلك ، وجاء موقف المستر تشرشل حاسما ، وقد عرضه على المستر روزفلت الذى رحب به ، ولذلك أعطيت مهلة تنتهى فى يوم ٢٢ نوفمبر الساعة الثانية عشرة ، فإذا لم يتمكن الفرنسيون من إعادة الأوضاع السابقة

فى الجمهورية اللبنانية ، أعلنت الأحكام العرفية البريطانية ، فى أراضى كل من سوريا ولبنان وتولى الجيش التاسع حماية الأمن واضطلع بمسئولياته » .

* * *

أما الوزير لاميركى فكانت نظريته تتلخص فى أنه لا يوافق على ترك الأمر بين فرنسا ولبنان ولا يسلم بتاتاً بالنظرية القائلة بأن تنفرد كل من فرنسا وبريطانيا من جهة لحل المسألة اللبنانية وهو يميل إلى الرأى الذى تقدم به الرئيس مصطفى النحاس والذى يقضى بإقرار حالة مؤقتة بين لبنان من جهة ومجموعة الدول المتحدة ومنها فرنسا من جهة أخرى .

إن هذا الاقتراح العملى يدل على إيمان صاحبه بالمثل العالية وتصميمه على تطبيقها فى علاقات الشعوب وهو رأى له وجاهته » .

ويقول « إن كل السلطات مهما كان نوعهما سواء كانت لبنانية أو فرنسية أو بريطانية تتضاءل وتنكمش أمام سلطان القيادة العسكرية للحلفاء وضرورات الحرب القائمة » .

وفى لبنان يعتبر الجنرال هولمز قائد الجيش التاسع ، هو صاحب الرأى الأعلى لا لأنه قائد بريطانى ، بل لأنه يمثل الأمم المتحدة فى أراضى سوريا ولبنان » .

« فالفرنسيون يتولون بعض الأمور الإدارية والمالية الممثلة فى المصالح المشتركة والأمن العام ، وهم يقومون بهذه السلطة غير معتمدين على صك الانتداب كما يخيل إليهم ، بل قد أسندت هذه المصالح إليهم بالوكالة عن القائد المذكور الذى يتحمل وحده أمام الأمم المتحدة المتحالفة مسئولية الدفاع عن هذه الأراضى ، وعبء القتال إذا ما هوجمت البلاد ، وأول ما يعنى به هو سلامة الجيوش الحليفة فى أنحاء سوريا ولبنان واستتباب الأمن والنظام هنا ، ثم على عاتقه يقع واجب حماية المواصلات وتسهيل الانتقال للوحدات المختلفة وتموينها ، وهو فى قيامه بوظائفه هذه تخضع له الوحدات العسكرية [1] التى وافقت الأمم المتحدة على وجودها هنا ، وهو يستعين

(١) أى بما فيها من وحدات حكومة فرنسا الحرة . .

بالفرنسيين فى شئون المواصلات البرقية والتليفونية وله أن يكلفهم بما يشاء » .

« ولذا فإن أى تغيير يطرأ على الحالة الراهنة وتتعرض بواسطته سلامة الجيوش للخطر أو حدوث ما من شأنه أن يؤثر فى الوضع العسكرى الذى تهتم به الأمم المتحدة بأكملها يمس مسئوليات الجيش التاسع الذى يمثلنا جميعاً هنا ، ولولا وجوده فى هذه البقعة ، لما قامت لفرنسا الحرة قائمة فى البلاد ، ولولا وجوده لما قام استقلال لبنانى ولا دستور ولا حكومة نيابية حرة فى أنحائه » .

« إن البلاد العربية بأكملها نعدها جزءاً من الأمم المتحدة المتحالفة معنا ، فهى من حقها أن تتأثر بحوادث لبنان وأن تمثل فى أى اجتماع يعقد مدة الحرب ، لينظر فى إيجاد حل لمشكلة كل من سوريا ولبنان اللذين يجب أن يتمتعا باستقلال تام . فالمصالح المشتركة لا يصح أن تبقى بيد الفرنسيين لأن بقاءها يتعارض مع الاستقلال الذى اعترفت به الدول الديمقراطية ، وقد أصبح واضحاً أن المسيو هيللو هو الذى أثار المشكلة الدستورية لكى يضمن بقاء هذه المصالح بأيدى دولته » .

ومن رأى الممثل الأميركى « أن السلطة المعطاة لقائد الجيش التاسع تكفى لأن تمكنه من أن يصدر أمره إلى جميع الوحدات الفرنسية بالعودة إلى معسكراتها وثكناتها ، أنه يعلم أن لديه من القوات العسكرية الكافية ما يسمح له بتنفيذ قراراته دون أن تهرق نقطة واحدة من الدماء ، وأظن أن الجنرال كاترو والقواد الفرنسيين يفهمون هذه الحقيقة الواضحة ، أكثر من فهم رجال السياسة الفرنسيين والدبلوماسيين لهذه الحقائق » .

وفى هذه الاجتماعات عبرت عن رأيى فقلت أن الشعوب العربية فى نهضتها وكفاحها تحاول أن تخرج من هذه الحرب تحت نظام ديموقراطى صحيح أى تحيط حق الفرد والجماعة لدينا بضمانات لا تقل عن الضمانات الذى يتمتع بها أى مجموع أوروبى أو أميركى ، وأننا فى سبيل اقرار هذه النظم الديموقراطية ، وضعنا كل جهودنا مع الدول المتحالفة لاقرار عودة الدستور فى البلدين سوريا ولبنان وإيجاد

حكم وطنى منبثق عن ارادة شعبية وقد بحثنا فى ذلك . فالاعتداء على هذه الأنظمة الديموقراطية فى لبنان هو اعتداء صارخ على المجموعة العربية بأكملها إذ يعرضها للاخطار والنكسات الرجعية ويحرمها من حقها الطبيعى للتمتع بالرفاهية والاستقرار الملازمين لأى وضع أوربى أو أميركى يستمد قوته من إرادة الشعوب ورغبتها لكى تعيش حرة حتى تؤدى رسالتها وتسير نحو الرقى والمدنية . فنحن نطالب العدالة للشعب اللبنانى والضمانات الكافية لكى يعيش حراً سيداً فى بلاده ..» .

« ولذلك قامت مصر بأسرها وارتجت لهذه الحوادث وعبرت بلسان ملكها وحكومتها وشعبها بأنها لن تقف إزاء هذا الأمر مكتوفة الأيدى ، وقد صرح رئيس الحكومة المصرية بأنه سيعيد النظر فى علاقات مصر مع فرنسا إذا لم تحل هذه الأزمة بما يتفق مع كرامة الشعب اللبنانى واستقلاله التام » .

* * *

هذا هو موقفنا ورأينا الذى عبرنا عنه كما ورد فى المفاوضات التى كنا نتداول الرأى فيها وعلى ضوء المذكرات المقدمة منا والتطورات التى تقع كل يوم ، وقد بقى موقف الحكومة السورية أمام الممثلين السياسيين موضع تساؤل وإن كنت أطلعتهم على صورة مذكرة الاحتجاج التى سلمنى اياها الرئيس جميل مردم ، وقد تولى الجنرال كاترو فى مذكراته تحديد موقف دمشق فى تلك الأيام بوصفه — نقلا عن الجنرال أوليفا روجية — إنه كان معتدلا ، ولقد كان هذا موضوع سؤال وجهه إلى المرحوم رياض الصلح أمام رئيس الجمهورية اللبنانية فى منزله بعد الافراج عنهما فكانت اجابتى عامة ولم أدخل فى تفاصيل ما قمت به فى دمشق . وذلك لقرب الحوادث ، ولأن المصلحة كانت تقضى بهذا الصمت حرصاً على كرامة سوريا التى احتجت وأظهرت تضامنها معنا بعد ذلك وغيرت فى موقفها المعتدل بعد تدخلى الذى أشرت إليه .

وقد ذكر الجنرال كاترو أن الحكومة السورية بقيت محتفظة بموقفها

المعتدل مدة من الزمن ، وأن الصحافة السورية بعكس صحافة بغداد والقاهرة لم تهاجم فرنسا بشدة وقسوة ، وأنه بعد يوم ٣٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ حينما علمت الحكومة السورية بخبر الإنذار البريطانى الذى وجهه المستر كيزى إلى السلطات الفرنسية ، بدأت تغير موقفها .

ويزيد على ذلك قوله « أن طلب المقابلة فى بيروت تقدم به الرئيس جميل مردم » والحقيقة أن موعد المقابلة تحدد فى يوم ٢١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ فى اشتورة بناء على طلب الجنرال ، أما إلغاء الدعوة وطلب إجراء المقابلة فى بيروت فكان بناء على طلب وزير الخارجية السورية ، وقد تم هذا عقب زيارتى لدمشق ومقابلتى لسعد الله الجابرى ، وبعد مجازفة خطيرة ، وفى بيروت سلم الرئيس جميل مردم الاحتجاج السورى إلى الجنرال ، وفى هذا الاحتجاج تلح الحكومة السورية فى عودة الأوضاع اللبنانية إلى ما كانت عليه قبل ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ كما جاء فى المكاتبات الرسمية والاحتجاجات التى وجهتها حكومتا مصر والعراق .

والحقيقة أن موقف الحكومة السورية فى الأيام الأولى من الانقلاب كان يدعو إلى الحيرة .

* * *

وأعود الآن إلى الجانب الفرنسى وشرح موقفه بعد الانقلاب :

يقول الجنرال كاترو أنه فى يوم ١١ نوفمبر سنة ١٩٤٣ حول الساعة الخامسة مساء حينما عاد إلى مكتبه بمدينة الجزائر بعد أن انتهى من مراسم حفلات عقد هدنة سنة ١٩١٧ سلم إليه مساعده فى الشئون الإسلامية روبرت مونتاين تلغرافاً من شركة روتر يقول « أن الدستور اللبنانى قد أوقف وأن رئيس الجمهورية اللبنانية وبعض رجال حكومته قد قبض عليهم » ولما لم يكن قد وصل إليه أى نبأ عن طريق هيللو فقد هز كتفيه قائلا : « لقد زادها حقاً روتر هذه المرة » .

بهذا الحديث المقتضب دخل الجنرال فى صميم الحوادث اللبنانية ، وبالاطلاع

على مذكرات المستر كورديل هل الوزير الأمريكي ، نجد أن حكومة الولايات المتحدة أرسلت تعليمات صريحة إلى المستر مورفى ممثلها بالجزائر فى ٩ نوفمبر سنة ١٩٤٣ لكى ينصح الفرنسيين باتخاذ الإجراءات التى تدعم الاستقلال السورى واللبنانى ، وأن أى إجراء يعطل هذا الاستقلال سيحيط مبادئ وأهداف الأمم المتحدة بالشكوك : ولكن لجنة الجزائر لم تحفل بذلك أو أن مورفى تلكأ فى إبلاغها هذه النصيحة .

وفى نفس اليوم الذى تلقى فيه الجنرال كاترو هذا النبأ دعاه الجنرال ديجول لبحث الحالة على ضوء التطورات المحلية والدولية .

ويصرح بأنه شعر من أول وهلة بأن الحالة جد خطيرة من ناحية المبدأ ومن ناحية النتائج وما يترتب عليها من آثار والتزامات فهى من الوجهة القانونية لا يمكن الدفاع عنها ، لأن فرنسا ألغت الانتداب ، وأقامت نظاماً شبه استقلالى وحياة دستورية ، فالقبض على رئيس الجمهورية بعد هذا الاعتراف بالاستقلال أمر لا يقره أى عدل أو منطق ، فكيف يمكن الدفاع عنه . أما الآثار السياسية لهذا العمل ، فستكون ازدياد التعاون والتماسك بين البلاد العربية ، وفتح الطريق أمام الجنرال اسبيرز لكى يتمكن من توجيه ضربات للسياسة الفرنسية . فالواجب يقضى باقلال آثار هذا الخطأ ، وحصرها حتى لا يتضخم فتتوالى الأخطاء والنكبات ، وبهذا عرض على الجنرال ديجول فكرة سفره مع المسيو ماسيلى إلى بيروت .

ولقد توقع من المبدأ حدوث التدخل البريطانى ، وفعلا تم هذا بمذكرة قدمها المستر ماكنزى تبدأ بقوله : « لا يسع الحكومة البريطانية أن توافق على ازدياد حالة التوتر فى الشرق ، ولا يمكنها أن تقف مكتوفة الأيدى أمام أى اضطراب للأمن إبان قيام الحرب فى تلك البلاد ، ولذلك فهى تدرس بانتباه ، هل تدعو الضرورة إلى إمكان تدخل القوات البريطانية واستعمالها لإعادة الأمن ؟

وتطلب الحكومة البريطانية استدعاء المسيو هيللو وإخلاء سبيل رجال الحكومة اللبنانية ؟ .

وقد نظر الجنرال كاترو إلى هذه المذكرة نظرة الرجل السياسى الذى يخترق الحجب ، فهو يقرر أن الأحوال اللبنانية لا تكفى وحدها لإملائها ، وإنما الدوافع الأصلية هى اتجاهات السياسة العربية التى أخذت بها بريطانيا فى الحرب العالمية الثانية . ولا يخفى رأيه فى موقف الولايات المتحدة الأمريكية ، التى قال عن مذكرتها أنها وضعت فى قالب وأسلوب أقل حدة ، ولكن هذا لا ينفى اعتقاده بأن الولايات المتحدة سوف تنهج فى سياستها نفس الطريق الذى تسير فيه بريطانيا وتلك هى سياستها دائماً حينما يتعلق الأمر بشئون الشرق الأدنى التى تستوحى فيها توجيهات رجال الاختصاص البريطانيين .

ولقد صدقت فراسة الجنرال فى ذلك ، لأن كورديل هل حينما يتحدث فى مذكراته عن حوادث لبنان يقول : « أنه شرح الموقف تماماً للرئيس روزفلت الذى كان يستعد للسفر إلى القاهرة ، لكى يتبادل الرئيس الأمريكى الرأى مع المستر تشرشل فى مسائل الشرق بأكملها » . فجاءت من الرئيس برقية إلى وزير الخارجية الأمريكية لمستر كورديل هل تاريخها ٢٠ نوفمبر سنة ١٩٤٣ أى فى إبان اشتداد الأزمة اللبنانية نصها : « أظن أنه من واجبنا أن نشد أزر بريطانيا فى موقفها إزاء حوادث لبنان وأن نجتهد بأن نزيد من قوته » وفى هذه البرقية ما يؤيد النظرة الصحيحة التى لمسها الجنرال الفرنسى من مجرى الحوادث السياسية التى كانت أمامه ، وهى نظرة منطقية واقعية وتعتبر إلى الآن قاعدة دائمة من قواعد السياسة الدولية حينما يتعلق الأمر بشئون هذا الشرق الذى لم يصل به الإدراك إلى فهم هذه الحقائق .

ترك الجنرال كاترو الجزائر فى ١٤ نوفمبر سنة ١٩٤٣ ووصل فى مساء ذلك اليوم إلى القاهرة ، حيث استقبله البارون دى بنوا مندوب فرنسا الحرة ومدير

شركة قناة السويس والمسيو فيليول الذى كان يشغل حتى السنوات الأخيرة منصب قنصل فرنسا بالثغر الاسكندرى .

ولقد حدثناه عن الأثر الذى تركته حوادث بيروت فى القاهرة وأن الصحافة بوحى الرئيس مصطفى النحاس و إلهامه هاجمت الاستعمار الفرنسى . وأن المظاهرات الشعبية قامت فى الإسكندرية وأن الزعيم المصرى ينادى بإعادة النظر فى العلاقات بين مصر وفرنسا و يهدّد بقطعها عند اللزوم .

وفى يوم ١٥ نوفمبر تقابل الجنرال مع كايزى الذى بدا له وهو فى حالة مضطربة لتأخر الجنرال عن اللحاق سريعاً بلبنان خوفاً من ازدياد التوتر ووقوع الاصطدام .

ويقول الجنرال كاترو أنه أفهم المستر كايزى أنه لايقبل أن يدعى إلى إجراء أى عمل معين بالذات ولا يسلّم بأى تدخل خارجى ، وأن سفره إلى الشرق هو دليل اهتمام الحكومة الفرنسية بلبنان ورغبتها فى جعل الاستقلال حقيقة واقعة .

ولما سأله عن رأيه فى الحل الذى سيعرضه ، أجاب بأنه سيقرر هذا الحل فى لبنان حينما يدرس الحالة هناك . وفى هذه المقابلة جاء ذكر نقل المسيو هيللو ، فأعرب للجنرال أنه فى هذه الحالة ينقل كل من هيللو واسبيرز ، وتنتهى المشاكل فى الشرق بين الدولتين .

وبعث الجنرال كاترو من القاهرة ببرقية إلى الجزائر تتضمن أقواله مع المستر كايزى جاء فيها « إن غرض كايزى الأساسى هو توجيه أنظارى إلى تطور الحالة فى لبنان وخطورتها ، وأن على إنهائها يتعلق بقاء العلاقات بين اللجنة الفرنسية وحكومتى انجلترة وأمريكا ، لأن واشنجطون اتخذت موقفاً متفقاً مع الموقف البريطانى تماما ، فأعلمته بأننى أضع علاقاتنا مع أمريكا و بريطانيا فى المقام الأول ولكننى أضع كرامة بلادى وحقوقها فى مقام لا يقل عن ذلك » .

« وأني لعلى يقين بما تخسره فرنسا إذا قطعت علاقاتها معكم ، ولكني واثق في الوقت نفسه بمدى ما سوف تخسره كل من بريطانيا وأمريكا إذا حدث شيء مثل هذا » .

وترى أن الصورة التي يعطيها الجنرال في مذكراته عن حديثه مع الوزير البريطاني المقيم بالقاهرة تختلف تماماً عن الصورة التي تلقتها المفوضية البريطانية في بيروت ، وإن كنت تلمح في مقدمة برقيته وفقرتها الأولى ما يؤكد صحة المعلومات التي تحدث بها اسبيرز للمثلين السياسيين في بيروت .

وفي مساء يوم ١٦ نوفمبر وصل الجنرال كاترو إلى بيروت ليبدأ مهمته .

وفيها بدأ اتصالاته مع العسكريين الإنجليز والأميركيين والفرنسيين ثم مع رجال السياسة اللبنانيين.. وانتهت كما رأينا بإعادة الأوضاع السياسية إلى ما كانت عليه والإفراج عن رئيس الجمهورية ورئيس الوزارة ...

مذكرات الجنرال ڤيجان
المدعو إلى الخدمة

القسم الأول

بين يدى الكتاب القيم الذى وضعه فيجان عن الحرب الأخيرة وسماه : « العائد إلى الخدمة » فكأنه فرض على نفسه أن يكون جندياً بسيطاً لا قائداً من القواد . فهو يقول عن نفسه « العائد إلى الخدمة » ولا يقول المدعو إلى شرف التضحية وهلم جراً من الأسماء والمسميات التى اعتدنا أن نقرن بها كل عمل — مهما كان بسيطاً أو سهلا — قمنا به أو دعينا إليه فاستجبنا .

ويعجبنى أنه وضع اسمه مجرداً عن رتبه وألقابه واكتفى بأكبر شرف فى نظره وهو عضويته للأكاديمية الفرنسية وهنا لم يذكر هذا ، بل اكتفى بأن قال : « فيجان من الأكاديمية الفرنسية » .

* * *

بدأت قراءة هذا الكتاب القيم بتمهل وتمعن ، وأخذت أقلب صفحاته فى القسم الأول الذى يأتى كمقدمة وهى التى سماها القائد الفرنسى : « مهمتى فى الشرق الأدنى » — وهذا القسم هام فى نظرى لأن ظروف عملى هيأت لى الاتصال بالجنرال والمعيشة والعمل فى البلاد التى كلف فيها بهذه المهمة الخاصة .

ولذلك كنت أقرأ كل صفحة ممعناً وأتعرف بعد تلاوتها على الأشخاص والحوادث مرة أخرى ، وكانت إقامتى هناك قد شجعتنى على أن أنشر كلمة كتبتها عن فيجان منذ زمن طويل ونشرتها بالعدد ٦٥٢ المؤرخ ١١ فبراير سنة ١٩٤٦ من مجلة الرسالة تحت عنوان : « صفحات مطوية — الجنرال فيجان فى سوريا ولبنان » . وأود لو أعيد نشرها كمقدمة لهذا الكلام من غير تبديل أو تغيير ،

وللقارىء الكريم أن يعود إلى هذه الكلمة فى العدد الذى نشرت فيه (السنة ٦٤ من الرسالة) .

ويقول الجنرال فيجان أنه وصل إلى سن التقاعد والخروج من الخدمة فى ٢١ يناير سنة ١٩٣٥ ، ومع ذلك فقد احتفظت به فرنسا بعد هذا التاريخ فى الخدمة بالجيش مكافأة له على ما قدم من خدمات إبان الحرب العالمية الأولى ولكن هذا لم يمنعه أن ينقطع بإرادته عن حضور كافة المجالس واللجان العسكرية التى كانت تعقد وذلك حرصاً على ألا تمس حساسية من جاء بعده فى مركزه وكان هذا رغم اهتمامه الكلى بالمسائل العسكرية الكبرى وانصرافه إلى درس شئون الحرب دراسة ملأت سنوات حياته بأكملها .

ومضت الأيام فلم تمكنه من أن يقوم بعمل رسمى سوى تمثيل بلاده على رأس البعثة العسكرية الخاصة التى أرسلتها فرنسا فى شهر ابريل سنة ١٩٣٩ لحضور حفلات زواج ولى عهد إيران ، وفى أثناء عودته من طهران كلفته حكومته بمحادثات مع الحكومة التركية ومع ملك رومانيا .

وهكذا بقى بعيداً عن الحوادث حتى جاء شهر أغسطس سنة ١٩٣٩ حيث كان يقضى فصل الصيف مع عائلته فى بريتانيا الفرنسية ، إذ جاءه فى يوم الثلاثاء ٢٢ من هذا الشهر كتاب من الجنرال « جاملان » بدعوة لمقابلته بغير إمهال فى باريس ، وفى اليوم التالى لبى هذه الدعوة وتقابل مع جاملان فى مكتبه برياسة أركان حرب الجيش الفرنسى ، وقد فهم فيجان منه أنه يعرض عليه مركزاً عسكرياً هاماً فى الشرق الأدنى ، ويقول جاملان أنه لم يشأ أن يتقدم بهذا العرض قبل أن يتأكد من قبول الجنرال لهذه المهمة ، ويقول فيجان أنه أبدى استعداده من غير تردد لتحمل عبء هذا المركز العسكرى .

ويفسر قبوله هذا المنصب بأنه منذ شهر سبتمبر سنة ١٩٣٨ وفى إبان اشتداد الأزمة الأوروبية وتعرض العالم لانفجار الحرب ، تقدم بطلب إلى وزير الحرب

يعرض خدماته فى حالة إعلان الحرب واشتباك القتال خصوصاً وأنه يعد ضمن الـكادر العامل للجيش مدفوعاً بشعوره رغم تجاوزه السبعين من عمره إذ بوسعه أن يقوم بخدمة بلاده ولا يريد أن يبقى بغير عمل فى الوقت الذى يحس فيه بقدرته على عمل شىء ما ، وهو فى عرضه هذا لا يريد أن يتولى عملا معيناً أو قيادة خاصة ، وإنما يقبل بكل ترحاب أى عمل يسند إليه .

أما هذا العرض الذى جاء إليه سنة ١٩٣٩ فيعيده إلى منطقة سبق له أن عمل فيها بين سنة ١٩٢٣ — ١٩٢٤ لما تقلد مركز المندوب السامى للجمهورية الفرنسية فى بيروت ، وهو يسره أن يستعيد ذكرياته هناك .

وهكذا عاد من هذه المقابلة متأكداً بأنه سيذهب إلى غيبة طويلة تحرمه من عائلته وأحفاده ، فأخذ الأهبة لذلك ، ولما عاد لمقابلة جاملان مرة ثانية : أطلعه هذا على الـكتاب الرسمى الذى يحدد له هذه المهمة ، وفيه ما يأتى :

« أختير الجنرال فيجان لملء وظيفة القائد العام للقوات المسلحة الفرنسية الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط .. وتخضع أراضى بلاد الانتداب الفرنسى للجيوش الواقعة تحت قيادته ، ويكلف علاوة على ذلك بتنسيق عمل البعثات العسكرية الفرنسية للجيوش التركية واليونانية واليوغسلافية والرومانية ، ويكون من حقه الاتصال المباشر مع القيادة البريطانية العليا بمصر التى يصح له أن يتفاهم معها علي كل ما يتعلق بالتعاون المشترك بين قوات فرنسا فى الشرق وقوات بريطانيا فى مصر » .

ووقع رئيس الجمهورية هذا الـكتاب وطلب منه « دلادييه » رئيس الوزراء أن يستعد للسفر إلى بيروت عن طريق الجو .

ويحدثنا فيجان عن عواطفه فى تلك اللحظات التاريخية الفاصلة فيقول : « إنه شعر بكثير من الألم لترك بلاده وأهله فى تلك الأوقات الصعبة ولـكنه شعر بأنه قد عاد شاباً لمجرد تشبعه بالفكرة ، أنه قد دعى للعمل بالجيش مرة أخرى ... »

وهكذا خرج من دائرة الشكوك والآلام والتردد التى يعانيها الكثيرون ممن تحتم عليهم الأقدار بسبب تقدم سنهم أو حالتهم الاجتماعية والصحية « إبعادهم لأسباب يجهلونها » من على ميدان الخدمة العامة أن يقفوا موقف المتفرج أمام حوادث التاريخ الكبرى التى تضع مستقبل بلادهم على كفة الأقدار .

وكانت أولى زيارته للمركيز « دى فوج » مدير شركة قناة السويس حيث قدم استقالته من وظيفته التى كان يشغلها كنائب رئيس مجلس إدارتها.

وإنى أنقل من مذكراتى التىأشرت إليها قلت أننى نشرت جزءاً منهـا عن أول مقابلة لى مع فيجان فى مدينة بيروت ...

حينما اشتعلت نيران الحرب العالمية الثانية ، عين فى سبتمبر سنة ١٩٣٩ الجنرال فيجان القائد الفرنسى المعروف وصاحب الشهرة الذائعة فى الحرب العالمية الأولى ١٩١٤ . على رأس جيش الشرق فى ميدان البحر الأبيض المتوسط وقد حضر إلى بيروت وجعل عمارة كبيرة ذات عدة طبقات مركزاً لقيادته — وهى العمارة التى أصبحت بعدالاحتلال البريطانىمركزاً لبعثة الجنرال سبيرز — فكأن المقادير قد ربطت هذا البناء بأكبر الحوادث التاريخية لسوريا ولبنان إذ اتخذت فى حجراته أخطر القرارات وجرت فيه معظم المفاوضات التى غيرت الكثير من أوضاع البلدين .

وكان الجنرال فيجان فى نوفمبر سنة ١٩٣٩ يقيم فى قصرشاهق برأس بيروت تعرفه من مفرزة الجنود الجراكسة التى تتولى حراسته ليل نهار والتى كانت موضع انتقاد زميلين لى من ممثلى الدول الشرقية ، وقد حظيت بمقابلة الجنرال فى مركز قيادته ، ودارت بيننا محادثات ، ففى المقابلة الأولى لقيـته فى صباح يوم من أيام شهر نوفمبر ، وكان قد تحدّد موعدها من قبل ذلك بيومين ، وقد أخذت الأهبة لهذا اللقاء لعلمى بمنزلة القائد التاريخية ، ولوثوق من شخصيته ونظرته النافذة . ولذلك حرصت على أن أتحين الفرصة وأخرج من المقابلة الأولى ، وقد توطدت

بعض الثقة بيننا ، أو شيء من العلاقة غير الرسمية ، أقصد التي يتخللها بعض الصراحة .

فكيف أعمل لذلك ! ؟

كان على أن استجمع كل معلوماتي وما بقي بالذاكرة من حوادث الحرب الماضية وتجاربها ودروسها ، فمنها بعض ما قرأته في المؤلفات المختلفة و بعض ما سمعته بمعهد زوريخ العسكري حيث درست الفنون العسكرية لسنة ونصف ثم كان على أن أراجع ما قرأته من مؤلفات الجنرال فيجان نفسه ، وأولها مؤلفه عن « حروب محمد على »(1) ، وهو كتاب معروف ومتداول ، ولم ينقض سوى كتابه عن « تاريخ الجيش الفرنسي »(2) ، وسرعان ما جبت المدينة باحثاً منقباً لدى باعة الكتب ، حتى حصلت على نسخة من هذا الكتاب فأمضيت ليلتين في تصفحه ، وقرأت المقدمة عدة مرات ، وأخذت أتعرف على أسلوبه وطريقته ، في سرد الحوادث وشرح المعارك التي خاضتها فرنسا . ولا تنس أن فيجان عضو الأكاديمية الفرنسية ، فهو قائد وكاتب وأديب له أسلوبه الخاص وميزته في سرد الحوادث و بوسعه أن يصور بقلمه أدق المواقف .

---

(1) Campagnes Militaires de Moh. Ali

(2) Histoire de l'Armée Française.

وللجنرال مؤلفات غير هذه .

الجنرال فيجان يقدم تقريرا واقيا عن الحالة العسكرية
إذا دخلت إيطاليا الحرب وقررت مهاجمة مصر

القسم الثانى

ولقد أفادنى ذلك كثيراً : أولا . لأنى من ثنايا كتابته تعرفت على الجنرال ومن تقليب صفحات كتابه الأخير فهمت ميوله السياسية ، ولذلك شعرت بهدوء وثبات وكأنى أعرف الجنرال معرفة أكيدة قديمة ولما توجهت إلى مركز القيادة استقبلنى ياوره وصعد بى إلى الطابق الثانى وأدخلنى إلى حجرة تطل على ناصية المدينة بعكس الجنرال اسبيرز الذى حينما احتل المكان كانت حجرته دائماً تطل على البحر ، ولما استأذن لى من الجنرال أدخلنى إلى غرفة متسعة ، وأول شىء لفت أنظارى هو أن حيطانها قد غطيت بالخرائط المفصلة لأفريقيا الشمالية إلى حدود مصر وأخرى لسوريا ولبنان مع الجزء الجنوبى لتركيا وفى مقابل المكتب خريطـة كبرى لأوربا الوسطى تظهر فيها بوضوح تام أراضى المجر والنمسا وتشيكوسلوفاكيا والجزء البلقانى الذى يبدأ من مقدونيا ، وفيه أراضى بلغاريا ويوغوسلافيا ، وقد ظهرت عليها التضاريس الأرضية وطرق المواصلات بمختلف الألوان . وقد أكثرت من ذكر الخرائط لأن الجنرال يحتاج دائماً إليها للتعبير عن آرائه إذا اتصلت بالناحية العسكرية ، وتتجه أنظاره إليها باستمرار فى حديثه وأحياناً يشير بأصابعه إليها .

وكان أثاث الحجرة بسيطاً للغاية ، لدرجة أنه لا يرضى به موظف بسيط بإحدى المصالح إذا أعطى بعض ما يشبه الرياسة فى بلادنا مصر . وكان المكتب على شمال الداخل فما أن فتح الباب حتى خف الجنرال من أمام مكتبه مرحباً بي ولازمنى حتى جلست على مقعد أمامه ، وعاد هو إلى مكتبه ، معتذراً بأن حالة الحرب لا تمكنه من الحصول على أثاث لائق ورفاهية تامة .

وبعد تناول العبارات المألوفة بدأ حديثه : بأنه ليس غريباً عن مصر ، إذ هو عضو بمجلس إدارة شركة قنال السويس ، وقد أتاحت له هذه العضوية رؤية بلادنا ، ثم هو مدعو قريباً لزيارتها بناء على طلب مجلس الحرب الأعلى للحلفاء لتقديم تقرير واف عن الحالة العسكرية ، وما يتطلبه الموقف الحربى إذا دخلت إيطاليا الحرب وقررت مهاجمة مصر (١) .

قواته فى بلاد الشرق :

أفادتنى معلوماتى التى حصلت عليها بمطالعة ليلتين ، والتى أشرت إليها فى إلقاء بعض الجمل والتعليقات التى جملته يطمئن إلى نسبة فهم محدثه لبعض الأمور العسكرية ، فاعتدل فى مجلسه وأخذ يتحدث ببعض الإسهاب عن القوات التى تجمعت تحت قيادته فى بلاد الشرق ، فقال : إن فرنسا لم تقصد من حشدها أن تدافع عن سوريا ولبنان فقط لأن القوات المحتلة للبلدين تكفى لحفظ الأمن وتوطيد سلطتها ولرد كل عدوان يقع عليهما ، وإنما القصد من تجمع هذه الوحدات أن تكون تحت تصرف مجلس الحلفاء الأعلى لترسل إلى الجهة التى يبدو الخطر فيها فهو كقائد لهذه المنطقة على رأس مجموعة جيوش فرنسية بينها قوات مؤلفة من البولونيين والتشيكوسلوفاكيين وغيرهم ممن لم تمكنهم الظروف أو لم تسمح لهم وسائل النقل بالالتحاق بوحداتهم الأصلية فى بلدانهم وقال :

إن هذه القوة منظمة تنظيما تاماً ، وعددها يزيد كثيراً عما يعتقده الكثيرون بل هى دائمة الزيادة بفضل البواخر التى تنقل من فرنسا ومن مستعمراتها الرجال والعتاد وغير ذلك .

تطمين مصر :

وهنا اتجه الجنرال لجهة الخريطة الأوربية وقال : إن حملة سلانيك

(١) راجع الوارد عن هذا الجزء نقلا عن الجنرال كاترو .

فى الحرب الماضية قد قصّرت أجل الحرب وساهمت فى النصر النهائى بتعجيل انهيار النمسا والمجر وبلغاريا ، وأعتقد أن مجموعة الجيوش التى تحت قيادتى قد تفتح جبهة ثانية فى هذا الميدان ، وأشار إلى سهول المجر المتسعة قائلا : إذا لم تدخل إيطاليا الحرب ولم يطرأ شىء على الميدان الغربى ، فإن الحلفاء قد يضربون الألمان بفتح ثغرة من هذه الجبهة ضد ألمانيا ، وقد تكون ضربة حاسمة ، وذلك باعتمادهم على جيش الشرق حينما يتم تجمع وحشد قواته ومعداته . ونفهم طبعاً من حديثه هذا أنه قصد تطمين الحكومة المصرية وتمهيد زيارته القادمة لمصر . وقد كانت النفوس قلقة ودعاية المحور على أشدها .

صلات فرنسا بالشرق :

وكنت أتلهف على معرفة رأيه فى المدة التى قضاها فى سوريا ولبنان ، ولذلك أردت أن أنقل الحديث إلى ناحية تشير إلى الماضى ، أى فى سنوات ٢٤ و ١٩٢٥ فذكرت له المدة التى أقامها بهذه البلاد ، وأنها برغم قصرها لا يزال يذكرها الكثيرون ففهم مرادى من هذه الناحية وقال : إن أصدقاءه الكثيرين يأتون إليه من كل جانب ، وأنه يحب هذه البلاد وأهلها ، وأن صلات فرنسا بالشرق صلات قديمة راسخة لا يستهان بها . .

المعسكرات والثكنات :

والجنرال أقرب إلى الرجل القصير منه إلى الرجل المتوسط الطول ، يبدو لك فى الخمسين من عمره ، وإن كان قد جاوز الستين وأخذ يقترب من السبعين ، وهو دائم النشاط والحركة ، يظهر لى من حركاته أنه شديد الوطأة على معاونيه إذ يطلب درجة فوق المستوى اللاتينى من الضبط والربط ، وهذه الدرجة غير متوافرة فى ذلك الوقت ، لأن جيوشه تنقصها المعسكرات والثكنات ، فهى فى حكم المضطرة إلى مشاركة الأهالى فى مساكنهم ، وناهيك بأثر ذلك فى نفسية الجنود

ومعنوياتهم وخضوعهم لأنظمة الجيوش . ولما كان غالب هذه الفرق قد وصل من أفريقيا الشمالية ، وأكثرهم من الجنود الملونة من أهالى المستعمرات والسنغال والمغرب ، كان جل اعتمادها فى النقل على الحيوان أو على عربات يجرها الحيوان فكانت أشبه بالجنود التى زحف بها اللورد اللنبى عام ١٩١٧ على فلسطين وسوريا وحارب بها الأتراك فى الحرب العالمية الأولى فهى ليست جيوشاً أوروبية بالمعنى الصحيح .

أكاديمية الحرب الفرنسية :

كنا نعلم الكثير من هذا ، ولكن ثقتنا بالجنرال كانت كبيرة ولاحد لها ، خصوصاً فى فنه وعبقريته ، ولما استأذنت ، ودعنى قائلا : أنه يسره أن يرانى من وقت لآخر . ولم تعرض المرة الثانية إلا قبيل سفره إلى مصر فى فبراير التالى ، إذ بدأت حديثاً معه فأشرت إلى الماريشال فوش ، وكان الجنرال رئيسا لأركان حربه ، وقلت : أننى أقف فى كل مرة أزور الانفاليد بباريس أمام الخريطة الكبيرة التى كان يدير بها العمليات الحربية بالميدان الغربى ، وأعجب من عبقريته ، وأفضى بنا الحديث إلى معركة المارن وأثر فوش ، وإلى النظرية الفرنسية للحروب وعبقرية نابليون وإشادة فوش بها فى دروسه بأكاديمية الحرب الفرنسية وفيما طبعه فى محاضرات .

وانتقلنا عرضاً إلى الديموقراطية واتفقنا على أنها وأن بدت ضعيفة فى الاستعداد الحربى بالبداية إلا أن الكلمة الأخيرة لها ، لأنها ستكسب فى النهاية المعركة الفاصلة .

إعجاب الجنرال بالجنود المصريين..
وحسن استعدادهم للخدمة العسكرية

القسم الثالث

وكان هذا الحديث الشائق يسير متواصلا إلى أن قطعه بأن أخذ يتحدث عن الجيش المصرى فوجه عدة أسئلة دقيقة مثل : من كم فرقة يؤلف جيشكم ؟ كم شهراً يأخذ التدريب الفنى لجندى المشاة ؟ هل لديكم مدارس لضباط الصف ؟ ما هو التسليح الجديد والأنظمة الحديثة التى أدخلتها البعثة العسكرية البريطانية على جيشكم ؟ ما هى الوحدة الأساسية التى يبنى عليها التدريب لكى تدخل القتال مستقلة اللواء أم الفرقة ؟ هل لديكم سلاح للمهندسين بالجيش ؟ هل بوسع جيشكم أن يدخل الميدان أمام قوات منظمة على الحرب الحديثة ولصد هجوم جيوش أوربية ؟ ما هو مستوى ضباط الأركان حرب عندكم ، وهل لديكم ضباط درسوا فى دول غير بريطانيا ؟ .

هل أجيب ؟

كانت ثرثرتى حول بعض المبادىء العامة مما جعله يعتقد أنه أمام جندى فى زى ملكى ، أما أنا فقد احترت كثيراً وكنت كمن فتح لنفسه باباً لا يقدر على إقفاله ، ووقفت أسائل نفسى : هل أجيب على أسئلة الجنرال على الطريقة المعتادة لدينا ، وفى صحفنا وأنديتنا أو كما كان ينشر فى ذلك الوقت . ؟ فأقول : أن جيشنا على تمام الأهبة والاستعداد لتلبية واجب الوطن ، وأن لدينا معدات كاملة ، وأن قوادنا من الدرجة الأولى فى فنون الحرب والقتال ، بل إن منهم من وضع خطط الدفاع للصحراء الغربية لا شك فى أن قولى هذا لم يكن يقدم ولا يؤخر ، ولكن أمامى قائداً من كبار

قواد فرنسا سوف يذهب بعد أيام إلى مصر ، وسيلتقى برجالنا وقوادنا ، وسيعرف بالضبط مقدار معلوماتهم ، وسوف يحادث رجال فرنسا عندنا ويقابل الجنرال ويفل والجنرال ويلسون وضباط البعثة البريطانية ، وسيقف على كل صغيرة وكبيرة فوقفت متردداً ثم قلت : إن الجيش المصرى يتطور بسرعة نحو استكمال أسلحته ، وسترى فى مصر وتسمع الكثير عنه ، ولا شك فى أن الخطوات ثابتة ، ويذكرنى حديثكم بأيام قضيتها بإيران ، والتقيت مرة بأفراد البعثة العسكرية الفرنسية المكلفين بتنظيم الجيش الإيرانى ، فسمعت أحدهم يقول : « أن الحكومة الإيرانية تطلب منا أن نخرج لها ضباطاً صالحين للقيادة بعد دراسة لا تطول أكثر من سنتين ، ونحن فى فرنسا نحتاج إلى عشرين عاماً لتهيئة وتكوين ضباط الأركان حرب الذين تستطيع أن تعتمد عليهم الدولة فى تحريك فرقة من الجنود وقيادتها فى ميدان القتال » .

ميزات الجيش المصرى :

وهنا نظر إلى الجنرال طويلا وابتسم ، إذ فى ذلك كل الإجابة على أسئلته المحرجة ، ولكنى أردفت ذلك بقولى له : « إن مواد العمل صالحة وجيدة ، وإن قوة احتمال الجنود وصبرهم من ميزات الجيش المصرى ، بل هى أهم عوامل البناء التى يمكن الاعتماد عليها فى إخراج جيش حديث يعيد بعض مواقف السلف فى الماضى ، ولا شك أنكم كتبتم شيئاً من ذلك فارجعوا إلى ما أشرتم إليه فى كتابكم » .

فهز رأسه موافقاً على ما قلت . وافترقنا ، وبعد أسبوع من هذه المقابلة سافر الجنرال إلى القاهرة ، ولقى من السلطات المصرية والبريطانية كل ترحاب وأقيمت له المآدب وحفلات التكريم ، ومنها مأدبة الرئيس على ماهر التى أقامها على شرف الجنرال فى فندق سميراميس ، وقد دعى إليها كثير من العظماء وأهل

الرأى وكبار ضباط الجيشين المصرى والبريطانى وأدلى رئيس وزراء مصر بحديث نقلته وكالات البرق فى ذلك الوقت قال فيه :

« إن مصر تغتبط باستقبال القائد العظيم » فيجاند وتقدّر صفاته العسكرية الممتازة وماضيه المجيد وتحيي فيه ممثل فرنسا النبيلة .

استعراض مصرى بريطانى هندى :

وأقيم له استعراض عسكرى اشتركت فيه بعض الوحدات الميكانيكية من القوات البريطانية والمصرية والهندية ، وكان يرافقه القائد البريطانى الجنرال ويفل أثناء العرض وفى أثناء تفتيشه للوحدات .

الجنرال فيجاند يسجل إعجابه بالجنود المصريين واستعدادهم للخدمة العسكرية :

وتعود بي الذكرى هنا إلى عام ١٩٤٢ ، حينما تعددت مقابلاتى مع الجنرال كاترو الفرنسي وذلك بعد احتلال سوريا ولبنان ، وفى أبان المفاوضات التى انتهت بعودة الحياة الدستورية إلى البلدين . إذ أننى قابلته فى يوم ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤٢ وتناول الحديث مسائل متنوعة ، وكان مما صرح لى وقتئذ وقيدته فى حينه أن قال :

إنه كان حاضراً بالمجلس الحربى الأعلى للحلفاء فى باريس ، وذلك قبل خروج فرنسا من الحرب ، حينما عرض التقرير الذى وضعه الجنرال فيجاند الذى سجل فيه إعجابه بالجنود المصريين وحسن استعدادهم للخدمة العسكرية واقترح وجوب زيادة الجيش المصرى كما أشار إلى ما يجنيه الحلفاء من الفائدة والمعونة إذا وقف بجانبهم جيش مصرى قوى ، وقد أخذ مجلس الحرب الأعلى بهذا الاقتراح ، وكان من ضمن القرارات التى وافق عليها » .

مقابلات :

وعاد الجنرال فيجاند من مصر فبدأ رحلاته إلى داخل سوريا ، وكثرت تنقلاته وكانت مقابلاتى معه بعد ذلك عرضية ونادرة وأغلبها فى ميدان السباق ببيروت ، ولكن توطدت مع معاونه الجنرال كايو ومع أركان حربه ومكتبه علاقات ودية ثابتة ، فما اتصلت بشىء لدى السلطات العسكرية عن طريق القيادة ، إلا وأجيب طلبى أو رجائى فوراً أو كان محل اهتمامهم وتحرياتهم بعكس السلطات المدنية التى طالما تمهلت وتأخرت ثم ألقت أسباب عجزها على السلطات العسكرية ، ولقد كان ذلك موضع حديثى فى المفوضية الفرنسية ، خصوصاً فى المكتب الدبلوماسى الذى إذا احتج بالعسكريين بادرت بأن أعلمه أننى مستعد للذهاب إلى هؤلاء رأساً لإزالة ما نشكو منه ، وكان المكتب السياسى يعلم بما تقدمه السلطات العسكرية من تسهيلات لمصر فى مقابل ما تبذله مصر من تسهيلات للعسكريين من الحلفاء .

هذا هو الجنرال الفرنسى الذى ساهم مساهمة فعالة فى قيادة فرنسا إلى النصر فى الحرب العالمية الأولى ، والذى وطد نفوذ بلاده فى الأشهر الأولى من الحرب العالمية الثانية ببلاد الشرق ، كان فى حركاته ومشيته تفيض منه الطمأنينة والثقة ، فيتأثر منها الناس وتغمرهم لدى مواجهته أو مصافحته أو رؤيته ، ويشعرون بنفس الثقة والاطمئنان .

وأذكر مرة أنى رأيته داخلا الجامع العمرى بمدينة بيروت بمناسبة المولد النبوى الشريف ، فهتفت له الجماهير الإسلامية طويلا ، وحملته على الأعناق ودخلت به المسجد ... وهو ثابت كالطور .

ولقد رأيت الكثيرين من ممثلى البلاد الأوربية فى المشرق فلم أر مثل فيجاند ، ولقد وصل غيره من الرجال الرسميين ، ورتبت لهم الهتافات ، إلا أن

الجماهير لم تغمرها روح الحماس الذى كانت تحس بها عند رؤيتها الجنرال الشيخ والشاب فى نفس الوقت .

وفى ليلة من الليالى فى أواخر مايو سنة ١٩٤٠ إستدعى إلى باريس لقيادة جيوش الجمهورية وسد ثغرة سيدان ، لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ماجينو فى الشمال والزحف الألمانى لا يقف ، وراديو برلين يصيح : « لو بعث نابليون من قبره ، لما كان فى وسعه أن يغير القدر المحتوم ! » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية .

وكنت جاراً للجنرال كايو ، وقد زالت الكلفة بيننا ، وفى عصر أحد الأيام دعانى بمنزله ، وقال أنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرنسا ، وذلك بناء على دعوة الجنرال فيجاند ، إذ يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام . قلت أنكم تنتظرون قرارات حاسمة . قال : « أن انقاذنا يحتاج إلى معجزة » .

قالها والدموع فى عينيه . . .

و بعد أيام أعلنت الهدنة . . . فكتب يرى رجال فرنسا وضباطها العظام يبكون أمام آلات الراديو التى تذيع نداء المريشال بيتان كانت من الأيام التاريخية التى لا تنسى . . .

وكنت أتجه بأنظارى إلى الرجل الفرنسى العظيم فيجاند الذى تعاون مع فوش . . . وكان يؤمل أن ينفذ فى الحرب العالمية الثانية تعاليم الماريشال ومبادىء نابليون العسكرية ...

منطقة انطاكية وخليج الاسكندرونة
منطقة عسكرية هامة في تاريخ الدنيا

لمعت كناصية الحصان الأشقر نار بمعتلج الكثيب الأحمر
وفتحت أنطاكية الروم التي نشزت معاقلها على الإسكندر
وطئت مناكبها جيادك فانثنت تلقى أجنتها بنات الأصفر

هذا شعر للأبيوردى خاطب به السلطان السلجوقى ملكشاه بن ألب أرسلان حينما فتحت الدولة السلجوقية أنطاكية ، ولست أعرف ركناً من أركان الدنيا برز فى التاريخ بروز هذه البقعة من الأرض ، فقد لفتت أنظار الإنسان منذ بدأ يفكر وينظم حياته ، فما تأسس ملك أو سيادة أو ظهرت قوة فتية أو دعوة دينية إلا وجعلت من أولى أهدافها امتلاك هذه البقعة التي شهدت مصارع الدول ، وحمل صعيدها أرزاء الحروب وما يتبعها من نكبات ، ذلك تاريخها فى القرون الغابرة وهذا عهدنا بها اليوم فى تاريخنا الحديث . لقد شغلت رجال السياسة بعد الحرب الماضية واهتمت بمصيرها هيئة عصبة الأمم ، ثم كان من نصيبها أن ضمت إلى أراضى الجمهورية التركية وبقيت معها طول الحرب العالمية الثانية ، وما انتهت هذه أو قاربت نهايتها واستقلت سوريا ، حتى قامت تطالب بها ، ولا يعلم غير علام الغيوب ما تخبئه لها الأقدار والأيام القادمة .

فى الأعصر القديمة :

وإذا ورد ذكر هذه البقعة برز اسم مدينة أنطاكية لأنها رأت من السعد والعظمة فى زمن ملكها أنطيوكس الكبير (٢٢٣—١٨٧ ق . م .) ما جعلها سيدة المدن . فكان أن أصبحت حاضرة سوريا وفاقت غيرها فى الثروة والعلوم والمتاجر ، ولما دخلت تحت سلطان روما حصل أهلها على حقوق المواطنين فى الدولة

الرومانية ، وإذا بها قد أصبحت إحدى عواصم ثلاث كبرى : روما والقسطنطينية وأنطاكية تدين لها الشعوب .

ولقد حاول بعض مفكرى الغرب من الفرنسيين أن يجعلوا من ملك أنطيوكس تتمة لملك الاسكندر ومن أثر عمله تكملة لسلطان الغرب على الشرق ، ودليلا على تفوق العقل اليونانى على العقل السامى ، والصورة التى أعطاها لنا العهد القديم[1] والمؤرخ يوسيفوس عن العاهل اليونانى تنبىء بأنه كان ملكا مستبداً جباراً ، فقد ورد عنه فى كتاب المؤرخ اليهودى ما يأتى : « إنه دخل مصر بجيش كثيف وعجلات وفيلة وأسطول عظيم فاستحوذ عليها ، ثم قوى أمره وعظم شأنه حتى استولى على كثير من الأمم و إطاعته ملوك فارس وغيرهم من الملوك فداخله العجب والكبرياء وطغى وتجبر وسبب الكثير من الآلام لأهل المشرق » .

فهذه القوة التى طغت على الشرق يقول عنها الكاتب الفرنسى إنها بقية من عبقرية الأسكندر، و إن بقاءها كان من ضرورات بقاء الأصلح ، لأنها تحمل قبساً من روح الهيلينية إلى الشرق ، وأنها قوة دافعة منظمة منشئة لأنها أدبت الناس فى الشرق وأخذتهم بالسيف وعلمتهم ما لم يعلموا . ولكن روما لم تلمس الحقائق حين ساقت كتائبها وأخذت أنطاكية مركز هذه الحركة وأنها لما ضمت إليها الممالك والعروش التى أنشأها أتباع الاسكندر ، كانت تحارب نفوذ الهيلينة فى الشرق وكانت تحطم بأيديها سيطرة الغرب على الأمم الشرقية . فروما حينما تنازعت مع أهل أنطاكية وقضت على عظمتهم مهدت لشعوب الشرق عودة بدأت بقيام الفراتيين أو البارتيين وهم قوم عرفوا بشدة المراس والصبر على القتال ثم ظهرت فى غضب اليهود بحركة المكابيين وتطورت بظهور المسيحية ضد هذا التحكم الأوروبى فهى فى مذاهبها المختلفة التى يعبر عنها بالكنائس الشرقية المستقلة وتعتبر نفثة مصدور ضد استحواذ أهل الغرب على المسيحية وهى شرقية فى أصولها

---

(١) العهد القديم كمظهر من مظاهر التفوق العقلى والفكرى للشرق .

ومبادئها ومراميها ، وما كان هذا ليحدث لولا اختلاف الكلمة وتعارض المصالح بين روما والإغريق المحتلين لأراضى المشرق ، فلو تم بينهم التعاون والتفاهم والتآزر والتكاتف وما تمليه وشائج القربى ، لما تهيأت الأسباب لقيام الشرق مرة أخرى ولما تفاعلت العوامل التى مهدت السبيل أمام جيوش المسلمين فاستولت بعد قرون قليلة على إرث روما و بيزنطة وما أنشأ الاسكند من مجد وملك قبل ذلك .

وتلك دعوة لها خطورتها لأن معناها أن الخلاف الذى قام بين فرنسا و بريطانيا على سوريا ولبنان سنة ١٩٤٣ يمثل النزاع الذى نشب بين روما وأهل أنطاكية فى المشرق وأن الأمبراطورية البريطانية تلعب اللعبة الخطرة التى أخذت بها الأمبراطورية الرومانية منذ عشرين قرناً فهى قدقضت على نفوذ فرنسا وأبعدتها عن سواحل البحر الأبيض المتوسط فى الشرقية ، كما زحزحت روما نفوذ الهيلينية عن هذا الشاطىء . فكانت النتيجة أن خرج الشرق من تحت سيطرة روما واليونانيين وتقلص حكم العرب عن أمم المشرق بمجىء الإسلام فإياكم أن يحدث لكم ماحدث للقدماء من قبل ويخرج الشرق من يد بريطانيا وفرنسا على السواء[١] .

وإنما سقنا هذا الحديث للتدليل على أثر هذه البقعة من الأرض فى عقول القوم من ناحية السيطرة الفكرية والرغبة فى التحكم على مقادير الشعوب من شباك يطل علينا ويثير لنا الكثير من المشاكل . ولقد نظرنا إليها من الوجهة التى يرى بها رجل الفكر الغربى فلنجرب نظر رجل الدين .

أثر أنطاكية فى المسيحية :

كانت أنطاكية مثل الأسكندرية ميداناً للتنازع بين الوثنية والمسيحية ، ذلك التنازع الذى انتهى بانتصار الفكر السامى[٢] ممثلا فى تعاليم معلم الناصرة ،

---

(١) لم يكن الكاتب الفرنسى يحسب للأميركان حسابا ..
(٢) أى المسيحية باعتبارها شرقية سامية .

ولكن أنطاكية فاقت الإسكندرية فى ناحية أثرها فى حياة المسيحية ، فكلتا المدينتين أوتيت حظها من حياة الترف والتغاضى عن الفضيلة . ثم قامت فى كل منها دعوة للخير والصلاح ، وترك الدنيا والابتهال إلى الله . ولكن النكبات المتتالية وخصوصاً الزلازل المدمرة جعلت أهلها فى حيرة منها ، وأخيراً قرّ رأيهم على أن يطلقوا على أنطاكية إسم « مدينة الله » وتحصنوا بالفضائل وجانبوا الرذائل وتقربوا بهذا لله زلفى ؛ وكان أن عرفت مدينتهم وسط مدن العالم بأنها حازت سلطان الحياة الدينية ، وإذا بكرسيها يتلألأ وسط كراسى ملكوت السماء ، ويقول عنها الناس : ليس فى المسيحية كلها بعد روما سوى أنطاكية المدينة المؤمنة الخالدة .

ولذلك لا تعجب إذا وجدت عدداً من رؤساء الطوائف المسيحية يضعها فى المكان الأسمى من نعوته وألقابه الكهنوتية فيقول كل منهم إنه صاحب كرسى أنطاكيه وسائر المشرق . وهم على حق فى ذلك لأن أنوار المسيحية أشرقت على الأرض من هذه البقعة ، وانتقلت المسيحية بأنطاكية من مواجهة شعب إسرائيل إلى مواجهة الدنيا ، وفى ذلك يقول القديس لوقا : « وكان الذين تبددوا من أجل الضيق قد اجتازوا فينيقية وقبرص وأنطاكية وهم لا يكلمون أحداً بالكلمة إلا اليهود ، ولكن قوماً منهم كانوا قبرصيين وقيراتيين فهؤلاء لما قدموا أنطاكية أخذوا يكلمون اليونانيين مبشرين بالرب يسوع » .

ففى أنطاكية تحولت الدعوة المسيحية إلى حركة عالمية . فهذا أثر من تأثير هذه البقعة الفريدة ، التى كانت قبلة الدنيا ومجمع مدنية الشرق مع مدنية الغرب ، ولو أدركتها المسيحية وهى فى إبان مجدها وسطوتها ؛ أى لو تقدمت المسيحية قرنين من الزمن حينما كانت أنطاكية حاضرة سوريا وقد فاقت قرطاجنة وصور وصيدا ، فالأغلب على الظن أن كانت أنطاكية تأخذ فى عالم المسيحية مكان روما .

ويجمع المؤرخون على أن أنطاكية كانت مركزاً هاماً للدعوة المسيحية

فى القرن الرابع وإن كانت هناك من يقرر بأنها كانت منذ البداية أول مركز خرج منه المبشرون المسيحيون إلى أقطار العالم ، وظهر فيها القديس يوحنا فم الذهب بل كانت مسقط رأسه وسطعت فيها أعماله ومعجزاته ، وكان أهلها مائتى ألف نسمة دخل نصفهم فى الدين الجديد وتصدروا الدعوة إليه ، ولذلك تذكرها الكتب المسيحية بأنها المدينة الأولى فى العظمة بعد روما ، وأنها تأتى فى تاريخ الكنيسة بعد القدس ، وهذا ما جعلها مكاناً يؤمه أهل التقوى والصلاح والعبادة ويهرع إليها الزوار لرؤية ما كانت تحويه من قبور القديسين والأبرار وما عرف عنها من العجائب والمعجزات .

فمدينة هذا تاريخها يأتى ذكرها دائماً فى الكتب المقدسة وفى تاريخ الكنيسة ويتكرر هذا الإسم فى الطقوس والصلوات ويرد فى مقدمة ألقاب رجال الدين من مختلف الطوائف والمذاهب ، لا شك فى مكانتها وعظمتها واحترامها فى قلوب الناس ، وإن مجرد ذكر اسمها يحرك ذكريات عزيزة على النفس ، وهذا ما تؤكده الآيات الواردة فى أعمال الرسل . « ثم خرج برنابا إلى طرسوس فى طلب شاول ولما وجده أتى به إلى أنطاكية . وترددا سنة كاملة فى هذه الكنيسة وعلما جمعاً كثيراً حتى أن التلاميذ دعوا مسيحيين بأنطاكية أولا » . أى أن اسم « المسيحى » استعمل لأول مرة هنا فى أنطاكية .

أثر الموقع الجغرافى الممتاز :

ينعم المرء بمناظر رائعة إذا كان على ظهر باخرة تسير على مقربة من الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط إذ تظهر جبال لبنان وجبال العلويين أمام ناظريه وتحتها المرافئ متقاربة متشابهة ؛ فإذا جن الليل تبدو أنوار القرى المتناثرة على سفوح الجبال وهى تتلألأ فى الظلام . إنه منظر يوحى لراكب البحر فى ظلمات الليل البهيم بشعور الأمن والاطمئنان ، فتزول من نفسه مخاوف البحر

ومخاطره فإن وصلت إلى خليج الإسكندرونة وجدت البحر يغزو الأرض ويبدو هذا الجزء منه كأنه بحيرة تحيط بها الجبال من ثلاث جهات ، ووراءها قمم عالية شامخة كأنها تناطح السماء . هذه جبال اللكام عند العرب وأمانوس عند الفرنجة وجبال الكفرة أو كاورطاغى عند الأتراك .

ولقد كنت مسافراً مرة فى أواسط الأناضول فبلغت مدينة قيصرية ، وهى التى فتحها ملكنا الظاهر بيبرس وركبت القطار منها متجها إلى الشام ، فوقف بنا عند مخرج نفق على جبال طوروس ، وكان على رأسه محطة بوزانتى [١] أشاروا علىّ بالنزول فيها لآخذ منها القطار السريع . من هذه الرابية العالية رأيت البحر ممتداً من بعيد ، وكشفت سهول ولاية أضنة أو كيليكية ، كما تبدو للناظر إليها من نافذة طائرة محلقة فى السماء . قلت هـــذا هو أول ماتقع عليه أنظار كتائب الزاحفين من الشمال هذا المنظر رآه المأمون والمعتصم وهذا ما رأته جنود الصائفة والحمدانيين وعسكر مصر أيام ابن طولون و بيبرس وقلاوون فى عودتهم من حروب أرض الروم بل قل هذا أول مناظر الحياة التى لقيها الصليبيون فى زحفهم على سوريا بعد أيام الويل والحرمان التى ذاقوها فى أرباض آسيا الصغرى .

فإذا انحدرت من مضايق الجبال ودخلت السهل واتجهت إلى الساحل كان أول ما يلفت النظر هذه البحيرة التى تكوّن خليج الإسكندرونة ، لو رآها رجل البحر لقال عنها هذى أكبر مرافىء الشرق ، وتصورها الموئل الطبيعى لمئات السفن ، ولو نظر إليها رجل البر لقالَ هذا مركز من المراكز الممتازة فى العالم . فهنا التصق الخليج بالأرض وكوّنا فى التاريخ قطعة واحدة وأصبح لها قصة واحدة : هى قصة تلك البقاع من الدنيا التى لها ذنب واحد هو ماحبتها به الطبيعة وجغرافية الأرض من مزايا تجعلها محط أنظار الدنيا . وهدف أطماع الفاتحين .

---

(١) هى البدندون حيث مرض المأمون وتوفى ونقل إلى طرسوس ودفن بها .

هذى البقاع ليست كثيرة على الأرض ولـكنها خلقت لتكون مسرحاً للمشاكل والمعارك والتصادم وتتابع الحوادث والخطوب . إن مثلها كثل بعض الناس ممن يأتى إلى الدنيا ليثير ضجة بين الخلق من يوم مولده إلى يوم وفاته كأنهم جاءوا إلى الدنيا تحت طالع من طوالع الضجيج والعراك ، كذلك هذه الرقعة من الماء والأرض والجبال ، أتراها قد برزت للوجود تحت برج بروج السماء ، فحكم عليها بأن تـكون فريسـة للطامعين من ذوى الغلبة والسـلطان ، وموطناً للحروب والقتال ، وأن يـكتب على أهلها تحمـل مصائب الدهر من ضيق الحصار ونقص فى الأموال والأنفس ، ثم تحمل غضب الطبيعة فيما تثيره من أوبئة وزلازل ، وأن يكتب فى سجل القدر لهذه البقعة من الأرض فيقترن اسمها بالعز آناً وتعلو علواً كبيراً حتى تسمو على غيرها من بقاع الأرض ، ثم يلاحقها سوء الطالع فترى الأيام السود وتذوق الويل المرة بعد المرة حينما يطؤها الفاتحون والغزاة ، فتندك صروحها ويشـقى أهلها وتبكى نساؤها بكاء طويلا فى الليل كما يتحدث بذلك تاريخها فى أكثر من عشرين قرناً من الزمن .

وغريب أمر هذه البقعة : تقوم عليها المدنيات المختلفة وتتبادلها الشعوب وينطق أهلها بكل لسان ويفنى شعب بعد شعب على أرضها ولـكنها تخرج من وسط النـكبات والمصائب وهى باقية لن تبيد ، لأن الحياة لاتلبث أن تعود إليها من جديد ولا تزال إلى اليوم إنطاكية وما حولها : ترى أسوارها القديمة وتلمس عظمتها الفانية ترى المدينة صـغيرة بجانب ما كانت عليه ، ومع هذا تشعرك بماضيها ومجدها ، وقد يدخل المرء غير حافل بها فيخرج منها وهو يحمل فى نفسه ما يدعو لاكبارها ، إن فيها سراً يجبر الناس على احترامها.

***

الحرب العالمية الأولى :

نعم لقد قدّر لهذه البقعة من الأرض أن تبرز خلال العصور الماضية وأن يتحدث عنها الناس من أهل الشرق والغرب ، وسنبذل بعض الجهد لنأتى بشىء من ذكرها فى كل عصر من العصور السالفة وخصوصاً ذلك العصر المملوء بالبطولة والكفاح : عصر الحروب الصليبية ، ونذكر ما حولها من حصون الأفرنج وما أقيم أمامها من حصون المسلمين وقلاعهم والكتابة فى هذه الناحية من أحب الأشياء إلى من يؤمن بعظمة ماضينا ، ولكن هناك ناحية لا تزال خافية عن قراء العربية هى أهمية هذا الركن من العالم فى الحرب العظمى الأولى ، فقد بقيت منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة بعيدة عن ميادين القتال ولم تغمرها الحوادث ولذلك لم يشتهر اسمها ولم يعلم الناس عنها إلا لما أثيرت مسألتها أمام عصبة الأمم وأخذت تتطور مشكلتها بين فرنسا وتركيا ثم أخيراً بين سوريا وتركيا .

ولهذه المنطقة تاريخ طويل فى مدة الحرب وما تلاها من الحوادث ، سنعرضه ملخصاً ما أمكن . . .

اتفاق أنقره :

حينما قامت الحركة التركية وحصلت حكومة أنقرة على الانتصارات الأولى على اليونان . أرسلت وفداً إلى باريس فى يوليه سنة ١٩٢١ أخذ يفاوض الفرنسيين فى عدة مسائل ، وفى ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٢١ عقد اتفاق أنقره الأول وفيه سلمت فرنسا بالحدود التركية التى تبدأ من بياس إلى ميدان اكبس ثم تستمر على شريط سكة حديد بغداد ، وكان من ضمن ما اتفق عليه إقامة نظام إدارى خاص بسنجق الإسكندرونة واعتبار اللغة التركية لغة رسمية فيه .

جاء هذا الاتفاق عقب حرب بين الفرنسيين والأتراك دامت من يناير ١٩٢٠

إلى ١٩٢١ قال عنها الفرنسيون فى كتابهم عن تاريخ الشرق ما يأتى : « إنها حرب مقدسة وقومية اتسمت بالقوة والعنف اللذين يتصف بهما أهل تلك البلاد وأنها وافقت زمن غليان الحركة الكمالية التى استنفرت الأناضوليين فى وجه مشروع يشعر بتفكيك الوطن التركى » .

تعجب كاتب سورى :

ويتعجب صديقنا الأستاذ أدموند رباط فى كتابه بالفرنسية عن الوحدة السورية ويتساءل « كيف سلم الفرنسيون بعد معاركهم الطاحنة فى كيليكية وخسائرهم فيها بهذه الحدود ؟ ويقول إن فى ذلك سراً سيبقى أمام مؤرخى المستقبل من المعميات التى يجدون الصعاب لفهمها » .

أما نحن فلا نعجب وقد عرفنا النزاع والتنافس بين بريطانيا وفرنسا ، وإنما نتساءل ونقول للكاتب الفرنسى الذى ذكرنا نظريته فى مقدمتنا : من كان يمثل دور الإمبراطورية الرومانية فى عام ١٩٢١ . بريطانيا أم فرنسا ؟

إن مثل هذه الأمور تأخذ وقتاً طويلا لكى تكتشف تفاصيلها وما يلابسها من المعميات ، وقد يطرأ حادث طفيف يتمثل فى طلب احتلال الإسكندرونة وخليجها فينتج عنه أكبر الأمور ويعيد إلى ذكريات السياسيين مسائل ومشاكل بقيت لمدة طويلة طى الكتمان .

هدنة مدروس : خط الهدنة هو الذى أثبته الأتراك بقوة السلاح :

خط الهدنة هو الذى أثبته الأتراك بقوة السلاح ، وهذا ما حدث فى عام ١٩١٨ ففى أكتوبر سلمت الدولة العثمانية وأمضت هدنة مدروس ، وكانت الجيوش التركية تحتل منطقة أنطاكية وتشرف على خليج الإسكندرونة وبقيت فى حوزتها بعد إمضاء هذه الهدنة ، ولما كانت شروطها تحتم إجلاء الجنود

والضباط والقواد الألمان فقد تقرر سفر الجنرال فون ساندرس ومن معه ، وعليه تسلم القائد مصطفى كمال القيادة ، وقد فهم فى مخيلته أمرين : الأول أن الهدنة عقد لوقف القتال بين المتحاربين وأن الأراضى التى فى حوزة الأتراك تبقى معهم لحين إمضاء معاهدة الصلح ، والثانى : أن خط الحدود لوطنه هو الذى أثبته الأتراك بقوة السلاح فى آخر معركة لهم دارت ضد الإنجليز والهنود فى شمالى مدينة حلب عند انسحابهم منها وترتب على هذه المعركة إيقاف الزحف البريطانى على نقطة تبعد ثلاثين كيلو متراً من المدينة [١] .

ويقرر فى مذكراته ومخابراته الرسمية أن هذا الخط من صنع يديه ، ولذلك تمسك به حتى النهاية فى مفاوضاته مع الفرنسيين ، ولم يكتف بذلك بل عارض قبل ذلك الحكومة المركزية حينما طلب الإنجليز السماح لهم باستعمال خليج الاسكندرونة والميناء لتموين جيوشهم المحتلة لمدينة حلب ، وتبادل مع رئيس الوزارة مكاتبات فى منتهى الخطورة ، وكانت هذه الفترة محركة لعزيمته وموجهة له فى حياته المقبلة لأنه من تلك اللحظة بدأ يفكر فى تأليف جيش من شراذم الوحدات التى تحت قيادته ، حينما أقنعته الحوادث بأن إنقاذ البلاد يحتم مداومة القتال إلى النهاية .

فالمطالبة بتسليم ميناء الاسكندرونة كان معناه احتلال المنطقة كلها ، وقد أثار هذا الطلب مخاوف الفرنسيين لما سيرد بعد ذلك من تفاصيل فى هذا البحث ، كما أثار قلق القائد التركى الذى فسر احتلال هذه المنطقة كرغبة فى احتلال غيرها مما يليها من الأراضى وأن هذا الطلب يهدم الشروط المتفق عليها . فلما طلبت منه الحكومة التركية إجابة هذا الطلب أجابها بصراحة :

---

(١) من أغرب تحكم الأقدار أن الأرض التى دارت عليها هذه المناوشة هى التى دارت عليها معركة ١٥١٧ بين المصريين والأتراك والتى فقدت فيها مصر ملك الشام ثم أصبحت ولاية عثمانية بعد ذلك ، ثم تبدأ من هذه البقعة مقاومة الأتراك بعد هزائمهم لينتهوا إلى حركة التحرير التى أتموها تحت قيادة زعيمهم الأتاتورك .

« أنا لا أتزحزح عن عقيدتى بوجوب تعيين وتحديد التضحية التى يمكن أن تبذلها الدولة بعد هزيمتها » ، وكتب إلى رئيس الوزارة « أنه يعارض الانقياد لرغبات البريطانيين وطلباتهم قبل إزالة ما فى نصوص المعاهدة من إبهام ولبس وإلا لن تبق هناك وسيلة للوقوف أمام أطماعهم ».

كان الفرنسيون على علم بنيات البريطانيين وهم حلفاؤهم طول مدة الحرب ، وكان الأتراك على علم بما يدور حولهم وما يمكن أن يسببه لهم التساهل والإغضاء عن حقوقهم ، والآن وقد نشرت أغلب وثائق الحرب العظمى الأولى ، أصبح من السهل تتبع المركز الخطير الذى لعبته منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة فى استراتيجية الحرب بين السنوات ١٩١٤ و ١٩١٨ .

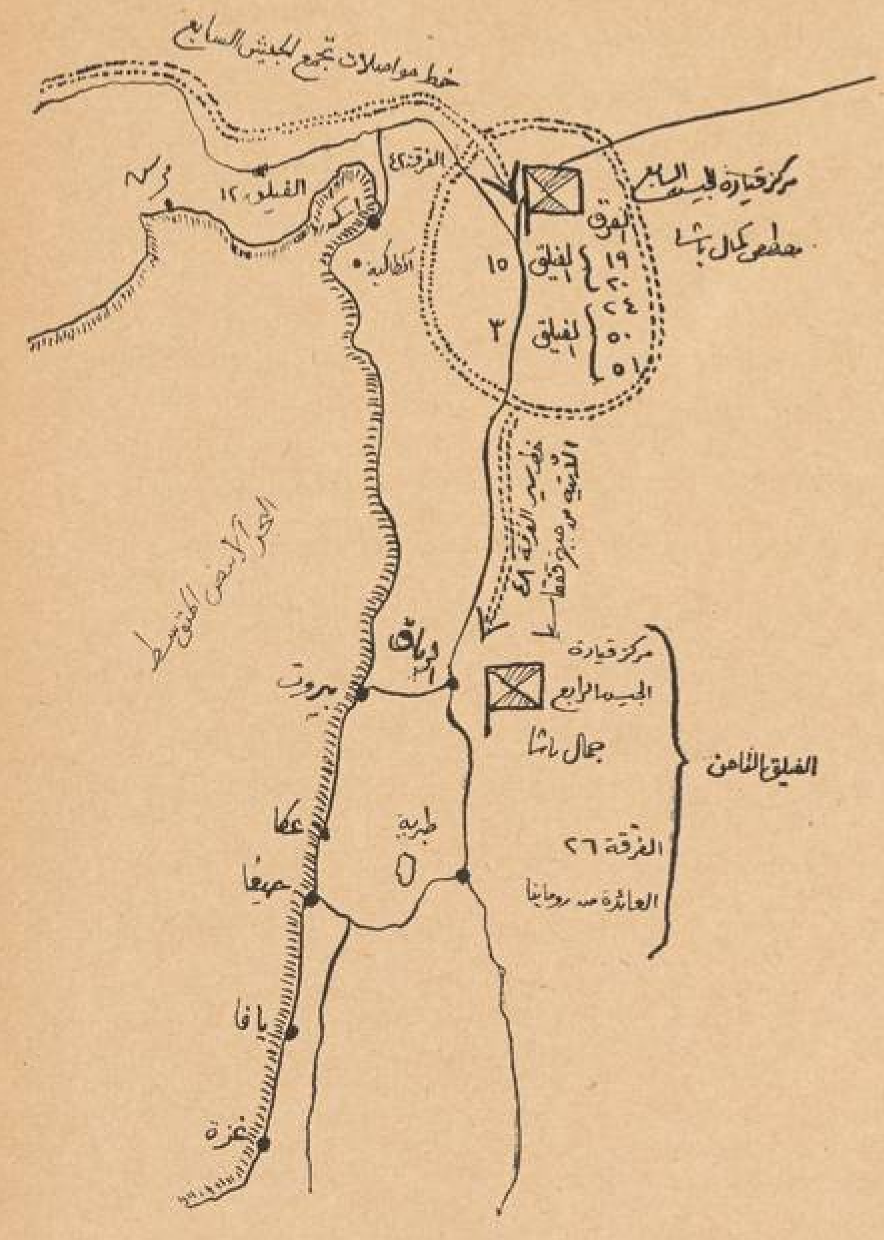
جيش يلدريم العثمانى :

وسوف نبدأ من الناحية التركية ثم ننتقل إلى وجهة النظر البريطانية : ففى سنة ١٩١٦ تألفت مجموعة من الفرق أطلق عليها اسم مجموعة الصاعقة أى « يلدريم » وكانت حلب مركزاً لها وتولى قيادتها المارشال فون فالكنهاين ومعه نخبة من رجال الجيش والبحرية والطيران[١] ، ومن الاطلاع على التاريخ الرسمى الذى نشرته وزارة الحربية التركية فى نشراتها عن تاريخ الحرب[٢] ؛ يتبين أن القصد من تأليف هذه القوة هو السيطرة على ميادين القتال فى فلسطين والعراق ثم حماية منطقة أنطاكية وخليج الإسكندرونة ضد أى هجوم يشنه الحلفاء ويكون الغرض منه قطع المواصلات العسكرية وتعطيل عمليات تموين الجيوش فى أهم نقطة حساسة فى أراضى الامبراطورية العثمانية وهى شمالى أنطاكية حيث مضايق طوروس .

---

(١) بينهم فون بابن .

(٢) يلدريم من مجموعة أركان حربية عمومية تاريخ حرب نشرياتى .



تجمعات جيش الصاعقة « يلدريم » سنة ١٩١٨
حول منطقة انطاكية (صفحة ١١٠)

هندبرج :

ويؤكد هذا ما كتبه الماريشال هندنبرج : « لو وفق الانجليز إلى إنزال جنودهم فى خليج الإسكندرونة لفقدت تركيا الحرب نهائياً أو اضطرت إلى احتماء فى جبال طوروس » ، وكان قد شبه فى مذكراته هذه المنطقة بالشريان الحيوى لتموين الجيوش التى تقاتل فى العراق وسوريا وفلسطين وقال : « إن مدافع السواحل لم يكن لها وجود هناك » .

وأشار إلى ما قاله أنور « من أن أمله الوحيد هو ألا يلمس العدو حالة الضعف التى عليها خليج الإسكندرونة » .

ولذلك ختم الماريشال حديثه بقوله « إن قيام الدولة العثمانية أو استمرارها فى الحرب كان مرتبطاً بمصير هذه البقعة ، وإن الضربات التى لقيتها الدولة بسقوط بغداد وتحطيم جبهة فلسطين جعلت تجمع جيوش مجموعة الصاعقة ضرورياً ، وألزم منه إسناد قيادة هذه المجموعة إلى قائد ألمانى معروف وهذا ما شجعه للموافقة على هذا التعيين » . ومن اطلاعك على ذلك يتضح ما مرّ بمخيلة مصطفى كمال حينما تمسك بشروط الهدنة ولمس فى الإخلال بموادها رغبة بريطانية جديدة لاتخاذ سياسة أشد عداء لبلاده ، وقد كان محقاً فى ذلك لأن نيات البريطانيين من ناحية خليج الإسكندرونة لم تكن خافية طول مدة الحرب كما قلنا ؛ فقد ذكرت المؤلفات الرسمية لوزارة الحربية البريطانية عن تاريخ الحرب العظمى [١] ما دار من نقاش بين اللورد كتشنر والجنرال مكسويل فى نوفمبر سنة ١٩١٤ بخصوص إنزال حملة بريطانيا على خليج الإسكندرونة وتوجيه ضربة حاسمة إلى منطقة أنطاكية ونهاية الخطوط الحديدية فى جبال طوروس حتى يمكن تحطيم مواصلات الإمبراطورية العثمانية وفصل قواتها المحاربة عن قواعدها الأصلية .

وقد تبين من هذه المحادثات أن إحتلال هذه المنطقة قد درسته القيادة

---

(1) Official History of the War; Military Operations.

البريطانية درساً وافياً ، وكان القصد من إنزال الجنود هو حماية مصر أو منع الحملة التركية الموجهة إلى مهاجمة قناة السويس من إتمام فتح مصر ، وكان هذا المشروع جدّياً لدرجة أن نظر إلى الناحية التي ستنتج عنه وهي قيام ثورات بين الأرمن ووسط قبائل النصيرية والإسماعيلية وتحريك كل ما يؤدى إلى انحلال الحكم التركى ، وقد عرض كل ذلك بموافقة الأميرالية البريطانية على مجلس الوزراء ، ولكن كتشنر عاد أمام أسباب عسكرية وسياسية رآها وقتئذ إلى التمسك بضرورة حماية قناة السويس أولا والوقوف موقفاً دفاعياً سلبياً ثم الاكتفاء بتشديد الرقابة والحصار على شواطىء سوريا بأكملها ، وبادرت القيادة البريطانية بإرسال الفرق البريطانية والهندية التي صدت هجوم جمال (باشا) على مصر فى فبراير سنة ١٩١٥ وتحصنت بمنطقة القنال ...

ثم عادت حملة خليج الإسكندرونة إلى الظهور مرة أخرى ، وكان ذلك فى نهاية عام ١٩١٥ حينما فشلت بريطانيا فى حرب الدردنيل وقرّرت إخلاء شبه الجزيرة وسحب جنودها منها فقد جاء كتشنر بصفته وزيراً للحربية إلى ميادين القتال فى غاليبولى ومصر ولمس بنفسه سوء الحالة العسكرية قبل الإخلاء وما تحمله من تطورات ومفاجآت وأشار إلى رد الفعل الذى قد يحدث بعد فشل حملة الدردنيل فى العالم الإسلامى وإلى خطر وجود عدد من الفرق التركية المدرّبة على أصول القتال الحديث بعد اشتباكها فى معارك الدردنيل وحصولها على التمرين الكافى ، ثم نظر إلى أن دخول بلغاريا الحرب قد فتح الطريق بين تركيا وألمانيا وأصبح تدفق الأسلحة والعتاد ممكناً ، ولذلك تجدد الخطر مرة أخرى على مصر وهى مركز الزاوية فى العمليات الحربية البريطانية » . . . وجاء التصريح الذى ألقاه أنور أمام مجلس المبعوثين وقال فيه « إن الحملة الأولى على مصر كانت عملية استكشافية تعرضية وسيعقبها حملة ثانية لاسترجاع مصر » ، فكان كل هذا كافياً لتحريك هذه المخاوف .

الجنرال ماكسويل والدفاع فى مصر :

ولذلك ازداد قلق ماكسويل وصارح وزارة الحربية البريطانية بأن إخلاء الدردنيل سيكون شديد الوطأة على المكلفين بحماية مصر وسيكون أثره بعيداً من الناحيتين السياسية والعسكرية إن لم تبادر بريطانيا بتوجيه ضربة عاجلة إلى الدولة العثمانية : وعاد ليعزّز اقتراح كتشنر بضرورة إنزال حملة بريطانية على خليج الإسكندرونة بل ذهب فى تحمسه أن عرض على حكومته أن احتلال هذه المنطقة يجب أن يسبق عمليات الإخلاء التى ستتم فى الدردنيل .

ورجعت وزارة الحربية إلى دراسة هذه الحملة وقدرت القوات اللازمة بمائة ألف مقاتل وأخذت القيادة العليا مع قيادة الأسطول تضعان الخطط التفصيلية ، واتفق الطرفان على مبدأ الجمع بين المشكلة السورية ومسألة الدفاع عن مصر ، وضرورة تنسيق العمليات الحربية بين قناة السويس وخليج الإسكندرونة .

كتشنر يعقد اجتماعا عسكريا

وعرضت جميع الخطط فى الاجتماع الحربى الذى عقده كتشنر فى جزيرة مدروس ودعى إليه كبار القواد ، وكان قرارهم ينص على ضرورة احتلال منطقة الإسكندرونة بالإجماع حتى حدّدت فى هذا الاجتماع على الخرائط الأماكن التى اختيرت لإنزال الجنود على البر .

ولكن هذا المشروع تعرض من الوجهة الفنية العسكرية لانتقاد رئاسة أركان الحرب العامة للامبراطورية ، ودارت عدة مناقشات طويلة يجدها الباحث مفصلة فى الكتب والوثائق الرسمية ، وفى أثناء ذلك جاءت المذكرة الفرنسية التى قدمها الكولونيل دى بانوس الملحق العسكرى بسفارة فرنسا بلندرة ، وهى المذكرة

التى قضت على المشروع لتعارضه مع مصالح الفرنسيين إذ جاء فيها إن أى عمل حربى فى هذه المنطقة يجب أن يكون باتفاق الحكومتين لأن فرنسا لا تدافع عن مصالحها الاقتصادية فحسب ، وإنما تضع الناحية السياسية والنفوذ الأدبى قبل كل اعتبار فى بلاد تعدها بناء على الاتفاقات الدولية داخلة فى مناطق نفوذها .

وذهب رئيس وزارة بريطانيا إلى باريس ، ولما عاد أصدرت الحكومة البريطانية قراراً برفض مشروع الحملة واستبعاد فكرة احتلال خليج الإسكندرونة وإن بقيت كل من تركيا وألمانيا تنتظران هذه الحملة حتى نهاية الحرب العظمى وإعلان الهدنة فى سنة ١٩١٨ .

ملخصات هندنبرج

ذكر هندنبرج فى مذكراته أن أعباءه مدة الحرب لم تكن تسمح له بقراءة التقارير التى يرفعها إليه خبراؤه العسكريون فكان يكتفى بالملخصات ولكن لفت نظره ما جاء فى أحدها من أن نهاية الحرب سوف تقرر فى خليج الإسكندرونة ، وذلك باستدراج العدو إلى معركة فى كلس (١) .

قال « كنت أجهل هذا الإسم ، ولهذا كان أول عمل لى هو البحث عنه وقد وجدته إسماً لبلدة صغيرة فى شمالى حلب » .

وقد فتح هندنبرج خرائطه واعتدل فى جلسته حينما قرأ عليه أحد ضباطه الملحقين بمركز قيادته التقرير الذى وضعه فريق من ضباط أركان الحرب وجاء فيه « سترى أن مصير هذه الحرب سيتقرر فى كلز وعليه يجب تركيز كل قوانا فى تلك الناحية » .

ولقد دهش المارشال الألمانى حينما اكتشف هذا الموقع فى شمال حلب وقال:

---

(١) تكتب كذلك برسم كلز .

« إن مصير حليفتنا تركيا قد يقرر هناك لا مصير الحرب العالمية الأولى : »
(راجع ص ٢٥٦) .

وفى عصر يوم ٢٢ المحرم ١٣ (سنة ١٩١٨) دخلت طلائع الجيوش البريطانية مدينة حلب وكانت مؤلفة من الخيالة والهجانة والمشاة تتبعها أرتال السيارات ، وكانت القوات مؤلفة من الإنجليز والاستراليين والهنود المسلمين والهندوس والسيخ وبينهم فرقة العمال من المصريين .

وفى الليلة السابقة كان مصطفى كمال قد أصدر تعليمات سرية مختصرة للقوات التركية التى فى المؤخرة جاء فيها : « سأسحب هذا المساء القوات الموجودة فى النقط الأمامية لحلب وسأحارب الانجليز والعرب غدا فى الشمال الغربى للمدينة ، فتدبروا فى أمركم وفقاً لهذه الحالة » .

ويزيد فى صفحة ٧٦ من مذكراته « وقد تمت الوقائع وكان من نتائج هذا الانتصار أن اثبتُ هناك خطاً وأصدرتُ الأمر إلى جنودى بأن عليهم الثبات فى هذا الخط وألا يجعلوا سبيلا لاختراق المدوله » . وقد كان أن ثبتت الحدود التركية وأصبحت كليس داخل هذه الحدود .

ويقول كامل بن حسين بن محمد بن مصطفى البابى الحلبى الشهير بالغزى فى كتابه نهر الذهب فى تاريخ حلب صفحة ٦٥٢ من الجزء الثالث « وكانت الجنود التركية الذين انسحبوا من جهات الراموسة والشيخ سعيد قد كمنوا فى موضع بتلك الناحية فلما وصلت إليها الجنود الإنجليزية خرجوا من أمكنتهم وأطلقوا النيران فقتلوا منهم على رواية ثمانمائة جندى بينهم ضابط انجليزى كبير أقيم له هناك نصب تذكارى » .

ويعلق مصطفى كمال على ذلك بقوله :

« رحماك يا رئيس ويلسون — كأنك لم تدرك أن الحدود التى لا يدافع عنها السيف أو القوة أو الشرف أو العزة لا يمكن الدفاع عنها بأية نظرية أخرى ،

ولو كانت مبنية على قواعد الإنسانية والحق والعدالة .. » .

ومن الغريب أن الانتقادات التى وجهها الخبراء البريطانيون إلى مشروع كتشنر ترتكز على افتراض وجود تجمع فى هذه الناحية وقالوا إن طبيعة المنطقة بأكملها تساعد على إخفاء قوات كبيرة فى أماكن مختلفة وتسهل عمليات الدفاع والمفاجأة .

إن الفكرة التى نظر إليها باستهتار القائد الألمانى العظيم كانت من ضمن الأسباب الفنية التى أخرت تنفيذ هذه الحملة .

والآن وقد قامت سوريا تطالب بعودة هذه المنطقة إلى أراضيها نعرض هنا هذه الآراء على المهتمين بمستقبل الشرق العربى وأممه إذ نستخلص منها حقيقة ثابتة وهى أن الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط سيتولاه فى المستقبل أهله[1] ، وإنه لن يقتصر على المضايق وسواحل اليونان وجزر بحر إيجه بل يرتكز على منطقة الإسكندرونة وأن الدفاع عن وادى النيل كما رأينا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالدفاع عن هذه الناحية بأكملها فى السنوات القادمة أو فى الحرب العالمية الثالثة .

أما ملامح العروبة والإسلام على هـذه الأرض فلها عودة عن قريب بإذن الله .

---

(١) كتب هذا فى سنة ١٩٤٦ قبل اجتماع كلمة العرب على ميثاق الدفاع الجماعى .

زيارة لحصن الأكراد ...

قلعة من قلاع الكفاح الإسلامي المصري في الشام

لزيارة حصن الأكراد قصة لا بأس من إيرادها على سبيل الفكاهة كمدخل لهذا البحث ، فقد سبقتها زيارة لحصن آخر هو قلعة طرابلس . ولم يكن لدى برنامج موضوع لزيادة القلاع والحصون التى أنشأها الصليبيون أو احتلوها بالمشرق ، وإنما جاءت الزيارتان وليدتى المصادفة ، وإليكم ما دفع إليهما .

حينما جاء الجنرال جورو القائد الفرنسي إلى مدينة طرابلس عقب احتلال فرنسا للبلاد بعد جلاء الجيوش البريطانية عنها ، فى نهاية الحرب العالميه الأولى استقبل فى قلعتها استقبالا غريباً ، فقد تلقاه جماعة من الجنود الفرنسيين وقد لبسوا لباس فرسان الهيكل Templiers ولباس مقاتلة الاسبتار Hospitaliers ومعنى هذا الاستقبال مظاهرة صليبية بعد سبعمائة سنة من انتهاء هذه الحروب . ثم خطب الجنرال وأظهر سروره باسترجاع فرنسا لمعقل من معاقل الصليبيين . وقد عُدّ هذا العمل من أخطاء جورو التى سُجلت عليه ، لأن فرنسا لم تفتح هذه البلاد بجيوشها حتى تحتفل باسترجاع حصن نزع منها . ثم إن عقلاء الفرنسيين أشاروا بخفة إلى أن هذه الحروب كانت حرباً عامة اشترك فيها الفرنسيون وغيرهم من الألمان والإنجليز ، وكانت نهاية الحروب خروج الصليبيين بعد هزيمتهم ، فليس من الحكمة فى شىء أن تلصق هذه الحروب ونتائجها بالشعب الفرنسى وحده .

كان قد مضى أكثر من عشرين عاماً على هذه الحوادث حينما زرت مدينة طرابلس ، فإذا بأهل المدينة يتحدثون عنها ، وكأنها حصلت من بضع أيام مضت لله در الجنرال جورو ! لقد كان أهل طرابلس رجال رباط ومثاغرة منذ القدم ، فإذا هو يذكرهم بماضيهم ، وإذا هم من جديد من المرابطين المثاغرين

الذين لم يفقدوا شيئاً من حماسة آبائهم وأجدادهم ، وكان أن تحادثنا طول الجلسة في موضوع مدينة طرابلس وكيف دخلتها جيوش الملك المنصور سيف الدين قلاوون صاحب مصر ، وانتزعتها من أمراء الصليبيين؛ وتحمس الجمع فخرجنا إلى قلعة طرابلس ، وقرأنا الكتابة التي سجلها الفاتح على باب القلعة : فكان من أثر هذا الاستقبال الفرنسي أن أوجد وعياً قومياً وحماساً في قلوبنا .

وأمضينا سهرة حول فتح طرابلس وسير حملتها ، فإذا بالحديث يتناول قلعة الحصن أوحصن الأكراد وهي القلعة التي قامت منها الحملة التي استولت على طرابلس ، وكان خاتمة الحديث أن تقررت زيارتنا للحصن العتيد في يوم من أيام عام ١٩٤١ حينما كانت الحرب العالمية الثانية في أشد أدوارها وطأة : فقمنا في أكثر من ست سيارات على طريق حمص ، في مقدمتها سيارة المرحوم زعيم طرابلس عبد الحميد كرامي ، وما كدنا نترك محطة تل كلخ حتى ظهرت لنا القلعة العظيمة بأبراجها تطل علينا من فوق رابية لا يقل ارتفاعها عن ستمائة ، وخمسين عن سطح البحر ، وهي في صمتها وعظمتها توحي إلى الناظر إليها بأنها تتحدى الأجيال . فكأن الزيارة الأولى جاءت من وحي الاستقبال الفرنسي الذي أقامه جورو ، وأتت زيارة حصن الأكراد نتيجة لما لمسناه ورأيناه عند زيارة قلعة طرابلس . كان كل هذا من غير قصد معين ولا برنامج موضوع .

كتابة مصرية :

وتمت هذه الزيارة في يوم بأكمله . فقد صعدت بنا السيارة إلى قمة هذا المرتفع ، ورأينا الأراضي الخصبة التي كان يسيطر عليها أصحاب الحصن ، وظهر لنا البحر من بين المرتفعات : ورأينا كيف كان أهل الحصون يتخابرون بالنيران الموقدة وحينما نزلنا من السيارات واتجهنا إلى باب الحصن أخذتنا الرهبة لدى

قراءة ما كتب بالخط النسخ الجميل من مثال العصور المملوكية القديمة فى مصر فأخذنا نحاول القراءة ، فأتى إلينا من باع لكل منا بطاقة قد صورت عليها الكتابة الخالدة .

« بسم الله الرحمن الرحيم ، أمر بتجديد هذا الحصن المبارك . فى دولة مولانا الملك السلطان الظاهر العالم العادل المجاهد المرابط . . . ركن الدنيا والدين أبو الفتوح بيبرس قسيم أمير المؤمنين ، وذلك بتاريخ يوم الثلاثاء خامس وعشرين من شعبان سنة ٦٦٩ هجرية » . .

نفحة من الوطن :

لا أخفى عن القارئ أنها كانت وكأنها نفحة من نفحات مصر تستقبلنا . أما أنا فقد كنت سريع الخطى ، اقفز ذات اليمين وذات اليسار ، كنت أرى الحصن بأبوابه وأبراجه وأسواره وطبقاته وكأنه قطعة من بلادنا مصر .

وصعدت على الدرج وقلت من هنا صعد أبو الفتوح بيبرس ملكنا بجنده وأمرائه ، وولجت إلى الرحبة الأولى فإذا الحصن الثانى له روعة أكبر من الروعة التى يراها الإنسان للباب الأول : ومن هذا المدخل يصعد الداخل الى مكان القيادة ، فرأيت كيف أبقى الزمن آثار أقدام الحرس ، وحيث موضع الرماح التى كان يحملها الديادبة[١] كنت أراها على يمين الداخل وشماله حتى صعدنا إلى الأماكن العالية : حيث كانت حجرات عميد الحصن ومائدته ومكان عبادته.

مناومة الحصن :

هذه هى النظرة الأولى لهذه الزيارة ، ولست بعالم فى فن هندسة التحصين وعمارة القلاع قديمها وحديثها ، كما أننى لست مختصاً فى التاريخ وعلم الآثار ، وإنما أكتب كتابة رجل مر بحصن من حصون المسلمين فأخذته روعة

(١) جمع ديدبان وهو الحارس .

المكان ، وغمرته ذكريات عن بلاده وهو بعيد عنها، فإذا به ينادى هذه الحجارة القائمة ، ويحدثها ويسعى إلى منادمة الماضى وما فيه من معارك وحروب سعيا قد يجعل هذا المكان يبوح بسره وينطق بما كان عليه من أمجاد العصور التى ولت .

فالمعلومات التى أقدمها لم أحاول جميعها على طريقة علمية منطقية ولم تكن نتيجة خطة مبيتة ، أو بحث قصدت به أن أظهر مقدار علمى ، وإنما هى نتيجة مطالعات متفرقة فى أوقات متباعدة ، وهذه المطالعات أثارتها زيارتى لهذا الأثر ورغبتى فى إشباع نفسى منه .

أثر التاريخ فى نفسى :

فهناك فريق من الناس يؤمنون بأن قيمة بعض الأشياء هى فى مقدار ما تثيره فى أنفسهم من انتباه أو وعى رغبة فى الاستزادة من التعرف إليها ، ثم فيما تتركه هذه الأشيا فى عقولهم وأذهانهم من دوافع قد تلازمهم مدة طويلة من الزمن ، وتدفعهم إلى عمل أشياء نافعة أحياناً .

وإنى أتشرف بأنى من هؤلاء الذين يؤمنون بأن التاريخ والآثار وكثيراً من محاسن هذه الدنيا ، هى حية ما دامت تؤثر فينا وتجعلنا نشعر بشعور معين ، وتحت إيحاء هذا الشعور نقوم باتمام عمل من الأعمال النافعة المفيدة . وأعترف بأنى مدين لزيارتى هذه إلى حصن الأكراد بشىء كبير من هذا الإيحاء الذى لازمنى مدة طويلة ونفخ فى روحى حماساً ، للتعرف على أشياء ، والإيمان بعصور كانت فى مخيلتى قائمة يحيط بها الكثير من الضباب . فأخذت أتحين الفرص لزيادة معلوماتى عنها وشغل أوقات الفراغ فى تعرف هذه الأيام والكشف عما وراء الحجب من أشياء قد تكون معلومة لأهل الاختصاص ، ولكنها كانت على كل حال مجهولة لى .

وصف القدماء للقلعة :

وللتعرف على هذه القلعة ، أبدأ بأن أنقل إليكم ما كتبه الأستاذ الجليل محمد كرد على ، صاحب خطط الشام إذ قال : قلعة الحصن ، أو حصن الأكراد أو الكرك Craces Chevaliers ولا تزال محفوظة منذ عهد الصليبيين على ما هى عليه ، وهى آية فى باب الهندسة العسكرية فى القرون الوسطى ناطقة بلسان حالها بأن هؤلاء نزلوا الأراضى المقدسة .

ثم : فلننظر بعده إلى يا قوت الحموي صاحب معجم البلدان فقد كتب منذ أكثر من سبعمائة عام « حصن الأكراد هو حصن منيع ، حصين على الجبل الذى يقابل حمص من جهة الغرب وهو المتصل بجبل لبنان ، وكان بعض أمراء الشام قد بنى فى موضعه برجاً ، وجعل فيه قوماً من الأكراد كطليعة بينه وبين الفرنج وأجرى لهم أرزاقاً ، فخافوا على أنفسهم فجعلوا يحصنون هذا البرج إلى أن صار قلعة حصينة ، منعت الفرنج من كثير من غاراتهم فنازلوه ، فباعه الأكراد ونزحوا لبلادهم ، وملكه الفرنج وهو فى أيديهم إلى هذه الغاية (أى إلى عهد ياقوت الحموى) وبينه وبين حمص يوم واحد ، ولا يستطيع صاحب حمص أن ينتزعه من أيديهم » .

ثم اختلط عليه الأمر فجاء بذكرى الدواية فى حصن الأكراد ويقصد فئة الاسبتار أصحاب الحصن فقال عنهم : هم قوم من الفرنج يحبسون أنفسهم لقتال المسلمين ويمنعون أنفسهم عن النكاح — يقصد إيمانهم بالرهبنة — ولهم أموال وسلاح ويتعاطون القوة ويعالجون السلاح ولا طاعة لأحد عليهم . إنتهى كلامه . . .

جماعة الاستبار :

وهذا رأى لكاتب عربى كتبه قبل استعادة الحصن من أيدى الصليبيين ويهمنا قبل الانتقال من هذا التعريف أن نصحح لياقوت : فأصحاب الحصن هم جماعة الاستبار لا الداوية كما قال .

والاسبتار هم Les Hospitaliers والداوية هم الهيكليون نسبة إلى هيكل سليمان أو المعبد Templiers وهما منظمتان صليبيتان ، كان الغرض الأساسى من تأليفهما مديد المساعدة لرواد الأراضى المقدسة الذين تنقطع مواردهم ، أو يقعدهم المرض ، ومن هنا تفهم كلمة Hispter ثم ألقى عليهما واجب حماية هؤلاء الحاج .

ثم إنتهى الأمر بهما إلى أن أصبحتا قوتين عسكريتين منظمتين لمحاربة المسلمين . وقد حصلت كلتاهما على حق احتلال القلاع والحصون ، وعلى حق إدارة المقاطعات وفرض الضرائب ، وعلى حق عقد المعاهدات والهدنة والصلح . فأصبحت كل منظمة حكومة داخل حكومات الصليبيين ، ووصل عدد المنتمين لهاتين المنظمتين إلى ١٥٫٠٠٠ مقاتل ، وكانوا على ثلاثة أصناف :

١ — الفرسان : من طبقة النبلاء من مختلف شعوب أوروبا وهم الذين يتولون مناصب الشرف الكبرى .

٢ — الضباط : ويمكن أن يلتحق بهم أبناء الطبقات الوسطى.

٣ — الكتاب : ويتولون وظائف الكتابة والأعمال الدينية الثانوية .

وكان حصن الأكراد معقلا من معاقل الاستبار : وهم الذين زادوا على أسواره وبنوا الأبراج العالية . وأهم ما بقى من آثارهم القاعة الكبرى ومسكن رئيس الفرسان Logisdu Maitre وغير ذلك . وقد تسلموا الحصن من أمير مقاطعة طرابلس لوجود الحصن على الحدود .

قسم حتى الموت :

وكانت القواعد المتبعة أن يقسم جماعة الاسبتار ، أو الهيكلين على الدفاع حتى الموت ، ولا يعفون من قسمهم إلا بأمر أعلى من عميد الهيئة (le Grand Maitre) فكانوا أهل رباط يتقربون إلى الله بقتال المسلمين بغير هوادة ، وكانوا يعتبرون من مات فى قتال الاسلام شهيداً ، ومن عوائدهم (التى أخذوها عن المسلمين وأهل المشرق) اطعام أربعين مسكينا لمدة أربعين يوماً ، وإخراج زكاة العشر للفقراء عن جميع المحاصيل ، بل فرضوا على أنفسهم إخراج رغيف عن كل عشرة أرغفة تخبز فى مطاحنهم .

وكانت المنافسة علي أشدها بين المنظمتين ، بل كانت تنتهى أحياناً إلى العداء المفتوح ، وفى منطقة حصن الأكراد كانت قلاع صافيتا وطرطوس فى أيدى الهيكلين .

تاريخ طويل وجماجم بشرية :

والمنظمتين تاريخ طويل فى الحروب الصليبية ، ويبرز اسم عميد كل منهما فى كثير من الحوادث ، وفى توجيه سياسة الامارات اللاتينية الصليبية . ولذا أفرد المؤرخون المؤلفات الطويلة للتحدث عنهم .

ويهمنا من أمرهم ما كان لهم من السلطان فى حصن الأكراد ، فقد ذكر صاحب كتاب les Hospitaliers en Terre Sainte كشفاً بأسماء من تولوا وظائف كبرى من الاسبتار بحصن الأكراد ابتداء من ١١٦٥ إلى ١٢٦٧ وخصوصاً العمداء les Chatelains ذكر من بينهم Pierre de-Mirmandi Raymond de Pignani Arnaud de Monthrn

ويؤكد الكثيرون أن رفاتهم وقبورهم لا تزال فى اقبية الكنيسة التى كانت بالحصن .

ولقد رأيت فى متحف الحصن مجموعة من الجماجم البشرية ، وعليها آثار ضربات السيوف ، فهل هى لقوم الاسبتار أم من المسلمين ؟ هذا ما يقف التاريخ حائراً أمامه .

اهتمام العلماء بالقلعة :

لفت حصن الأكراد أنظار رجال الآثار والعلماء من أواخر القرن الماضى ، وكتبوا الكثير عنه ، ولهم المطبوعات والرسوم التى تدل على عملهم المتواصل .

وكان آخر ما ظهر من عمل جدى إنشائى : هو عمل البعثة الفرنسية التى أقامت أكثر من عشر سنوات ابتداء من عام ١٩٢٧ وظهرت أبحاثها فى المجموعة المسماة Les Châteaux des Croisés التى طبعتها مصلحة الآثار الفرنسية تحت عنوان Le crac des chevaliers وهو كتاب من أعظم الكتب الأثرية تأليف Deschamps ويزيد من قيمة هذا العمل أن البعثة أعادت هذا الحصن إلى بعض رونقه القديم ، وأخذت فى هذا العمل سنوات عدة ، ولذا جاء عملها من الوجهتين : الأثرية والعلمية من الأعمال الخالدة .

وإنى إذا أشير إلى هذا أرجو أن أجد من السلطات المصرية والسورية اهتماما يفوق هذا الاهتمام لإعادة قلاع القاهرة ودمشق وحلب إلى ما كانت عليه فى إبان سطوتها وعزها على نمط لا يقل فى قيمتها العلمية والأثرية عما قامت به بعثة حصن الأكراد الفرنسية .

البعثة الفرنسية تنبش القبور :

وآخذ على البعثة الفرنسية هدمها لقبور من ماتوا من المسلمين ودفنوا داخل الحصن ، ومنهم من كان يحكم هذا الحصن باسم مصر نائبا عن السلطة المصرية ، أذكر من ذلك تربة الأمير صارم الدين قايماز الظاهرى السعيدى أول

نائب للسلطنة بعد الفتح ، توفى سنة ٦٧٣ ودفن بالحصن . وحقق سوبرنهيم Sodornheim الكتابة التى على شاهد القبر ورسمها ، وليس لهذه التربة أثر بعد الترميمات ، ولم يكن من حقوق البعثة أن تعبث برفات قائد مصرى كبير بعد أن رقدت بالحصن الذى افتتحته جنوده مئات السنين .

الحروب الصليبية :

اعتاد الناس حينما يتحدثون عن أثر مثل حصن الأكراد أن يشيروا إلى الحروب الصليبية وأثرها ونتائجها و بعض حملاتها ، وموضع هذا الأثر فى تاريخ هذه الحروب : ولا شك فى أن هذه الطريقة واجبة الاتباع ، ولكنى سأخالف هذه القاعدة من بعض النواحى .

ذلك لأن أغلب حملات الحروب الصليبية قد أصبحت معروفة ومتداولة ، ولم يعد من المفيد إعادة الكثير مما قرأه الناس عنها : ثم قد يتسع البحث إلى مناطق تبعدنا عن الغاية التى رسمناها لأنفسنا وهى حصن الأكراد وزيارته .

ولذلك سنشير إلى المنطقة التى فيها حصن الأكراد وأثرها فى الحروب الصليبية ، ونأتى ببعض النتائج التى حصلنا عليها من أثر هذه الحروب فينا .

يمكن اعتبار الحروب الصليبية بأنها الهجوم المضاد الأول من الدول المسيحية ضد الإسلام : لأن الفتوحات الإسلامية وانتصارات المسلمين أثارت بوقفتها هجوماً مضاداً Contre Attaque فنحن نرى أن حروب الصليبيين الأولى كادت تقتلع ملك المسلمين بأكمله فى سوريا ، وأن وقفة الحروب الصليبية فى الإمارات اللاتينية أوجدت الحرب الثابتة فى المراكز المحصنة ، والتى دامت حتى أتم المسلمون أهبتهم ، وجاءت هجماتهم التالية التى قذفت بالفرنج إلى الساحل : فكانت هى الرد الطبيعى على الهجوم المضاد المسيحى .

مجموعة الحصون التي ظهرت في فترات الهدوء :

فى فترة الهدوء والاستجمام بين الهجومين أنشأ الصليبيون خطاً من الحصون والقلاع ، يبدأ من خليج العقبة ويمر بالكرك والشوبك ، ويلتقى مع سلسلة الحصون التى تحمى أنطاكية ، وتنحدر مع جبال العلويين حتى جبل لبنان .

فى منطقة الوسط تماماً يقع مثلث مكون من الحصون الثلاثة : فى الشمال مصياف ، وفى الجنوب حصن الأكراد ، وإلى الغرب صافيتا .

فهذا المثلث الواقع على منطقة جبلية يسيطر على عدة طرق حيوية بالنسبة لمقاطعة طرابلس الصليبية ، وعلى مناطق زراعية خصبة تجعل المحتلين لهذه القلاع لا يهتمون بغير قلاعهم وأملاكهم ، ويسهل عليهم الاتصال فيما بينهم بالنيران لتبادل المساعدة ، ولصد كل عدوان يأتى إليهم . ولذلك استمرت هذه البقعة شوكة فى جنب المسلمين منذ أيام صلاح الدين ومن قبله إلى أيام الملك الظاهر بيبرس .

هدف الحرب تحطيم قوة المقاومة وتدمير العدو :

والحرب هى الحرب فى كل الأزمان تتطور قواعدها وأساليبها ولا تتبدل أهدافها . فهدفها الأول : هو تحطيم قوة المقاومة لدى الخصم وتدميره .

ولا شك فى أن الحملات الصليبية الأولى لم تصل إلى أغراضها ؛ فإن قوة المسلمين لم تحطم فى يوم من الأيام — وإن الفترة بين دخول الفرنج فلسطين وإخراج صلاح الدين لهم من القدس بعد معركة حطين كانت من فترات الثبات والتركز . وقد دامت ٩٠ عاماً — وكانت كل المعارك الصغيرة من قبيل الهجمات التعرضية التى يقوم بها جيش من وراء الاستحكامات ثم يعود إليها بعد إتمام غرضه .

صلاح الدين ينتزع حصون الصليبيين :

هذه الاستحكامات الدائمة هى القلاع التى أشرنا إليها والتى تمكن صلاح الدين بعد هجومه العام من انتزاع أكثرها من أيدى الصليبيين ، ولكنه توفى قبل أن يتم العمل الذى بدأه ولذلك بقى حصن الأكراد لم يسلم إليه ، وعادت حالة الاستقرار والهدوء وراء القلاع ، وإن كانت تغيرت عقلية ملوك الصليبيين فأصبحت مصر هدفاً لحملاتهم للقضاء عليها حتى يتم لهم تحطيم قوة المسلمين وتدميرها تدميراً تاماً .

الموقف السلبي للخلافتين العباسية والفاطمية :

وهناك حقيقة لا بد من إعلانها وهى تتلخص فى إفلاس الخلافتين العباسية فى بغداد والفاطميه فى مصر فى اتخاذ موقف يسمح لكل واحدة أو لكلتيهما معاً من البروز كقوة مجاهدة مكافحة تصلح لقيادة المسلمين فى عراك يمثل الموت والحياة للعالم الإسلامى . فهذا الموقف السلبي إنتهى بهما إلى النتيجة الطبيعية المحتمة وهى زوال الخلافة الفاطمية من الوجود وضعف الخلافة العباسية إلى أن صفيت على يد هولاكو .

والقارىء لأخبار الصليبيين عند نزولهم لدمياط وخصوصاً لأخبار نشاطهم وحماسهم عندما وصلت لهم أنباء استيلاء التتار على بغداد يخيل إليه أن قواد الصليبيين قد وثقوا من أن العالم الإسلامى قد زال من الوجود بزوالها مع أن أثر الخلافة العباسية كان ضئيلا جداً فى الحروب الصليبية لدرجة لايصدقها العقل . .

والفضل الأكبر فى صد الحروب الصليبية و إعداد أول هجوم إسلامى على معاقل الصليبيين فى فلسطين هو لمصر تحت قيادة صلاح الدين الذى ورث هذا النشاط عن نور الدين الشهيد .

وهذا ما أدركه كتاب الصليبيين ، وما شعر به قوادهم بعد وقت طويل وما باح به الجنرال كاترو فقوله : إن مصر فى مطالبتها بعودة الدستور والحياة النيابية فى سوريا ولبنان إنما تريد أن تلعب الدور الذى لعبه من قبل صلاح الدين فى شئون دمشق .

عمل بيبرس :

والعمل الحاسم لآخر هجوم إسلامى كان لمصر تحت قيادة الملك الظاهر بيبرس هذا الهجوم العام الذى سقطت فيه انطاكية وحصون الشمال ، وأخيراً حصن الأكراد وغيره من حصون الوسط .

ولو أعقبت وفاة بيبرس فترة هدوء واستجمام لعادت الحروب الصليبية مرة أخرى ، ولكن قلاوون وابنه الأشرف خليل كانا أسرع إلى مداومة الزحف واستغلال الموقف ، فلم يقف الهجوم الثالث حتى حقق ما كان يؤمله كل من صلاح الدين و بيبرس ، فسقطت طرابلس ثم عكا التى قال عنها الشاعر فى مدح الأشرف خليل بن قلاوون .

صدمتها بجيوش لو صدمت بها صم الجبال أزالتها ولم تزل

عقيدة القضاء على الخصم :

ويرجع الفضل إلى إحراز هـذا النصر إلى عقيدة القضاء على الفرنج وإنهاء الحروب الصليبية إنهـاء تاماً ، تلك العقيدة التى تملكت عقول الجنود والقواد وملوك مصر منذ بدأ بيبرس حملاته والتى تتلخص فى الاستيلاء على الحصون والقلاع وعدم ترك الفرصة حتى تسترد الولايات اللاتينية استعدادها مرة أخرى ، وعليه أفرغ كتاب الفرنج جعبة شتائمهم على هؤلاء الأبطال ،

وكتب جبون يرثى الحروب الصليبية يقول : « ساد سكون محزن غريب مظلم

على طول ذلك الشاطىء الذى ظل زماناً طويلا تتردد فيه أصداء النزاع العالمى وتمر عليها كتائب المقاتلة » .

أنشأ الصليبيون معاقل وأبراجاً فى الحصون التى احتلوها تشهد لهم بطول الباع والأناة وللعرب والبيزنطيين ، بل وللفرس وغيرهم آثار تشهد لهم أيضاً .

وهذا فن يهم أربابه ، وقد أخرجت البعثة الفرنسية حجارة نحتها العرب وأخرى نحتها الفرنج من أسوار حصن الأكراد ، وفى أسوار قلعة القاهرة من الحجارة ما نحته أسرى الفرنج ، فقد كانت الطريقة المتبعة استعمال الأسرى فى هذه الأعمال .

حصن الأكراد كرأس حربة موجهة إلى بلاد المسلمين :

وقد استعمل حصن الأكراد وغيره من الحصون فى فترات الهدوء التى دامت بين هجومين عظيمين : كرأس حربة طول مدة احتلاله بالصليبيين لإدخال الرعب فى قلوب المسلمين ، ثم كملجأ يلجأ إليه المقاتلة والفرسان بعد عودتهم من حملة موفقة ليستجمعوا ويستعيدوا قوتهم ليعودوا مرة أخرى إلى الغزو فى أراضى المسلمين . . .

وقد بقى حصن الأكراد ١٣٠ عاماً وهو رأس حربة كما قلنا يهددون بها حمص وما حولها ، ويحولون دون اتصال المسلمين بالجهات التى تحت حكمهم فى بعلبك والجهات الأخرى المجاورة لها .

نور الدين الشهيد :

ولما شعر المسلمون بأهمية هذا الموقع العسكرى ومدى أذاه فى صفوفهم لجأوا إلى نور الشهيد صاحب دمشق الذى جمع جنوده فى سنة ثمان وخمسين

وخمسمائة ونزل تحت حصن الأكراد ، فبينما هو فى معسكره وفى وسط النهار ، دهمته كتائب الأفرنج من خلف الجبل القائم عليه الحصن ، وأحاطت بالجيش الإسلامى وهو على غير أهبة فأعملت فيه السيف ، وقصد الأفرنج خيمة العادل نور الدين ، فكاد أن يقع أسيراً لولا رباطة جأشه وسرعة خاطره إذ خرج من الباب الخلفى وركب فرساً للنوبة ، وكانت بقيدها الخلفى فنزل أحد أتباعه من الأكراد فحلها وقتل لساعته ، ولولاه لوقع نور الدين فى الأسر .

وفى هذه الحادثة بالذات يقول أبو الفرج عبيد الله بن أبى سعد الموصلى من قصيدة فائقة :

بنى الأصافر ما نلتم بمكركم	والمكر فى كل إنسان أخو الفشل
وما رجعتم بأسرى خاب سعيكم	غير الأراذل والأتباع و السفل
هل آخذ الخيل قد أردى فوارسها	مثال آخذها فى الشكل والطول
أم سالب الرمح مركوزاً كسالبه	والحرب دائرة من كف معتمل

وفيها يخاطب نور الدين :

لا نكبت عنك الأقدار فى غرض	ولا تنت يدك الأيام عن أمل

وبرغم ما فى القصيدة من محاولة الاعتذار أمام الهزيمة والفرار ، فإن العملية الحربية الصليبية كانت ناجحة إذ تجلى فيها عنصر المفاجأة وظاهرة السرعة بدليل تتبع المنهزمين حتى حمص . والفضل للموقع الممتاز لحصن الأكراد ، ذلك الموقع الذى أتعب المسلمين أكثر من قرن من الزمان كما قلنا .

الأفرنج يستعملون حصن الأكراد لمهاجمة المسلمين :

ولدينا من قبيل هذا المقال الكثير من الهجمات والمتاعب التى سببتها حامية حصن الأكراد الصليبية لمدينتى حمص وحماة وغيرهما من بلاد المسلمين .

فنى عام ٥٩٩ زحف الافرنج من حصن الأكراد إلى مدينة حماة فركب صاحبها وحاربهم فى رمضان ، وجاء فى السلوك ضمن حوادث سنة ٦٠٣ ان الملك العادل الأيوبى صاحب مصر خرج من مصر إلى العباسة ومنها إلى دمشق ثم برز إلى حمص ، وذلك عقب الحملات المتتالية التى شنتها حامية حصن الأكراد وتعدد الغارات على كل من حمص وحماة ، ونازل الحصن واسر خمسمائة رجل من اطرافه . ولقد نازله قبله صلاح الدين وغيره من ملوك المسلمين ولكنها كانت جميعاً حملات تعرضية استكشافية ، او إذا شئت تأديبية ضد المقاتلين من جماعة الصليبيين المستحكمين فى هذه القلعة ولم يعقبها حصار كامل الأهبة والاستعداد كما حدث بعد ذلك .

وقد بقى هذا الحصن قذى فى أعين المسلمين يهدد بلادهم حتى تم فتحه فى عام ٦٦٨ هجرية على يد الملك الظاهر بيبرس سلطان مصر وصاحب الفتوحات وهو ما سنفرد له فقرة خاصة تأتى بعد ذلك .

وقبل أن يتم الفتح على يديه اتبع طريقة أسلافه ، وهى الهجمات التعرضية السريعة لجس نبض الحامية واستنفارها للخروج من وراء الخنادق والأبراج ؛ ففى هذا العام أى فى ٣ جمادى سنة ٦٦٨ ركب الملك فى مائتى فارس وأغار على أطراف الحصن ثم صعد إلى الرابية ومعه قدر أربعين من الفرسان فخرج عليه عدة من الفرنج ملبسين بالدروع فحمل عليهم وقاتلهم وتتبعهم حتى دخلوا الحصن . وتقول الرواية إنه صاح بهم ليدعوا رفقاءهم إلى الخروج ، وأشار إلى عدد من معه وكانوا جميعاً بأقبية بيض اى غير مدرعين بالزرد والحديد .

وتشير الرواية إلى أنه عاد إلى مخيمه وأطلق الخيول فى المروج الخضراء والمزارع التى كانت حول الحصن .

وكانت هذه آخر الحملات التأديبية إذ سقط الحصن بعدها فى أيدى الملك الظاهر الذى بادر إلى ترميمه وإعادة إصلاح أبراجه وخنادقه واتخاذه نقطة

ارتكاز لجيوشه فى عملياته الحربية ضد الفرنج المحتلين لمقاطعة طرابلس ، فأصبح حصن الأكراد رأس حربة موجهة إلى الغرب بعد أن كان موجها إلى الشرق أى إلى قلب الأراضى الإسلامية .

ولهذا الوضع أمثلة فى الحروب الحديثة فإن الزائرين لمنطقة جبال الكارسو فى شمال إيطاليا لا بد عاينوا الحصون الكائنة فى جهة سان ميشيل وسابوتينو حيث لا تزال أماكن المدفعية التى استعملها النمساويون وأماكن تلك التى استعملها الإيطاليون بعدهم ظاهرة أى أنها استعملت مرتين . . .

وتحدثنا الرواية بالتفصيل عن بعض ما قام به الملك الظاهر فقد أمضى أياماً فى الصيد ، وكان يصنع السهام بيده ويريش النشاب ، وكان يحضر العمارة بنفسه ويشحذ همم العمال ويشجعهم بل كان يشمر وينقل الحجارة على كتفيه ، وكان ينزل فى الخندق ويحفر بيديه . ولما أتم العمارة وأعاد تركيب المنجنيقات أمر بتجربتها أمامه ليعرف أماكن سقوط حجارتها ومدى إصابتها للأهداف .

وتنتظم الحياة مرة أخرى بحصن الأكراد إذ تولى القيادة فيه الأمير حسام الدين قيماز الذى مر ذكره : وأطلق عليه اسم نائب حصن الأكراد والسواحل والفتوحات على رأس حامية مؤلفة من ٥٠٠ جندى وعشرة أمراء طبلخانة و ١٥ أمير عشرة .

وبمقارنة هذه الحامية تظهر أنها أقل مما كان يحتل الحصن من جنود الصليبيين إذ كانت تتراوح بين ٢٠٠٠و٣ آلاف وهؤلاء يدخل بينهم الخدم والزراع وطوائف من أهل البلاد .

وبعد حسام الدين قيماز تعين سيف الدين بلبان الطباخى ثم الأمير علم الدين سنجر الدوادارى . وبوسع المهتمين بالتاريخ المصرى استكمال هذا الكشف حتى يكون مكملا للكشف الذى ضم أسماء من تولوا القيادة بالحصن أيام الاحتلال الصليبى من رجال الاسبتار . . .

انتهى الحصن فى عهد المنصور قلاوون إلى أن أصبح مركز تجمع الجيوش التى حشدت هناك للزحف على مقاطعة طرابلس ، وكان الطباخى يقود الحامية من البرج الذى كان يحتله عميد الاستبار ، ويبعث بطلائعه لاكتشاف الأماكن التى نزلها الجنود قبل حصار طرابلس .

وفى عهد الملك الأشرف خليل بن قلاوون اشتركت الحامية فى أعمال الحصار الرائعة حول مدينة عكا وقد قامت ومعها المجانيق التى سبق أن ركبها الملك الظاهر ومن بينها منجنيق هائل أطلق عليه اسم المنصورى .

أتينا بصورة من الحياة والقتال فى الحصن فى العهدين الصليبى والإسلامى لكى تسهل المقارنة وتركنا فتح الحصن على أيدى المسلمين جانباً حتى لا يكون فاصلا يضيع المقارنة بين العملين .

فقد أشرنا إلى عملية قام بها الملك الظاهر تشبه الهجمات التى اعتادها ملوك المسلمين وأمراؤهم ولم يكن يرمى من ورائها إلى هدف معين . وسنرى فى حملته على حصن الأكراد كيف يلجأ إلى أساليب المفاجأة والسرعة وتضليل الخصم .

ففى السنة التى أتم فيها الملك الظاهر إنشاء الجسر والقناطر القائمة بقرب بلدة شبرا بمصر، قرر فتح حصن الأكراد الذى استعصى على غيره من الملوك والأمراء .

وإليك برنامج السفر : غادر القاهرة فى ١٨ جمادى الآخرة ، وصل دمشق الخميس ١٨ رجب ، وفى المدة السابقة لوصوله أى بين ١٨ جمادى و ١٨ رجب أشغل العدو إذ ابتدأت الحملات الخاطفة ضد قلاع الصليبيين فى :

جبلة . وفى أثنائها سقطت اللاذقية . صافيتا . المرقب . المجدل . القليعات . طرطوس :

فى يوم ١٩ رجب الموافق ٣ مارس سنة ١٢٦٧ تجمعت قوات الملك الظاهر أمام حصن الأكراد .

ونلاحظ فى هذه الأعمال اختفاء الهدف الرئيسى حتى اللحظة الأخيرة .

جاء إليه ابنه الملك السعيد والأمير بيليك الخازندار و بمجرد وصولهما بدأت أعمال الحصار : إذ أخذت الجنود فى نصب المجانيق وعمل الستائر لحماية الرماة .

اقتحمت الأسوار الثلاثة على التوالى عنوة ماعدا البرج الأخير الذى استحكم فيه فرسان الاسبتار حتى آخر مراحل الحصار .

فى ٧ شعبان سقطت الباشورة الثانية التى تؤدى إلى الحصن الداخلى ، ودخلت العساكر البلد بالسيف وأسروا من فيه من الجبلية والمزارعين ثم أطلقوهم .

وفى يوم الاثنين الثالث والعشرين من شعبان طلبت الحامية الأمان فأمنهم الظاهر وتسلم البرج الأخير فدخله وكتبت البشائر وترتب أرباب الوظائف بالحصن من جهة المملكة المصرية أى النواب والقضاة وبقى بيد مصر حتى دخول السلطان سليم ديار الشام ، فزال ملك مصر عنها كما زال عن غيرها من البلاد .

* * *

هذا هو حصن الأكراد الذى توجهنا لزيارته ومررنا بأقسامه ، ووقفنا أمام أبراجه ، وفيها أبراج بناها المنصور قلاوون ، ولا تزال الأسماء والآيات القرآنية كما كانت .

ودخلنا أماكن الخيول ، وقد كشفت عنها البعثة الفرنسية فرأينا ما أدهشنا أثر حوافر الخيل ومواضع ربطها والحديد الذى كانت تشكل به . لقد كان الردم يغطى كل هذا ، ولما أخرجته يد الإنسان من تحت التراب إذا به كما كان يوم تركه أصحابه منذ مئات السنين .

وكان للحصن آبار ومجار للمياه حينما كشف عنها وجدت أوانى من النحاس من عصر الملك الناصر محمد ورؤوس النبال والرماح .

وعدت من الحصن وقد غمرتنى نفحة من تلك النفحات التى تؤذن بخروج الإنسان من طور ودخوله إلى طور جديد من أطوار الحياة : فقد تغيرت نظرتى

إلى بعض الأشياء ، وأخذت طريقاً لإشباع نفسى بتقليب صفحات الماضى الذى بدأت أحس بأننا قطعة منه .

وإذا بى أؤمن بأن تاريخ مصر والشام وحدة لا تتجزأ ، وأن أية محاولة للفصل بينهما تؤدى بنا إلى نتائج معكوسة أى تقرير مبادى سلبية يقصد أصحابها توزيع القوى والعزائم وتجريح الأمم الإسلامية وإنقاص الدور الذى ألقته علينا الأقدار وحمّله لنا التاريخ كقوة مقاتلة منشئة منتصرة .

وها نحن نعيش فى عصر طابعه السرعة والإقدام ، والبناء والخلق والتجديد ومع هـــذا لا نزال نسير على خطوات وئيدة والزمن يعدو أمامنا : ذلك لأن عوامل التفكك والانحلال والسلبية لا تزال تعمل فى صفوفنا وتعوقنا عن الأهداف الكبرى .

هل كان الذين انتصروا فى هذه الحروب وقادوا الحملات وتغلّبوا على الحوادث لهم نظرة خاصة ومنطق خاص حتى تغلبوا على قوات تفوقهم : وأحرزوا النصر وأننا لا نستطيع أن يكون لنا قبس من نظرتهم ومنطقهم ومثلهم العليا وحماسهم .

إن الذين خاضوا هذه المعارك أظهروا نهاية ما يمكن من الإقدام حينما وجدوا القيادة الصالحة ، فهل يجدها معاصرونا الآن ؟ إن استمرار الكفاح والجهاد لمدة تقرب من قرنين لهو أظهر دليل على أن صفات الاستمرار والمداومة ثابتة فى الصفوف بين الأمم الإسلامية ، ولا نحتاج إلا لمن يظهرها ويحسن قيادتها وتوجيهها .

ونحن لا نعيد الحروب الصليبية بمآسيها ومتاعبها ، وإن كانت تتكرر على مقربة منا فى فلسطين ولكننا نقول : إننا فى حاجة وقت السلم إلى صفات لا تقل عن الصفات التى تحتاجها الأمة وقت الحرب بل قد تزيد .

إننا فى عصر يتطلب انتزاع النصر فى السلم كما انتزعه أسلافنا فى الحرب ،

وتحضير هذا يتطلب جمع القوى المشتتة وتنظيمها وتعبئتها ، وهذا التنظيم نوع من الكفاح الدائم المستمر .

إنه يتطلب نوعاً من الهدوء والثبات والتركيز والإقدام ، وهى من قبيل الصفات التى تمكن بها أسلافنا من انتزاع النصر فى المعارك التى ذكرتها أو أشرت إليها فى الكلام عن حصن الأكراد ولا أشك فى أن هذه الصفات كامنة فينا وأؤمن أنها ستخرج فى القريب لكى نحقق فى السلم ما يرى الكثيرون أنه بعيد التحقيق ولكى تنتهى أسطورة المستعمرين التى تقول بأنه ليس فى طاقة شعوب الشرق أن تقوم بعمل حاسم ، ولكن وثبتها نحو تحقيق مثلها العليا سيجعل هذا الاتجاه حقيقة ماثلة للعالم أجمع مرة أخرى . . .

وسيكون أكبر دليل نقدمه على حيويتنا ورغبتنا فى البقاء والخلود على هذا الكوكب الأرضى .

إنا لمنتظرون .

على هامش الحرب العالمية الأولى

كيف تستفيد مصر من دروس حملة فلسطين

١٩١٤ — ١٩١٨

بين يدى كتاب عنوانه « دروس من تجارب الحرب العظمى ». وضعه الجنرال الألمانى البارون فون فرايتاج لورنجهوفن ، وكان صاحبه من خيرة كتاب ألمانيا العسكريين وأطولهم باعاً ، وأقدرهم فى الكتابة عن الحرب من الوجهة النظرية . وهو بروسى الأصل ولكنه ينحدر من عائلة كانت تسكن شواطىء بحر البلطيق فى تلك المناطق التى ضُمت إلى الروسيا ، وهاجرت عائلته إلى ألمانيا ، فانضم فى الحادية والعشرين من عمره إلى إحدى فرق الحرس البروسية وشغل قبل سنة ١٩١٤ وظيفة هامة فى هيئة أركان الحرب العامة فى برلين ، وما لبث أن ذاع صيته فى السنين التى سبقت الحرب الأولى ، لاشتهاره بكتبه ومؤلفاته العسكرية التى نشرها عن فن الحرب وتاريخ المعارك ، ولما نشبت الحرب العالمية الأولى رشحته خبرته وثقافته ليعين مندوباً عن الجيش الألمانى وممثلاله فى المجلس الأعلى لهيئة أركان الحرب العامة لجيوش الإمبراطورية النمساوية المجرية .

وقد لمس عن كثب عند بدء الحرب ضعف هذه الإمبراطورية ، وأسباب تفكك جيوشها ، ولكنه كان يلتمس الأعذار للعسكريين النمساويين ، ويقول إن جموع الجيوش التى حشدتها دولة العرشين — عرش النمسا وعرش المجر — قد استبسلت فى القتال وحاربت بشجاعة، وجاءت هزيمتها نتيجة للأخطاء التى سببتها الهيئات النيابية فى البلدين و إهمالها لطلبات هذه الجيوش وقت السلم .

والمعروف أن فشل الخطط الهجومية الألمانية فى الميدان الغربى أدى إلى اعتزال الكونت فون مولتكة من رئاسة هيئة أركان الحرب العامة ، فتسلمها فون فالكنهين الذى دعا مؤلف الكتاب وعينه ضمن مساعديه .

واقتصر عمل فون مولتسكة على رئاسة بعض الأقسام الفنية التى بقيت فى برلين ، أما الأعمال الأساسية التى من صميم عمل هيئة أركان الحرب العامة ، فاستمرت فى الميدان تحت إشراف القيادة العامة.

ولما أخفق الهجوم الألمانى أمام حصون « فردان » طلب إلى المريشال فون هندنبرج فى أوائل أغسطس ١٩١٦ ، أن يخلف فالكنهاين فى منصبه والحق مؤلف الكتاب كساعد للجنرال لودندورف ، وهو يد هندنبرج اليمنى ، وقد بقى المؤلف يشغل هذه الوظيفة حتى مات فون مولتسكة فى يونيه من السنة التالية ، فخلفه الجنرال لودنجهوفن فى وظيفته ، أى شغل منصب الرئيس المنتدب لرئاسة أركان الحرب بأقسامها التى بقيت فى برلين ، وكان عملها قاصراً على المسائل الفنية الصرفة ولا تتدخل فى تنسيق العمليات الحربية وسير القتال فى الجبهات .

وقد انعمت عليه حكومته عقب توليه هذا المنصب بوسام الاستحقاق من طبقة السلم . فكان هذا الانعام دليل تفوقه وأهليته وخير اعتراف رسمى له بأنه أقدر الكتاب العسكريين فى الجيش البروسى .

والمعروف أن الذى أنشأ وسام الاستحقاق فى طبقاته العسكرية هو فردريك الأكبر عاهل بروسيا ، وقد جرت التقاليد بالأنعام به على القواد والضباط الذين يظهرون مهارتهم فى الحروب ، أما وسام الاستحقاق للسلم ، فقد أنشأه فردريك وليم الرابع عام ١٨٤٢ وأوقفه على من يظهر قدرته على الكتابة فى الفنون العسكرية من الوجهات النظرية والعلمية البحتة ، وعليه فإن حصوله على هذا الوسام دليل تقدير مؤلفاته وأنها بلغت درجة كافية من النضوج تجعله أول ضابط حصل على وسام الاستحقاق من طبقة السلم فى زمن الحرب العالمية الأولى .

لقد كتب المؤلف كتابه « دروس من تجارب الحرب العظمى » والحرب القائمة ، ثم طبع بعد انهزام ألمانيا ولم يكد يظهر فى عالم المطبوعات حتى تلقفته الصحافة بتعليقاتها المستفيضة ، وقد لفت الأنظار إليه ما جاء فى بعض فصوله عن

مستقبل الجيش الألماني ثم جاء في خاتمته التي تقول « لا نزال مستعدين للحرب ».

وأدى نشر فصوله على هذا الملأ أن أخذت الجرائد تناقشها بحرارة وحماس وتشرح بأسهاب الطرق التي لابد أن تتبعها ألمانيا بعد انكسارها في الحرب لتستعد إلى دخول حرب أخرى ، فاضطرت الحكومة الديمقراطية أن تضيق على الصحافة وأن تحول دون نشر تعليقاتها على الأفكار التي تضمنها الكتاب ، ولكنها شجعت نشره في داخل بلادها ومنعت إرساله للخارج فلم يتعد ما تسرب منها إلى البلاد الأجنبية عدداً محدوداً .

ونظرة لهذا الكتاب تجعلنا نحكم بأنه محاولة تمهيدية لتاريخ الحرب العالمية الأولى ، فهو مؤلف موجه للشعب الألماني لا لرجال الجندية ، ولذلك عده البعض شبيها بكتاب الماريشال فون مولتكه الكبير الذي قاد الحرب الفرنسية الألمانية ١٨٧٠ وخطه بقلمه وهو في ميدان القتال بفرنسا ، وقدمه للشعب وللاجيال القادمة التي لم تكن وجدت في ذلك الوقت ، فنشأ على قراءته وتربى على أفكاره ومبادئه جيل من الناس بأكمله ، هذا هو الذي عاش بين سنة ١٨٧٠ وسنة ١٩١٤ ومن هذا الجيل نشأ الجيش الذي خاض معارك الحرب العالمية الأولى واستشهد فيها .

وكذلك كتاب الجنرال لوردنجهوفن أثر في الأجيال التي جاءت بين سنة ١٩١٨ وسنة ١٩٣٩ أي بين هزيمة ألمانيا الأولى ثم قيامها تحت نظام النازية ودخولها الحرب العالمية الثانية : لأن الدعوة التي تبناها مؤلف الكتاب : يقول بطرح المبادىء العالمية والاقلاع عن أفكار السلام الدائم ، والأخذ بفكرة إنشاء نظام عسكري جديد لألمانيا موطد على دروس الحرب العالمية الأولى ومدعم بتجاربها القاسية ومعتمد على تقدم العلوم الحديثة وتطور فنون الحرب ، فهو يدعو إلى أن تخلق ألمانيا لنفسها من هزيمتها نصراً ، وهذا ما وفق الشعب الألماني إليه بين حربين ، إذ جعل من تعاليم صاحب الكتاب دوافع نفسية مكنته من

تنظيم أكبر قوة عسكرية فى العالم وأضخم آلة قتال رآها الناس فى الفترة التى وقعت بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

وهو من القائلين بأن الحرب غريزة متمكنة من طبيعة البشر ، فكما أن طبيعة الناس لا تتغير فالحرب ستبقى ملازمة للانسان فى مستقبل أيامه كما لازمته آلاف السنين وعشرات القرون .

وهذه عقيدة تملكت الشعب الألماني الذى ألف الحروب ونشأ مدربا تحت السلاح ، ولذلك تقبلت هذه العقيدة عقلية الجماعات ، فأصبحت حقيقة منطقية ثابتة وإيمانا لا يحتمل الشك ولا يتطرق إليه التردد والضعف . وهو يقول إن الروح العسكرية ليست اختراعاً أوجدته بروسيا لنفسها أو عارية أخذتها من الأمم الأخرى ، وإنما الروح العسكرية هى بروسيا نفسها . ولما كانت بروسيا أقوى دول ألمانيا ، فليس لدى الألمان أحزاب سلم وأحزاب حرب ، وإنما هناك أمة واحدة تقدس الواجب ، وتؤمن بعظمة الجيش ، وكل اتجاه يخالف هذا القول يعد هراء من قبيل إضاعة الوقت ، أو المناداة بفكرة لا يأبه لها ألمانى واحد .

وهو يجهر فى مقدمة كتابه بقوله « أن الواجب يفرض علينا أن نكون على بينة وتثبت من الدروس والتجارب والحوادث التى كانت نتيجتها وخيمة علينا ، أنه فرض علينا أن نبحثها وندرسها ونحللها فى أقسام الجيش وهيئات الحكومة ، إننا دفعنا الثمن غالياً للحصول عليها فى ميادين القتال ، وفى داخل البلاد وخارجها ، فعلينا أن نوجه كل نشاطنا القومى ، وما تضعه بين أيدينا أنظمتنا العسكرية من وسائل ، لكى نطيل الدرس ونقلب أوجه البحث من غير إمهال أو تردد ، ولكن بعزيمة وبصيرة وبدون إضاعة وقت : إذ هنا يبرز الوقت كما يبرز فى الحروب كعامل فعال له وزنه وقيمته » .

« إننا لا نستطيع أن نستخلص الآراء الصائبة التى تنفعنا أو تمدد النتائج العملية التى تصلح لنا ، إذا قصرنا عملنا على النواحى العسكرية وحدها ، فهى

مع أهميتها القصوى لا نستطيع فصلها عن تطور السياسة العالمية إزاءنا ، ولا نتمكن من الاستفادة من هذه الدراسة إذا أهملنا التدقيق فى الأحوال الاقتصادية العامة وما أصاب بلادنا منها ، فنحن أمام ما علينا وما لنا ، أى أمام انتصارات ونكبات ، والتجارب التى هى فى الحالتين مفيدة لنا . نعم لكى نعمل فى المستقبل على قواعدها ونسير بهديها .

« إن الغاية من تأليف هذا الكتاب هو إعلام الجيش والشعب بالآراء الصائبة التى أثبتت الحروب مقدر صلاحيتها ووضع الحقائق والنتائج التى أقنعتنا دروس القتال بصحتها : فنحن أمام حوادث عسكرية منها ما هو من صميم فن الحرب وما هو من عمل السياسة ؛ وما هو اقتصادى بحت ولكنها دروس تعلمناها ، بدماء أبنائنا وتضحيتهم الكبرى وموتهم فى سبيل المثل الأعلى للبلاد : فما أقنعنا الدليل بصحته تمسكنا به ، وما أظهرت الحرب بطلانه تجنبناه ، ودعونا إلى الإقلاع عنه . وما ثبت نجاح شىء منه و بطلان بعضه عملنا على تحو يره وإصلاحه ليغلب النجاح عليه » .

وعلى هذا النمط يسير المؤلف فى شرح نظرياته وآرائه وتوجيهاته بوضوح وصراحة ، فيعرض الحالة السياسية والاقتصادية مدة الحرب لدولتى الوسط — ألمانيا والنمسا — و يعطينا صورة للحالة النفسية للأمة معتمداً على سيكولوجية الجماعات وأثرها فى رجال الجيش ثم يتكلم عن القيادة وعملها .

ويعد هذه الفصول بأ كملها كمقدمة للنتائج التى استخلصها وهى فى القسمين الأخيرين من كتابه « الجيش فى المستقبل » ثم كلمته « لنبقى مستعدين للحرب » وهما عصارة تجاربه .

والذى دفعنى إلى إعادة النظر والتأمل فى هذا الكتاب وفى غيره من مؤلفات القائد الألمانى . بعد أن بقيت على رف مكتبى أكثر من عشرين عاماً — هو ما يعاود الرأى العام المصرى — من وقت لآخر — من الرغبة

فى تعرف نتائج الحرب فى فلسطين ، وأثرها فى يقظة الوعى القومى بمصر ، والعمل على استعادة القيم الخلقية التى يبدو لكثيرين منا أنها « انهارت بعد الصدمة الأولى » .

ولما كنت من المؤمنين بأن قيمة أى نظام ويقظة أى شعب يرتكزان على ما يبذله كل شعب من الشعوب من العمل الصامت المستند على إرادة وفكر للخروج من آثار الهزيمة التى عاناها حتى لا تهد من كيانه — رأيت من أولى المسائل التى يجب أن يهتم بها الشعب المصرى وأهل الرأى فيه هى مشكلة الحرب الفلسطينية وأثرها وما ألقته علينا من دروس .

فهل لدينا هيئة قائمة أخذت على عاتقها جمع المعلومات والوثائق وتبويبها ودراستها حتى نستخلص بعض الحقائق ونسجل على أنفسنا ما بدا من تقصير فى صفوفنا وأنظمتنا ؟

أظن أننا لم نفكر بعد فى شىء من ذلك .

إذن أصبح واجباً على المفكرين وأهل الرأى أن يسدوا هذا النقص وأن يكتبوا وينشروا على الملأ ما يعلمون ، حتى يشعر الشعب المصرى بأن هزيمة فلسطين ليس معناها أن يستمر تحت كنفها وفى ظلها إلى الأبد .

إنما هى نتيجة سلسلة من الأخطاء السياسية والعسكرية تمت على أيدى أناس لا يمتون بصلة إلى الفن الحربى ولا يعرفون شيئاً عن أساليب السياسة الدولية .

إن المركز الخاص الذى وجدت فيه مصر والبلاد العربية يجب أن يشرح لنا باسهاب ، وكذلك أماكن التجمع والحشد ؛ ويستلزم الأمر بيان الأسباب التى جعلت زحف الجيوش العربية — ذات التفوق العددى — متلكئاً وغير مرتبط بالزمن . والإجابة على السؤال المعروف الذى طالما وجهه أحد قواد ألمانيا فى مؤلفاته عن الحرب العالمية الأولى .

« هل يأتي الآخرون لشد أزرنا وهل ينضم حلفاؤنا إلى صفوفنا حتى يكون تدخلهم فى المعركة الناشبة نافعاً وكيف يأتى فى الوقت المناسب » .

إننا فى حاجة إلى مثل هذا الكتاب الذى أشرت إليه ، نعم فى حاجة إليه لكى نحتفظ نحن فى مصر ، بالروح العسكرية التى ورثناها عن أجدادنا : عن عمرو بن العاص ، وصلاح الدين والظاهر بيبرس . إن المحافظة على كياننا واستقلالنا تحتم أن نكون موضع ثقة واحترام الأمم الكبرى ، ولكى نصل إلى شىء من ذلك يجب أن نكون أقوياء ، ولن نصل إلى القوة والنصر إلا إذا عرفنا أسباب هزائمنا وعلة تفككنا وعوامل نكبتنا .

فهل يصل هذا الصوت إلى الأسماع ؟

وهل يكون له صدى ؟!

فزان

بين يدي الأتراك والطليان والفرنسيين

مقدمة :

سمعت شيوخنا من علماء العصر يقولون : « تعرف الشيء هو التمكن منه بواسطة منهج معين » .

قال صاحب لى : « ألا ترى أننا بلغنا الغاية والنهاية ؟. فنحن وسط الناس أرقام ، وفينا من العبقرية والذكاء النادر والعلم والفن ما يمكننا من المقدرة والاقتدار » .

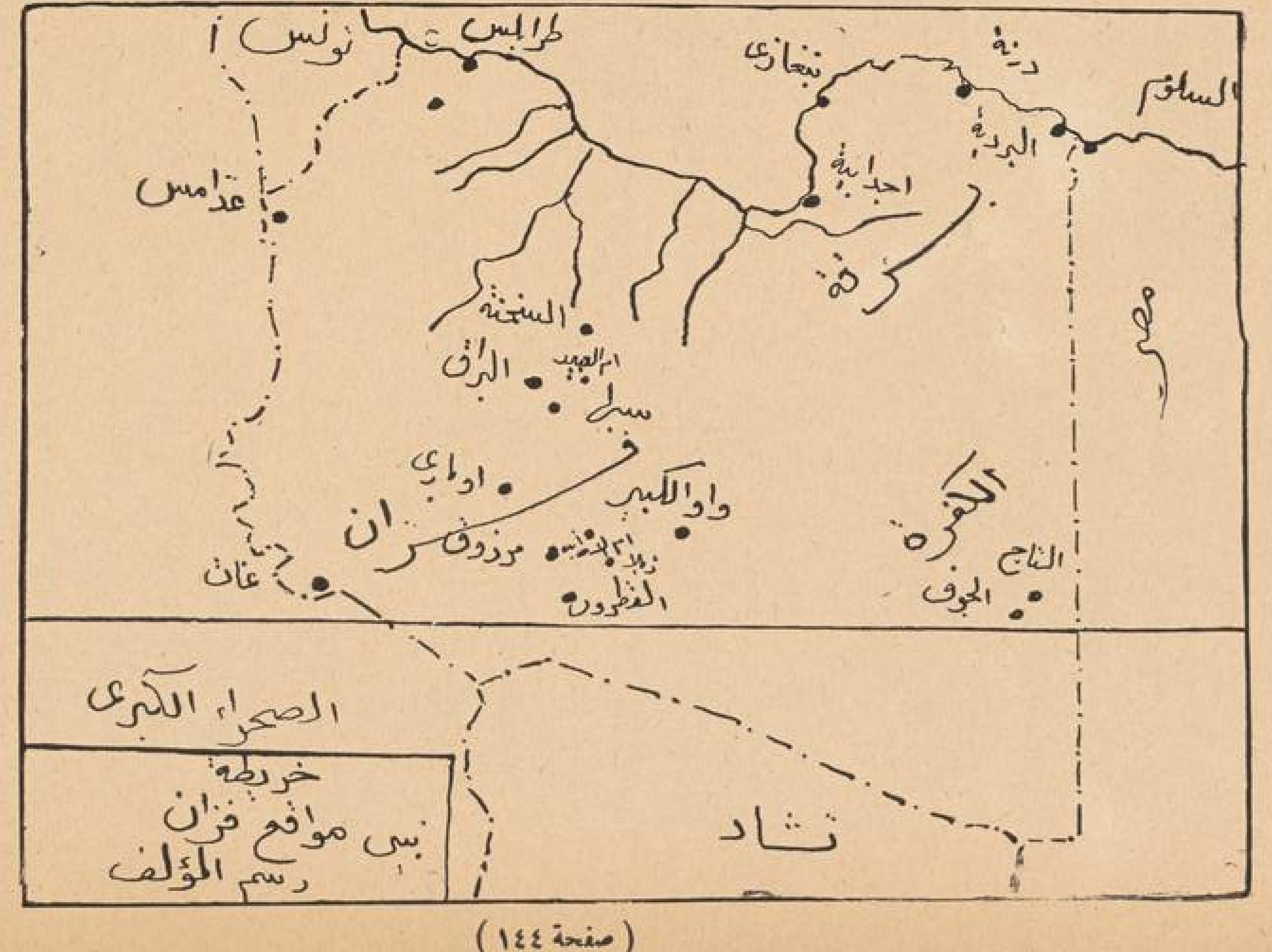
قلت له « : إنى معك ، بل نحن على هذا وأكثر ، فقط أعلمنى ، أفادك الله ووقاك » .

« لماذا تكتب الهزائم وخسارة المواقف السياسية ، وعدم التوفيق فى المسائل الاقتصادية على الجانب الذى نكون فيه ؟ .

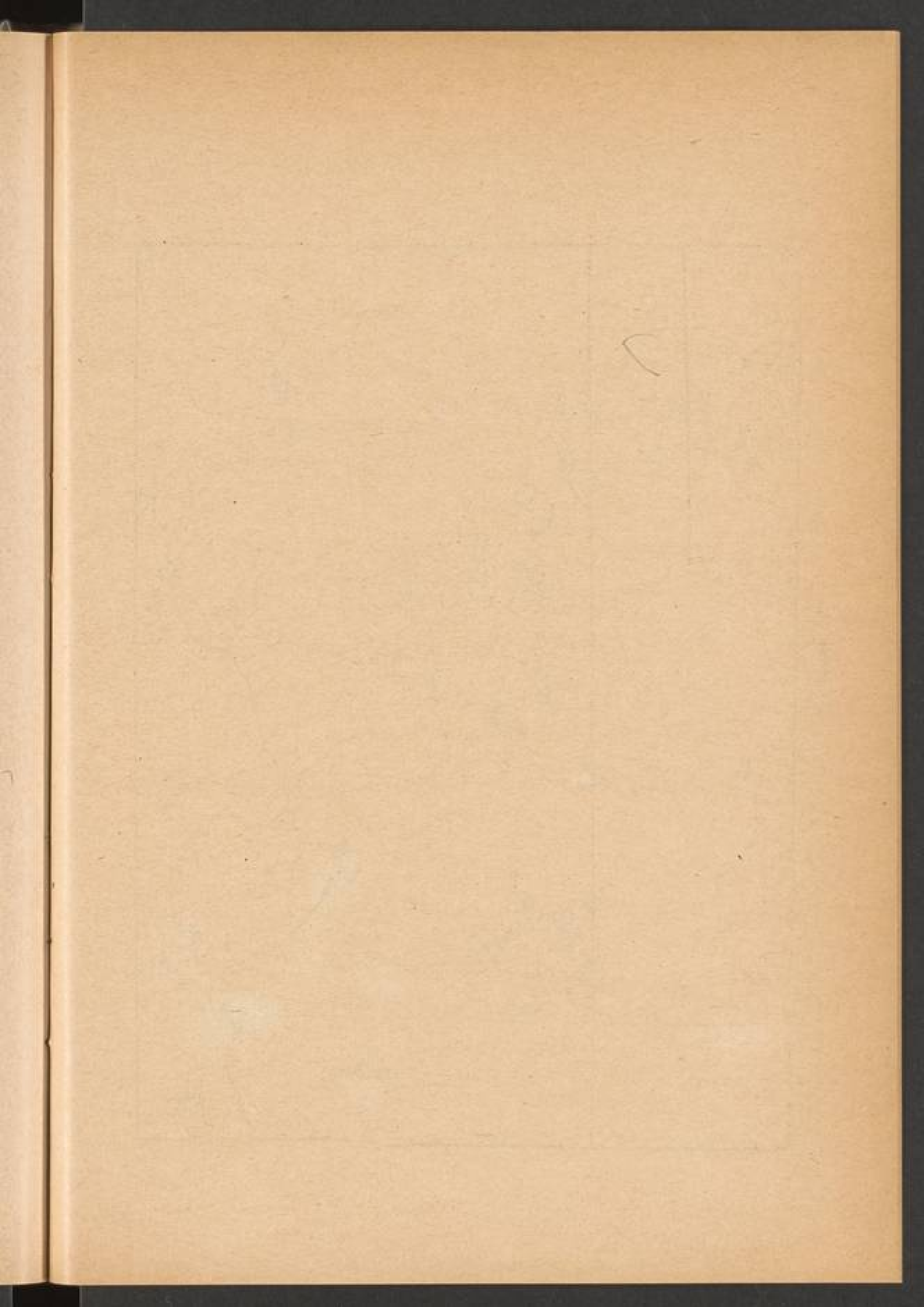
فنظر إلى وسكت ... سكت دهراً ! ... هذا الحديث أوحى إلىّ الكلام عن فزان ...

• بين الوحدة والتقسيم :

رأيت اسم « فزان » بارزاً فى الأسابيع الأخيرة ، فهى موضع نزاع قائم بين أهل ليبيا وبرقة — الذين يطالبون الوحدة لبلادهم أى لا يفرقون بين الجزء الغربى المسمى ليبيا ، والجزء الشرقى المسمى برقة ، ولا يسلمون بانتزاع الجزء الجنوبى المسمى « فزان » وبين دعاة التقسيم وتوزيع الأسلاب من دول الاستعمار .


تونس
طرابلس
بنغازي
درنة
السلوم
البردية
اجدابية
برقة
مصر
غدامس
السخنة
البرق
سبها
اوباري
واو الكبير
فزان
مرزوق
غات
القطرون
الكفرة
التاج
الجوف
الصحراء الكبرى
تشاد
خريطة
تبين مواقع فزان
رسم المؤلف

(صفحة ١٤٤)



منع ممثلى الشعب :

اطلعنا فى الصحف أن فرنسا تحتل هذا القسم المسمى « فزان » وأن السلطات العسكرية المحتلة منعت ممثلى الشعب الليبي ورجال الصحافة العربية من دخول مقاطعة « فزان » أو الاقتراب من حدودها . فحالت بينهم وبين الاتصال بالسكان . وأترك تفسير وقع هذا المنع وأثره فى الضغط على حريات الشعوب المظلومة وحقوق الإنسان .

وحدة قائمة :

إن الوحدة الإقليمية التى ينادى بها أهل البلاد هى وحدة قائمة منذ العهد العثمانى ، واستمرت طول مدة الحكم الإيطالى إذ كان يطلق على هذا الإقليم اسم ولاية أو إيالة طرابلس الغرب حتى جاءت إيطاليا واعتدت عليها فأصدر ملكها فى أوائل سنة ١٩١٢ أمراً ملكياً ، جعل الولاية قسمين : قسم ليبيا وقسم برقة وألحقت قائمقامية فزان بالقسم الليبى ، وبقى الحاكم الإيطالى يسيطر على الأقسام جميعها .

حدود فزان :

ويجعل الطليان أقصى امتداد فزان ٩٠٠ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب و٨٠٠ كيلومتراً من الشمال إلى الجنوب ، ويجعلون مساحتها أكثر من ٣٠٠ ألف كيلو متراً وهى كما ترون تتوسط تقريباً الصحراء الكبرى بين وادى النيل وشواطىء المحيط الأطلسى وتكون هضبة يبلغ مستوى ارتفاعها ٥٠٠ متر فوق سطح البحر وإن كان يتخللها وديان ومنخفضات تهبط أحياناً إلى ١٥٠ متراً تحت سطح البحر .

مركز تاريخى وجغرافى :

فهى تتمتع بمركز ممتاز جعل منها لعدة قرون مضت ممراً للطرق البرية ، وأصبحت عاصمتها « مرزوق » فى وقت ما مركز تجمع القوافل التى كانت تسير من بلاد المغرب ومن مصر وطرابلس وبرقة فى اتجاهها إلى بلاد السودان وأواسط أفريقيا .

فالطريق من مصر كان يمر بالجغبوب وجالو وزيلا إلى مرزوق ومنها يتجه جنوباً إلى الأقاليم السودانية ، وأحياناً يتجه إلى حوض النيجر وتمبوكتو .

والمطلع على كتب التاريخ القديمة يذكر الجاليات السودانية التى كانت تأتى من تكرور وتقطن وادى النيل ويحيطها كثير من ملوك مصر وسلاطينها بعطفهم أيام دولتى المماليك ، ثم أتى وقت كانت فيه غات ومرزوق منزلين هامين من منازل الحجاج المسلمين فى طريقهم من غرب أفريقية . وأخيراً فقدت المدينتان هذه الأهمية بعد أن اتخذ الحجاج طرق البحر ، وبعد أن أضاعت الأمارات الإسلامية استقلالها فى أفريقية وخربت الجهات والواحات التى كانت يوماً ما آهلة بالسكان ، عامرة بالمزارع بعد أن حطمها الاستعمار الأوروبى .

ومع هذا فليس ببعيد أن تسترد هذه المناطق منزلة قد تفوق منزلتها الأولى ، إذ أن النصف الثانى من القرن العشرين يخبئ لنا الكثير من المفاجآت وأهمها العودة إلى الطرق العتيقة التى كان أسلافنا يقطعونها فى أيام وشهور فإذا بالسيارات تقطعها فى ساعات .

ثلاثة أحداث تاريخية :

هناك ثلاثة أحداث هامة يجب أن نضعها أمام القارئ حينما نتحدث عن فزان :

فى مارس سنة ١٩١٤ احتلت إيطاليا مرزوق وخرجت منها فى ديسمبر من نفس السنة .

فى عام ١٩١٧ استردها الأتراك ثم تركوها لأهلها سنة ١٩١٨ حتى استعادها الطليان سنة ١٩٢٩ .

فى ١٢ يناير سنة ١٩٤٣ دخلتها قوات فرنسا الحرة ولا تزال تحتلها إلى اليوم .

وقد أعلن هذا الفتح الأخير فى بلاغات عسكرية ثلاث :

الأول : يصف العمليات الحربية الأخيرة فى الشمال ويعين الجنرال دلانج Delange حاكما عسكرياً .

الثانى : يعلن سقوط مدينتى سبها ومرزوق معاً .

الثالث : يعدد الأسرى والمغانم ويشيد بعمل الفرق السنغالية التى اشتركت فى المعركة .

بيان ديجول :

وفى ١٧ يناير سنة ١٩٤٣ أصدر الجنرال ديجول بياناً للسكان جاء فيه :

«إلى أهالى فزان الشجعان الكرماء :

أحييكم باسم فرنسا التى حررت بأسلحتها أراضيكم ، وستأخذ من الآن فصاعداً على عاتقها حمايتكم .

إن فرنسا ستبقى فى فزان وفى غيرها الصديقة المخلصة لرعاياها المسلمين .

لقد ترتب على هزيمة العدو المشترك أن أصبحت مقاطعتكم تتمتع بالأمن والرفاهية تحت سيطرة فرنسا . »

* * *

ومن ذلك اليوم ، ظهرت نوايا فرنسا فى أن تنتدب على فزان وجاهرت بأنها جزء متمم للمستعمرات الفرنسية أقرب إلى الجزائر وتونس منها إلى ليبيا وبرقة .

بل جاهر رجال فرنسا بأنها المحطة الرئيسية للطريق الجوى بين مدغشقر وفرنسا .

وقيل أن بريطانيا وأمريكا سوف لا تعارضان فى الضم إذا قبلت فرنسا بعض الاشتراطات .

فزاد القديمة :

فما هى فزان حتى تصبح ذات أهمية وموضوع خاص ؟ .

جاء فى معجم البلدان لياقوت الحموى :

« هى ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب تقع فى الإقليم الأول ، بها نخل كثير ، ومدينتها زويلة السودان والغالب على ألوان أهلها السواد » .

وقد ذكرهم جرير فى شعر له فقال :

قفراً تشابه آجال النعام به   عيداً تلاقت به فزان والنوب

مما يشعر أن فزان كان إسماً يطلق على جنس أو قبيل من الناس ، والمسألة تحتاج إلى تحقيق .

ولن أترك هذا القسم من البحث دون أن أشير إلى باب مشهور من أبواب القاهرة هو باب زويلة المعروف باسم باب المتولى ، فقد أطلق عليه هذا الإسم نسبة إلى جنود الدولة الفاطمية الذين كانوا من هذه المنطقة من أقاليم الصحراء الكبرى كان يعرف باسمهم باب من أبواب المهدية عاصمة الفواطم بأفريقيا . .

من السهل التعرض إلى وصف الإقليم الفزانى ومظاهر الطبيعة وتضاريسها من وديان وجبال ، والكلام على طرق المواصلات ، إليها وفى داخلها ، كما أنه من المفيد الإشارة إلى توزيع السكان وأصولهم من عرب و بربر ، وعاداتهم وما يسود هذه الجماعات من معتقدات قديمة وأساليب معاشهم ولكن هذه المعلومات موجودة فى المراجع المختلفة ويمكن الاطلاع عليها ، ومجرد ذكرها لا يعد من

المواضيع الجديدة التى يصح أن أعرضها فى بحث فرضت من المبدأ أن يكون الغرض منه تنبيه الأفكار إلى النواحى التاريخية الغامضة من حياة فزان الحديثة والتى تصلح كدروس لنا فى الحاضر وتجارب تنفعنا المستقبل .

وهذه النواحى الأخيرة لا يمكن فصلها عن حياة ليبيا و برقة ، فلنبدأ بإعطاء صورة من إعتداء إيطاليا على هذا الركن من العالم ، ثم ننتقل إلى تقسيم العمليات الحربية التى كانت فزان مسرحاً لها حتى دخلت قوات فرنسا المحاربة هــــذه المنطقة وحررتها كما تقول .

العدوان الإيطالى على ليبيا :

فى أكتوبر عام ١٩١١ رُوِّع العالم الإسلامى والعربى بخبر اعتداء صارخ قامت به إيطاليا على القطر الطرابلسى بغير إعلان حرب و بدون مسوغ . ولم يكن هناك نزاع أو ما يشبه النزاع ، بل كان هناك أمن وسلام . ولم يعلم الناس بأمر مفاوضــة انقطعت أو أمر اختلاف على مبدأ أو رأى أو قاعدة مما تختلف عليه الأمم والشعوب فيتخذ ذريعة للحرب ، بل لم يسمعوا بشىء أو بعض شىء مما يحضر الأذهان لمثل هذا العدوان و ينبه العقول إلى مقدمه .

و إنما سيرت إيطاليا بوارجها وجحافلها واستيقظ أهل المدن الآمنة طرابلس و بنى غازى ودرنة ، على أصوات المدافع ، تقذف الحمم والموت على القلاع فى عقر دارهم . فيالله من يوم كنا صغاراً لا نعقل من الأمر شيئاً ، ولـكننا لمسنا الألم والأسى ، مرتسمين على وجوه الآباء والأهل والعشيرة والجيران فحزنت قلوبنا لحزنهم ، وتألمنا لألمهم .

كنا صغاراً نلهو ونلعب فتركنا اللهو وقاطعنا اللعب ، وشعر كل منا بأن ساعة فاصلة قد دقت فى حياته ، نعم كان وقع الاعتداء شاملا والجرح عميقاً ليس الجراح التى تبرأ وتلتئم وتنسى مع الزمن .

وسرت بين النــاس موجة دافعــة ، من تلك الموجات التى تملأ النفوس والمشاعر ، وتخفق لها القلوب ، وارتجت مصر من أقصاها إلى أدناها ، فمن كتب عليهم القتال من المجاهدين قاتلوا وقتلوا ، ومن لم يقدر على تحمله جاد بالمال عن نفسه و بنيه .

وأتى أنور ومعه حفنة ممن باعوا أنفسهم فى سبيل الله ، وثبت عرب طرابلس وعرب برقة ، وعلى رأسهم السيد أحمد السنوسى ليكتبوا بدمائهم ملحمة من ملاحم الملثمين والموحدين فى دفاعهم وجهادهم واستماتتهم عن أرض أندلس فواجهوا الموت وعاينوا الهزيمة ، كما لاح لهم الظفر والمجد ، وقاتلوا وانتصروا واستشهدوا ، وامتلأت أيديهم بالعتاد والسلاح وأسرى العدو .

وفجأة خفتت أصوات المدافع وعادت السيوف إلى أغمادها وسادت فترة هدوء على الجبهة . نعم لقد قامت حرب أشد هولا ، هى حرب البلقان ، واتجهت الأنظار إلى معارك فى جبهة مقــدونيا حيث تعرض ثلاثة ملايين من المسلمين للهجوم والتشتيت وتساءل الناس عن المصير .

أما مقدونيا فرثاها شوقى بقوله :

يا أخت أندلس عليك سـلام ... هوت الخلافة عنك والإسلام

وأما ليبيا و برقة ، فقد استحوذ عليهما الطليان ، وترنم قائل بشعر قديم [١] فقال :

أحقاً خبا من جو رندة نورها ... وقد كسفت بعد الشموس نورها

وقد أظلمت أرجاؤها وتزلزلت ... منازلها ذات العـلا والقصور

ترى للأسى أعلامها وهى خشع ... ومنــبرها مستعبد وسريرها

ومأمومها ساهى الحجى وإمامها ... وزائرهــا فى مأتم ومزورها

كلا لم تدم تلك المحنة طويلا إذ قامت الحرب العظمى الأولى سنة ١٩١٤ ،

---

(١) من مراثى الأندلس ومن نظم أبى جعفر ابن خاتمه حــوالى سـنة ٩٠٤ هجرية ، أوردها الأمير شكيب أرسلان فى كتابه « الحلل السندسية » .

ودخلت إيطاليا الحرب، فارتجت البلاد ثم عادت إلى الجهاد وبدأت ملحمة جديدة من تلك الملاحم الخالدة فى تاريخ العروبة التى تقاتل فيها فئة صغيرة فئة كبيرة فيأتيها النصر من عند الله .

لقد فرحت مصر وفرحنا بمعارك درنة وعين زارة[١] وغيرها من التى منّ الله بها على المجاهدين والمرابطين وذوى البأس فى قتال الطليان وكان ذلك فى عامى ١٩١١ — ١٩١٢ ، أما فى أيام الحرب العظمى ، فقد سار المجاهدون فيها من نصر إلى نصر ، بل كان كل يوم يمر يأتى إليهم بنصر جديد من عند الله ، ولم تمض ١٩١٥ إلا وقد زحزحوا الطليان عن برقة واستعادوا فزان ، واقتحموا حصونهم ومعاقلهم واحد بعد الآخر ، واستحوذوا على أسلحتهم وسياراتهم ؛ وأسروا كتائبهم المرتزقة من سود وحبش وغيرهم ، ساقوهم بأسلحة الطليان لقتال الطليان . وتلك والله مقدرة لأهل برقة وليبيا .

وتتبعوا المنهزمين وسدوا عليهم المنافذ والطرق . وفى يوم أصبحت العاصمة تحت أزيز رصاصهم ، وغدا الساحل تحت سيطرتهم فأتتهم المؤن والذخائر من حيث شاءوا .

فهل رأيت دفعة كهذه الدفعة أو قوة من المستضعفين يعلوها الإيمان والثقة بالنفس والدعوة إلى الحق والقتال فى سبيل الله عملت فى القرن العشرين عملا يشبه هذا ؟ إنها وايم الله وقفة رائعة .

بعد الحرب العالمية الأولى :

وانتهت الحرب العظمى الأولى ١٩١٨ ، وتدخل الإنجليز والطليان وأهالى البلاد فاعترفوا بنظام ليبيا ومسراطة وأقروا أمارة برقة ووقعوا المعاهدتين وضمنوا استقلال الداخل ، وخيل للناس أن عهداً من الطمأنينة والأمن قد أشرق .

---

(١) تبعد ١١ كيلو متر من مدينة طرابلس وهى واحة .

وفى يوم من الأيام ، إذا بموسولينى يضرب بمواثيق إيطاليا وضماناتها عرض الحائط ، ويحنث بالإيمان المأخوذة ، و يثير حرباً ضروساً مهلكة يحاول بأساليبها إبادة شعب بأسره ، كانت تعليماته وأوامره وقراراته واضحة لا شبهة فيها فليراجعها من يشاء يجدها فى كتب القوم وما نشره قوادهم .

وكان كبش الفداء شعب ليبيا .

قابل هذا الشعب صدمة الخيانة بشجاعة نادرة . رأى الحرب تفرض عليه فى دياره . فواجهها كما يواجهها كل مقاتل كريم كتبت عليه التضحية فقدم بنيه وأحفاده . وضيق عليه الخناق بحصار من البر والبحر ، فتحمل وصبر . وأوذى فى حريته ومعاشه وماله ودكت بيوته ، ولكن لم ينزل على حكم ظالميه ، ولا تراجع عن مبدأ من مبادئه .

واتبعت إيطاليا سياسة العنف والتشريد مع العصاة ، فلم ترع شيخاً ولا مقعداً ولا طفلا ولا رضيعاً فخربت منازلهم ونقلت قبائل برمتها .

هذا هو الشعب الأبى الكريم ، الذى حررته الديمقراطية فى الحرب الأخيرة واتخذت من اسمه عنواناً ومثلا لتحرير الشعوب المظلومة المغلوبة على أمرها . والذى جمعت من أفراده ورجاله المتطوعة ، وحاربت بهم ، وقالت للعالم ها أنذا قد رددت الحق إلى أهله ، وأنقذت أول شعب وقع العدوان عليه وأزلت أثر الظلم والطغيان عن عاتقيه .

وترقب أهل البلاد نعمة الخلاص ، و باتوا يعللون أنفسهم بالآمال ، فماذا بهم اليوم ؟ إننا لنسمع الكثير من اللغط . فمن قائل بعودة هذه الأرض البائسة إلى سادتها الطليان ، وآخر يقول بانتداب الغير عليهم كأن هذه البلاد خلو من السكان !

إنه ليهمنا نحن معاشر الأمم العربية شأن برقة وليبيا ، و يهمنا شعب هذه البلاد . لماذا ؟ لأننا منه وهو منا . وإن بنا لصلات الدم والقربى والثقافة والتاريخ

الحى لا التاريخ[1] المتحجر الجامد ، ثم ما يوحيه هذا التاريخ المشترك من ذكريات الجهاد والنصر والهزيمة .

إننا نعبر عن رأيه ونقول : هذا الشعب لا يريد شيئاً مستغرباً أو فوق متناول الإنسان ، إنه يريد أن ينعم بحدوده و بلاده واستقلاله وحريته ، إنه يطلب كياناً تحت الشمس شأنه شأن بقية الشعوب الصغيرة الحرة . . .

فهل تجاب دعوته ؟ وهل يجد لتضحياته جزاء ؟ وهل يعترف بجهوده ؟ أم ستعرض بلاده للبتر والتقسيم ، و يوضع مصيره وحريته ليضارب بها فى سوق توزيع مناطق النفوذ ؟ ! .

كان عدد سكان ليبيا و برقة من العرب فى مستهل عام ١٩١٠ أكثر من مليون نسمة ؛ وقد هبط هذا العدد إلى أقل من النصف ، على أثر سياسة التشريد التى اتبعتها الحكومة الفاشستية ، فكأن هذا الشعب قد بذل من الأنفس والأرواح دفاعاً عن كيانه واستقلاله ، ما لم يبذله الشعب الإيطالى طوال قرن من الزمن ثمناً لتحريره ! فهل رأيتم شعباً يضحى بنصف عدده فى سبيل مثله العليا ؟

هذا هو الشعب العربى فى ليبيا و برقة الذى ينتظر أن يكتب الناس تاريخ جهاده فى الفترة بين حربين عالميتين .

والآن أعود إلى نهاية عام ١٩١٤ أى بعد إعلان الحرب الأولى فى الأشهر التى كانت فيها إيطاليا على الحياد .

انسحاب الطليان من فزان فى عام ١٩١٤ :

يقول كتاب إيطاليا العسكريون أن ظروف التعبئة العامة فى إيطاليا أملت سياسة إخلاء المستعمرة من حامياتها فى الداخل والاكتفاء باحتلال الساحل ، ويعدون هذا الانسحاب بمثابة نكبة كبرى على الدولة الاستعمارية ، فقد كان

(١) يقصد المؤلف تاريخ الفرعونية وغيرها من المدنيات البائدة — التى يحاول البعض [illegible]

هروباً سريع الخطى أمام قوات السنوسيين الذين توغلوا فى كل جهة . فلننظر إلى ما تم هناك .

لقد كانت برقة دائماً مهد السنوسية ولما اشتد ساعدها امتدت حركتها إلى نواحى المستعمرة الأخرى فكان الجزء الجنوبى الممتد شمالى فزان من نصيب السيد محمد العابد بن الشريف محمد بن على السنوسى الحسنى الإدريسى الخطابى الذى بدأ الدعوة إلى الجهاد فى تلك الجهات . وقد وجد السيد العابد أنصاراً له عديدين نفذوا أوامره وقاموا بنشر دعوته خير قيام منهم محمد مهدى السنى ابن محمد بن عبد الله السنارى وهو من مواليد السودان .

دعوة فى الصحراء :

وقد انتشرت دعوته حتى وصلت إلى قبائل الطوارق وانضم إليها كثير من زعماء الجنوب الذين بدأوا يهاجمون المواقع الحصينة فى الصحراء التى كان يحتلها الفرنسيون والإيطاليون على السواء . وكان أن تألفت حكومة بدوية تحت زعامة دينية حكمت هاتيك البقاع ، وبقيت تحتل فزان وأجزاء من الأراضى الفرنسية طول مدة الحرب الماضية حتى تقلص ظلها بسرعة غريبة حينما أرسل القائد التركى نورى باشا ثلاثة من الضباط المغامرين الذين نجحوا فى استخلاص فزان والجهات المجاورة واستعملوا أساليب السياسة والدهاء والمفاجأة فى تنفيذ أغراضهم .

غارة ضد حصن :

وكانت أول غارة للثوار ضد حصن سبها الإيطالى فى ٢٧ نوفمبر ١٩١٤ إذ حصل الهجوم على الحامية ليلا حينما علا المجاهدون أسوار القلعة وسلطوا نيرانهم وأعملوا السلاح فاضطرت القوة إلى التسليم إلا من تمكن من الهرب تحت الظلام منسحباً إلى « سخنا » فى الشمال . جاء فى وصف هذه المعركة أن

رصاص المهاجمين كان ينهمل على عساكر أريتريا فتسمع أنين المصابين كأنك تسمع أصوات الفيران التى أخذت فى مصيدة .

ويقول الطليان أن السيد العابد هو المسئول عن مجزرة حصن سبها ، إذ انتقل سراً من الكفرة إلى واحة واو الكبير واتخذها مركزاً للدعاية ، و بعث منها بداعيته مهدى السنى الذى دخل وادى الزلاف وهناك دعا الناس إليه وحرض المقاتلين على مهاجمة الحصن ، حتى إذا نجحوا كان على رأس الغنائم وإذا فشلوا عاد إلى سيده . ولما دخلوا الحصن واستولوا عليه أصبح طريق فزان مفتوحاً أمامهم.

حامية مرزوق :

وما كاد يصل خبر الكارثة إلى السلطات الإيطالية حتى تيقنت بحلول الخطر على حامياتها الموزعة فى فزان ، فبعثت بسيارات وصلت إلى مرزوق فى ليلة من ديسمبر سنة ١٩١٤ ، ثم حملت الضباط والجنود الأوربيين وتركت الحاميات المكونة من عساكر المستعمرات تتلقى بصدورها رصاص الثوار وهى التى تولى قيادتها جاويش عربى من متطوعى الفرق اليمنية اسمه محمد بن عبد الله من قبيلة بنى حبيش .

ولا شك فى أن تصرف السلطات العسكرية الإيطالية على هذا النحو كان مدعاة لسقوط هيبة إيطاليا فى الصحراء مدة من الزمن ولم تسترجعها إلا بعد مضى سنوات طويلة .

يمنى فى جيش إيطاليا :

ولابد أن نذكر شيئاً عن هذا اليمنى المتطوع فى صفوف الإيطاليين فهو قد بدأ خدمته فى الصومال الإيطالى ضمن الجنود الذين اعتادت الحكومة الإيطالية تجنيدهم من عرب اليمن رغم أن هذا الجزء من أملاك الدولة العثمانية . وقد أظهر

هذا اليمنى تفانياً فى خدمة إيطاليا إذ توجه فى يوم ٧ ديسمبر سنة ١٩١٤ إلى منزل الضباط بمدينة مرزوق فوجده خالياً فجزم بانسحابهم وقرر فى نفسه أن يأخذ مكانهم ، فعاد إلى القلعة وأعلم الحامية بأن الطليان قد ذهبوا إلى الشمال لتلقى أوامر جديدة صادرة إليهم بمداومة القتال وسيعودون ومعهم الإمدادات . وهكذا ثبت هذا اليمنى على رأس القوة المحاصرة بالقلعة ١٦ يوماً أمام الثوار المحيطين به حتى اتصل بعض هؤلاء برجال الحامية فقرروا التسليم . وتذهب الرواية الإيطالية إلى أنه أخذ العلم الإيطالى الذى كان يرفرف على القلعة وعاد به إلى منزله حيث أحرقه أمام زوجته .

التدريب الإيطالى :

ولما وقع أسيراً أراد السنوسيون أن يستفيدوا من خبرته فى تدريب المقاتلين وتهيئتهم للحرب على طريقة الجيوش الإيطالية فأبى وعد إباؤه من مفاخره لدى الإيطاليين. و إنما نسوق هذه الحادثة بالذات لأن المؤلفين الطليان اتخذوا منها دليلا على صلاحية التدريب العسكرى الإيطالى وتأثيره فى بعض النفوس من السكان الوطنين والوصول بها إلى درجة التضحية فى خدمة الحكومة ، وتهمنا هذه الناحية بالذات ، فإن الفرنسيين قد برعوا فى تجنيد العناصر الملونة الأفريقية ، وتقدموا فى أساليبهم إلى درجة تقرب من الكمال ، فقد رأينا كيف يتعلم السنغالى القواعد الأولى فى هوادة وصبر بحيث لا يتعدى التعليم ساعة من النهار موزعة على دقائق معدودة تسمح لهذا الجند أن يستوعب دقائق الأسلحة بطريقة تغلب عليها قواعد علم النفس و بهذا يخرج بعد أشهر وهو متحمس للفرقة وللعلم ولفرنسا .

فإلى الذين يتولون تدريب النشء على القواعد العسكرية نسوق هذه الأمثلة للتدليل على أن تجارب علم النفس هى التى يجب أن نسير على هديها للتغلب على المصاعب التى تواجهنا فى تهيئة منظمات الشباب وتدريب الجنود ، وعزيز علينا

أن نشهد نجاح المستعمر الغاصب فى هذه الناحية فى الوقت الذى نرى فيه قصور الأمم الفتية الناهضة عن ملاحقته فى التدريب العسكرى وتهيئة الأمة لحمل السلاح.

الحياة في فزان بين عهدين :

هذه الناحية من حياة فزان طول عامى ١٩١٥و١٩١٦ تحت الحكم السنوسى تكلم عنها ضابط إيطالى وقع فى أسر السنوسية واعتقل فى معسكرى واو الكبير وواو الناموس وطبيعى أن معلوماته التى دونها فى يومياته مستقاة مما كان يصل إلى علمه عن طريق الثوار الذين عاش بينهم .

أما الفترة العثمانية التى تولى فيها الضباط الأتراك حكم الولاية فستأتى فى القسم التالى وقد تخللها هجوم من المتطوعين الأتراك وعمليات حربية داخل الأراضى الفرنسية فى الصحراء الكبرى وأراضى الجزائر والجزء الجنوبى من تونس ، وهى خارجة عن نطاق فزان . وأشير على المهتمين بجهاد الأمم المظلومة والمغرمين بالتاريخ الحربي أن يقرأوا كتاب الكولونيل Larcher عن :

la Guerre Turque dans la guerre Mondiale.

استيلاء الأتراك على فزان وانتزاعهم الجزء الجنوبى من مستعمرة ليبيا من أيدى حلفائهم السنوسيين :

ظهر فى أفق أفريقيا فى أواخر عام ١٩١٦ نورى باشا شقيق المرحوم أنور باشا إذ وصل إلى السلوم ، وتوجه منها إلى إجدابية ، ثم غادر برقة فى غواصة أوصلته إلى مسراطة التى اتخذها مع من معه من الضباط الألمان والأتراك مركزاً لحركاتهم العسكرية ضد الإيطاليين وهى عمليات لا شك أنها خارجة عن موضوع فزان .

مجازفات نورى باشا .

وكان القائد نورى باشا [١] فى إجدابية حينما عرضت عليه فكرة من تلك الأفكار التى لا يتركها رجل مثله تمر أمامه دون أن ينفذها . وتتلخص هذه الفكرة فى أن مهمته فى طرابلس الغرب لن يلازمها التوفيق إذ لم يدعم جهاده بعمل حاسم فى الجنوب يرمى إلى احتلال مقاطعة فزان وتحريرها من السنوسيين حتى يتمكن من تهديد المستعمرات الأفريقية لفرنسا و بريطانيا . عبر الصحراء الكبرى وشمال السودان المصرى .

لذلك أرسل بعثتين إلى الجنوب : الأولى وجهتها واحة الكفرة ؛ والثانية وجهتها فزان :

كانت بعثة فزان مكونة من ثلاثة ضباط : « إحسان ثاقب » و « سنوسى شوكت » و « محمد الأرناؤطى » أما الأول فكان يوزباشياً من أهالى طرابلس وتخرج فى المدارس العسكرية العثمانية ، وامتاز بقوة إرادة هائلة ، وكان الثانى من أهالى برقة تعلم فى مدرسة المدفعية وحصل على رتبة الملازم . أما الثالث فكان من الضباط المغامرين الذين لا يقف أمامهم عائق ، وهو من كريد .

مخاطرة ومجازفة:

فلنتصور قوة صغيرة تغادر إجدابية . وتتجه إلى الجنوب وتمر بالمرادة و بير نعيم وزيلة وتكاد تُهاجم من قطاع الطرق نظراً لضعفها وقلة عددها، ثم تصل مع ذلك إلى انتزاع إقليم مثل فزان وتهدد منه المستعمرات الأور بية الأخرى .

فعلى الطريق الواقع بين أوجلة ومرزوق افترق الأبطال الثلاثة أما أولهم

---

(١) توفى نورى باشا قتيلا فى حادث انفجار مصنع للذخائر الحربية وهو صهر الأميرة المصرية عفت حسن ، وجاء نعيه فى الجرائد المصرية عام ١٩٤٩ .

فاتجه رأساً إلى عاصمة فزان حيث دخلها ، وأقام حكومة باسم السلطان بعد انضمام قوات السنوسيين إلى لوائه . أما الآخران فكانت وجهتهما واو الكبير حيث استقبلهما السيد العابد السنوسى بحفاوة زائدة وأطلقت المدافع ترحيباً بهما وهنالك قدما إليه هدايا سلطان تركيا وفرماناً بمنحه رتبة الباشوية كما وزعا النقود الذهبية على الجنود والأتباع .

وكان القصد من هذه الحركة الأخيرة شغل السيد العابد حتى لا تتجه أنظاره إلى فزان وما يقوم به الضابط الثالث هناك .

مواجهة المجهول :

ولم يكد الضابطان يغادران واو الكبير متجهين جنوباً حتى وصلت الأنباء بالحركة التى قام بها ثاقب فى مرزوق ، ولذلك وجه السيد العابد قوة من رجاله تحت قيادة صهره السيد العاشب زحفت على مرزوق وأجلت الأتراك عنها واستعملت كل وسائل العنف والتشريد مع الأهالى . ثم اتجهت شمالا إلى الأبيض حيث التقت مع القوة التى جمعها الضباط العثمانيون وهناك دارت معركة فاصلة انتهت بهزيمة السيد العابد وأسر السيد العاشب الذى حوكم على النهب والقتل الذى ارتكب فى مرزوق فأعدم شنقاً فى سبها ، ولما وصلت هذه الأنباء إلى السيد العابد غادر واو الكبير منسحباً إلى الكفرة .

ضباط مجاهدون :

إن هؤلاء الضباط من أهل طرابلس الذين تلقوا تدريباً عسكريا فى مدارس الأتراك ، قاموا بعمل من أعظم الأعمال وهم فرادى ، وكان اعتمادهم على الجنود الوطنيين الذين جندتهم الدولة العثمانية فى الماضى ، ثم على الجنود الذين خدموا فى الجيوش الإيطالية ، وأخيراً حينما توطد شأنهم عرفوا كيف يضمون الجنود الوطنيين من المغاربة والطوارق والسنغال إلى صفوفهم .

مخاوف المستعمرين فى أفريقيا :

إن هذه الصفحة خطيرة وهى تكاد تقنعنا بمخاوف الدول الاستعمارية فى أفريقيا بأكملها إذا قدر لها أن تواجه فى المستقبل رجالا من هذا النوع فيهم التصميم والإرادة ومواجهة الأخطار ، ومن هذا نفهم جيداً مركز فزان فى القارة الأفريقية . لأن الذى يسيطر عليها فى وسعه أن يملأ السودان والصحراء بالدعوة والدعاية التى يريدها فيهز الاستعمار الأوربى ويقلق مضاجعه . . .

فلقد جاء فى كتاب الكولونول لارشيه الذى أشرت إليه ذكر بعض عمليات حربية ترتب عليها تسليم مراكز عسكرية فرنسية بعتادها فى الحرب العالمية الأولى .

وسائل أولية :

ويشير صاحب كتاب طرابلس Sahàra Tripolitanio إلى أن الحكومة التى أنشئت بفزان استطاعت أن تربط مرزوق بخط تلغراف مع مسراطة باستعمال زجاجات فارغة لنصب الأسلاك ، وذكر أنه لجأ إليهم ولقى لأول مرة معاملة مدنية ، ورأى بعينيه حركة القوافل والاتصال بين الشمال والجنوب ، وإلى رجالها يرجع الفضل فى ترحيله إلى مسراطة ، حيث ضم إلى معسكر الأسرى الإيطاليين فاتصل بالعالم لأول مرة وعرف أهله بوجوده حياً يرزق بعد أن كانوا قطعوا الأمل من حياته .

وقد ظلت فزان تدار بمعرفة هؤلاء طول مدة حكومة مسراطة حتى أمضيت الهدنة ١٩١٨ فانسحب الألمان والأتراك ثم تولى الحكومة « رمضان الشتوى » وساد فزان عهد من الفوضى نتيجة للنزاع الداخلى .

السنيور فولبي الاستعماري :

وفي سنة ١٩٢١ تعين «فولبي» حاكما للمستعمرة ، فاتجه فكره إلى احتلال مسراطة ، ثم جاءت الحكومة الفاشستية فأقرت سياسة القمع والفتح والتشريد ومع ذلك لم تستطع إيطاليا الوصول إلى فزان إلا بعد ١١ عاماً من انتهاء الحرب الكبرى (أي من ١٩١٨ — ١٩٢٩) .

وعلى ضوء دروس هذه الحقبة وتجاربها أخذت الدولة المستعمرة بمجرد استعادتها لهذه الأراضي تنفذ برنامجاً واسعاً لرصف الطرق ، وأنشأت حصونها على أحدث طراز منها: Forte Elena الذي يعد أقوى الحصون الدائمة في المنطقة الوسطى وهو في مدينة سبها. وسنرى في القسم التالي مشاكل إيطاليا وقوادها مع فزان وأهلها .

ايطاليا تسترد فزان :

حينما يتكلم جراتزياني تنصت السموات العلا ويفتح الناس آذانهم ، إلا أهل فرنسا فهم لا يتركونه من غير أن يناله رذاذ من نقدهم انظر إليه يقول : « لا توجد على الأرض دولة بوسعها أن تفخر بأنها ختمت حملة استعمارية بالنصر الذي ختمنا به حملتنا على واحتي الكفرة وفزان ، ليس بوسع الفرنسيين أن يدّعوا شيئاً من ذلك ، بل نؤكد أمام العالم تفوقنا عليهم رغم الانتقادات التي توجه إلينا من سكان ما وراء الألب (يقصد فرنسا) أو سكان ما وراء المانش (يقصد بريطانيا) » .

ثم انظر إلى ردهم الحاسم بعد فتحهم فزان في سنة ١٩٤٣ فيما نشره الفرنسيون بسخريتهم المعروفة ماذا نقول عن هذا الادعاء أنه يشبه من يلبس جلد الأسد ، هذا الغطا . الذي نزعه منه جنودنا .

Que répondre à telle vantardise
peau de lion dontd'uu coup de griffes nos troupes ont
dépouille maitre Graziani

ثم أنصت إليه في مؤلفه : Pace Romana In libia الأمن الروماني في ليبيا

يحدثنا عن نفسه :

« ها قد أعطيت الكلمة لتحكيم السيف وإنها لكلمة مقدسة حينما نريد أن نفرض إرادتنا على خصم عنيد ؛ إنها مقدسة مائة مرة حينما نقذف بها فى وجه الأهالى الوطنيين الذين صمّت آذانهم عن سماع أى منطق إلا ما توحيه إليهم عقولهم الهمجية ، أولئك لا يقنعهم شىء سوى استعمال القوة تصحبها العدالة » .

أرأيتم مثل هذا إلا فى عهد قيصر !

دفاع عن الفاشيست :

كل أنه إذن يشيد بعمل الحكومة الفاشية التى قررت فرض إرادتها باستعمال السلاح حين يقول إن سياستها تتلخص فى جملة واحدة : « أصبح من المحتم الخروج من الحالة المبهمة السائدة فى المستعمرة وأن تفرض إرادة الحكومة على كل جهة ، وأن يكون فرض التسليم والخضوع شرطاً نهائياً Sine qua non لكل عمل سياسى مع الأهالى ، فعلى كل من يباشر أى سلطة حكومية أن يواجه أهل البلاد بهذه الحقيقة : التسليم بلا قيد ولا شرط ، أو الحرب بلا هوادة » .

رأى استعمارى فى حقوق الشعوب المظلومة :

وكانت هذه هى السياسة التى نادى بها فولبى الذى وقف من أول الأمر ينادى « بأن حق إيطاليا من الناحية الدولية فى امتلاك المستعمرة حق ثابت لا نزاع فيه ، وأن عناد الأهالى ما هو إلا ثورة يحرّكها بعض الرجال المتعطشين إلى السلطة ؛ تقودهم أطماعهم الذاتية ، فليس هناك روح قومية أو حركة وطنية تحركها عواطف عالية أو روح جماعية ، وإنما هناك أطماع وأغراض وأهواء . فلنضرب ضرباً قاسيا » . فهل وجد المستعمرون فى مدغشقر أو فى أندونيسيا غير هذا المنطق ؟

تعليمات جراتزياني :

وجاء جراتزيانى ينفذ خطته لاحتلال فزان على طريقته الخاصة ؛ انظر إلى تعليماته التالية الى الوحدات التى يقودها فهى تعبر عن نفسية يجدر بنا تتبعها :

١ — توزّع قوات الاحتياطى على أنحاء الجبهة بطريقة تمكن من الاستفادة منها بغير إضاعة وقت لكى يسهل تجمعها واستعمالها إذا احتاج الأمر إليها لضرب العدو ضربات قاصمة .

٢ — تقسم الجبهة إلى أقسام ، و يتولى كل فى دائرته مطاردة العدو بواسطة أفواج متحركة Colonne mobile تبدأ عملها من نقط إرتكاز مختلفة ومتباعدة ، ولكنها متجهة فى سيرها إلى غرض واحد ، أو تظهر أنها متجهة لأغراض متعددة فى نفس الوقت مع تلاقيها عند هدف واحد فى النهاية ، و بذلك تتوزع قوات العدو المتجمعة أو تنتشر أو تثبت فى أماكنها .

استقلال الوحدات السريعة فى العمل :

٣ — يراعى أن تستعمل الوحدات على أساس العمل فى جبهة واسعة الأطراف ، أى تعمل كل واحدة منها على أنها مستقلة تماماً فى تحركها إلى أبعد مدى ، وتترك كل قواعد التعبئة القديمة وأساليبها ، وتعتمد الوحدات على مرونتها فى الحركة والتقدم والعودة دون أن تلجأ إلى طلب مساعدة الوحدات الأخرى . يفهم من هذا أنه اتبع نظام الدوريات الدائمة المتحركة بانتظام (١) .

رأى فى المقاتلين العرب :

وقد تبين من كتابته رأيه فى المقاتلين العرب ، فهو لا ترهبه كثرتهم

(١) وهو ما اتبعه الصهيونيون فى منطقة النقب عند احتلالها .

العددية ، بل يقرن النصر بالقرار الحازم والتقـــدم للهجوم ، فالمهم لديه اكتشاف أماكن تجمع الثوار ومهاجمتها بغير تردد ، ويوصى بأنه عند التلاقى يجب شغل العدو وقبول المعركة ، فإذا حاول العرب الانسحاب لا تتركهم قوات الجيش ولا تمكنهم من الراحة واسترداد شجاعتهم ، بل يجب فى حال انسحابهم إصابتهم مادياً والفتك بهم، حتى تفنى قوة المقاومة لدى العدو ولا يستطيع استردادها.

ثم عاد فقرر « أنه لا يصح احتقار شأن الثـوار ، بل يحسن إعطاؤهم ما يستحقونه ، وليذكر الطليان أن عزيمة العرب وإن بدا مظهرها قوياً فى المبدأ ، إلا أنها لا تستند على قوة دافعة مستديمة ، ولذلك تضعف وتهبط فى النهاية ؛ فالمقاتلة من الثوار لا يسعهم أن يثبتوا فى المعركة طويلا أمام قوات نظامية مدربة تدريباً أوروبياً » .

اعتراف بما عليه العرب :

ويهمنا أن نتعرف إلى جميع آرائه فينا ؛ فهو يتكلم بصراحة وبوسعنا أن نصلح أخطاءنا دائماً إذا اطلعنا على ما يكتبه عنا أمثال هؤلاء . أنظر كيف يقرر « أن حاجات العرب فى الميدان محدودة . وهم لذلك قادرون على جمع قوات كبيرة وسوقها واستعمالها فى ميادين مختلفة . والعربى مقاتل بغريزته وطبعه ؛ فهو لا يهاب المواجهة ولا يخشى التصادم ، ويعتمد على عاملين : مقدرته على التضليل ليصل إلى توزيع القوة التى أمامه وانتشارها ، حتى لا تعمل كوحدة متكاتفة قوية ثم على المؤثرات الطبيعية الإفريقية التى تصيب الجيوش الأوربية وتسبب لجنودها التعب والإعياء . حينئذ يضرب ضرباته » .

أثر الأساليب الأوربية فى قتال العرب :

ثم يعقب هذا بقوله : « إنه فى كل مرة تلجئهم الظروف إلى مواجهة حالة قتال تقرب من أساليبنا الأوربية ، ويتحتم عليهم قبول المعركه ، يدبّ الخلل

فى صفوفهم ، ثم يسهل علينا التفوق والتغلب عليهم لعدم تمكنهم من الوسائل الفنية العديدة التى بين أيدينا » وعلى ضوء هذه التعليمات الصريحة قاد جراتزيانى جنوده فى العمليات التى سبقت فتح فزان ، وهى عمليات بوليسية على حد تعبير إخواننا الهولنديين حينما يتحدثون عن جهاد الشعوب إذا أخذنا باقوالهم.

بادوليو :

وفى هـذه الأثناء جاء بادوليو إلى ليبيا ، وتولى سلطتى الحاكم العام والقائد الأعلى ، وكان هذا فى نظر جراتزيانى فتحاً جديداً عبّر عنه بقوله « بعد عشرين عاماً من التلكؤ والتردد والهزائم تسلّم الأمور إلى يد عسكرية و يوضع لأول مرة برنامج منسجم جامع روعى تنفيذه بإرادة قوية » .

العسكريون يسيطرون على المستعمرة :

و بهذا انتقلت السلطات العليا إلى أيدى العسكريين . فأمر جراتزيانى بأن تكتب هذه العبارات وتعلّق على بابه « ليس لدى هـذه القيادة خزينة لدفع مرتبات » . وذلك لاعتياد الحكومة الإيطالية توزيع مرتبات نقدية وهدايا وأسلحة وذخيرة . وقال : إنه رفض من المبدأ الدخول فى مفاوضات أو إعطاء مواثيق أو وعود ، وصرح فى كل مناسبة ؛ أن الحكومة تريد أن تعرف من هم أصدقاؤها ومن هم أعداؤها ، وأخذ يترنم بمقطوعة من شعر فرجيل الشاعر الرمانى .

Tu regere imperio populos Romàno memento
Parcere subjectus et debellare Superbus

وتعريبه « تذكر أيها الشعب الرومانى أنك ستدعى إلى حكم الشعوب فاعف عمن يلين لك وأخضع الأقوياء لسلطانك » .

وهكذا نرى أن فزان فتحت لنا آفاقاً بعيدة نطل منها على حوادث متعددة ونتعرف على نفسية القواد وغرورهم ورأيهم فينا ؛ وهى جميعاً جديرة بالبحث .

فلنقف قليلا لنكشف أثر الحوادث وتسلسلها التاريخى قبل الدخول إلى المقاطعة وحروبها الحديثة .

فذلكة تاريخية :

فنحن نعلم أن فزان كانت مستقلة تحت حكام من أمراء بنى خطاب من قبائل الهوارة ، كما حكمها ملوك من السودان لا تزال بقايا قصورهم وقبورهم قائمة ونحن نذكر نقلا عن صاحب تاريخ طرابلس الغرب المسمى « التذكار » حوادث عن أمراء فزان فى ولاية سليمان داى التركى وحروب صاحبها المنصور بن الناصر ابن المنتصر ، ورفضه دفع الأتاوة ، وعراكه مع الوالى ، ثم هروبه وعودته لملكه وشكوى أهل فزان للسلطان أحمد بن السلطان محمد بن مراد بن سليم بن سليمان . فهذه حوادث تتكرر فى كل عصر حتى يأتى عصر عبد الحميد . هنالك أصبحت فزان منفى لرجال الأحرار من الأتراك والغريب أن يلجأ حكام روما الفاشيون بعد ذلك إلى فزان والكفرة لفرض الإقامة الجبرية على فريق من أعداء العهد الفاشى ، فإذا جنود فرنسا عند فتحها لفزّان تحرّر بعضهم وكان قد مضى عليهم سنوات وهم مبعدون من أوطانهم .

الاحتلال الأول :

لنذكر بعد ذلك أن إيطاليا جمعت فى أواخر سنة ١٩١٣ حملة قوامها ١٢٠٠ جندياً إيطالياً ووطنياً تحت قيادة الكولونيل ميامى ووجّهتها من طرابلس إلى الجنوب واحتلت المراكز الهامة حتى وصلت إلى مرزوق . ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا كما ذكرنا ؛ ففى نهاية عام ١٩١٤ انسلّ الطليان منسحبين إلى الشمال تاركين الجنود الوطنيين وحدهم ، فدخل فزان السنوسيون مع حلفائهم من الطوارق وأقاموا بها حكما لم يدم طويلا ، لأن الأتراك أعادوا الكرة

فزحزحوا السنوسيين عنها وعينوا إحسان ثاقب متصرفاً للاقليم ، وجعلوا المدعو خليفة زاوية فى وظيفة محاسبجى للمتصرفية . حدث هذا فى سنة ١٩١٧ ، ثم تولى الأخير السلطة فى نهاية سنة ١٩١٨ لما غادر الضباط الأتراك البلاد بعد عقد الهدنة . ثم ساد عهد من الفوضى والتنازع بين الأخير وجماعة سيف النصر وشيخ يدعى عبد النبى انتهى باستيلاء الأخيرين على مرزوق ، وطرد خليفه من المقاطعة ؛ فلجأ الأخير إلى الطليان فى حالة يرثى لها ؛ فأعطاه جراتزيانى منزلا وخادماً ، ووعده بأن يستخدمه فى فتح فزان .

خطة استرداد فزان :

وضعت خطة الفتح بناء إرشادات المارشال بادوليو وروعيت فيها منتهى الدقة بحيث لم تتجاوز اعتمادات الصرف ٢١ مليون ليرة إيطالية ، أى ما يقرب من ٢٠٠ ألف من الجنيهات المصرية ؛ يدخل فيها تعبيد الطريق إلى سبها ، وإصلاح الطريق من سبها إلى مرزوق ومنها إلى غات على الحدود الفرنسية .

تم كل هذا ابتداء من النصف الأول لسنة ١٩٢٩ وتحدد شهر ديسمبر لابتداء العمليات الحربية التى وضعت لها القيادة العامة فى طرابلس جميع الخطط الخاصة بتعبئة القوات المكلفة بالفتح وتهيئتها وإمدادها بعربات النقل وبكل ما يتعلق بمسائل التموين والتجمع ونظام سوق الجيش . تاركة لجراتزيانى الناحية الفنية ناحية اختيار الضباط وتدريب القوة المكلفة بالزحف .

طريقة اختيار الضباط :

لحصر همه فى اختيار أعوانه ووضع لذلك شروطاً ألزم نفسه باتباعها فاشترط :

١ — أن يكون الضابط ذا خلق قويم وجرأة وإرادة .

٢ — أن يكون من المتحمسين للمسائل الاستعمارية .

٣ — أن يكون من الذين يتحملون المشاق و يرضون بالتخشن فى العيش .

ولما عرف كيف ينتقى ضباطه ، فرض هذه الشروط على ضباط الصف ، ثم أخذ يختبر معلومات رجاله ومقدرتهم ، ففرض على القوة القيام بتمرينات متعددة على حرب الصحراء وخصائصها . واهتم بوسائل الارتباط والمخابرة مع الطائرات حتى يسهل الاتصال بين الوحدات بعضها مع بعض ، و بينها و بين القيادة وطبع كتاباً مختصراً عن فزان وأحوالها ووزعه على الجنود وضباط الصف ، وأخذ فى تحضير خريطة مفصلة على أحدث ما وصلت إليه معلومات وابحاث السلطات عن طبيعة الأرض والمناطق وأسماء البلاد والمسافات التى تفصلها .

ولم ينس « خليفة زاوية » الذى انضم مع الطليان على رأس مفرزة من الوطنيين ومعه مهدى موسى للانتقام من أعدائهما فى مرزوق ، وتحركت القوتان فى نهاية شهر أغسطس وقاتلت جماعة من المجاهدين تحت قيادة سيف النصر ، واحتلت [١] واحة « البراق » الواقعة على طريق سبها .

تنظيم السير :

ولما وصل خبر احتلالها إلى طرابلس أصدر بادوليو أمره بالتقدم إلى مرزوق على أن تكون المقدمة مكونة من فوج من السيارات المدرعة ، ومعه كتيبة من جنود أريتريا تحملها السيارات وتتبع كل هذا قافلة تحمل ما يكفى لمدة شهر من المؤن والذخائر . ولما وصلت الحملة إلى براق وجدت أن سبها قد سقطت فى يد خليفة ، و بهذا أصبح الطريق مفتوحاً إلى مرزوق .

دروس من أخطاء الماضى وتعليمات جديدة :

يقف الطليان هنا موقفاً خاصاً يشيرون فيه إلى أخطائهم الماضية ؛ فهم

---

(١) راجع الخريطة .

يدرسون عمليات سنة ١٩١٣ ويقررون أن أسلافهم لم يفكروا فى حماية مواصلاتهم [١] . وكان تقدمهم لاحتلال مراكز العدو دون التفكير فيما تتعرض له جنودهم إذا تركوا جيوباً للعدو يشن الغارة منها عليها . وكان أن سقطت حامياتهم وعزلت واحدة تلو الأخرى . ويكشف جراتزيانى عن فكره بقوله : « إن هذه الأخطاء لن تتكرر ثانية » . ولذلك ترك الزعماء الوطنيين يتقاتلون فى فزان ويقيمون حربهم الداخلية المهلكة التى تسلم للرق رقابهم . وأخذ يستعد لحملة واسعة النطاق . وكان ذلك فى الشهور بين نهاية أغسطس و ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٢٩ . ولما وصل لجأة إلى سبها أصدر تعليماته التى تتلخص فى :

١ — إتمام تطهير الجزء الشمالى بأكمله واحتلال براق وسبها بالقوات النظامية .

٢ — السير دفعةواحدة إلى واو الكبير على الطريق بين مرزوق والكفرة وهى التى خرجت منها الحملة التى وجهها العابد إلى سبهاسنة ١٩١٤ .

٣ — الهدف الأخير احتلال قطاع مرزوق ، أوبارى ، غات على حدود الصحراء الفرنسية وكان يقول :

« إن القصد النهائى هو أن تتطور المعركة على شكل ديناميكى فتنتهى بالوصول إلى احتلال نهاية الحدود السياسية ، وإخضاع أبعد المناطق مما لا يتصور العرب أن فى وسع الحكومة الإيطالية الوصول إليه [٢] » .

وقد نفذت الخطة التى كان الكتمان رائدها بحذافيرها ، فاستولت إيطاليا على واو الكبير ومرزوق وفى ٢٥ فبراير سقطت غات التى غادرها الثوار منسحبين إلى داخل الأراضى الفرنسية . وفى ٣٠ مارس تركت مفرزة من قوات البادية

---

(١) ظهرت مثل هذه الأخطاء فى حملة فلسطين ١٩٤٩ من الناحية المصرية .

(٢) قارن هذا بعمليات اليهود فى النقب وخليج العقبة فى حرب فلسطين لاحتلال الحدود السياسية وهم الذين وضعوا هذا الهدف نصب أعينهم ووفقوا فى احتلال أراضى لم يكن يحلم باحتلالها أشد الناس تفاؤلا بينهم كما قال وايزمان .

مراكزها فى فزان متجهة جنوباً فاحتلت فى ٢ إبريل « جبال طمو » على بعد ١٥٠٠ كيلو متراً من السواحل ، وأتمت حركتها بأن عادت إلى مراكزها عن طريق بئر الوعر . وقد بقيت إيطاليا تسيطر على فزان حتى قامت الحرب الأخيرة أليس فى ذكر هذا ما يحرك فى النفس أشياء ؟ نعم لقد انتهى عهد إيطاليا وانتهى جراتزيانى وسقطت جيوشه فى صحراء مصر ، ولكن الدروس التى ألقاها علينا بزحفه إلى فزان تستحق العنايه وتنبهنا إلى بعض الأخطاء التى وقع فيها أسلافنا أو وقعنا نحن فيها . ألم يكن من الأوفق لنا أن نعرف أساليب الخصم العاتى ؟ وأن الاستعمار مجموعة تجارب ؟ والحروب سلسلة من الدروس القاسية ؟ والفرص تأتى ولا تعود ؟ .قبل أن نقحم أنفسنا على غير استعداد فى فلسطين ؟

والآن أنتقل إلى الحلقة الأخيرة لفزان وهى احتلال فرنسا لهذا الإقليم .

احتلال فرنسا :

فى سنة ١٩٤٠ وقبيل عقد الهدنة بين فرنسا وألمانيا ، دعت الحكومة الفرنسية الجنرال والقائد المعظم فيجان لتولى القيادة العامة ، وسد ثغرة سيدان لقد تحطمت الجبهة واندكت حصون خط ما جينو فى الشمال ، والزحف الألمانى لا يقف وراديو برلين يصيح « لو بعث نابليون من قبره ، ولما كان فى وسعه أن يغير القدر المحتوم » لقد هزمت فرنسا وتمزقت جيوش الجمهورية(١) .

وكنت جاراً للجنرال كايو مساعد القائد العام ، وفى عصر أحد الأيام دعانى مرأ لمنزله ، وقال لى إنه يغادر البلاد الليلة إلى مصر فالسودان المصرى فأفريقيا الغربية فمراكش إلى فرانسا ، وذلك بناء على دعوة فيجان الذى طلب إليه أن ينضم إلى هيئة أركان حرب الجيش الفرنسى ، إذن يجب أن يكون بجبهة القتال قبل أربعة أيام قلت . « إنكم تنتظرون قرارات حاسمة لإيقاف هذا الزحف المستمر » قال : « إن إنقاذ فرنسا يحتاج إلى معجزة » . إن ذكر أربعة أيام

(١) راجع مذكرات فيجان فى هذا الكتاب .

للوصول إلى فرنسا هى التى لفتت نظرى ، فهذا القائد يغادر بيروت إلى القاهرة ومنها إلى وسط الصحراء ثم الدار البيضاء ليصل فى أربعة أيام ألى فرنسا — التى كان بوسعه أن يصل اليها فى ساعات . لماذا كل هذا الوقت ؟ ؟

استراتيجية المتوسط تفرضه إرادتها:

هذا التغيير الحاسم فى استراتيجية البحر المتوسط سببّه دخول إيطاليا الحرب تلك الدولة التى تملك من المراكز ما يمكنها من أن تشل حركة الحلفاء جميعاً وتجعل من البحر قسمين وتدخل فى صميم القارة الأفريقية بقطاع يهدد أملاك إمبراطوريتين كبيرتين لبريطانيا وفرنسا . .

ومن هذا تفهم أول مبرر يدفع الفرنسيين للتمسك بإقليم فزان ، على أساس أنه على الطريق الجوى بين مدغشقر وفرنسا .

الهدنة الفرنسية :

وحينما عقدت الهــدنة وظهرت حركة الفرنسيين الأحرار التى ترأسها الجنرال ديجول ، أخذ يسعى إلى جمع شمل الإمبراطورية تحت لوائه ، فكان أول من انضم إليه الجنرال كاترو بالهند الصينية ولـكن موقف اليابان حال دون استمراره ، فغادرها واتجهت الأنظار إلى منطقة قريبة فـكان الـكنغو الفرنسى أول المقاطعات التى انضمت إلى الحركة ، والغريب أن الظروف تركت هناك حاكما وطنياً من الشعوب الملونة ، وهو الذى توفى قبل نهاية الحرب بالقاهرة ، وكان أمل فرنسا يرمى إلى أن تحتفظ بمكان لها على مائدة الحلفاء ، ولذلك تغير اسم فرنسا الحرة إلى فرنسا المقاتلة ، وحاول الجنرال ديجول مراراً أن يسمح له بالجلوس مع روزفلت وستالين وتشرشل ، وكان الأولان يعترضان على وجود فرنسا لأنها سلّمت ولم تحارب ، ولذلك اتجهت إرادة فرنسا الحرة إلى تحمل أعباء

قتال فى أى جهة ، وكان أن سمعنا بتأليف فرق من المتطوعين وجنود المستعمرات تحارب فى صف البريطانيين ، و بين أيدينا فى سوريا ولبنان ذكريات ضباط البر ، والبحر والجو ، الذين كانوا يخترقون حدود فلسطين للانضمام إلى قوات فرنسا المحاربة ، وكان أن ظهرت قوات فى ميدان سوريا ولبنان ، ثم على الحدود المصرية فى بئر حكيم حين استبسلت قوة فرنسية أمام قوات تفوقها عدداً من جنود المحور .

الزحف في إفريقيا :

إلا أن العملية الحربية المنفصلة والمستقلة تماماً عن بقية جيوش الحلفاء ، هى العملية التى تولتها فرنسا المقاتلة بزحفها من بحيرة تشاد عبر الصحراء الكبرى واتجهت إلى فزان ، فهى من أعظم حركات حروب البادية .

ولقد كان رأى فرنسا فى الحكم الإيطالى وقتئذ يختلف تماماً عن رأيها اليوم وإليك الدليل من نشرة رسمية لحكومة الفرنسيين الأحرار وسأنقلها بالفرنسية

Jamais aucune puissance coloniale n ' a traité avec sussi peu be pitié . d'hnmanité on mème simplement de bon sens les populations sur lesquelles des trailtés leur donnaient bes droits , On n' a jamais spolié . on n' a jamais massacré on n' a jamais exterminé un peuple , comme les Italiens . ont fait du peuple tripolitain . Les rapports les plus accablants , les photographies les plus significatives S' accumulaient sur le bureáu de la S. D. N. sans que les Etats Sociétairee prissent le moindre ombrage de ces horreurs . On devine avec qnelle ferveur les Fezzanais attendaient la libération,

Nous avons trouvé auprés d'eux non seulemeut le secours que nous étions en droit d' escompte , mais un appui amicel. (١)

(١) Editions France - Levànt-Beyrouth 1943

عملية خطرة :

كانت مقدمة هذه الحركة . عملية من أخطر العمليات التى مرت فى تاريخ حروب البادية ولكنها أشبه بحركة كشفية منها بعملية حربية . فقد قام من الجانب الفرنسى ضابط إسمه جان كولونا دورنانو من ضباط قوات البادية الفرنسيين واشترك معه ضابطان بريطانيان اجتمعا به فى القطاع الجنوبى ، حيث تلتقى الحدود بين المستعمرات الإيطالية والفرنسية وحدود السودان ، وكان هذا فى ٤ يناير سنة ١٩٤١ وفى ١١ يناير تمكنت هذه القوة المخاطرة من تدمير مطار مرزوق والسودة بعد أن سقط الضابط الفرنسى كولونا دورنانو تحت وابل رصاص الطليان . وتعرضت بعد هذه الحملة واحة كفرة والجزء الجنوبى من فزان لعدة هجمات سنة ١٩٤٢ .

وفى أوائل سنة ١٩٤٣ زحفت قوة الجنرال Leclerc الفرنسى من الجنوب ، وأهم أغراضها احتلال فزان وتحريرها ، وكان مركز التجمع Fort Lamy ثم Faya وأتت المؤن والذخائر بالسيارات من برازافيل ، وكان عدد القوة الزاحفة ٧٩٨ ضابطاً ورجلا .

وقد اختير موعد الزحف بين شهرى نوفمبر وفبراير وفى ٢٥ ديسمبر أذيع أول بلاغ عن العملية يعلن دخول القوة فى يوم ٢٢ ديسمبر ١٩٤٢ أراضى فزان ، وفى ٣٠ ديسمبر احتلت أم الأرانب (١) بعد مناوشات مع قوة إيطالية وسلم عشرة من الضباط وأكثر من مائتى جندى وطنى وفى الوقت نفسه سلمت البطرون ثم سبها وفى ١٢ يناير سلمت مرزوق .

وكان الاستعداد لهذه العملية كاملا من جميع الوجوه وجاءت فى الوقت المناسب الذى كان الحلفاء يدفعون بجيوش المحور إلى الحدود التونسية ، ولذلك تمكنت القوات الفرنسية بعد احتلال فزان من دخول طرابلس فى ٢٥ يناير ، واحتلت فى ٢٦ يناير سنة ١٩٤٣ غدامس على الحدود الغربية .

---

(١) راجع الخريطة .

وقد اشتركت القوات الهوائية الفرنسية وأبلت فى المعارك بلاء حسناً ، ولكن عظمة الحملة هى فى تنظيمها وسيرها ، وأنها جاءت حركة مفاجأة رغم أن الحرب التى واجهت الحملة هى حرب مع الطبيعة أكثر من أنها حرب مع الطليان وقد دلت عمليات الصحراء من ١٩٤١ إلى ١٩٤٣ على أن قيادة الحلفاء كانت تحسب حساباً للمطارات الإيطالية فى الكفرة وفى مرزوق وقد ذكر الفرنسيون أنهم وجدوا فى مطار الكفرة البريد السرى الذى كان يرسله حاكم جيبوتى التابع لحكومة فيشى مما يدل على أن مطارات الصحراء كانت تسمح باتصال الإيطاليين فى أثيوبيا مع دولتى المحور فى أوربا بانتظام . .

هذه هى العمليات التى أدت إلى دخول الفرنسيين فزان وهى بطبيعتها مكملة لحركات الحلفاء فى شمال أفريقيا ، وإن كانت أهدافها تبدو مستعصية أو بعيدة عن التحقيق ، لو كانت مستقلة تماماً عن عمليات الحلفاء فى شمالى أفريقيا ولكنها كعملية من عمليات الحروب الصحراوية تستدعى أن نقف قليلا لنتحدث عن الصحراء أو البادية .

حروب الصحراء :

للصحراء روعة تحدث عنها الكثيرون من أهل أوربا من رجال الجندية وغيرها . فخافقها تمثل فى نظرهم حدود بحر متسع من الرمال ، يدعو الواقف على شاطئه أن يركب الأخطار ليكتشف ما وراء الأفق أو هى قطعة من عمل الطبيعة تتحدى الإنسان — اقصد الإنسان الواعى — وتدعوه أن يقدم عليها ويواجهها وينازلها ليتعرف على ما تخفيه فى أنحائها من أسرار .

روادها :

ولذلك كثر عدد الرواد ، وانتهى الأمر إلى أن أصبح للصحراء حروب ومعارك وأنظمة علق عليها المستعمرون أهمية خاصة . وكان من أهم مظاهرها وفوائدها ، أنها تخلق تلك الفئة الممتازة من الرجال الذين تخرجهم مدارس

الحروب الأفريقية والأسيوية بتجاربها القاسية . ويعد أفراد هذه الفئة ذخراً لا يقدر بثمن للبلاد التى تملك المستعمرات الشاسعة البعيدة عن العمران ، والتى يحتاج استتباب الأمن فيها إلى القيام بحملات دائمة ومستمرة ضد أهالى وسكان البلاد الوطنيين الذين يحدثون أنفسهم بالدفاع عن أوطانهم والمطالبة فى حقهم بالحياة .

فئة ممتازة :

فلكى يكون لدينا مثل هذه الفئة الممتازة لنرد العدوان وشره ، يجب أن ندفع بعدد من رجالنا دائماً إلى الأخطار ، فإن لم تكن لدينا حروب ، وجب أن نشجع هذا الفريق أن يتطوع خارج البلاد ، وأن يشترك فى أية حروب قائمة بصرف النظر عن ميلنا لهذا الفريق أو ذاك من المتحاربين . إنما يكون غرضنا الأساسى الحصول على تجارب كل فريق وأساليبه فى القتال متجهين إلى تربية روح المغامرة فى نفوس ضباطنا . .

مدرسة للقواد :

من هذه المدرسة تخرج قواد المستعمرين الذين قادوا الحروب فى أوروبا ، وكانوا قوة للبلاد التى ينتمون إليها ذلك لأن وجودهم فى جو يدعو إلى تحمل المتاعب ومواجهة الأخطار وأخذ المسئوليات مع الثقة فى النفس ، يخلق فيهم صفات ممتازه أهمها الجرأة على الوقوف أمام عقبات تبدو مستعصية ووسط ظروف تعد خطيرة ثم تعويد النفس على أخذ القرارات السريعة الحاسمة وتنفيذها ، وهى صفات تبدو فى كثير من الأمم وكأنها قد فقدتها مع اليوم الذى فقدت استقلالها فيه . .

وليس معنى هذا أننا معاشر الشعوب الإسلامية فى تاريخنا الطويل المملوء بالحروب المتتالية سواء فى آسيا أو أفريقيا لم نذق طعم الانتصار وحلاوته ، بل

كان لدينا من هذه الفئة الممتازة كثيرون ، ومنهم من لا يمكن مقارنته بغيرهم من الرجال الأور بيين نظراً لتفوقه ، ومنهم من لا يقل فى صفاته عنهم .

أسلاف الملحمين :

ولقد كان بين أسلافنا من قادوا الحملات عبر الصحراء عدة مرات ، ودانت لهم القارة الأفريقية بحسب الأساليب التى كانت متبعة فى عصرهم ، فهناك حملات من الشمال إلى الجنوب عبر الصحراء الكبرى وحملات من الغرب إلى الشرق ومن الشرق إلى الغرب ، قام بها أسلافنا من المرابطين [١] والموحدين على شكل أوسع وأعظم مما يفتخر به قواد المستعمرين من الإيطاليين والفرنسيين . ولكننا اليوم مضطرون أن نأخذ عن الغرب وأن نتبع خطواته ، وأن ندرس هذه الحملات ونقلدها حتى فى أساليب القتال على أراضينا وأوطاننا .

توغل فرنسا فى الصحراء :

فى سنة ١٩٠٠ أى بعد مضى سبعين عاماً على حملة فرنسا التى ساقتها على الجزائر احتلت القوات الفرنسية المقيمة فى جنوب الجزائر واحة عين صلاح ، وكان هذا الاحتلال بمثابة فتح جديد قابله العالم بالاعجاب لقوات البادية الفرنسية وهى التى يرجع الفضل فى تدريبها وتهيئتها إلى الماجور لابرين ، فهذه القوة أشار إليها جرازيانى فى كتابه عن إخضاع ليبيا ، وقال إن إيطاليا أدخلت هذا النظام لديها وزادت عليه ، فتولى قيادة رجال البادية الدوقا دواستا الذى أخذ هذا العمل بجد . ولا أزال أذكر حديثه [٢] معى فى تريستا عن الأيام التى قضاها وسط الصحراء وكيف كان يعبر عن حنينه الدائم وهو فى أوربا إلى أيامه فى تلك البقاع الأفريقية .

---

(١) يعتبر المؤلف التاريخ الاسلامى وحدة لا تتجزأ .

(٢) جمعت الظروف بين الدوقا والمؤلف فى تريستا سنة ١٩٣٧ حين كان يشغل وظيفة قنصل مصر هناك وتوطدت بينهما صلات .

والمتكلم عن قوات البادية وتنظيمها لا بد أن يذكر العمل الذى قام به الماجور جلوب باشا المسمى بأبى حنيك فى بادية الشام ، فهذه وإن كانت بعيدة عن فزان إلا أنها نوع من أعمال الأوربيين يستحق اهتمام أولى الأمر وتفكيرهم ودراستهم.

النتائج :

ماذا نستخلص من مشكلة فزان ؟ نستخلص :

أولا : اهتمام الدول الأوروبية بالصحراء الأفريقية ، مما يتطلب منا ضرورة التعجيل بإنشاء معهد الصحراء لدراسة مستقبل الصحارى فى بلادنا وفى القارة الأفريقية وفى آسيا خصوصاً جزيرة العرب .

ثانياً : إهتمام الدول الاستعمارية بطرق المواصلات عبر الصحراء وهى مواصلات برية وهوائية .

فالأولى ستعود بنا إلى طرق القوافل القديمة ، فعلينا أن نستعد من الآن لدراسة هذه الطرق ورسمها على الخرائط ثم العمل على تعبيدها واكتشاف مواقع المياه عليها ، أما الطرق الهوائية فأول واجب يتحتم علينا هو إنشاء مطارات حديثة فى مناطق الواحات المصرية حتى نكون دائماً على أهبة للمساهمة مع الآخرين فى تعمير الصحراء والدفاع عنها .

يسير العالم بخطوات سريعة نحو توطيد سيطرة الدول الأوربية مرة أخرى على المشارق والمغارب ، ومشكلة فزان إحدى المشاكل المرتبطة بمستقبل ليبيا ، وقد ظهر للعيان كيف تطورت السياسة العامة بالنسبة لإيطاليا [١] ، فهى قد كانت تقبل منذ سنتين مساعدة الدول العربية بأصواتها لاستعادة الأريتريا والصومال فى مقابل الاعتراف باستقلال ليبيا كاملا ، أما اليوم فلا أدرى هل تقبل ذلك ؟.

(١) ظهر هذا جلياً فى اتفاق بريطانيا وايطاليا اثر فرنسا فى الوصول اليه .

يبدو لنا من الناحية الفرنسية أن فرنسا تحاول أن تعمل على إعادة نفوذ إيطاليا كاملا ، وفى هذه الحالة هل تسلمها حدودها القديمة أم تقتطع فزان ، و إذا سلمت لها بفزان هل تحتفظ بـ ١٠٠ر٠٠٠ كيلو متراً من الأراضى التى سلمها لا فال إلى موسولينى ؟ وما هو موقف الإنجلو أمريكان ؟ [1] .

إن موقفهم يتلخص فى الاحتفاظ بالمراكز الاستراتيجية .

ولا يوجد شك فى أن بريطانيا لها مراكزها فى برقة كما لا يوجد شك فى أن أمريكا لها مراكزها فى طرابلس .

فى مصلحة من استقلال ليبيا موحدة . . ؟

هذا ما تمليه تطورات السياسة العالمية ومقدار الثقة التى يحصل عليها أهل ليبيا و برقة أنفسهم [2] .

أما أهل فزان فداخل السور الحديدى أسلاك شائكة وجنود السنغال ، مثلهم كمثل ملايين من بنى آدم لا يتمتعون بما يسمى حقوق الإنسان : تحرمهم منها أم كانت هى أول من نادى بحرمة حقوق الإنسان .

---

(١) انتهى الأمر بقبول بقاء نفوذ فرنسا على فزان .

(٢) ضاعت للأسف أغلب الفرص التى كان بوسعنا اقتناصها لايجاد ليبيا موحدة .

المراجع
الخاصة بفزان

Graziani r. 1 — Cirenaica Pacifieata 1932

2 — La Riconquista del Fezzan

Teruzzi A. Cirenaica Verde 1931

Zoli C. Nel Fezzan.

Due Anni de governo del Marsciallo

Bal bo in Libia 1936

La Rinascita della Tripolitania

Imemorie e studi sui 4 anni di governo

del conte Cs Volpi di Misurata 1926

La Jeunen Turquie et la Révolution Capitaine A, Sarrou

Le Guerre Turque dans la Guerre Mondiale, Comman dánt M. Larcher edition Berger Levrãult .

Les Gampagnes du Fezzan Ed. France . Levaut Beyrouth :

Cap. Enrico Petragnani Il Sahara Tripolitano

Epopée Seclenc

واحة الجغبوب

فى مذكرات المرحوم إسماعيل صدقى

تلقى العالم العربى بترحاب مذكرات الرئيس السابق لأنها كشفت عن بعض ما خفى من أسرار السياسة المصرية، وأصبحت تتم حلقات الوثائق التاريخية . وقد انتظر الكثيرون أن يكون لها نفس الروعة والأثر اللذين تتركهما فى نفس القارئ مذكرات تشرشل وغيره من جبابرة السياسة فى القرن العشرين .

والمطلع عليها فى مجلة المصور يشهد بأن الرئيس قد بذل جهداً فى تحريرها وجمع موادها ولكن بعد مضى فترة طويلة على الحوادث والعوامل السياسية ، بدليل أنه لم ينقل إلينا شيئاً واقعياً أو صورة حية لما سجله قلمه وقت هذه الحوادث ، ولكنه تناول بأسهاب بعض المسائل العامة ، ومرّ مروراً على مسائل أخرى . وإنى ألتمس له العذر فى ذلك لأن صفحات المجلة لا تتسع لأكثر من ذلك .

ومن قبيل ما تناوله الرئيس باختصار مسألة واحة جغبوب وخليج السلوم : فقد رسمها بقلمه ليقنع القارىء بأن السياسة الحزبية المصرية قد صورت الاتفاق بصورة سوداء ، مع أنه وفق فى حل هذه المسألة توفيقاً انتهى به إلى نتائج معلومة سبق أن وضعتها السياسة المصرية أمام أعينها ، وأنه بهذا الاتفاق حقق لمصر أهدافاً معينة هى من عمله وحده . . ومنها ضم السلوم إلى أملاك مصر .

والذى نعلمه هو أن الحدود العثمانية القديمة كانت تجعل السلوم داخل الأراضى الطرابلسية ، وأن احتلال السلوم حدث مرتين : الأولى فى سنة ١٩١١ بواسطة الجنود المصريين عقب إعـــلان الحرب بين تركيا وإيطاليا مباشرة ، والأخرى فى أبان الحرب العالمية الأولى عقب انسحاب القوات السنوسية منها ، وبقيت بيد القوات المصرية منذ ذلك التاريخ إلى أن عقد الإتفاق المشار إليه بين مصر وإيطاليا .

ولقد جاء الاحتلال الأول بناء على أوامر كتشنر تنفيذاً للاتفاقات السرية التى عقدتها الحكومة البريطانية مع إيطاليا والتى تنص على إدخال جزء من الأراضى العثمانية فى الأراضى المصرية مقابل الحصول على صمت الحكومة البريطانية ، وحياد مصر إزاء اعتداء إيطاليا على أملاك الدولة العثمانية فى طرابلس.

وهذه الاتفاقات من قبيل اتفاق سنة ١٩٠٦ الخاص بتعيين حدود مصر الشرقية فى سينا : غير أن الأولى سرية مكتومة والثانى اتفاق عام بين مصر المحتلة من جهة والدولة التى كانت يوماً ما صاحبة السيادة وقد صودق عليه ونشر على العالم .

ولكل منها فى نظر السياسية البريطانية هدف واحد لا يتغير هو ضمان الدفاع عن الأراضى المصرية فى حالة حرب سواء كان الهجوم من جهة الشرق أو الغرب.

ويعجب القارىء أن هذا الهدف كان من ضمن ما أوصت به قرارات لجنة الدفاع الدائمة للامبراطورية فى وزارة الحربية البريطانية منذ عام ١٩٠٦ ، أى بعد حرب البوير ١٩٠١ وانتهائها مباشرة .

ولما قامت الحرب العالمية الأولى كشفت بريطانيا عن جميع أوراقها وسياستها التى وضعتها لتحطيم الدولة العثمانية وهاجمت المضايق ولكن فى سنة ١٩١٥ انتهت حملة الدردنيل بالفشل ، واضطرت الحكومة البريطانية إلى إيجاد لجنة تحقيق لمعرفة نتائج أسباب هذا الفشل : واستعرضت اللجنة قرارات وخطط الدفاع البريطانية ، فظهر أن تفاصيل حملة مهاجمة المضايق وضعتها وزارة الحربية البريطانية مع اشتراك الأميرالية فى عام ١٩٠٦ ، وأن مشاكل الدفاع عن الأراضى المصرية درست من ذلك العهد ، وأن توصيات لجنة الدفاع نفذ :. باتفاق ١٩٠٦ لأبعاد الحدود العثمانية عن منطقة القنال ، وكان من ضمن أبحاثها دراسة الحدود الغربية والحصول على خليج السلوم لمصر بناء على إلحاح الأميرالية البريطانية .

والدليل على ذلك اتفاق ملنر ـ شالوبا ١٩٢١ بين بريطانيا و إيطاليا عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى مباشرة ، وهو يؤكد ما ورد بالاتفاقات السرية

الخاصة بتوزيع أسلاب الدولة العثمانية بعد الحرب ، وفيه تعترف إيطاليا بضم السلوم وما يتبعها إلى مصر .

إذن نستخلص أن المفاوضات التى أشار إليها الرئيس صدقى، وهدّد بقطعها وسافر من أجلها، كانت تتناول مسائل شكلية للحدود الجديدة بوضع علامات عليها وتعديلها لإدخال بعض آبار المياه ولا تتناول لب الموضوع بل تقر حالة سابقة مهدت لها الدبلوماسية الأوروبية كل المراحل بين دولتين عظيمتين تحدّدان مناطق نفوذهما وقواعد الجوار بينهما ، ولم ينقصها سوى إقرار الحكومة المصرية لتسجيل حالة قائمة من المبدأ .

والمستندات والوثائق وأقوال الرجال الذين اشتركوا فى هذه المفاوضات كلها تدل على أن الجانب المصرى ، أخذ الناحية المظهرية واكتفى بها لأسباب عدة يرجع معظمها إلى المتاعب الداخلية التى تلقاها الحكومات المصرية المتعاقبة من موقف المعارضة الحزبية .

وقد سمعنا هذا من رجال إيطاليين تولوا مناصب هامة ، واشتركوا فى هذه المفاوضات من المبدأ ؛ فقد صرحوا بأن اللجنة المصرية الإيطالية نفذت بالضبط ما كان قد اتفق عليه بين إيطاليا وبريطانيا ، وكان موقف الجانب المصرى ، مظهرياً أكثر منه جدياً . ومنهم السنيور كوخ ، وزير إيطاليا المفوض والذى كان يشغل وظيفة مستشار بسفارة أنقرة ، وكان من من اشتركوا فى هذه المباحثات [1] .

وعلى كل حال فإن موقف الرئيس صدقى إزاء إيطاليا كان مشرباً بروح المودة والكياسة بدليل زيارته لموسولينى بروما وهى زيارة لم تكن قاصرة على مسألة السلوم وجغبوب ، وإنما كانت لتقديم الشكر على تمهل الدكتاتور سنوات فى عدم احتلال واحة جغبوب ، حتى يتم الاتفاق مع الحكومة المصريه

(١) أحيل على المعاش وكان من أوائل الشخصيات الذين زارونى فى روما ديسمبر ١٩٥٢ .

عليه . وقد جاء هذا بالنص فى كتاب « تقويم القوات الإيطالية المسلحة » طبعة ١٩٢٧ (صفحة ١٠١١) . إن الحكومة الإيطالية لم تشأ أن تحتل الواحة عسكرياً قبل أن تحصل على اعتراف الحكومة المصرية لها بهذا الحق » . هذا طبعاً حفظاً لتقاليد الوداد والصداقة التى لا تريد أن تمسها ولا نستبعد أن يكون الثمن الذى طلبه الدكتاتور بصبره الطويل ، هو إتمام هذه الزيارة ، وكان يهمه فى المقام الأول موافقة بريطانيا عليها وقد تم له المراد .

وذلك لأنه كان فى وسعه احتلال جغبوب بعد اتفاق « ملنر شالويا » مباشرة ، ولكنه انتظر حتى تم إمضاء الاتفاق المصرى ، فاحتل الجغبوب يوم ٧ فبراير سنة ١٩٣٦ بقوتين مسلحتين قامتا فى وقت واحد ، إحداهما من طبرق ، والأخرى من البرديه ، وتلاقتا فى الواحة ، لإسدال الستار على مأساة بدأت فى عام ١٩٠٢ حينما دخلت إيطاليا فى مفاوضات مع دول الاتفاق الثنائى فرنسا وروسيا . والذى أصبح ثلاثياً بانضمام بريطانيا إليه نهائياً ، ولا تخلو سنة ولا مرحلة طول هذه الفترة من الزمن من دون تفاهم واتفاق على احتلال أماكن استراتيجية ، أو الاعتداء على حق من حقوق الأمم المظلومة . ثمناً لخروج إيطاليا من تحالف ، ودخولها فى تحالف مضاد الدول التى كانت حليفة لها أى النمسا وألمانيا . . .

* * *

نكتب هذا ليعلم القارىء كيف كان يكتب التاريخ الحديث وكيف تستعمل الحكومات الشرقية جهل الشعب بالحقائق وأساليب السياسة الأوربية للتمويه عليه . .

(تكملة للقسم الخاص بفزان) .

نشرت بمجلة الرسالة عقب صدور مذكرات الرئيس صدقى مباشرة .

الفرقة الأجنبية بالجيش الفرنسي

اداة قتال وحرب من الدرجة الأولى

La Legion Etrangére

ذكرى أول لقاء فى عام ١٩٤١ :

تقع مدينة «تدمر» فى وسط الصحراء داخل الأراضى السورية على الطريق الموصل إلى العراق ، ويطلق عليها الإفرنج عليها اسم « بالميرا » ويتحدثون عن زنوبيا ويهرعون لزيارة هياكلها ، ولقد زرتها فى عام ١٩٤١ قبل أن تنشب فيها المعارك بين الإنجليز والفرنسيين وكانت تحتلها يومئذ قوة من جنود الفرقة الأجنبية الفرنسية ، ولقد استقبلنا رجالها أحسن استقبال ، ولمست أنهم كانوا من مختلف الشعوب ، وإن كانت غالبيتهم من الألمان ، وفيهم بعض السويسريين ، ولا أخفى أننى رأيت فى الفرقة مظهراً من أعظم مظاهر الجندية ومنذ لقيتهم وحادثتهم بدأت أقرأ عن هذه الفرقة وأتتبع أخبارها وحوادثها ، فأعجبت بنظام هؤلاء وقلت لنفسى : « إن مصر العربية فى تاريخها الإسلامى الطويل المملوء بآيات المجد والبطولة من أيام أحمد بن طولون وصلاح الدين و بيبرس قد أخرجت للعالم فرقاً ممتازة ، وأخبار المرابطين والمجاهدين بالثغور معروفة ، كما أن الفرق المملوكية المدربة فى طباق قلعـــة مصر قد قامت بما هو جدير باسم ملوك مصر الإسلامية وعظمتهم » ؛ لقد نشأ رجالها على الإقدام والجرأة والطاعة والتضحية ، وتحت هـذه الأنظمة تمكنت فرقة المماليك البحرية ، يتقدمها الفارس أقطاى و بيبرس ، أن تقلب هزيمة المنصورة نصراً ، وأن تتغلب على خلاصة فرسان فرنسا.

فإلى هذه الفرقة الممتازة وأرواح رجالها أهدى هذه الكلمة .

مائة عام مضت أمام الموت والأخطار :

فى مارس سنة ١٩٣١ أتمت الفرقة الأجنبية الفرنسية مائة عام مرت عليها من يوم تشكيلها ، وقد أقامت فرنسا بمناسبة هذا العيد المئوى نصباً تذكارياً فى ثكنات « الجنرال فينو » ، ببلدة سيدى ابن العباس بأراضى القطر الجزائرى العربى ، الذى تحمل حملات هذه الفرقة مائة عام ، واقى الأذى على أيديها ، والعاقل من يتعرف على خصمه ويتتبع عمله ويقيد مظاهر القوة وعوامل النجاح لديه ، وهذا ما ندعو إليه . ومنذ اليوم الذى أقيم فيه هذا النصب التذكارى ، أصبحت للفرقة الأجنبية سنة جديدة . هى أن يقسم أمام هذا النصب المجندون الجدد يمين الإخلاص لأعلام الفرقة وتسليمهم وتعهدهم بالمحافظة على مبادئها وأصولها وتقاليدها .

كيف تحتفل الفرقة بعيدها كل سنة :

وحينما يأتى يوم ٣٠ أبريل سنة من كل سنة ترتص كتائب وأفواج وسرايا الفرقة الأجنبية أينما كانت وحيثما وجدت ، وتقيم عرضاً عسكرياً تخليداً لذكرى بطولة من سقط فى ميدان الشرف من رجالها . فإذا اختير يوم ٣٠ أبريل من كل عام ليكون يوم العرض الأكبر ؟

لهذا الاختيار مناسبة هامة ، لأنه فى مثل هذا اليوم إبان حرب المكسيك الأهلية فى عهد نابليون الثالث ، وهى الحرب التى اشتركت فيها كذلك فرقة مصرية أيام الخديوى إسمعيل . صمدت فى ذلك اليوم مفرزة صغيرة قوامها ٦٥ جندياً من جنود الفرقة الأجنبية ، أمام هجمات ٢٠٠٠ من الثوار المكسيكيين مدة عشر ساعات تحت وابل من النيران وهجمات السلاح الأبيض ، صمدت ولم تتراجع ولم تسلم إلا بعد أن قتل ثلاثة من ضباطها و ٤٣ جندياً من جنودها فكم

بقى فى صفوفها ؟ ١٩ لا غير ، فكأنها كتبت بدمائها صفحة من صفحات الخلود فى تاريخها الحربى — ولذلك اتخذت الفرقة هذا اليوم عيداً لها ، ولم تكتف بذلك بل جعلت من قصة أبطال هذه المعركة وكماة ذلك اليوم سيرة خالدة ومثلا أعلى يتغنى به أفرادها وجنودها وضباطها ، جعلت من ذلك اليوم درساً يلقنه قدماء الفرقة لكل مستجد يلتحق بصفوفها ، ويقبل بإرادته أن يحمل السلاح تحت أعلامها .

إن الأنظمة العسكرية تفرغ على المقاتلين والمرابطين تلك الروح الحماسية العالية ، ولكن المثل العليا تبقى دائماً مستقاة من المعارك التى خاض غمارها الآباء والأجداد وكتبوا صفحاتها بدمائهم وتضحياتهم وصمودهم أمام الأخطار ومواجهتهم للموت والفناء .

وبهذه المثل العليا تكوّن الفرق الممتازة ، وتدرّب على مجابهة المصاعب والأخطار ولذا امتاز رجال الفرقة الأجنبية التى تجمع بين أفراد الأمم المختلفة والطبقات المتباينة ، بالإقدام والجرأة والشجاعة ، وتحت هذا التدريب والتلقين أصبحت الفرقة أداة عراك وقتال من الدرجة الأولى . إننا لا نجد شبيهاً أقرب إليها من فرقة المماليك البحرية بمصر أو فرق الإنكشارية فى أوائل عهد إنشائها حينما كتبت بدمائها تاريخ الدولة العثمانية .

الفرق الأجنبية فى التاريخ :

لقد عرف التاريخ الكثير من الفرق التى تشبة الفرقة الأجنبية الفرنسية ، فقد جنّد هنيبال من الغاليين سكان فرنسا القدماء ، وكان لدى العرب فى شمال أفريقيا وفى الأندلس كتائب من الفرنجة والصقالبة تقاتل تحت أعلام المسلمين ، وكان السويسريون يمثلون أقدر الفرق التى ترتزق بسيوفها فى ربوع أوربا وتحارب تحت أعلام مختلف ملوكها وأمرائها .

ولما قامت الثورة الفرنسية اتجهت إلى جعل جيوش الجمهورية من أبناء البلاد ، ثم عادت الجمعية الوطنية فأقرت فى سنة ١٧٩٢ إنشاء فرقة من الجنود الأجانب ، وتبعها نابليون فأمر بتشكيل فرقة جديدة جعلها من ثمانى كتائب وأطلق عليها اسم فرقة « هوهنلوهى » ، وبقيت هذه الفرقة الأجنبية بعد عودة الملكية لفرنسا ثم سرحت جنودها عام ١٩٣١ ، ثم نظمت وشكلت الفرقة الأجنبية الحالية لتأخذ ، تحت قواعد جديدة ، مكان الفرقة الملغاة ، وهذه هى القائمة حتى يومنا هذا .

لقد صمدت طول تلك السنوات ، وحاربت فى حربين عالميتين ، فأين نجد هذه الفرقة الأجنبية اليوم ؟ .

أين هى اليوم بعد ٢٥٢ معركة :

تتحدث الجرائد الفرنسية فتقول : إن بين كل ١٠٠ جندى يحارب فى الهند الصينية ٦٤ من جنود الفرقة الأجنبية ، بينهم من حارب فى الحرب الأخيرة فى جهات متعددة ومن حمل السلاح فى صفوف النازية والفاشية ومن حارب فى صفوف الشيوعية والديمقراطية ، ويقول رجال الفرقة إن أعلامها خفقت فى ٢٥٢ معركة هائلة فى مدى ١٢٠ عاماً ، وإنهم يحبون فرقتهم ويهرعون للانضمام إلى أعلامها ، لأن شعارها يجذبهم إليها هذا الشعار الخالد : « إن الفرقة الأجنبية لا توجد إلا حيث يكون القتال والتصادم والموت والخطر » ؛ وهم يحبون كل ذلك .

ولذلك أعطيت الفرقة ميزة على غيرها من الفرق : هى أن جرحاها لا يعالجون حيث هم ، وإنما ينقلون من أقصى الأرض وحيثما كانوا ليتموا نقاهتهم ويستعيدوا قوتهم وصحتهم ، بمركز قيادة فرقتهم فى بلدة سيدى ابن العباس ، فإذا أتموا أيام شفائهم وقدروا على القيام بأعبائهم خرج الأصحاء بهيئة طابور للعرض ، أمام

النصب التذكارى المقام فى ميدان الاستعراض ليفتش عليهم قائدهم ويعلق الأوسمة على صدورهم ، ويحدثهم فى كل مرة أن على صعيد هذه الأرض التى تمر الفرقة عليها ، قد مر مليون ومائتا ألف مجند مثلهم من قدماء الفرقة فى إبان مائة وعشرين عاماً . ثم يستعيد ذكرى حرب المكسيك ؛ ويضيف : إن أعمال الفرقة سلسلة لا نهاية لها من البطولة ، تتجدد كل يوم تحت نيران الحرب والمعارك القائمة ، ولكنها مستعدة من تاريخ الفرقة وتقاليدها ، وإن حرب الهند الصينية فيها مثل لا يقل عن غيره ، إذ فى ٢٥ يولية سنة ١٩٤٨ وقف ١٠٤ من رجال الفرقة الأجنبية أمام أكثر من عددهم مرتين ، فخسروا نصف عددهم وثبت الباقى حتى أتت إليهم الأمداد فى صباح اليوم التالى .

تحت وهج الشمس الافريقية ولدت :

لقد نشأت الفرقة الأجنبية على أرض أفريقيا وتدربت على الحرب تحت شمسها وأجوائها المختلفة ، ووجهت نيرانها إلى أبناء أهل المغرب ، وهم أهل كرّ وفرّ وعزيمة وقوة فلابد أن تجند أمامهم فرقة لا تقل عنهم قوة وشكيمة ومراسا وإن تجمع أفراد الأمم فى صعيد واحد وإن تطبّق أقسى الأنظمة العسكرية عليهم لأكبر دليل فى نظرى على أن دفاع أهل المغرب عن حرياتهم كان دفاعاً مستميتاً امتاز بالتضحية والبطولة إلى أقصى حدّ .

ولذا اختارت فرنسا أن يكون مركز قيادة هذه الأداة الفتاكة ، لا على حدود الرين وجبال الألب ، وإنما فى هذه الأرض الجزائرية التى حملت أعلام المرابطين والموحدين الذين ردوا بعزائمهم وسيوفهم حملات أوربا مجتمعة عن أرض الأندلس وأخّروا خروج العرب من إسبانيا أربعمائة عام .

لهذا كله اختارت فرنسا أن تكون بلدة سيدى ابن العباس مركز القيادة وأن توزع كتائب الفرقة فى كولومب بشار وفى عين صفرة « Sefra » ، وأن

تبعث بسراياها لتعسكر بصفة دائمة فى مدن مراكش وفاس ومكناس .

إن شجاعة أهل هذه البلاد تتطلب أن يقف إزاءها أشجع الرجال فى جيش فرنسا ، وهى التى لم تكتف بذلك بل جعلت فى الفرقة الأجنبية مجموعات من الخيالة وأخرى ميكانيكية وغيرها مدربة على الانتقال فى الصحارى على سيارات الجيب ؛ إن فرنسا تعتمد عليها فى توطيد سلطانها وجبروتها ، لماذا ؟ لأنها أداة قتال وحرب من الدرجة الأولى ، وأهل البلاد كذلك يكونون بطبيعتهم وعزيمتهم أداة قتال وحرب من الدرجة الأولى .

أنظمة عسكرية قاسية تشبه قانون جنجيزخان « الياسا » :

ولهذا السبب ، جعلت أنظمة الفرقة فى منتهى الصرامة واشترط فى التطوع توفر طائفة من الصفات أولها تحمل أقصى المتاعب الجسمانية ، والتفانى فى التمسك بتقاليد الفرقة مهما كانت شديدة الوطأة ، وهى تشترط الحصول على النهاية فى درجات الاحتمال من الناحيتين النفسية والبدنية ، والتجرد من عواطف الشفقة والرحمة ، لكى يعيش المجند وسط رجال أشداء ويحتمل معاشرة رجال لا رحمة فى قلوبهم .

فلا يعجب القارئ إذا علم بندم الكثيرين بعد التحاقهم بالفرقة لأنهم لمسوا بعد أن وقعوا على عقد التحاقهم وتطوعهم أن الخدمة فيها ليست بنزهة خلوية ، وإنما هى من قبيل الاستعباد وفقدان الشخصية ...

ولقد أصبحت الفرقة مع الزمن ملجأ لأولئك الذين فقدوا كل أمل فى الحياة أو الذين لفظتهم الجماعة وتعذر عليهم العيش فى الأوساط التى ولدوا ونشأوا فيها ، وهى مدرسة غريبة تؤثر فى الأشخاص فإذا بهم نوعان من الرجال : رجل يأتى إليها فإذا به ينشأ على تقديسها ويحيا فى محبتها والتفانى فى خدمتها ويجد اللذة كلها فى القيام بأعبائها والإخلاص لها ، ورجل آخر يعيش ليلعن الساعة التى

وقع فيها على عقد التطوع وقبل الانضمام لصفوف هذه الفرقة . إن بعضهم قد يصل به اليأس إلى الانتحار والقضاء على حياته تخلصاً من أهوالها .

ومن بين الفريق الأول الذى استهوته حياة الفرقة الأجنبية من يهب عمره لها ، فهو لا يعرف عائلة ولا أهلا ولا وطناً خارج صفوفها ، وينظر بهلع إلى اليوم الذى يقترب بانتهاء أجل انتمائه إليها . إنه يخشى الحرية والعودة إلى الحياة الأولى ، ولذلك يقدم بعض هؤلاء على تجديد مدة تطوعه لخمس سنوات أخرى ، ومنهم من لا ينتظر هذا الموعد بل يهرع قبل مقدمة إلى إمضاء عقد جديد ، لكيلا يواجه المجهول فى الحياة مرة أخرى ، إن أمثال هذا الرجل كثيرون ، لقد ربطوا حياتهم بالفرقة وألفوا أنظمتها وجاءوا ليموتوا فى النهاية تحت أعلامها ويدفنوا ومعهم أسلحتها ...

* * *

إن أساس التدريب والتربية العسكرية فى الفرقة هو الشعور بأداء الواجب وإلى النهاية ... أما الشجاعة فى الميدان فتحركها المنافسة القائمة بين جنود ينتمون إلى أمم متباينة وجنسيات مختلفة : وتذكيها الفكرة الدائمة فى شعار الفرقة وهى احتقار الموت حتى النهاية وفى كل وقت .

لقد أتوا من مختلف البلاد إليها ليدفنوا احزانهم فيها :

ومن هنا يأتى إليها رجال ، بعد أن فقدوا الأمل فى حياتهم العادية ، تملكتهم صفات الإقدام والجرأة ؛ وبعد أن كرهوا الحياة سيطرت عليهم غرائز القسوة واستعمال القوة ؛ وبعد أن تحطمت عواطفهم وحساسيتهم تحجرت أعصابهم وقلوبهم ؛ ثم جاءت ظروف العمل القاسية والخدمة المتلاحقة والتدريب بلا هوادة فجعلت إرادتهم متناسقة وروحهم كأن لا وجود لها ...

ولذلك قال بعض رجال النفس : « إن كل عواطف الإنسانية تموت

فى جندى الفرقة الأجنبية ، ما عدا فكرة واحدة تبقى متسلطة عليه : فكرة إخلاصه لها واعتماده عليها إذ هى نظرة المرجع والموئل والمآل » .

فالفرقة فى نظر الواحد منهم تأخذ مكان الوطن والجنسية والأهل ، وتحل مكان الماضى فتحتل مركز الأسرة والأصدقاء والأقارب وكل ما يمت إلى الجند من روابط ، إنه ينزل بإرادته عن كل شئ له ولا يبقى لديه من الدنيا سوى ارتباطه بالفرقة واعتزازه بشرفه العسكرى كجندى مقاتل .

لقد قذفت الحرب العالمية الأولى بمئات من شباب أوربا . وجاءت الحرب العالمية الثانية فقذفت بالآلاف ، ثم انتابت شعوب القارة الثورات والانقلابات فكان أن خرج كثيرون يهيمون على وجوههم فى الأرض فلم يجدوا فى وجوههم من نكد الدنيا ومغالبة الأقدار باباً مفتوحاً سوى الفرقة الأجنبية ، أتوها من وسط أوربا ، من روسيا وألمانيا ، من ضحايا النازية ومن أنصارها ، ومن ضحايا الشيوعية ، وممن حارب تحت لوائها ، فالتقى تحت أعلامها شباب يمثلون أكثر من عشرين جنسية ، فإذا بهذه الفرقة تزيل الأحقاد بين الشعوب المتباعدة وتجعل من حق الزمالة قانوناً له قوة الصخر ومتانة الفولاذ ، ومن هنا تبدو الفرقة الأجنبية الفرنسية أداة قتال من الدرجة الأولى ، تسير إلى الحرب بخطوات ثابتة ، وتواجه الأخطار والابتسامة على وجوه رجالها .

إنها ضرورة إنسانية لازمة لنفوس الكثيرين ، خصوصاً أولئك الذين وهبتهم الطبيعة غريزة الجندية وحب القتال ، والترامى على الأخطار واللذة فى مواجهة الصعب من الأمور ، إن هؤلاء إذا باعوا أنفسهم للحرب ونشأوا على حمل السلاح ، ثم طرأ على بلادهم من الظروف ما يجعل من المتعذر عليهم الخدمة فى جيوش بلادهم يجدون فى الفرقة الأجنبية ما يرضيهم ويرضى غرائزهم وروحهم العسكرية ، فطوبى لهم ! .

* * *

الأعلام والرايات
فى الجيوش الإسلامية

أرى الراية الصفراء يرمى اصطفاقها ... بنى أصفر بالراعفات اللهازم
فتسبي فلسطيناً وتجبي جزائراً ... وتملك من يونان أرض الأساحم(١)

إن التاريخ الإسلامى بأكمله لا يزال بكراً لم يدرس بعد الدراسة العلمية الصحيحة . وأغلب ما نشر من الكتب الحديثة عنه هو من قبيل جمع المعلومات وتبيوبها ولذلك جاء أكثر ما بين أيدينا من المطبوعات وهو لا يتعرض لحل مشكلة من مشكلات البحث ولا قضى بأمر نهائى فى مسألة مستعصاة .

وقد أثير أخيراً فى مجلة الرسالة موضوع لون الراية التى اتخذها صلاح الدين لجنوده(٢)، واتخاذه اللون الأصفر الذى يبقى علماً للأيوبيين ولملوك مصر من دولتى الأتراك والشراكسة .

والكتابة عن موضوع الأعلام وألوانها ، قد تكون جزءاً من الكتابة عن أنظمة الجيوش الإسلامية وتقاليدها ، وقد تكون جزءاً مما أطلق عليه القدماء اسم ترتيب المملكة ونظام المواكب العظام ...

ويدخل فى ترتيب المملكة نظام الملك وتقاليده وأبهته وقواعد المراسم فى الحفلات العامة .

وكل هذه المسائل لم تدرس بعد الدراسة الكافية فى الدول الاسلامية

---

(١) الروضتين جزء ٢ ص ١١٦ .

(٢) الرسالة عدد ٨٢٠ ص ٣٤٢ بحث الأستاذ أحمد أحمد بدوى المدرس بكلية دار العلوم عن القوة الحربية لمصر والشام فى عصر حروب الصليبيين .

ابتداء من عهد الخلفاء الراشدين إلى نهاية الدولة المملوكة أو إلى نهاية الدولة العثمانية ، ثم قيام الأسرة العلوية بمصر .

وقد تعرض لمثل هذه الأبحاث المرحوم جورجى زيدان فى كتابه عن تاريخ التمدن الإسلامى ، واعتقد أن ما جاء فى هذا الكتاب هو من قبيل جمع المعلومات المتفرقة ، لا من قبيل الدراسة العلمية الصحيحة ، ولم يصل إلى علمى بعد أن هناك من تعرض لدراسة هذه الأمور دراسة علمية سوى الأستاذ « ماير » بالجامعة العبرية بمدينة القدس الذى أخرج كتاباً عن « الرنوك » فوضع بذلك أساساً علمياً يصح أن يتخذ لزيادة الأبحاث وتطورها ومعرفة أصول الرنوك وألوانها وهو عمل يحتاج إلى عناية وتدقيق وإلمام باللغات الشرقية ومدنيات الشعوب الطورانية ولهجاتها ومقدار تأثرها بمدنيات آسيا وكل هذا عمل لا شك أن المستقبل كفيل بتحقيقه .

أما ما يخص جانبى ترتيب المملكة وتنظيم الجيوش ، فكل دولة من الدول الإسلامية لها طابعها الخاص بها ، ويمكن فيما يخص مصر أن نقسم البحث إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : ترتيب المملكة فى زمن الخلفاء الراشدين إلى آخر الدولة الأخشيدية .

القسم الثانى : الدولة الفاطمية .

القسم الثالث : الدول الإسلامية التى بدأت من عهد صلاح الدين إلى ابتداء الحملة الفرنسية .

أما الكلام عن القسم الأول ، فكان ولا يزال ميداناً للبحث والكشف العلمى وجمع المعلومات ، ويظهر أنه كان محاطاً بالغموض فى العصور نفسها الماضية بدليل أن صاحب صبح الأعشى يقول إنه لم يتحر له معرفة ترتيب المملكة فيها ،

والظاهر له أن أغلب النواب والأمراء حينئذ كانوا على هيئة العرب واستمروا كذلك حتى ولى مصر أحمد بن طولون وأبناؤه وأحدثوا فيها ترتيب الملك . وهذا الباب الأخير من القسم الأول أى من ابتداء الدولة الطولونية إلى نهاية الأخشيدية يحتاج إلى عناية الباحثين ، والدخول فيه عسير لأن مواده لا تزال قيد البحث والتنسيق .

فإذا دخلنا العصر الفاطمى ، نجد أنه كان موضع عناية المتقدمين وأن بين أيدينا مادة للبحث مدونة ومبوبة وتصلح للدرس والمقارنة .

أى أنه بوسع الكاتب أن يتناول ترتيب المملكة من جهة نظام الملك وتقاليده وأبهته وقواعد المراسم فى الحفلات العامة كما قلنا ، ثم يعرض للملابس التشريفة الكبرى وما كان يلبسه الخاصة والعامة والجند والأمراء ، ثم يخلص إلى الآلات الملوكية المختصة بالمواكب العامة كالتاج وشدة الوقار والمظلة[١] وغيرها .

أما الأعلام فى العهد الفاطمى بالذات ، فيحتاج درسها إلى احتراس شديد ، وكذلك دراسة السلاح وأصناف الجند وتعبئتهم فى الصفوف والمواكب ، وأعتقد أن لدينا من المواد والمعلومات ما يجعل دراستها تحت متناول يد الباحث . لو كان ملماً بالقواعد المعمول بها فى العالم الآن ، إذ لكل دولة من الدول القائمة ومنها مصر مراسمها الخاصة بها وتقاليدها ، كما أن لجيوش البر والبحر قواعد تختلف بعضها عن بعض ولكنها ترجع فى النهاية إلى أصول متعارف عليها . وقد نجد فى بعض هذه الأنظمة بقايا من أثر الشعوب الشرقية واضحاً ملموساً[٢] .

فإذا اطلعنا على أنظمة الجيش البريطانى ، نجد أن قواعد الأعلام والرايات واستعمالها منظمة فيما يخص ما يرفع منها للملك وللقواد ولأصناف الفرق ، ونجد قواعد التحية بالمدفعية وأنظمة خاصة بالموسيقى[٣] وغيرها .

(١) صبح الأعشى جزء ٣ صفحة ٤٧٣ .
(٢) يبدو هذا الأثر واضحاً فى نظام موسيقى الجيوش الأوربية وفى أنظمة كتائب الفرسان مثل « الإهلان » فى ألمانيا وبولونيا .
(٣) Kings Regulations and Orders for the Army

وما يقال عن الجيش البريطانى ينصرف أيضاً إلى الجيش الإيطالى ، فقواعد التحية بالأعلام وغيرها منظمة فى كتب معمول بها يطلق عليها Norme Per Il Servizio di Presidio.

فهذه قواعد قائمة إلى اليوم ونحن فى حاجة إلى الإلمام بها وتعرفها قبل الدخول فى موضوع الأعلام والرايات ولو كان الكلام عنها تاريخيا ؛ إذ أن إخراج ما فى بطون الكتب من المعلومات وتنسيقها يحتاج إلى تفهم ما يجرى به النظام والعرف فى الوقت الحاضر لكى يجئ عملنا على أساس علمى .

* * *

قرأت فى البحث الذى نشرته مجلة الرسالة للأستاذ بدوى قوله فى تبرير اختيار صلاح الدين للراية الصفراء « وكأن فى ذلك إشارة إلى أن مصر وإن كانت قد عادت إلى أحضان الدولة العباسية — فهى مستقلة ذات كيان خاص بها » .

وأختلف معه فأقول :

أولا : إن إعادة الخطبة لبنى العباس لم يجعل من مصر ولاية عباسية وإنما كان هذا العمل دينياً أكثر منه سياسياً أو إذا شئت هو إعادة اعتبار المذهب السنى وضم لولاية من الولايات إلى الأقطار التى تدين بالولاء الدينى لخليفة بغداد[1] .

ثانياً : إن صلاح الدين حينما اتخذ اللون الأصفر وإن كان يؤمل فى الاستقلال بولاية أو سلطنة لم يقصد ولم يبرر عمله باختيار لون خاص يضعه على أعلامه .

إذن علينا أن ندرس لون العلم على أساس غير هذه الناحية التى أشار إليها الأستاذ بدوى ويخيل إلى أن العصر امتاز بوجود نظامين : نظام الخلافة العباسية ، ونظام الملك . وعلى هذا يمكن استخلاص بعض الحقائق الملازمة لهذا الاختيار :

---

(١) راجع الرسالة ٨٢٠ فى ٢١ مارس ١٩٤٩

« ولا نعلم بوجه التحقيق السر فى اختيار صلاح الدين هذا اللون وقد ظل العلم الأصفر علم الأيوبيين والمماليك من بعدهم » .

وهو ما يدخل فى التفويض العام الذى كان يصدر من دار الخلافة للمتغلبين من السلاطين كما يأتى « تقليده الأمور فيما بلغت الدعوة من جميع الممالك » .

للخلافة شعارها وللسلطنة شعارها :

إن اختيار اللون الأسود لبنى العباس قديم والكلام عنه يخرجنا عن غايتنا . وهو لون اشتهر به بنو العباس وأصبح شعاراً لهم منذ إنشاء الدولة العباسية ولا يفهم من هذا أن نظام الدولة العباسية وترتيب الملك فيها حرّم استعمال لون آخر بل كان للدولة عدة رايات وأعلام مختلفة اللون والشكل بدليل ما جاء فى الطبرى من أن أحد الخلفاء ولعله المتوكل على الله نصب علماً أبيض اللون وسماه لواء العمل ، وهذه ناحية كما قلت تبعدنا عن الغرض الذى رسمناه لأنفسنا . ولذلك أعود إلى القرن السادس الهجرى وأقول : إنه ورث ما كان متبعاً فى القرنين السابقين : الخامس والرابع ، أى ابتداء من دولة بنى بويه ثم قيام الدولة السلجوقية فالذى ألمسه هو أن العالم الإسلامى الذى يدين بالولاء الدينى لبنى العباس عاش فى تلك الحقبة من الزمن و بلاده تحمل شعارين : شعار الخلافة بأعلامها وألويتها وتقاليدها وشعار المملكة أو السلطنة بترتيبها وألويتها وأعلامها .

ولم يكن هناك ما يحول دون قيام الشعارين أو النظامين فى وقت واحد ولذلك أجزم بأن صلاح الدين حينما أعلن الخطبة لبنى العباس وأقام شعائرهم فى المساجد جاء إلى مصر ومعه شعائر السلطنة أو المملكة المتغلبة . وهى منبثقة من نظام الدولة السلجوقية التى كان يتبعها الأتابكة ولو فى مظاهرها وشعائرها ، ومنهم نور الدين الشهيد الذى فتح صلاح الدين مصر باسمه ، وكان تابعاً له وقائداً من قواده على رأس جنود من التركمان والأكراد الذين يدينون بالولاء للدولة الأتابكية التى تخضع فى أنظمتها وتقاليدها لآل سلجوق الذين يمثلهم رغم استقلال الولايات وتغلب المتغلبين عليهم ما يطلق عليه اسم :

سلطان السلاطين أو ملك الملوك :

وكان هذا اللقب من مسميات الدولة السلجوقية وهو لا يطلق إلا على من يكون فى ولايته ملوك تحت سيطرته . فالملك فى نظرهم من يملك مثل الشام أو مصر أو مثل أفريقية أو الأندلس وتكون عدة عسكره عشرة آلاف فارس على الأقل[١] .

فإن زاد بلاداً أو عدداً فى الجيش كان أعظم فى السلطنة وجاز له أن يطلق عليه السلطان الأعظم فإن خطب له فى مثل مصر والشام والجزيرة ، ومثل خراسان وعراق العجم وفارس ، ومثل أفريقية والمغرب الأوسط والأندلس كان سمته سلطان السلاطين كالسلجوقية » اهـ . قاله ابن فضل الله فى المسالك نقلا عن على ابن سعيد[٢] .

تقليد سلطان السلاجقة :

ولدينا وصف كامل للمراسم التى اتبعتها خلافة بغداد فى تقليد سلطان السلاجقة وهى جديرة بالتأمل والدرس ؛ لأنها تعطينا صورة حية لأساليب هذا العصر[٣] ثم تجعلنا نعود إلى أوائل دولة بنى بويه فنجد أن هذا التقليد اتبع فى عهد عضد الدولة فناخسرو الذى كان أول من خوطب فى الإسلام بالملك شاهنشاه[٤] . ولدينا صورة لتقليد صمصام الدولة سنة ٣٧٣ هـ لا تختلف فى مظاهرها

---

(١) الروضتين جـ ١ ص ٢٤ .

(٢) حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ص ٩٢ .

(٣) راجع تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٣ .

(٤) المنتظم من تاريخ الملوك والأمم لابن الجوزى ص ١١٣ .

عن تقليد السلطان السلجوقى سنة ٤٤٧هـ[1]. ونعود إلى هذه الحفلة فنعرضها كما جاءت فى كتب الأقدمين :

جلس الخليفة القائم بأمر الله يوم السبت ٢٦ ذى القعدة سنة ٤٤٧ هـ دخل عليه سلطان السلاطين طغرول بك .

تُوِّجَ وطُوِّقَ وسُوِّرَ .

أفيضت عليه سبع خلع سود فى زيق واحد واتخذت له بها مملكة الأقاليم السبعة .

شرف بعمامة مسكية مذهبة تجمع بين تاجى العرب والعجم .

لقب بالمتوج والمعمم .

قلد سيفاً محلى بالذهب .

عاد وجلس على الكرسى .

قام ورام تقبيل الأرض فلم يتمكن لموضع التاج الخسروى .

سأل مصافحة الخليفة فأعطاه يده دفعتين .

قلده سيفاً آخر كان بين يديه .

ختم له بتقليد السيفين ، فقلد ولاية الدولتين .

خاطبه بملك المشرق والمغرب .

من ذلك يتضح أن تقليد الخليفة للسلطان تم بمقتضى مراسم موضوعة روعى فيها جلال سلطان الخلافة وعظمة سلطان الأرض .

---

(١) بنو بويه سنة ٣٧٣ هـ ذيل كتاب تجارب الأمم للوزير أبي شجاع الملقب ظهر الدين الروزراوى ص ٨٤٠ وفيها ركب صمصام الدولة إلى دار الخلافة وخلع عليه الخلع السبع والعمامة السوداء وسور وطوق وتوج ، وعقد له لواءان وحمل على فرس بموكب ذهب وقيد بين يديه مثله وجرى عهده بتقليده الأمور فيما بلغت الدعوى من جميع الممالك وعاد إلى داره .

وجددت البيعة وأطلق رسومها وأقيمت الدعوى وغيرت السكة .

قارن هذه المراسم بحرص الملك الظاهر بيبرس على أن يتم تقليده طبقاً لها عند إعادته للخلافة العباسية فى مصر مع اختلاف فى بعض مظاهرها .

السلطان وأتباعه من الملوك المتغلبين :

كان أولَ من ملك من خلفاء الإسلام وتلقب بالسلطان هم بنو بويه ، ثم جاءت دولة آل سلجوق ففاق ملوكها من تقدمهم وأصبحت دولتهم امبراطورية ضخمة ، خطب لملوكها فيما بين الصين وأسوار القسطنطينية ، ثم ظهر فى أنحائها المختلفة اتباعها وهم :

بنو طغتكين	بالشام
بنو قطلميش	ببلاد الروم
بنو سكمان	بخلاط وارمينية
بنو ارتق	بماردين
بنو زنكى	بالشام
بنو أيوب	بمصر والشام
ثم الترك	الذين ورثوا ملك مصر [1]

ويهمنا منهم أمر زنكى : لأن صاحب النجوم الزاهرة يقول « أنشأ بنو زنكى بنى أيوب سلاطين مصر وأنشأ بنو أيوب دولة الترك وأول ملوكهم الملك المعز « أيبك » . فانظر إلى أمر الدنيا وكيف أن كل طائفة سبب نعمة طائفة »[2] .

وتم هذا التسلل فى سيادة الممالك وتولى أراضيها وكل بيت جاء من اتباع

---

(١) تاريخ بن خلدون صفحة ٢٦ طبعة مصر ١٩٣٦ جزء ١ .

(٢) النجوم الزاهرة صفحة ٢٦٨ جزء ٥ .

من تقدمه وأصل الأتابكة أى آل زنكى هو قسيم الدولة آق سنقر وكان تركيا من أصحاب السلطان ركن الدين ملكشاه ابن ألب ارسلان السلجوق . وكان آق سنقر من أتباع هذا السلطان وملازما له وموضع ثقته .

وبدأ ملكه فى حلب[1] والذى أشار بتوليته هذه المدينة الوزير نظام الملك . ولم يكن ملكشاه هذا ملكا الملوك بل كان من جملة السلجوقيين المتغلبين على البلاد .

إذن كانت ولاية البيت الأتابكى فى نطاق الدولة السلجوقية ، واستمرت هذه التبعية قائمة مدة زنكى وفى أيام نور الدين الشهيد ، وهى العلاقة القائمة بين التابع والمتبوع . كانت تنكمش أحيانا حتى لا تصبح شيئا ، ثم تظهر واضحة فى ترتيب المملكة وقواعدها ومرد ذلك إلى سلطة المتغلبين على الأراضى التى يفتحونها أو يستولون عليها . وبقدر ما يزيد استقلالهم يزيد تمسكهم بتقليد من كانوا هم تابعين لهم فى أبهة الملك والسلطنة وأخصها الأعلام وترتيب الجيوش ونظام الأقطاع .

وتبدو هذه التبعية فى ثنايا التاريخ غير واضحة تماما فيما كتبه مؤرخو مصر والشام ، ولكن مؤرخى المشرق ، أقصد بذلك بغداد وما يليها من الأقاليم يتحدثون عنها فى فقرات متباعدة .

ومن قبيل هذا ما جاء فى ابن الجوزى عن حوادث سنة ٥٣٨[2] من أن . العلاقات ساءت بين السلطان وزنكى ، حتى جمع الأول العساكر لقصد الموصل والشام وترددت رسل زنكى « حتى تم الصلح على مائة ألف دينار تحمل فى نوب فحمل ثلاثون ألفا ثم تقلبت الأحوال فاحتيج إلى مداراة زنكى وسقط المال وقيل بل خرج ابن الأنبارى فقبض المال » .

(١) كانت حلب والموصل ضمن أملاك السلجوقيين قبل تغلب الأتابكة عليها : إذ استولى عليها ملكشاه السلجوقى عام ٤٧٩ هجرية .

(٢) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم طبع حيدر أباد (فك الله قيدها) جزء ١٠ ص ٥٦ .

ولو شئنا تفصيل هذه العلاقات لخرجنا عن موضوعنا إلى دراسة الامبراطورية السلجوقية وعلاقاتها مع التابعين لها ، ومع ذلك أنقل فقرة لتفسير ما جاء فى ابن الجوزى فنحن نعلم أن زنكى وجد ولايته وقد أحدق بها الأعداء والمنازعون من كل جانب . الخليفة المسترشد والسلطان مسعود وأصحاب أرمينية وأعمالها وبيت سكمان وركن الدولة داود صاحب حصن كيفا وابن عمه صاحب ماردين ثم الفرنج وأخيراً صاحب دمشق .

ولذلك جاء فى أعلام النبلاء نقلا عن الروضتين « أن زنكى كان ينتصف منهم ويغزو كلا منهم فى عقر داره ويفتح بلادهم ما عدا السلطان (مسعود السلجوقى) فإنه لا يباشر قصده ، بل يحمل أصحاب الأطراف على الخروج عليه فإذا فعلوا عاد السلطان محتاجاً إليه ، وطلب منه أن يجمعهم على طاعته »[1] وفى هذا تفسير الحاجة إلى مداراته .

ودليلى على أن الخلافة كانت تنكمش أحياناً فلا تملك من الأمر شيئاً أمام سلطان السلاجقة والمتغلبين وأن سلطان هؤلاء كان ينصرف إلى السيطرة على أراضى الممالك ، وهذا ما أجاب به الخليفة سنة ٥٣٠ حينما طالبه زنكى بمال لتجهيز الجند إلى واسط إذ قال « البلاد معكم وليس معى شئ فاقطعوا البلاد »[2] أى أعيدوا توزيعها .

من هذا يتضح أن الخلافة العباسية أصبحت فى ذلك الوقت مظهراً دينياً أكثر من أن تكون صاحبة قوة وغلبة ، وأن شعائر الخليفة السنى العباسى وإن مبادرة السلاطين والملوك إلى الحصول على تقليد الخليفة ، كان القصد منه أن يرتكز الملك والفتح على أسس شرعية متفقة مع قواعد الدين : لا الخضوع

---

(١) أعلام النبلاء جزء ١ صفحة ٥١٦ .

(٢) المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم ابن الجوزى جزء ١٠ صفحة ٥٥ .

إلى ملك العباسيين والإقرار بسيادتهم الفعلية .[١]

فنور الدين حينما يرسل صلاح الدين لفتح مصر ، يفهم أنه يمد فى سلطانه وهذا فى حرصه على الإستقلال بمصر لايجهر بما يبيّته فى نفسه ، بل يحتفظ بمظاهر التبعية فى شعار المملكة وترتيبها ، كما كان يحرص الأتابكة فى الإحتفاظ بمظاهر التبعية لآل سلجوق ما دام هؤلاء على شىء من القوة والعظمة ، فإذا ضعف السلاجقة أو الأتابكة أخذوا البلاد لأنفسهم وحصلوا على إقرار الخليفة كما حصل من قبلهم آل سجلوق على الملك والسلطنة .

وفى ذلك يقول صاحب صبح الأعشى[٢] « واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية خالفتها فى كثير من ترتيب المملكة وغيرّت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية عماد الدين زنكى ثم ولده الملك العادل نور الدين محمود بالشام » .

وألمس أن الأتابكة لم يبتدعوا بل ساروا على سنن السلاجقة فى كل ما استحدثوه من أنظمة ثم كانوا حريصين على أن يحتفظوا بمظاهر السلطنة السلجوقية فى الأعلام والرايات وأنظمة الجند والأقطاع وغير ذلك . بل كان اتخاذ الأعلام السلجوقية مما يقوّى مركزهم ويجعلهم مساوين لأصحاب هذا العلم ثم جاء صلاح الدين فنحى نحوهم واتخذ شعائر السلطنة على أعلامه ابتداء من فتح حلب كما سيأتى .

الأعلام :

حدد صاحب صبح الأعشى هذه الأعلام بقوله[٣] « هى عدة رايات منها

---

(١) كان قيام السلطتين فى بغداد وما حولها مما أدى إلى إسراع الخراب إلى كثير من أراضى العراق الخصبة .

(٢) جزء ٤ عند كلامه على ترتيب المملكة .

(٣) صفحة ٨ جزء ٤ .

راية عظيمة من حرير أصفر مطرزة بالذهب عليها ألقاب السلطان واسمه وتسمى العصابة وراية عظيمة فى رأسها خصلة الشعر تسمى الجاليش ورايات صفر صغار وتسمى الصناجق » .

والدخول فى شرح هذا التقسيم واستعمال كل نوع واصله مطلب صعب المرتقى ، ولكنى أكتفى بالإشارة إلى أن استعمال هذه الأعلام كان من عمل الدولة الكبرى أولا أى من شعائر الدولة السلجوقية قبل أن يستعملها ملوك مصر من الترك أو الأيوبيين أو آل زنكى الذين كانوا فى ذلك مقلدين لا مبتدعين .

قال السلطان عماد الدين صاحب حماة تاريخه : « وأول من حمل السنجق على رأسه من الملوك فى ركوبه غازى ابن زنكى وهو أخو السلطان نور الدين محمود بن زكى صاحب الشام » . ونقل هذا صاحب صبحى الأعشى[1] فقال : « إن غازى أحدث حمل السنجق على رأسه فتبعه الملوك فى ذلك وألزم الجنود أن يشدوا السيوف إلى أوساطهم ويجعلوا الدبابيس تحت ركبهم عند الركوب » .

ويفهم عن عبارته أنه اخترع هذا الشعار الذى أخذ به بعده أبناء عمه فى الشام ، ولكن صاحب النجوم الزاهرة يقول : « الملك غازى ابن زنكى بن آق سنقر التركى أخو السلطان نور الدين محمود الشهيد الأتابكى هو أول من حمل السنجق على رأسه من الأتابكية ولم يحمله أحد قبله لأجل ملوك السلجوقية » .

ويقول صاحب عقد الجمان « وهو أول من حمل رأسه السنجق من أصحاب الأطراف فإنه لم يكن فيهم من يفعله لأجل السلاطين السلجوقية » .

إذن كانت الأتابكية أقل من السلطنة[2] وكان أصحابها من ملوك الأطراف وكانوا يتحاشون الأخذ بمظاهر السلطنة ، التى هى من حقوق ملوك آل سلجوق

(١) من الجائز أن يكون السلجوقية أخذوا الكثير عمن تقدمهم من ملوك الترك .

(٢) قال ابن العديم : كان أتابك جباراً عظيما ذا هيبة وكان الشاووش (الجاويش) يصبح خارج باب العراق وهو خارج من القلعة : قارن هذا بنظام النوبة والنفخ فى البوقات وترتيب وضرب الدبادب والكوسات .

الذين لهم وحدهم هذا بانتمائهم إلى البيت المالك الذى يمثله سلطان السلاطين كما يفهم أن ملوك الأطراف كانوا يحاولون أن يتشبهوا بمن هم أعلى منهم ، وأن هؤلاء كانوا يمنعونهم من ذلك حتى لا يرقوا إلى مرتبة تقرب من مرتبة من يتولى الرياسة والصدارة بين السلاطين لأن استعمال شعار السلطنة معناه التساوى فى المرتبة والقوة [1].

ويظهر من كلام فضل الله فى عهد دولة المماليك والأتراك : « أن من عادة السلطان إذا ركب يوم العيدين ويوم دخول المدينة يركب وعلى رأسه العصائب السلطانية وهى صفر مطرزة بألقابه وترفع المظلة على رأسه وهى قبة مغشاة بأطلس أصفر مزركش عليها طائرة من فضة مذهبة يحملها بعض أمراء المئين وهو راكب فرسه إلى جانبه وأمامه الطبردارية مشاة وبأيديهم الأطبار » .

ويعلق صاحب المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ناقل هذه الفقرة بقوله : « العصائب المذكورة حرام وقد بطلت الآن والحمد لله » مما يدل على كراهية الناس لهذا النوع من مظاهر الأبهة المأخوذه من ترتيب ممالك آل سلجوق وبنى بويه وغيرهم .

---

(١) قارن لفظ أتابك مع أتاتورك وأتامان والأخير يطلق على زعماء القوازق ودخل هذا اللفظ فى اللغات الروسية والبولونية والألمانية . سبب تسمية زنكى بالأتابك : إنه لما تقلد الموصل سلم إليه السلطان محمود السلجوقى ولديه الب أرسلان وفروخ شاة المعروف بالخفاجى ليربيهما . فلهذا قيل له أتابك لأن الأتابك هو الذى يربى أولاد الملوك ، أتا التركيه هو الأب وبك هو الأمير فاتابك مركب من هذين المعنيين .

وكانت القاعدة لدى هذه الشعوب أن يفرق فى سن البلوغ بين الأولاد وآبائهم حتى ينشأوا على تربية بعيدة عن تأثير الوالد والوالدة ولذلك أصبح فى بلاط كل أمير وملك عدد من أولاد الملوك والأمراء يربى فى كنفه كما كان هناك نظام يقضى بتسليم أولاد السلاطين ليربوا فى كنف من يوثق فيه من كبار رجال المملكة .

لاحظ تطور الأتابكية فى مصر إلى أن أصبح اللقب يطلق على من يتولى الوصاية على السلطان القاصر ، ثم انتهى إلى أن أطلق على قائد الجيش فقيل للامير أزبك أتابك العساكر المصرية : وهو لقب عظيم يشعر بالرابطة بين القائد وجنده .

ولكن اللون الأصفر بقى حتى نهاية استقلال مصر بل وأدخل على المظلة وهى من بقايا ترتيب الفاطميين مع أنها من صميم المراسم المصرية وليست من تقاليد ملوك الشرق الأتراك وغيرهم .

اللون الأصفر واللون الأسود :

الذى أمكننى استخلاصه هو أن اللون الأصفر أصبح شعار السلطنة والأسود استمر للخلافة بل أن العصائب أصبحت فى بعض الأحيان من تقاليد الخلافة فى مصر : وهذا من أغرب ما أدخل من شعائر الملوك المتغلبين على نظام الخلافة المفروض أن يستمر عريقاً فى تمسكه بمراسم الأبهة العباسية ولا يأخذ بمظاهر أجنبية عن العروبة والإسلام . فمن ناحية اللونين والعلمين أشير إلى ما جاء فى السلوك .

« إن رسل[1] ملك القبجاق وصلت إلى مصر ومعهم كتاب بالخط المغلى يتضمن أنه أسلم ويريد أن ينعت نعتاً من نعوت الإسلام ويجهز له علم خليفتى وعلم سلطانى يقاتل بهما أعداء الدين » .

وجاء فى تاريخ أبى الفداء[2] من حوادث ربيع الأخر سنة ٧٣٢ هجرية حينما جاء ابن أبى الفداء بعد وفاة والده إلى القاهرة فى ربيع آخر سنة ٧٣٢ هجرية .

« ركب بشعار السلطنة الملك الأفضل الحموى بالقاهرة ، وبين يديه الغاشية ، ونشرت العصائب السلطانية والخليفية على رأسه وبين يديه الحجاب وجماعة من الأمراء وفرسه بالرقبة وأمامه الشبابه وصعد إلى القلعة » وفى هذا تصديق لما بدأ به هذا البحث من قيام شعارين .

فلا محل إذن للتساؤل عن اللون الأسود العباسى وعدم اختياره للاعلام فى مصر بعد زوال الدولة الفاطمية إذ أن ولاية الأيوبيين كانت مرتكزة على آل زنكى

---

(١) هو منجو بن طوغان بن باطو دوش بن جنجيز خان السلوك صفحة ٧١٦ .

(٢) تاريخ أبى الفداء صفحة ١٠٥ جزء ٤ .

وهؤلاء يتبعون آل سلجوق ويتقلدون بهم ولذلك لما دخل صلاح الدين حلب وتيقن من ثبوت ملكه « نشر سنجق السلطان الأصفر على سور القلعة وضربت له البشائر »[١].

فهو قد شعر فى هذه اللحظة بقوته ، ونحا نحو السلاطين من آل سلجوق ، وطمع فى أن يعامل مثلهم ، فاتخذ شعارهم وجعل علمه أصفر اللون ، وهو علم السلاطين الذين يسيطرون على الأرض[٢] ، وطمع أن يصل إليه التقليد من خليفة بغداد[٣] بإقامته سيداً على الأراضى والممالك التى دانت له .

تراث الدولة السلجوقية :

إننى لا أزعم أن آل سلجوق ابتدعوا كل شىء ، بل أقول إن طبيعة الأشياء تحتم أنهم أخذوا ممن تقدمهم أشياء ليس بوسعى تحديدها بواسطة ما لدى من مراجع ، وإنما عمل الباحثين سوى موالاة البحث عنها ، ولكنى أقول أن أثرهم كان كبيراً فى ترتيب نظام الممالك التى جاءت من بعدهم : وأقول أن نظام الأقطاع فى التاريخ الإسلامى لن يقدر له البحث العلمى الصحيح بدون أن نلم بأصل هذا النظام فى أواسط آسيا ونرجع إلى نشأته الأولى .

---

(١) أعلام النبلاء فى تاريخ حلب الشهباء ص ١٣٢ ج ١٠ نقلا عن الروضتين .

(٢) فى سنة ٦٥٥ أرسل آخر خلفاء بنى العباس المستعصم بالله : الحلقة والطوق والتقليد إلى الملك الناصر يوسف ابن الملك العزيز الأيوبى .

(٣) لاحظ العلاقة بين السلطان والأراضى التى يحكمها واللون الخاص بالسلطنة لما سيأتى فى هذا البحث وهى علاقة تفويض لا تملك :

« طلب العادل من السلطان صلاح الدين كتاباً بولاية حلب ككتاب البيع والشراء فامتنع صلاح الدين وقال إنما تكون إقطاعا : ولما اجتمعا قال : « أظننت أن البلاد تباع أو ما علمت أن البلاد لأهلها المرابطين بها ونحن خزنة المسلمين ... أو ما علمت أن السلطان ملكشاه السلجوقى لما أوقف طبرية على جامع خراسان لم يحكم به أحد من القضاة ولا الفقهاء » أعلام النبلاء صفحة ١٥٠ جزء ٢ .

وكذلك نظام الجيوش وتعبئتها ومراتبها تأثرت إلى حد كبير بما أدخله السلجوقيون ، ولن تقدّر قوة دولتى المماليك العسكرية حق قدرها بدون أن نلم بما كانت عليه أنظمة جيوش السلاجقة .

ولم يكن أثرهم قاصراً على مصر والشام بل شمل الجزء الشرقى من العالم الإسلامى وأخذ به ملوك خوارزم من بعدهم[1] « ولما ملك صلاح الدين الديار المصرية جرى على منهجهم أو ما قاربه وجاءت الدولة التركية وقد تنقحت المملكة وترتبت فأخذت فى الزيادة وفى تحسين الترتيب وتعضيد الملك وقيام أبهته ، ونقلت عن كل مملكة أحسن ما فيها ، فسلكت سبيله ونسجت على منواله حتى تهذبت وترتبت أحسن ترتيب وفاقت سائر الممالك وفخر ملكها على سائر الملوك »[2] .

وفى ذلك قول الأستاذ فييت : « إن سلاطين المماليك كانوا الوحيدين الذين نجحوا فى تاريخ مصر فى تأسيس امبراطورية ضخمة »[3] .

أما تفسير اختيار الراية الصفراء الذى أشار إليه بيبرس فى كتابه إلى بومند صاحب طرابلس الشام بقوله « إن رايتنا الصفراء قد علت على رايتكم الحمراء وسادت الأرض » فأرده إلى أواسط آسيا حيث منبت السلاجقة ، فقد وجدت فى كتاب « تاريخ مدنية الأتراك[4] » تأليف « ضياء كوك ألب » إن الأتراك اتخذوا لعناصر الحياة : الماء والتراب والنار ألواناً : فالسواد للماء والبياض للنار واللون الأصفر للأرض وقال « طو براغك رنكى صاريدر » .

---

(١) تاريخ أبى الفداء س ١٣٨ جزء ٤ .
ضرب خوارزم شاه لأولاده النوب الخمس فى أوقات الصلاة على عادة الملوك السلجوقية .

(٢) دولة الأتراك بمصر . ترتيب المملكة صبح الأعشى ج ٤ س ٥ .

(٣) كتاب مساجد القاهرة س ٤٧ .

(٤) طبعة استانبول س ١١١ ج ١ .

فهل اتخذت الراية الصفراء من القدم شعاراً لسلطان الأرض ؟

إنه ليصعب على أن أقرر شيئاً من ذلك . حتى بعد المعلومات المتفرقة التى وضعتها أمام القارىء ، لأن ما نعلمه عن آل سلجوق و بنى بويه وآل سبكتكين وغيرهم من المتغلبين لا يزال فى حاجة إلى الجمع والتبويب والتنظيم .

وإن كنت أقرر أن بحث نظام الإقطاع فى تلك الأزمان سيفتح لنا حتما الطريق الذى يوصلنا إلى نواح لا تزال مجهولة ، أرجو أن يتولاها المهتمون بالتاريخ الإسلامى بعنايتهم .

ولا أزال على رأيى من أن كتابة التاريخ تستلزم الإلمام بأنظمة الجيوش وترتيب المملكة وأن المسلمين أخذوا بأنظمة واستحدثوا لأنفسهم أنظمة وكانوا قوة دافعة .

وقد تركوا للاوروبيين الكثير من أنظمتهم ومستحدثاتهم فى فن الحرب وسوق الجيش وتنظيم الوحدات . . وهذه أمور يجهلها الكثيرون ممن يتعرضون للتاريخ الإسلامى .

جيوش المغول وقوانينهم

الأستاذ الدكتور محمد صلاح من أساطين أساتذة القانون فى مصر كتب مقالا عن قوانين المغول فى مصر نشرته جريدة الأهرام فى عددها الصادر فى ١٩٥٠/٧/٢٧ وقد تضمن آراءاً ناضجة رأيت أن أعلق عليها بما يأتى مع تقديرى لعلم الأستاذ ومكانته .

جاء فى هذا المقال « اشترى الملك الصالح نجم الدين أيوب جماعة من هؤلاء المغول سماهم البحرية ومنهم من ملك ديار مصر وأولهم المعز أيبك » ولا صلة بين المغول والبحرية إذ المعروف أن المعز ايبك تركمانى والمظفر قطز خوارزمى وكانا من أشد أعداء المغول جنساً ، أما البحرية فأصلهم من أتراك روسيا التى كان يسكن الجزء الجنوبى منها قبائل القفجق وسلالتهم القوزاق وسكان روسيا وجزء من رومانيا وإليهم ينتسب الظاهر بيبرس وقلاوون وخلاصة أمراء الدولة التركية بمصر[1] وقد سببت غارة أبناء جينجيز خان على جنوبى أوروبا تشتيت وهجرة هذه العناصر التركية وكان مجئ هؤلاء لمصر عن طريق البحر من موانى « بحر أزوف » (بحر الأزرق) فسمو بالبحرية لذلك ولو أن المقريزى يقول أن التسمية نسبة لجزيرة الروضة حين كانت قلاع الملك الصالح .

ويحاول بعض الكتاب المعاصرين الزج بالمغول فى حياة مصر الإسلامية رغبة فى الإقلال من شأنها وللحط من كرامتها . والحقيقة أن العناصر التركية خدمت مصر والإسلام أجل الخدم واعترف المؤرخون المعاصرون بذلك وكان ابتداء اتصال الأتراك بمصر من أيام المأمون والمعتصم والمتوكل ثم استقل بها

---

(١) راجع صبح الأعشى جزء ٤ صفحة ٤٥٦ القبجاق جنس من الترك أهل حل وترحال ومنهم معظم جيش الديار المصرية . راجع ابن بطوطة حينما ذكر المسجد الذى أنشأه الناصر محمد فى شبه جزيرة القرم ص ٢٤٥ طبعة ١٣٢٢ جزء أول .

آل طولون ثم آل الأخشيد وهما دولتان قامتا على شجاعة وكفاية رجلين عظيمين وكلاهما من أواسط آسيا التركية.

ولما دخل المعز لدين الله الفاطمى مصر تأثر بما سمعه فى المشرق عن شهرة الأتراك فى الحروب وله كلمة مع قائده جوهر (راجع الخطط صفحة ١٠٨ جزء ٢) ولما ظهر العزيز بالله على هفتكين التركى اصطنعه سنة ٣٨٠ وضم بعد ذلك منجوتكين ونشأت فرق من الأتراك فى الجيش الفاطمى.

أما المغول فجنس آخر والذين خدموا مصر منهم فمعروفون فى التاريخ من سلاطين وأمراء وقواد وأهمهم السلطان كتبغا الذى حارب فى معركة شقحب مع الناصر محمد ضد بنى قومه وجىء به للحرب محمولا على محفة وكل من أسلم من المغول حسن إسلامه وهم الذين نشروا الإسلام فى ربوع الروسيا « جاء فى السلوك صفحة ٧١٦ » وصلت (لمصر) رسل تدان منجو بن طوغان بن باطو بن دوشى بن جنجيز خان ملك القيجاق بكتاب بالخط المغولى يتضمن أنه أسلم ويريد أن ينعت نعتاً من نعوت الإسلام[1].

وجاء ذكر قوانين المغول وأهمها السياسة فى كتب المؤرخين المسلمين كما يأتى: المعروف عن جنجيز خان أنه صاحب « التوراً » و « اليسق » ويقول صاحب النجوم وهو تركى « إن التورا باللغة التركية المذهب واليسق هو الترتيب: والأصل الزاهرة فى الياسة أو السياسة إن سى بالعجمى ثلاثة ويسا بالتركى الترتيب وعلى هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا وانتشر ذلك فى سائر الممالك حتى ممالك مصر والشام وصاروا يقولون سى يسا فثقلت عليهم فقالوا سياسة على تحاريف أولاد العرب فى اللغات الأعجمية».

(١) راجع رحلة ابن بطوطة حيث يتبين منها انتشار الإسلام فى تلك النواحى عند بداية المائة الثامنة البحرية: وإقامة المساجد والزوايا والأربطة وكثرة الفقهاء والعباد فى أنحاء روسيا الحالية فى الجزء الجنوبى منها.

والغريب أن هذه الكلمة شائعة بالريف فى مصر فقد سمعت من يقول « احكم بالعدل يا فلان أنت شرع وسياسة » أى أنه يحل معضلات الأمور بالشريعة الإسلامية والسياسة وهو لا يعلم منشأ الكلمة فى الأصل .

إننى لا أشك لحظة فى أن العاهل المغولى هو صاحب التورا واليسق وهما قانون المغول .

ولكن هل هذه القواعد استعملها الترك قديماً فى بواديهم وأن الذى جمعها جنجيز خان وألزمهم بصفته الخان الأعظم بأتباعها .

يحتاج الأمران إلى دراسة وتدقيق قبل إصدار حكم قاطع .

أما كلمة « سى ياسة » فيخيل لى أنها استعملت قبل مجئ المغول المشرق سنة ٦١٨ هجرية .

ولقد كنت معنيا ببحث هذه النقطة بالذات وذلك عقب اطلاعى على نص غامض فى كتاب الروضتين جزء أول صفحة ١٧٨ عن حوادث ٥٦٦ هجرية وظهور جنجيزخان كان حوالى ٦١٨ بآسيا الإسلامية فيكون بينهما نصف قرن وأ كثر وهذا النص :

« لما بلغ نور الدين وفاة أخيه قطب الدين وملك ولده سيف الدين بعده واستبداد ابن أخيه عبد المسيح بالأمور وكان يبغضه لما يبلغه من خشونته والمبالغة فى إقامة السياسة » ...

وأنى أعتقد بأن النص إن صح كما ورد يحتمل أن السياسة بين جيوش السلاجقة كان معمولا بها قبل مجئ المغول غير أن المبالغة والافراط فى تنفيذ أحكامها كان مكروها لدى نور الدين الذى غلبت على طبعه التعاليم الاسلامية فأصبح ليناً رقيقاً .

وإن الأتابكة وهم من أتباع السلاجقة لابد أنهم نقلوا عوائد الترك وأنظمتهم من أواسط آسيا . وهذه العوائد خاصة بأنظمة الجيوش والإقطاعات ولا تمس الدين ولا المعاملات بشئ وقد جاء فى صبح الأعشى جزء ٤ ص ٥ « واعلم أن الدولة الأيوبية لما طرأت على الدولة الفاطمية وخلفتها فى الديار المصرية خالفتها فى كثير

من ترتيب المملكة وغيرت غالب معالمها وجرت على ما كانت عليه الدولة الأتابكية » .

ويظهر مما كتبه ياقوت عن بلاد الترك أنهم كانوا أهل مدنية وأنظمة فهو يصف العمران فى خوارزم وفرغانة واشروسنة وما يطلق عليه الآن تركستان الصينية والتركستان الروسية وهو يقرر ويكتب ما رآه بنفسه ويقول إن خراب هذا العمران جاء بعد أن تملك خوارزم شاه البلاد وقضى بإجلاء السكان سنة ٦٠٠ وإن إخلاء البلاد سهل على المغول القضاء على خوارزم شاه فى سنة ٦١٧ فتخرب الباقى ، فليس بمستبعد أن تكون لهم قواعد لضبط النظام بين الجيوش المتفرقة وأخذ الجنود بالشدة ولكن ياقوت الحموى يقول .

« وهم أعظم الناس طاعة لكبرائهم وألطفهم خدمة لعظمائهم » .

ويقول صاحب النجوم الزاهرة ص ٢٨٨ جزء ٦ .

« ولما تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارى أحب أن يسلك فى ملكه بالديار المصرية طريقة جنجيز خان هذا وأموره ففعل ما أمكنه — كما استمر أولاد جنجيز خان فى ممالكه التى قسمها عليهم فى حياته على طريقته فى « التورا » و « اليسق » إلى يومنا هذا » وعليه بأن جاء دخول النظم المغولية لمصر على يد أقوى خصوم المغول وأشد الملوك عداء لهم .

وقد أطلعت فى السنوات الأخيرة على بعض الأبحاث التى نشرت بالمجلات والتى يحاول أصحابها لأسباب غير معروفة ولا مفهومة الحط من قيمة الخدمات التى أدتها مصر الإسلامية للعالم وخصوصاً الإقلال من شأن دولتى المماليك فى مصر والشام وانتقاص قدر السلاطين العظام والطعن فى شخصيتهم من ذلك قولهم عن دولتى المماليك أن السلاطين أوقفوا العمل بالشريعة الإسلامية بإيجاد نظام

حجوبية الحجاب فتعدى الحاجب حدوده وأخذ يحكم فى المواريث متخطياً ولاية القاضى الشرعى . وهذا غير صحيح إذ أن سلاطين مصر ضربوا مثلا رائعاً فى احترام رجال القضاء الإسلامى ونزلوا على أحكامهم حتى فيما يخص صميم عمل الدولة وهى صفحة رائعة . أما نظام الجند وترتيب أمور الإقطاع وتدريب المستجدين من المماليك وجنود الحلقة فتحتاج لكثير من الشدة والعدالة وتوقيع العقوبات الرادعة وهذا ما أخذ به هؤلاء الملوك والقادة نقلا عن دولة آل سلجوق ثم عن قوانين المغول ووجدنا بيبرس يأخذ بنظام جنكيز خان ويطبق الشدة والعدالة لينتصر بنظام جنكيز خان ضد أولاده وأحفاده من المغول . وهكذا سارت الأمور إلى نهاية الدولة المصرية .

والغريب أن النزاع بين الحجوبية والقضاء الشرعى لم يسمع به فى الوقت الذى كانت أنظمة مظاهر بيبرس معمولا بها بل ظهر حين تراخت الأحكام وتعذر تنفيذ العدالة وحصل التساهل فى أخذ الجند والمماليك بالشدة اللازمة لهم وهو نزاع لا يفهم من قيامه أن الحجوبية أتت للقضاء على شرائع الإسلام بحال من الأحوال .

ويفهم من مقال الدكتور محمد صالح أن نظام الحجوبية أنشىء لجماعات المغول التى أتت لمصر واختلطت بأهلها مع أن الحجوبية نظام قائم للجند المصرى أساسه فض المشاكل الناشئة عن توزيع الإقطاع لأن الإقطاع ليس ملكا للأمير يتصرف به تصرف المالك فلا يورث عنه وإنما هو منحة ليقوم الأمير بالجهاد فى سبيل الله فعليه أن يستعد بجنده وسلاحه ومماليكه لهذا الواجب فإذا مات صاحب الإقطاع التزم السلطان أن يقوم بالمحافظة على حقوق الجند والمماليك الذين قام فى الأصل الإقطاع على أسلحتهم ودمائهم وعليه فبقدر ما تطبق العدالة فى تصريف هذه الشئون بقدر ما تكون جيوش المسلمين على أهبة للجهاد . وبقدر ما يسود

الظلم وتعم الفوضى بقدر ما يفقد الجيش روح المقاتلة والكفاح . فالشدة توجد النظام ، والعدالة توجد القوة المقاتلة التى تبذل الدماء .

فلم يحدث فى تلك الأيام وبعد إدخال هذه الأنظمة أن هُزمت مصر أمام الصليبيين أو ولى جنودها الأدبار فى معركة قائمة أمام المغول أو غيرهم وإنما كان تاريخ مصر حلقة مستمرة من الانتصارات المجيدة ، ولذلك دهشت من مقال الأستاذ الذى يضع عهداً إسلامياً عظيماً ويحشره بين عهود الرومان والبطالمة والأغارقة ثم يقحم بالعرب وسط هذه الشعوب الظالمة وأننا نؤمن بأن العروبة ومصر صنوان لا يفترقان فالعناصر التركية والمغولية ذابت فى بوتقة المصريه لأن مصر إسلامية عربية كما ذابت العناصر العربية فى بوتقة الأتراك لأن تركيا إسلامية فلا محل إذن لوضع العرب وأمراء الاسلام وملوكه مع غيرهم فى الأمم المستعمرة والغاصبة . . .

تحقيقات في المقال :

جاء فى المقال اسم بيرا وصحته « البيرة » بكسر الباء وسكون الياء وهى قلعة فى البر الشرقى من الفرات وموقعها فى تركيا اسمها الآن « بيرة جك » وجاء فى التعريف « ولها منعة وعسكر » وكانت داخل أقاليم حلب فى الدولة المصرية ولها حاكم وجند من مصر أما الحدود المصرية فكانت شمال ملاطية عند قلعة درندة وقد جاء فى صبح الأعشى أن نيابة البيرة تقدمة ألف وتوليتها من الأبواب السلطانية بمرسوم شريف .

تركت هذه الأنظمة الاقطاعية ألفاظاً معينة فى مصر منها كلمة عزبة ولا اختلاف على معناها وكلمة الوسية التى اختلف المفسرون على معناها وقد جاء فى السلوك « وفيها انتقل سعر الفول من ديار مصر من خمسة عشر دينار إلى ثلاثين ديناراً المائة أردب بحكم المشترى ولعلوفة الوسية العادلية خمسون ألف أردب سنة ٥٨٨ هـ . »

وجاء فى حاشية الدكتور زيادة « الوسية لفظ مشتق من اللفظة التركية اوسى ومعناها الدار وكل ما يتبع صاحبها من حاشية وحشم وحيوان » نقلا عن بلوشبه ص ١١٢ ويقول دوزى فى قاموسه « الوسية هى المرعى المشاع » والصحيح الوسية نسبة إلى الوس[1] القبيلة الكبيرة أو مجموعة الشعب وتطلق على الاقطاعات المشاعة أو أراضى الشيوع أى التى تبقى مشاعاً بين الأمراء والجند فلا تدخل فى إقطاع أحداً بل تبقى بيد السلطان لمساعدة من ينقص اقطاعه وقد استعملت إلى اليوم بالأرياف فى مصر للدلالة على الأرض التى تبقى بذمة المالك فلا يزرعها أحد من المزارعين » .

---

(1) Ulus.

خط سير الجيوش المصرية لتحرير لبنان
أيام سلاطين دولة المماليك

إن الطريق الموصل بين بعلبك ومدينة طرابلس يعد أعلى طريق معبد فى الشرق الأدنى ، ويخترق مناطق من أجمل المناطق فى جبال لبنان ويمر قريبا من شجر الأرز الذى عاصر القرون الطويلة . وكلما اتجهت لزيارة هذه الجهة الخالدة واجتزت بلدتى بشرى وأهدن تواردت الخواطر تترى على ، ومرت أمامى ذكريات حوادث التاريخ ، ففى سنة ٨٨٢ هجرية قام الأشرف قايتباى برحلته المشهورة إلى أقاصى الحدود المصرية فى الشمال حيث كانت القلاع المصرية الإسلامية فى داخل الأراضى التركية الحالية .

وكان وصوله إلى بعلبك فى يوم السبت ١٩ جمادى الآخرة وغادرها الأحد وقت الظهر متخذاً طريق طرابلس مخترقاً الجبال العالية فأمضى الليلة فى عقبة « ليمونة » على ارتفاع ١٩٦٠ مترا من سطح البحر . ويقول كاتب رحلة السلطان إن الطريق إليها كان وعراً وهى وسط الجبال تحيط بها أشجار الكمثرى .

ولما اجتاز العقبة اتخذ طريقه إلى الحدث (حدث الجبة) حيث صلى الصبح ومن هذه إلى كفر قاحل ويسميها صاحب الرحلة كفر قاهر . والطريق إليها يمر بحوالى ٣٦٠ لفته ، ثم انحدر السلطان إلى طرابلس فوصلها فى مساء الاثنين وأقام بها إلى الخميس ٢٤ جمادى الآخرة سنة ٨٨٢ .

وهذه الرحلة تعيد إلى مخيلتى الحملات التى وجهها جند مصر الإسلامية إلى هذه النواحى فأنا لا أذكر للقارىء ما كتبه البطريرك اسطفانوس الدويهى عن تاريخ سنة ١٢٨٣ نقلا عن بعض الكتب للصلاة عن فتح « جبة بشرى » وحصار

« أهدن » كما لا أعرض لما كتبه من تاريخ أمراء الغرب وما جاء فيه نقلا عن النويرى والصلاح الكتبى فى فتوح المصريين للكسروان لأن العبارات الوارادة فى كتابه صفحة ٢٩ هى بعينها التى أوردها ابن الفرات فى كتابه جزء ٨ صفحة ١٤٢ مما يدل على أنهم جميعاً ينقلون عن مصدر واحد حينما يتحدثون عن توجه الأمير بدر الدين « بيدار » قائد السلطنة بمصر ومعه العساكر المصرية وصحبته أمراء الجند يقصد جبال كسروان فى شهر شعبان سنة ٦٩١ (١٣٠٢) ميلادية .

وإنما اكتفى بالنوبات أى الحملات التى جاءت بعد ذلك وأولها الحملة التى قام بها جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام فى عهد الملك الناصر محمد . آقوش هذا ترجم له صاحب الدولى السكامنة فقال عنه « آقش الأفرم الجركسى كان من مماليك المنصور (قلاوون) ذكر عنه أنه التمس من أستاذه ولاية الشام فأجابه السلطان « ما هو فى أيامى » وذكر صاحب الدرر نقلا عن ابن فضل الله العمرى : إن الأفرم كان يتردد على فقير مغربى بالقرافة فى مصر فقال له الفقير : « ماذا تعطينى إذا صرت يوماً نائب السلطنة بالشام » ، فقال الأفرم « ومن أنا حتى تسند إلى نيابة الشام » قال الفقير : « لابد فى ذلك وإذا حصل هذا تصدق بألفى درهم عند السيدة نفيسة وبألف عند الإمام الشافعى » .

وذكر الأفرم أنه نسى كل هذا وفى يوم من الأيام وقد عاد هارباً من حروب غازان ملك التتار بعد نوبته الأولى وفتحه دمشق فوصل القاهرة ، وبينما هو يتجول بالقرافه تذكر قول المغربى فأحضر الدراهم وفرقها فى الموضعين . ويقول صاحب الدرر السكامنة « كان الأفرم فارساً بطلا عاقلا جواداً يحب الصيد وكان خليقاً الملك لما فيه من المهابة والحماية ، وكان خيراً عديم الشر والأذى يكره الظلم ولم يحفظ أنه سفك دم أحد ولا لوجه شرعى ، وكان يعاشر أهل العلم كابن الوكيل [1] وكان

(١) الشيخ الصدر بن الوكيل : — هو العلامة أبو عبد الله محمد ابن الشيخ الإمام مفتى المسلمين زين الدين عمر بن مكى بن عبد الصمد المعروف بابن الوكيل شيخ الشافعية فى زمانه =

لأهل دمشق فيه محبة مفرطة ومدحه جماعة من الشعراء » . أما هو فبلغ تلهفه على دمشق وأهلها مبلغاً جعله يقول « لولا القصر الأبيض (الأبلق) والميدان الأخضر ما خليت بيبرس وسلار ينفردان بملك مصر » . وهما مكانان بدمشق .

ولذا أقام إحدى عشر عاماً وأنشأ بها [١] جامعه المشهور سنة ٧٠٦ الذى تولى الخطابة فيه قاضى القضاء شمس الدين محمد بن عطاء العز الأوزاعى الحنفى .

ويعجبنى فى الأفرم هذا الود لمدنية دمشق وهذه المنزلة التى أوجدها لنفسه هناك حينما تولى نيابة السلطنة عن مصر فى ربوع الشام وما تم على أيديه من عظائم الأمور .

ذكر صاحب البداية والنهاية أنه عقب انكسار التتار وأخلائهم لدمشق حدث [٢] : فى الجمعة ١٧ رجب ٦٩٩ أن أعيدت الخطبة بدمشق لصاحب مصر . وفى يوم السبت ١٨ رجب ٦٩٩ نودى بأن تزين البلد لقدوم العساكر المصرية وفى يوم ١٩ رجب ٦٩٩ فتح باب الفرج مضافاً إلى باب النصر . وفى ١٠ شعبان دخل الجيش الشامى وعلى رأسه نائب دمشق الأمير جمال الدين آقوش الأفرم فى جيش دمشق إلى جبال الجرد وكسروان وخرج الشيخ تقى الدين بن تيمية ومعه خلق كثير من المتطوعة والحوارنه لقتال أهل تلك الناحية بسبب فساد نيتهم وعقائدهم » .

= ولد سنة ٦٦٥ وتوفى بالقاهرة ١٤ ذى الحجة ٧١٨ كان منزله بجوار جامع الحاكم ، درس بعدة مدارس بمصر والشام ، كان يتكلم فى الحديث والطب والفلسفة وعلم الكلام .

ص ٨٠ جزء ١٤ ابن كثير . النجوم الزاهرة ص ٢٣٣ جزء ٩ والمنهل الصافى وطبقات الشافعية «صاحب كتاب الأشباه والنظائر» ولد فى دمياط ودفن فى تربة الفخر ناظر الجيش بالقرعة ومن شعره :

أقصى مناى أن أمر على الحمى ... ويلوح نور رياضه فيفوح

حتى أرى سحب الحمى كيف البكا ... وأعلم الورقاء كيف تنوح

(١) راجع ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ص ١٩٣ . ابن كثير فى جزء ١٤ ص ٤٢ . هذا المسجد قائم الآن .

(٢) ابن كثير ص ١٢ جزء ١٤ .

« ولما وصلوا إلى بلادهم جاء رؤساؤهم إلى الشيخ فاستتابهم » .

« وفى يوم الأحد ١٣ ذى القعدة عاد الأفرم من طريق الجبال فتلقاه الناس بالشموع على طريق بعلبك فى وسط النهار . »

هذه هى النوبة الأولى فلننتقل إلى ما يليها :—

الحملة الثانية .

وكان خطر التتار جاثماً على الصدور رغم انتصار المصريين فى البر والبحر ورغم حروبهم ضد الأرمن فى سيس ورغم أنهم فتحوا جزيرة أرواد سنة ٧٠٢ وكان بقلعة دمشق علم الدين «أرجواش» وهو من أقدر قواد مصر فصعد بالقلعة فاقتدت به بقية القلاع الشامية ، ومع كل هذا اشتد الجزع وقنت الخطيب فى الصلوات وقرىء البخارى بالمساجد حينما ظهرت طلائع التتار وأخيراً جاءت المعركة ، أى وقعة شقحب المشهورة التى وقف فيها الناصر محمد مع خليفة الزمن ، وانتصر فيها جندمصر والشام ، وكان النساء والأطفال على أسطحة المنازل والمآذن يتتبعون مراحل المعركة وقد كشفوا رؤوسهم وارتفعت أصواتهم بالدعاء .

ومرت سنتان على تلك الحوادث فإذا بالأفرم يقوم من دمشق لقيادة حملة إلى الجبال بعد أن استراحت الجيوش الإسلامية واستعادت قوتها .

ذكر المقريزى فى السلوك هذه النوبة على الترتيب الآتى :

سنة ٧٠٤ توجه شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية فى ذى القعدة من دمشق ومعه الأمير بهاء الدين قراقوش المنصورى إلى أهل جبل كسروان بدعوهم إلى الطاعة فلم يجيبوا فجمعت العساكر لقتالهم .

سنة ٧٠٥ سار الأمير جمال الدين آق كوش الأفرم نائب الشام من دمشق فى عساكرها لقتال أهل كسران ونادى بالمدينة من تأخر من الرجال والأجناد شنق فاجتمع له نحو الخمسين ألف راجل ، وزحف بهم لمهاجمة أهل تلك الجبال وتازلهم وخرب ضياعهم وقطع كرومهم ومزقهم بعد ما قاتلهم أحد عشر يوماً ، قتل فيها الملك الأوحد شادى بن الملك الزاهد داوود وأربعة من الجند ، وملك

الجبل عنوة ووضع السيف وأسر ستمائة رجل وغنمت العساكر منهم مالا عظيما وعاد إلى دمشق فى أربع عشر صفر ٧٥ .

* * *

وفى المقريزى : أن السلطان أقطع فى جمادى الآخر جبال كسروان بعد فتحها للأمير علاء الدين ابن معبد البعلبكى وسيف الدين بكتمر عتيق بكتاش الفخرى[1] ، وحسام الدين لاجين ، وعز الدين خطاب العراقى، فركبوا بالشربوش وخرجوا إليها فزرعها لهم الجبلية ورفعت أيدى الرافضة عنها .

وسنعود بعد قليل إلى هذا الإقطاع بالذات لأهميته .

ويظهر جلياً أن أهل الجبال كانوا السبب المباشر لشن الغارة على أراضيهم فقد ذكر صالح بن يحيى : فى تاريخ بيروت ما يأتى عن النوبة الثانية نقلا عن النويرى :

« كان أهل كسروان قد كثروا وطغوا واشتدت شوكتهم وامتدوا فى أذى العسكر عند انهزامه من التتر سنة ٦٩٩ (١٣٠٠ ميلاديه) وتراخى الأمر عنهم وتمادى وحصل إغفال أمرهم فزاد طغيانهم وأظهروا الخروج عن الطاعة واعتزلوا بجبالهم المنيعة وجموعهم الكثيرة وأنه لا يمكن الوصول إليهم » .

وهكذا يتضح أن الفوضى عمّت جبال كسروان وأن الاعتداء حصل على الجيش عند تراجعه من حملة التتار الأولى قبل موقعة شقحب ، وفى ذلك يقول أبو الفداء وهو معاصر أنه على أثر حملة الأمير أقوش الأفرم ٧٠٥ طهرت تلك الجبال الشاهقة بين دمشق وطرابلس ، وأمنت الطرق بعد ذلك ، وهذا يفسر اجتياز هذه الطرق بالذات بواسطة السلطان قايتباى بعد قرنين تقريباً من الزمن حينما اشتدت الحوادث بين مصر من جهة ودولة حسن الأكبر « اوزون حسن »

---

(١) لما قتل الملك المنصور لاجين أجمعوا على سلطنته الفخرى فامتنع وأشار بعودة الملك الناصر محمد بن قلاوون ص ٢٤٤ النجوم الزاهرة .

ثم مع بنى عثمان من بعده وذلك للتأكد من أمن الطرق إذا قدر للجيوش المصرية أن تتراجع فلا تهاجم من الخلف .

ويستمر صالح بن يحيى يحدثنا فيقول :

فى ذى الحجة ٧٠٤ جهز إليهم (أى أهل كسروان) جمال الدين آقوش الأفرم نائب الشام زين الدين عدنان ثم توجه بعده تقى الدين (ابن تيميه) وقراقوش وتحدثنا معهم فى الرجوع إلى الطاعة فما أجابوا إلى ذلك فعند ذلك رسم بتجريد العساكر إليهم من كل جهة وكل مملكة من الممالك الشامية » .

وهذه العبارة نقلها البطريرك اسطفانوس الدويهى فى كتابه وأخذها منه المطران الدبس فى كتابه تاريخ سوريا مشيراً إلى أن الأفرم أمر الجبليين أن يصلحوا شؤونهم مع التنوخيين (أى أمراء الغرب فى لبنان حلفاء المصريين) وأن يدخلوا فى طاعتهم فلم يحصل اتفاق فافتى العلماء حينئذ بقتالهم لاستمرارهم على العصيان ولذلك جردت العساكر من جميع بلاد الشام ولم تزل الجموع تزداد من كل ناحية .

وفى كتاب صالح بن يحيى : أن أقوش الأفرم توجه من دمشق بسائر الجيوش فى يوم الاثنين ؟ المحرم سنة ٧٠٥ (وهو ما جاء فى ابن كثير ص ٣٥) وجمع جمعاً كثيراً من الرجال نحو ٥٠ ألفاً وتوجهوا إلى جبال الكسروانيين ، وتوجه سيف الدين أسندمر نائب طرابلس ، وشمس الدين سنقرجاه المنصورى نائب صفد ، وطلع اسندمر المذكور من جهة طرابلس ، وكان قد نسب إلى مباطنتهم فجرد العزم وأراد بجهاده فى هذا الأمر أن ينفى عنه هذه الشناعة التى وقعت به ، فطلع إلى جبل كسروان من أصعب مسالكه واجتمعت على العصاة العساكر واحتوت على جبالهم ووطئت أرضاً لم يكن أهلها يظنون أن أحداً يطأها ، وقطعت كرومهم وأخربت بيوتهم وقتل منهم خلق كثير وتفرقوا فى البلاد واستخدم اسندمر جماعة منهم فى طرابلس بجامكيته وخزائنه من الأموال الديوانية فأقاموا على ذلك سنين

وأقطع بعضهم (أخبازاً)[1] من حلقة طرابلس واختفى بعضهم فى البلاد واضمحل أمرهم وخمل ذكرهم » .

وينقل المطران يوسف الدبس رئيس أساقفة بيروت المارونى عن ابن الحريرى وابن سباط « أنه فى يوم الاثنين ثانى محرم سار آقوش الأفرم نائب دمشق بخمسين ألفاً بين فارس وراجل إلى جبل الجرد وكسروان التى حيال بيروت . فجمع الدروز رجال الجرد وكانوا عشرة أمراء بعشرة آلاف مقاتل والتقت الجموع عند عين صوفر وجرى بينهم قتال شديد وكانت الدائرة على الأمراء فهربوا بحريمهم وأموالهم وأولادهم ونحو ٣٠٠ نفس واحتموا فى غار غربى كسروان يعرف بمغارة نيبية فوق أنطلياس بالقرب من مغارة البلانة فدافعوا عن أنفسهم ولم يقدر الجيش أن ينال منهم ثم بذلوا لهم الأمان فلم يخرجوا فأمر نائب الشام أن يبنوا على الغار سداً من الحجر والسكاس وهالوا عليه تلا من التراب وجعلوا الأمير قطلو حارساً عليهم مدة أربعين يوماً حتى هلكوا داخل الغار .

وفى أسباب هذه النوبة يقول صاحب كتاب أخبار الأعيان فى تاريخ جبل لبنان أن أهل كسروان والجبال قتلوا أميرين من التنوخيين حين تعرضوا للعساكر الإسلامية فى واقعة جبيل .

وأن نائب الشام آقوش الأفرم أراد حقن الدماء وبعث الشريف زين الدين ابن عدنان للتوسط فى الصلح بين الأمراء التنوخيين وخصومهم فلم يقبل هؤلاء » .

هذه صفحة أولى لتلك الحملات وسنرى كيف أثرت فى تاريخ لبنان وعلاقات أمرائه مع مصر الإسلامية التى خاضت أشد الحروب هولا وكتبت أعظم ملاحم التاريخ .

ثلاثة من سلاطين مصر العظام يبدو عملهم خالداً أمام الزمن فى هذه البقعة من الأرض : الملك الظاهر بيبرس صاحب الفتوحات الكبرى ، ثم المنصور

---

(١) جاء فى ص ٣٣ تحقيق الأب لويس شيخو أخبار وصحتها على ما يذكر (أخبازا) .

قلاوون الذى حاصر مدينة طرابلس ستة وعشرين يوماً ، ثم فتحها بالسيف ، وأخيراً الأشرف خليل ابن قلاوون صاحب الفتح الأشرفى من الممالك الساحلية والجبلية وهو الذى بقى لمدة قرون والناس يُؤرّخون فى لبنان الحوادث على ذكره وتأتى هذه الحملات فى عهد الناصر محمد تكملة لتلك الفتوحات .

ولكن الباحث فى تاريخها يسير دائماً فى المراجع التى بين أيدينا وهو يتلمس الأسماء والمواقع وسط الصعاب التى يقيمها المعاصرون والمؤرخون والنساخ . فهناك طائفة من أسماء البلاد والمقاطعات تغيرت مواضعها مع الزمن أو تعدلت حدودها ، ومع اعتمادى على الخرائط التفصيلية التى وضعتها القيادة الفرنسية مدة عهد الانتداب ومع أنى زُرت أغلب المناطق لعدة مرات أرانى أحياناً وسط بحر واسع الأطراف فى المسائل التى تحتاج إلى تحقيق ، أرانى أخوض فأوفق فى بعض الشئ ولا أوفق فى البعض الآخر فأتركه ليتمكن غيرى من تحقيقه .

ويحصل الخطأ فى النقل من النسخ التى بين أيدينا ، أو فى عدم اعتناء المؤرخين عند كلامهم على الحوادث فيطلقون أسماء عامة مثل جبال الجرد والكسروان من غير تحديد .

فقد جاء ذكر بعض الحملات فى الجزء الشمالى الجبلى الواقع بين الممالك الساحلية والممالك البعلبكية : والمعروف أن كسروان هو الإقليم الجبلى الذى تقع فيه مدينة « بسكنتا » وهى التى كانت تسمى قديماً باسم « العاصية » لصعوبة مسالكها والمرور إليها من وادى الجاجم . ومع أنهما قسمان فى التقسيم القديم داخلة وخارجة فالداخلة حدها من نهر الكلب إلى نهر إبراهيم ، والخارجة حدها القديم من نهر الكلب إلى الحد الفاصل بينها و بين مقاطعة المتن : وتمتد الحدود من البحر إلى الجبال : ومع علمنا بهذا التحديد يطلق المؤرخون اسم كسروان تساهلا منهم على بقاع تقع فى الجزء الشمالى من هذه البقعة بالذات ويتكرر هذا فى معظم من كتب بعد حوادث الفتوحات التى تمت فى عصر الملوك الثلاثة .

ولكن المدقق يجد أن الحوادث التى كانت مدينتا « أهدن » « و بشرى » مسرحاً لها تقع فى مقاطعة كانت تسمى باسم « جبة بشرى » فى هذا العهد ، ثم أصبحت « جبة الحدث » فى عهد قايتباى : وفى هذه الناحية بالذات مقاطعة كانت تسمى الضنية وهى ترد فى كتب المؤرخين باسم جبال الظنيين: ولقد اعتمدت فى تحقيق هذا الاسم على مصدرين :

الأول : هو ما ورد فى وثيقة الهدنة التى عقدها الملك المنصور قلاوون صاحب مصر مع جماعة الاسبتار و بيت طرابلس (٦٨١ هـ ١٢٨٠م[١]) .

الثانى : ما جاء فى كتاب الشيخ طنوس بن يوسف الشدياق[٢]

جاء فى عقد الهدنة ذكر بلاد السلطان الملك المنصور : « ما هو مجاور لطرابلس ومحادد لها من المملكة البعلبكية جميعها وجبالها وقراها الرحلية[٣] والجبلية وجبال الضنيين » .

وجاء فى المرجع الثانى : « لما قدمت الفرنج من إنطاكية سنة ١٠٩٩ ، وفد إليهم إناس من المردة من جبل سير وصقع الضنية » . فجبال الضنيين هى إقليم أو صقع الضنية الذى أشرنا إليه والواقع فى الجزء الشمالى من إقليم جبة بشرى وهذا الإقليم ينحدر من أرز لبنان إلى سير ثم إلى طرابلس » .

ومن هذا نعلم أن ذكر « أهدن » و « بشرى » فى إحدى الحملات لا يجعل لكسروان شأناً و بينها وهذا البلاد مناطق : أو قطاعات كانت تسمى باسم بلاد واقعة على الساحل أو فى الجبال كما يتضح ذلك من وثيقة الهدنة نفسها .

فقد جاء فيها عند الكلام على بلاد الفرنجة أى الأبرنس صاحب طرابلس ما يأتى :

---

(١) ملحق ٦ للسلوك طبع الدكتور زيادة .

(٢) طبع المعلم بطرس البستانى .

(٣) قولة الرحلية لا يفهم وإنما أرجح الزحلية : أى قرى بلدة زحلة .

طرابلس ما هو داخل بها ومحسوب عليها . أنفة وبلادها . جبيل وبلادها . ثم صنم جبيل و بلادها (وأرجح أم جبيل) . البترون وبلادها . (وكلها على الساحل) وضع هذا النص عن قصد — ثم عرقا وعدتها ٥١ ناحية .

وما هو للفارس روجار دى لالاولاى من قبلى طرابلس .

أقول إننا إذن فى حاجة ماسة إلى جمع نصوص الوثائق المملوكية من عقود الهدنة ومواثيق الصلح الموزعة فى الكتب وتحقيق كلماتها حتى تراجع مراجعة صحيحة لكى نستفيد من محتوياتها : هذا علاوة على المراسيم الخاصة بولاية العهد أو الصادرة بتولية الأمراء أو بالإقطاعات : ومن بعض هذه الوثائق يتضح مدى اتساع الإمبراطورية الإسلامية لمصر فى أزهى عصورها بلا استثناء وقد جاء فى نهاية عقد هدنة المنصور قلاوون « وما سيفتحه الله على يده ويد ولده وعساكرهما وجنودهما من الممالك والحصون » .

وقد تمت الفتوحات جميعاً حتى ذكر ابن الفرات « ولم يتأخر بالبلاد الشامية غير فلاحيها وهم داخلون فى الذمة » .

وأرجح أن الجزء الجنوبى من لبنان حيث كان يسكن أمراء الغرب من آل بحتر التنوخيين لم يتعرض لهذه الحملات ما عدا الجزء الشمالى ، إذ المعروف أنهم كانوا حلفاء وأعوانا لملوك مصر[1] ابتداء من الدولة التركية للمعز إيبك ، إذ جاء فى كتاب صالح بن يحيى ذكر منشور المعز إيبك للأمير سعد الدين خضر ، وجاء فيه أن الأمير زين الدين بن على وفد على السلطان قطز واشترك محاربا فى معركة عين جالوت لما قهر المصريون التتار ، وجاء فيه ذكر عدة مراسيم أرسلها الظاهر بيبرس إلى الأمراء وقال عنهم « الأمراء المتنافرون على صيدا و بيروت » وكذلك ما صدر من ابنه الملك السعيد بركة خان ، ولم تكن صيداً و بيروت

(١) هكذا تتكلم الوثائق وإن كان التاريخ يعيد هذه العلائق إلى الأيوبيين وقد تكون من عهد الفاطميين .

بيد المصريين فى ذلك الوقت . ويبدو مؤرخو الحروب الصليبية فى حيرة من موقف بعض الأمراء التنوخيين .

فالأب لويس شيخو يستخلص من حادثة معينة أن بعض الأمراء كان حليفاً للصليبيين فيقول إن أحد خصوم الأمراء المسمى تقى الدين نجا بن أبى الجيش سعى بهم زوراً إلى ملك مصر الظاهر بيبرس مدعياً أنهم حالفوا الفرنج وخانوا الدولة .

وأعتقد أن هذه الحادثة بالذات تحتاج إلى عناية المشتغلين بالتاريخ المصرى لأن المكاتبات التى صدرت من جهة الأمراء لبلاط القاهرة و إجابة الملك الظاهر بإقرار أقطاعهم وتحديد بلادهم تكشف لنا عن ناحية فذة من عظمة الظاهر وسياسته .

ولا أعتقد بوجود سياسة للأمراء مرسومة للعمل على ناحيتين فى تلك الحقبة بالذات خصوصاً وقد بدأت طلائع الظفر والمجد والقوة تبرز بروزاً فى ناحية الجانب المصرى تحت عبقرية الظاهر ومن جاء بعده من الملوك العظام .

والظاهر أن العلاقات بين أمراء الغرب ومصر أقدم من ابتداء الدولة التركية بل كانت متأثرة دائماً بملك مصر بدليل أنه لما وقعت النفرة بين الملك الشهيد محمود نور الدين زنكى ملك الشام والملك صلاح الدين يوسف الأيوبى ملك مصر كان هؤلاء الأمراء يوالون صلاح الدين وكانوا يعضدونه على محاربة الأفرنج وكان ملك مصر يجعلهم أمام عساكره[١] .

وقد أبلى الأمراء كما رأينا فى حروب قطز وبيبرس ثم فى أيام قلاوون فى معركة حمص حين اشترك من جنودهم تحت قيادة الأمير قرقماز ما مقداره أربعة آلاف مقاتل هذا خلاف ما قاموا به فى صد هجمات التتار أيام الناصر محمد بن قلاوون ولعل هناك فترة غامضة فى تاريخ لبنان هى فترة الخمس سنوات التى أخلى فيها وادى التيم فلم تبق فيه غير حاصبيا مسكونة : ذلك حينما تقدم التتار فى زحفهم

(١) يهمنا العثور على وثائق أيوبية فى هذه الناحية .

أيام الملك الناصر محمد فاضطر الأمراء إلى التراجع أمامهم لهذا أرجح أن المشاكل التي جاءت بعد حملات الأشرف خليل تحت قيادة بيدار أي حملات الناصر محمد تحت قيادة جمال الدين أقوش الأفرم كانت نتيجة للتقلقل والفوضى التي سادت الجزء الجنوبي من لبنان في تلك الفترة من الزمن : أي بين ٦٩٨ و ٧٠٥ هـ .

ويقول المطران الدبس في الجزء السادس من كتابه « أما من هم الذين سماهم صالح بن يحيي الجرديين وسماهم الدويهي الجبليين فلاشك أنهم غير الكسروانيين ونرى أنهم سكان العمل المسمى إلى الآن الجرد ومن قراه رشميا وشارون و بتاتر و بحمدون و إنهم كانوا دروزا » .

ويؤكد خروجهم عن طاعة الأمراء التنوخيين وإنهم كانوا يسطون على بلادهم و إن نذير جمال الدين أقوش أمرهم أن يصلحوا شئونهم مع الأمراء ومع قلة المصادر أو صمت المراجع فالدلائل المنطقية تجزم بأن هؤلاء هم الذين انتهزوا فرصة إخلاء أراضي التيم من أهلها فاعتدوا على بعض أملاك الأمراء وهم الذين انسحبوا بعد ذلك إلى مقاطعة كسروان ويظهر أن الجرديين كانوا دروزا ، والكسروانيين كانوا موارنة فتخلفوا أمام زحف المصريين : وهرب الدروز بعد أن دارت عليهم الدائرة في معركة عين صوفر إلى غربي كسروان أي إلى نيبية وانطلياس التي كانت حينئذ من كسروان وكان نهر الجماني الفاصل للمقاطعة من الجنوب[1] .

ويعجبني صاحب البداية والنهاية[2] حينما يتكلم عن شيخ الإسلام ابن تيميه فهو يعرفنا بأن الشيخ خرج ومعه جماعة من أصحابه إلى جبل الجرد والكسروانيين فاستتابوا خلقاً منهم وألزموهم بشرائع الإسلام ورجع مؤيداً منصوراً ومنه نعرف أن وسيط أو نذير الأمير جمال الدين أقوش هو المسمى زين الدين بن عدنان كان

---

(١) نفس المصدر صفحة ٢٧٣ .

(٢) جزء ١٤ ص ٣٥ .

يشغل وظيفة نقيب الأشراف بدمشق وحدثت هذه الوساطة فى مستهل ذى الحجة سنة ٧٠٤ .

إذن سبقت الحملات بعثة سياسية دينية ، وفقت فى إقناع البعض ولم توفق فى إقناع البعض الآخر وهؤلاء الآخرون هم الذين أفتى العلماء بقتالهم. لأنه فى ثانى المحرم سنة ٧٠٥ خرج نائب السلطنة الأفرم جمال الدين أقوش وجنوده إلى بلاد الجرد والرفض والتيامنة (أى وادى التيم) السالف الذكر ويقول ابن كثير « فنصرهم الله عليهم وأبادوا خلقاً كثيراً » ثم أردف « وقد حصل بسبب شهود الشيخ هذه الغزوة خير كثير وأبان الشيخ علماً وشجاعة وقد امتلأت قلوب أعدائه حسداً له وغما » .

وفعلا بدأ أعداؤه حملة الافتراء والأكاذيب والدسائس عليه شأنه شأن كل الرجال النافعين القادرين على العمل بإخلاص وشجاعة فى هذا الشرق .

وأعود إلى ما سموه جبال الجرد : فهذه نهايتها آخر حد ولايات الغرب شمالا وفيها بلدة المديرج الواقعة على طريق الشام .

وفيها نهر الصفا وبها كانت واقعة عين صوفر المشهورة : ويحدثنا صاحب كتاب أخبار الأعيان عن حملة الجرديين (سنة ٧٠٢هجرية — ١٢٩٣ ميلادية) إنها بدأت بمنشور أرسله الملك محمد الناصر بن قلاوون إلى جمال الدين أقوش الأفرم نائب دمشق وإلى أسندمر نائب طرابلس وإلى سنقر المنصورى وإلى الأمراء التنوخية يأمرهم بحشد الجيوش لمحاربة كسروان وأهل الجبال جاء فيه « من نهب امرأة كانت له جارية أو صبياً كان له غلاماً ومن أتى منهم برأس مقتول كان له دينار لأن المذكورين كانوا نجدة الأفرنج » .

ويقول المطران الدبس نقلا عن الأسقف جبرائيل ابن القلاعى أن المعركة دارت عند جبيل وأن المقدمين الذين نزلوا من الجبال كانوا ثلاثين مقدماً منهم خالد مقدم مشمش ثم سنان وسليمان مقدماً إيليج ثم سعادة وسركيس مقدماً لحفد .

ثم عنتر مقدّم العاقورة ثم بنيامين مقدم جردين . ويقول إنهم رتبوا ألفين مقاتلا كمنوا على الفيدار وألفين على نهر المدفون . (راجع الخريطة)

ومن مراجعة وثيقة هدنة المنصور قلاوون يتبين لنا أن هذه البلاد واقعة خارج الجرد وكسروان بل هى داخل القطاع الواقع بين قطاع البترون وقطاع كسروان أو هى تكون ما أسميه قطاع جبيل الواقع بين موقع فيدار وبلدة البترون وتتوسطه مدينة جبيل ، ويرتفع إلى بلدة العاقورة فى الجبال وبلدة تنورين أمامها وكانت ضمن أملاك صاحب طرابلس ولما زال حكم الصليبيين أصبح فتح هذه البلاد هيناً على المصريين ويقول صاحب تاريخ الأعيان بدون أن يذكر المصدر الذى استقى منه « حينئذ اندفقت سكان الجبال على جيوش الإسلام اندفاق الماء المنهمر » « واقتحم مقدم مشمش على قائد جيش الإسلام واجتز رأسه » « ووقعت الكسرة على جيوش الإسلام وتمزقت منهم الكتايب والأعلام » .

ويصف ملاحقة الجبليين لأمراء الغرب (حلفاء المصريين) إلى عقر ديارهم وكيف قتل الأمير محمد وأخوه الأمير أحمد من أبناء محمد بن كرامة التنوخى وكيف أن المنتصرين زحفوا حتى أحرقوا بلاد عين صوفر وشمليخ وعين زوينة وبحطوش من قرى أمراء الغرب التنوخيين فى الجرد الشمالى .

تلك هى رواية المراجع المسيحية عن الحوادث التى تقدمت الحملة التى قادها الأمير جمال أقوش الأفرم سنة ٧٠٥ وانتهت إلى بما جاء فى هذه المراجع بالذات « ثم أحاطت العساكر بتلك الجبال المنيعة وترجلوا عن خيولهم وصعدوا فى تلك الجبال من كل الجهات فأخربوا القرى وقطعوا الكروم وهدموا الكنايس وقتلوا وأسروا جميع من فيها من الدرزية والنصرانية وزلت قلوب أهلها » . « ثم أمر جمال الدين أقوش أن تستقر التركمان فى ساحل كسروان » ونشأت بذلك أمارة آل عساف وسكن التركمان بلدة ذوق ميكايل وحفظوا الدروب والمسالك ، ونظم الأمير جمال الدين الأفرم طريقة الاتصال بالنيران بين الساحل

ودمشق : إذ كانت تقام شعلة نار فى رأس بيروت ومنها إلى جبل بوارش ومنها إلى بيرس ومنها لجبل بالصالحية ثم إلى قلعة دمشق حتى تصل الأخبار فى وقتها ، وترتب الحمام الزاجل بمحطاته وخيل البريد إلى دمشق من ثلاث طرق ، وهكذا انقطع اتصال الأفرنج بأهل كسروان انقطاعاً تاماً ودخل أهل الجبال فى طاعة ملوك مصر فلما قامت الفتنة بين الظاهر برقوق والأميرين الناصرى ومنطاش انضم لعسكر الشام العربان والتركمان وأهل كسروان والجرد من أهل لبنان ، ولما عاد برقوق للملك بعث بجند مصر إلى الساحل فأخضعت البلاد بأكملها وجاء فى أخبار الأعيان أن الظاهر برقوق توجه بنفسه إلى بلدة بشرى فأقام يعقوب بن أيوب مقدماً وكتب له صحيفة نحاسية ثم نزل إلى « دير قنو بين » حيث مدافن بطاركة الموارنة فأنعم على الدير العتيق بإعفائه من الأموال الأميرية بموجب صحيفة نحاسية .

وأعود فأقول بأن القطاع الشمالى من لبنان حيث يقع أرز لبنان كان خارجاً عن نطاق الهدنة (بين قلاوون وصاحب طرابلس) كما قلنا ولذلك جاء فى كتاب البطريرك اسطفانوس الدويهى إنه وجد فى أرض الحدث بقرب دير القديس يوحنا كتاباً للصلاة مدوناً فيه ما يأتى عن فتح أهدن و بشرى :

إنه فى سنة ١٢٨٣ أى بعد هدنة طرابلس التى تمت فى أيام المنصور قلاوون بعامين « إن العساكر الإسلامية سارت إلى فتح جبة بشرى وصعدت إلى وادى حيرونا وحاصرت قرية أهدن ، وتم فتحها بعد أربعين يوماً وأخربت القلعة والحصن الذى على رأس الجبل » ولم يكن بوسع الأفرنج فى طرابلس ولا جماعة الاسبتار تقديم المساعدة لأهل أهدن لارتباطهم بنصوص عقد الهدنة ولذلك أتم المصريون فتحها قبل سقوط القطاع — الكسروانى وقطاع جبيل فى أيديهم وقد رأيت كيف تمكن الظاهر برقوق بلباقته بعد قرن من الزمن أن يجتذب

قلوب هؤلاء السكان الأشاوس وأن ينقلهم من معسكر أعدائه إلى معسكر الحلفاء الأوفياء : فلله دره .

أما الأمير جمال الدين أقرش الأفرم نائب السلطنة فبقى بنيابة الشام حتى دخلت سنة ٧١١ لما نقله الملك الناصر محمد إلى نيابة طرابلس بإشارة الإمام بن تيمية فبقى بها حتى انضم إلى قراسنقر وذهبا سوياً إلى بلاد التتار بعد أن أديا لمصر أكبر الخدم .

الجنرال كاترو

في ٢٦ أكتوبر ١٩٤١

مهداة إلى بعض زملائي الذين لم يفهموا من الدنيا إلا أنها خلقت لتحقيق رغباتهم وشهواتهم ، ووسيلة لاقتناء المال واقتناص الدرجات ..

صفحة مطوية في خدمة القضية العربية :

إن الحوادث التي انتهت بدخول الحلفاء إلى أراضي سوريا ولبنان صفحة لا تزال مطوية ، وكان وجود الإنجليز والأمريكان مع الفرنسيين يشاركونهم في الأمور من الأسباب التي عجلت بإدخال تغييرات على أنظمة الحكم ، وإني لا أتعرض لها هنا ولا أذكر أعمال ممثلي بريطانيا وأمريكا في طريق تحرير البلدين وإنما أنتقل مع القارئ إلى إعلان الاستقلال السوري الأول .

إعلان استقلال سوريا :

ففي يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٤١ ، أعلن الجنرال كاترو استقلال سوريا ، وبعد مضي سنة على هذا اليوم احتفلت سوريا بعيد استقلالها تحت رئاسة المرحوم الشيخ تاج الحسني رئيس جمهوريتها بهذا العيد ، وقد دعيت إلى هذه الحفلات وسافرت مع ممثل أمريكا المستر انجرت الذي يشغل الآن وظيفة هامة في صندوق النقد الدولي ولقد أنصتنا إلى الخطاب الذي ألقاه رئيس الجمهورية ولفتت نظري العبارات التالية :

خطاب رئيس الجمهورية :

« لقد نلنا استقلالنا كاملا غير منقوص ، ناجزاً غير مؤجل ، ولسوف نمضى فى حمل لوائه ، والاضطلاع بأعبائه ، غير مفرطين بحق واحد من حقوقنا ، غير متخلين عن مظهر واحد من مظاهر سيادتنا » وكان يؤكد أننا وقفنا من ناحيتنا فى مصر و بقية البلاد العربية نشد أزره لذا أعقب على ذلك بقوله : « أما البلاد العربية فكان موقفها موقف الشقيق المغتبط بحرية شقيقه . وقد كانت الحكومة الملكية المصرية ، أول حكومة شرقية تقدمت باعترافها الرسمى باستقلال سوريا وتبعتها حكومة المملكة العربية السعودية فالمملكة اليمنية بكتب تنطق عن أفخم العواطف الأخوية ، وسورية التى تؤمن بأنها جزء من المجموعة العربيـــة لا يسعها إلا أن تشكر شقيقاتها العربيات على تضامنها معها فى هذا الموقف ونصرتها لها » .

خطاب الجنرال كاترو :

وقد رد عليه الجنرال بخطاب طويل أشاد فيه بفرنسا وكفاحها ودافع عن سياسته بقوله : « إن الوعد لم يتأخر والثقة لن تخيب بل إن الآمال قد تحولت إلى حقائق وها هى فرنسا قد حلت روابط الوصاية واعترفت لسوريا بالرشد فدخلت فعلا وسط الدول المستقلة ذات السيادة » .

بعد مضى سنة على اعلان الاستقلال :

وتفهم من بين السطور فى كل هذه الخطب أن مضى سنة على هذا الاستقلال لم يقنع الدول الحليفة ولا غيرها بأن الاستقلال جدى ولذلك تعمد رئيس الجمهورية الراحل وممثل فرنسا أن يعيدا التأكيدات بأن الاستقلال جدى وأن الثقة لن تخيب .

وتلمح من ثنايا الخطاب الأول أن الحكومة السورية قد اطمأنت لصدور الاعتراف المصرى الذى تعجلت اصداره الحكومة المصرية التى كانت قائمة فى ذلك العهد ولكن الحقيقة أن الجو استمر مكهرباً بين الحلفاء من يوم إعلان الاستقلال إلى يوم الاحتفال بمرور سنة على إعلانه .

لقد مضى ذلك العهد بأيامه وحوادثه ولكن صورة الرجلين الجنرال كاترو والشيخ تاج الدين الحسينى لا تزال منطبعة فى مخيلتى وإنى أصارح القارىء بأنى كنت أجد فى الشيخ — رحمه الله — صديقاً وفياً لأصدقائه وكنت أحبه من صميم قلبى ولم أتردد لحظة واحدة فى أن أصارحه برأيى الذى كونته عن الاستقلال الذى كان يدافع عنه إذا علمته رغم اعتراف الحكومة المصرية به أنه استقلال مزيف ، ولما توفاه الله حزنت لوفاته وسرت وراءه حتى مرقده الأخير . أما الجنرال كاترو فكان يمثل فى نظرى قوة بين رجال الجندية فى فرنسا لا لأنه قائد عسكرى ممتاز فحسب بل لجمعه بين السيف والقلم أو الشرع والسياسة ولتمكنه من صفات ممتازة : أهمها سرعة التنفيذ مع دهاء سياسى ووعى شامل ونظرة واسعة.

لقد سمعت عنه كثيراً قبل مجيئه إلى سوريا ، وكان أول مقابلة لى معه بحضور الجنرال ويلسون القائد البريطانى المعروف بمصر ، والذى قدمنى للجنرال الفرنسى فكان أول ما لفت انتباهى عند لقياه هى تلك النظرة الهادئة النافذة إلى الأعماق .

ومع أننى أمضيت سنوات على اتصال دائم به فقد كنت لآخر لحظة لا أدرى إذا كنت قد اكتسبت ثقته أو بعض هذه الثقة : إننى أسلم بأننا كنا نلتقى فى الرأى سوياً على أشياء ونختلف فى أخرى ، واعل أهم ما اكتشفه لدى عند أول مقابلة هو أننى لا أنظر جدياً إلى الوضع الذى سماه بالاستقلال السورى ، بالرغم من أن الحكومة الملكية المصرية التى أمثل مصالحها وأمثلها قد اعترفت

رسميا بهذا الاستقلال، وقد انتهى بأن عدنى فى نظره المسئول الأول فى أن رجال حكومتى لم يدعموا هذا الإعتراف بإيجاد تمثيل دبلوماسى لمصر فى دمشق .

والجنرال الفرنسى مثل غيره من الرجال الأوربيين الذين اتصلوا بطوائف مختلفة من رجالات العرب والأمم الشرقية وعرفوا نقاط الضعف فينا ، ولذلك أتقن أساليب التأثير على هؤلاء وعرف كيف يصل إلى قلوبهم وضمهم لصفه وإقناعهم بمماشاته فى وجهة نظره عندما يعرض عليهم شتى المسائل التى يناقشهم فيها .

لقد عرضت على القارىء صورة من يوم الاحتفال على مرور سنة على الاستقلال الأول فلنقلب هذه الصفحة ونعود إلى الوراء إلى ما يقرب من سنة أى إلى أول مقابلة مع الجنرال كاترو فى مكتبه ببيروت بعد عودته من دمشق عقب إعلانه استقلال سوريا وكنت قد عدت فى دمشق بعد إبلاغى لحكومتها اعتراف الحكومة المصرية بهذا الاستقلال وكان ذلك فى يوم الخميس ١٦ أكتوبر سنة ١٩٤١ وكان استقباله لى بترحاب زائد عن المعتاد ، وكان أول جملة نطق بها أن أعرب عن اغتباطه وسروره باعتراف مصر بهذا الاستقلال الذى جاء وكأنه على موعد مع هذه الأحداث ، فابتسمت وقلت : « أن لفرنسا من المنزلة الخاصة فى بلادنا ما يجعل لممثليها سواء من جهة فيشى [١] أو من جهة فرنسا المقاتلة ، ثقة فى القلوب ووزناً لكلامهم لدى السياسيين المصريين ولذلك لا تعجب إذا جاء الاعتراف وكأنه على موعد مع الأحداث » .

فنظر إلىّ وعلى فمه ابتسامة وخلع نظارتيه واعتدل فى جلسته ثم قال :

« إننى أدرس فى هذا الوقت تأسيس نظام جديد للحكم فى لبنان ، وسأعلن فى القريب إلغاء الانتداب حتى تتمكن الحكومة اللبنانية من أن تعلن للملأ

---

(١) كانت علاقة مصر مع فيشى ولم يكن هناك اعتراف برجال فرنسا الحرة .

استقلالها التام أسوة بما تم فى سوريا ، فهل تظن أن الحكومة المصرية ستبادر بالاعتراف بهذا الوضع الجديد أسوة بما تم فى دمشق » .

الحق أقول والله على ذلك شهيد ، أننى لم أكن على استعداد للاجابة على مثل هذا السؤال ، وليس باستطاعتى استعمال اللف والدوران على طريقة عباقرة السياسة فى الشرق ، ولم يكن لدى من الصفاقة مايدفعنى إلى التملص من الإجابة ، فتوقفت مدة ثم قلت « إننى أخلع صفتى الرسمية فلا أعبر عن رأى الحكومة المصرية لأننى لا أعرف بالضبط اتجاهاتها ولكننى لو كنت فى مكانها لتمهلت قليلا قبل الإقدام على السير فى هذه الخطوة . و إعلان هذا الاعتراف » .

قال « أنا أفهم تماماً وجهة نظرك ، ولكننى أصارحك بأننى أنوى بإخلاص تنفيذ هذا الاستقلال الذى يدور بخلدك فى البلدين ، أى على النمط الذى سارت عليه بريطانيا فى مصر والعراق ، وإننى سأعمل على تمكين الحكومتين السورية واللبنانية من توسيع سلطاتهما شيئاً فشيئاً لكى تتسلم كلتاهما بجدارة كافة أعبائهما وفى مقدمتها الشئون الخارجية وسترى أنه بمجرد أن تضع الحكومة السورية نظاماً لوزارة خارجيتها سنعيد الحق المعطى لسوريا بتعيين الممثلين السياسيين لها فى الخارج .

« ولا أخفى عليك أننى سوف أحتفظ فقط بإدارة الأمن العام فى البلدين ، نظراً لظروف الحروب القائمة ولارتباط الأمن العام بسلامة الجيوش المحاربة » .

قلت له « أن موقف بريطانيا مع مصر والعراق لا يعد مثلا أعلى بالنسبة لتحقيق آمال الشعبين العراقى والمصرى نحو الحرية ، بل أننا فى مصر ننتظر حتى نهاية الحرب للمطالبة بما يجيش فى صدورنا من أهداف وهو الوصول إلى الوضع الذى يتمتع به أى شعب أوربى أو أميركى ، ونحن فى مصر لا نواجه بريطانيا بالعداء وهى تقاتل بجميع مواردها فى حرب طاحنة بل نرجو مخلصين أن تخرج منتصرة منها ، لأن فى انتصارها مع حلفائها تقرير مصير العالم الديمقراطى ، الذى اعترف

بحقوق الفرد ونادى بحق الشعوب فى تقرير مصيرها واستقلالها ثم أننى لا أدافع عن سياسة معينة فى الشرق ، ولكن الذى سمعته مراراً من الممثلين السياسيين من المحايدين أن فرنسا سبق لها أن اعترفت باستقلال كل من سوريا ولبنان ثم نقضت ما التزمت به » .

وهنا نظر طويلا إلى بانتباه زائد وقال « ياصديقى أننى أسير فى تنفيذ سياستى على نقيض السياسة التى اتبعها الكونت دى مارتيل الذى نصح حكومته بإيقاف العمل بمعاهدة سنة ١٩٣٦ بعد أن دافع عنها و بدأ فى تطبيقها وسار شوطاً بعيداً فى تنفيذ موادها . أما أنا فقد بدأت بإلغاء الانتداب وارتبطت بإعلان الاستقلال وتقرير الحكم الوطنى ولم أفكر فى بعث المعاهدة وشروطها ولكننى سأسير فى طريق يؤدى حتما إلى تنفيذ المعاهدة خطوة خطوة ومرحلة بعد مرحلة حتى أصل إلى تحقيق الاستقلال ، واحترام بنود المعاهدة بأكملها . فانظر إلى الفرق بين السياستين » .

قلت : « إن كل الطرق كما يقولون تؤدى إلى روما ، فإذا كان قصدك الاستقلال ونيتك احترامه فإن له شرائط لم تأخذ بها » . قال : ما هى ؟ قلت : «وهل يوجه سؤال عنها وأنت تعرفها جيداً من ألسنة المتكلمين عن الشعبين ومن صحافته ورجال السياسة فإن طلبتها من ممثل دولة شقيقة للشعبين وصديق لكم فها هى : إعادة الدستور الذى أوقف وإجراء انتخابات حرة ، وتدعيم نظام ديموقراطى طبقاً للمبادئ التى يحارب من أجلها المعسكر الديموقراطى من أجل إنشاء العالم الحر وكسب الحرب » .

قال « وهل تشك فى أن سياسة فرنسا الحرة ترمى إلى هذه الغاية وأننا نستهدف إعادة الأوضاع الدستورية فى البلدين . ولكن على الطريقة التى التزمت بها من غير أن يحدث ضغط علينا فى ذلك أى بالأسلوب الذى تقرره فرنسا المقاتلة بالاتفاق مع السوريين واللبنانيين على انفراد بدون تدخل شخص ثالث » .

عندما وصلنا إلى هذه النقطة ورأيت الحماس باديا عليه لم أشأ أن أعلق على هذه الخاتمة ولمس هو صمتى فنقل الحديث بلباقة إلى ناحية أخرى لم تكن فى صالحى بتاتاً فقد أعرب بأسلوبه الخاص وكلماته المنتقاة بأفرنسيته العالية عن عظيم شكره وامتنانه لما لقيه من ترحيب السلطات المصرية له أثناء إقامته بمصر حتى أنه لم يشعر بأنه غريب هناك ، لأن روابط الصداقة التقليدية مع فرنسا والراسخة فى نفوس الساسة المصريين وأهل الرأى من جهة ورجالها من جهة أخرى تجعل العيش فى مصر محبباً إلى قلب كل من يؤمن بهذه الصلات التى دامت أكثر من قرن ونصف « وإن بلادكم عظيمة حقاً » .

ثم وجه سؤالا يقصدنى فيه بالذات إذ قال « متى تظن أن مصر ستقرر إيجاد علاقات دبلوماسية وتنشئ مفوضية لها بدمشق » .

قلت « أننى أرجح أن الحكومة ستكتفى فى الوقت الحاضر بقنصليتها العامة فى بيروت لتمثيل مصالحها فى البلدين ، وقد تعيد النظر فى قرارها إذا دعت التطورات الجديدة فى البلدين إلى شىء من ذلك » .

قال « وما رأيك إذا تقدمت سوريا بمثل هذه الرغبة وطلبت إنشاء مفوضية لها بمصر » . قلت « اننى مستعد انقل هذه الرغبة لحكومتى إذا تقدمت بها وزارة الخارجية السورية بطريق رسمى » قال : « إن الجرائد المصرية بأسرها قد رحبت بهذه الخطوة التى أعلنتها فرنسا أى باستقلال سوريا وأنه حريص على قراءة الملحقات التى ترفع إليه مترجمة عن الصحافة فى مصر وهو يحكم بعد قراءتها على مبلغ النضوج السياسى الذى وصلت إليه الصحافة المصرية وطريقة فهمها ومعالجتها لهذه الشئون » . ولما لمس صمتى قال « أن لديكم حقيقة رجالا من الطراز الأول وصحافة ممتازه » فلم أعلق على شىء من هذا لاعتياد أذنى سماعه كل يوم .. من الأوروبيين الذين لا يؤمنون بحرف واحد مما يقولون .

ثم صرح لى أنكم سرتم بعد تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ بنفس الدور الذى تجتازه سوريا الآن وعرفتم كيف توطدون استقلالكم على أساس متين ، وهذا ما قاله لى الكثيرون من رجالكم وهم أصدقاء لى .

وأخيراً اعتدل وألقى فتاحة الخطابات على مكتبه وقال (بهذه المناسبة أننى أتتبع باهتمام سياسة مصر ورغبتها فى إيجاد تعاون مع البلاد العربية فى ميدان الاقتصاد والثقافة وأظن أنك من الذين يعلقون أهمية خاصة على هذه الشئون العربية) .

قلت نعم اننى أحد هؤلاء الذين عينتهم ويسرنى أن تتحقق أهداف هذه الحركة التى تزال فى خطواتها البدائية التحضيرية .

وقال : إننى أهنئك لأنك وفقت فى زمن قصير إلى أن تجعل مركزك فى بيروت حائزاً على احترام الهيئات السياسية بأ كملها فى سوريا ولبنان .

فهززت رأسى ولم أعقب بشىء .

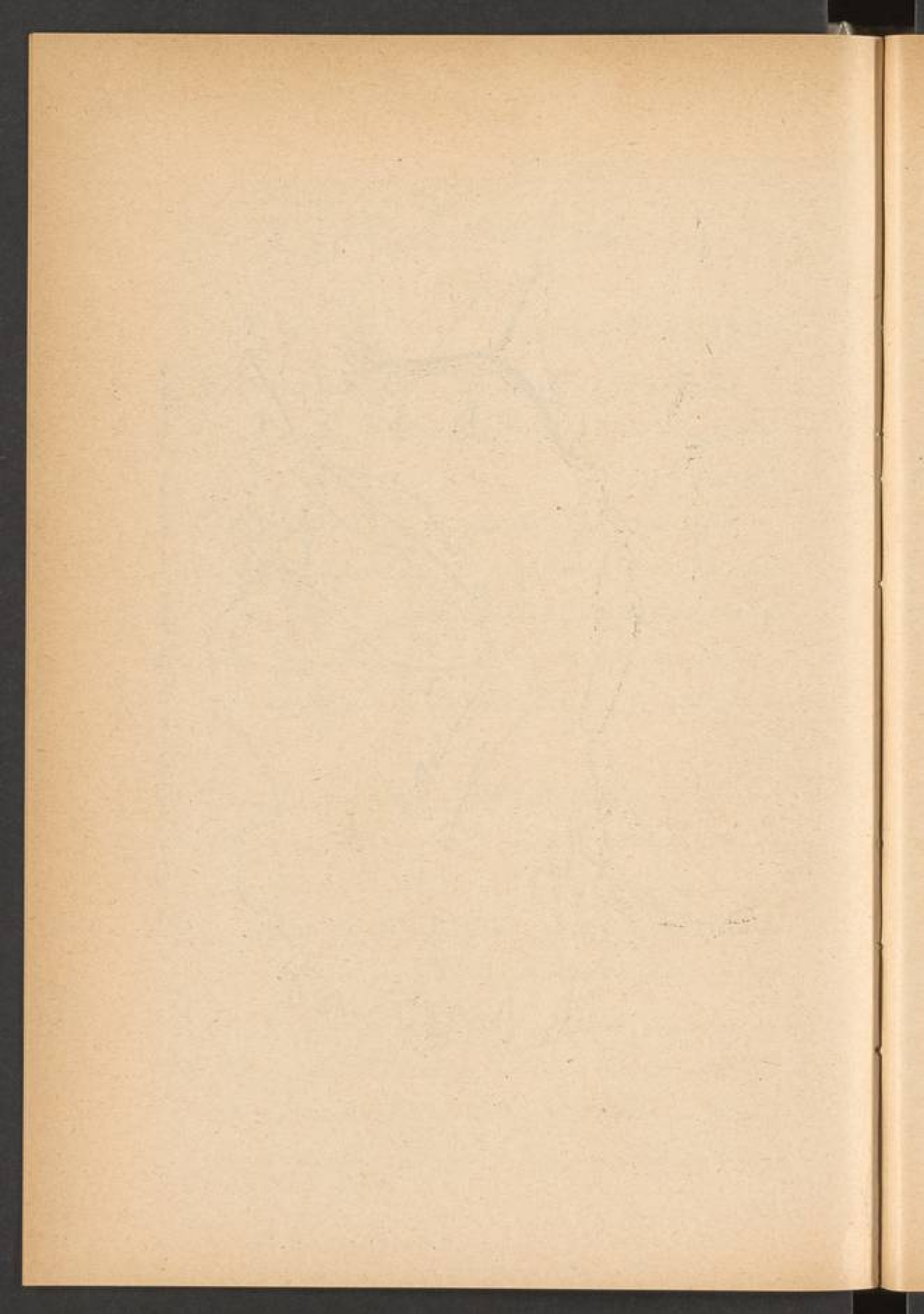
وبديهى أن القارئ فهم ما كان يجول بخاطر الجنرال الفرنسى ، فقد أفرغ كل ما فى جعبته لكى يشعرنى بأنه يعلم كل شىء فى مصر ويعلم اتجاه رجالنا الرسميين وغير الرسميين ، ثم أخذ يلوح لى بما كان ينتظرنى من مركز سياسى ممتاز فى سوريا ولبنان .

ولما كنت من أولئك الذين يؤمنون ببعض المثل العليا ، ولا يهتمون بالمراكز التى يهرع إليها الكثيرون ، لأنى نشأت وعشت وكافحت من أجل أفكار ومبادىء وآراء معينة ، لم أجد فى نفسى من القوة أو الشجاعة ما يجعلنى أحيد عن هذه المثل العليا إرضاء لشهوة وقتية . قلت له :

« إننى هنا أقوم بواجبى على قدر طاقتى وأشعر أننى أوفق أحيانا وأخطىء فى كثير من الأحيان وأن درجتى ومنزلتى فى بلادى لا تسمحان لى أن أطمع بأن أكون أول وزير مفوض أوسفير لمصر فى سوريا ولبنان » وانتهى الحديث.

وبعد مضى سنة على تلك المقابلة كنت لا أزال على رأس القنصلية العامة التى توليت أعمالها منذ عام ١٩٣٩ عقب إعلان الحرب العالمية الثانية مباشرة، ولم ترفع إلى مفوضية أو سفارة بعد إعلان الاستقلال فى البلدين سوريا ولبنان، وكنت فى نظر بعض الناس العقبة التى تقف فى سبيل إنشاء تبادل التمثيل السياسى أو الرجل الذى يحول دون اعتراف مصر باستقلال لبنان الذى أعلنه الجنرال كاترو، فكنت الشرقى الوحيد الذى رفض الخير القادم عليه وفضل أن يفوته القطار وهو جالس على رصيف المحطة . . . .

ومع ذلك كنت أثق فى قوتى وأؤمن بأننى أديت للشعبين السورى واللبنانى أكبر الخدم بتضحيتى بنفسى فى سبيل المثل العليا التى تمسكت بها وكسبت بها المعركة النهائية ...





خريطة تبين زحف المعتصم من سلوقية على عمورية والأفشين من سروج
وتبين حملة نيوفيل من سنتوب وطرابزون على ذبطرة (صفحة ٢٤١)

زحف المعتصم على عمورية

مقدمة فى دراسة التاريخ وكتابته :

ليست، دراسة التاريخ وكتابته علماً فحسب ، بل إن كتابته و إخراجه للناس صناعة وفن ، إننا نسكتشف الماضى ونحاول أن نتعرف على دروسه لنبنى المستقبل لا لنعيش فى الماضى .

إننا نبرز صفحات العظمة والمجد والخلود ونظهر المواقف الحاسمة فى تاريخنا ، لسكى يشعر أفراد الأمة والجماعات بالدور الذى لعبته الأمم الإسلامية فى تاريخ العالم ، إن التاريخ يلقن النشء الرسالة التى حملها الأجداد فى كفاحهم وثباتهم ، وحينئذ يؤمن هذا الجيل الحاضر بقدسية الرسالة التى يحملها والتى سيسلمها للأجيال القادمة حتى تظهر وتبرز مظاهر العظمة فينا وتتحق على أيدينا آمال المستقبل .

إننا جزء من هذا العالم الإسلامى السكبير ، الذى هزّ الدنيا وجعلها تتحدث عنه ، فالتاريخ الإسلامى هو جزء هام من شخصيتا ، وإذا درسناه يجب أن نتعرف على الدوافع النفسية والخلقية التى حركت الآباء والأجداد ، والتى جعلت هذا السلف العظيم ، يعيش ويعمل ويكافح فى سبيل تحقيق المثل العليا وفى سبيل الدفاع عن أراضيه وحماية مدنية كانت لها المنزلة الأولى فى عصرها .

إن التغلب على الطبيعة بالإنشاء هو أكبر مظاهر هذا العصر ؛ كما أن هذا الإنشاء والعمل على تحقيقه وإيجاد الأشياء ومواجهة الأعمال السكبرى هو الدليل الناصع على حيوية الأمة وقدرتها على الثبات ، ولا يمكن لأمة من الأمم أن تقف فى حياتها هذا الموقف الحاسم ، إلا إذا أقنعتها كل يوم بأنها تحمل فى عروقها

دماء أولئك الأبطال الذين وقفوا فى التاريخ أمام تقلب الأزمان وانتزعوا بجرأتهم وثباتهم وتضحياتهم النصر والظفر والغلبة .

إن تاريخ الفتوحات الأولى وتخليد ذكرى أولئك الذين انتصروا فى الحروب الصليبية هى دروس لنا ، بل إن كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامى هى ملك لنا لأنها صورة خالدة لبطولتنا .. بل هى الدليل المادى الذى نقدمه للعالم أجمع على أحقيتنا فى الحياة والخلود والبقاء على هذه الأرض .

إن الأمة الحية هى التى تعيش لتكافح وتعمل وتخلق كل يوم معركة لتنتصر فيها ولا يمكن أن تصل لذلك بدون أن تتملكها إرادة قوية تدفعها لهذه الغاية : ومصر ستملك حتما هذه الإرادة الفعالة إذا عرفت كيف تكتب تاريخها الحى الذى يفيض بالعظمة والقوة .

إن التاريخ الإسلامى هو الضمان الوحيد لمستقبلنا لأنه بدروسه مدرسة للساسة والقادة ، إنه سيدفعنا لبذل الجهود والتضحية ويشعرنا بالمثل الأعلا الذى عاش الأجداد فى ظلاله وانتزعوا النصر وهم يقاتلون تحت بنوده .

من السهل أن تمحو المقطم والأهرام ولكن من الصعب أن تمحو صفحات التاريخ الإسلامى ومعاركه وانتصاراته وأمجاده من صعيد مصر .

أهمية زحف المعتصم :

الحملة التى نعرض عليها هنا من أكبر حملات المسلمين على بلاد الروم ، لا لأنها توجت بالنجاح ، ولكن لما صحبها من الاستعداد والتجهيز من السلاح والعدد والآلة ومقدار الرجال وطريقة جمعهم وسوقهم وما حملوه معهم من حياض الأدم والروايا والقرب وعدد الدواب التى حملت كل هذا مع آلات الحديد والنفط وما يلزم للحصار [1] .

ثم أسماء الرجال الذين اشتركوا فى هذه الحملة من قواد المسلمين من مختلف

(١) الطبرى صفحة ٢٦٤ جزء ٧ سطر ١٨ .

الأجناس ؛ فلدينا أسماء قواد العرب وأسماء قواد الأتراك و الفراغنة وأسماء قواد الأعاجم وغير ذلك ممن اصطنعهم العرب أو كانوا من الروم أو الأرمن وغيرهم ثم أسلمو . فهى حملة من أكبر الحملات التى رآها التاريخ من جهة التجهيز والسير فى الطرق وسوق الجيوش وما لازمها من استراتيجية واعية وتطبيق لفن الزحف وربط الجيوش مع بعضها وتحديد الزمن .

فهى جديرة بالبحث والتنقيب وتحقيق أسماء الرجال وتحديد أسماء البقاع والأماكن والمراحل التى سارت فيها .

وليس هذا بالأمر الهين كما سترون ، بل أن مجرد ضبط الأسماء والأعلام وضبط التواريخ من أصعب ما يعرض له الباحث فى هذه الحملة :

نقص المصادر :

لأن المصادر التى بين أيدينا لا تزال غير وافية ، مثال ذلك : أن رحيل المعتصم كان فى يوم الجمعة ٢٤ رجب وتقدمه القائد أشناس[١] فى ٢٢ رجب يوم الأربعاء وفى ٢٥ شعبان كان واقعة « الأفشين » مع ملك الروم وفى ٢٦ رمضان وصل المعتصم إلى عمورية التى حاصرها لمدة خمس وخمسين يوماً .

وليس لدينا تفاصيل عن وصول الجيش إلى مدينة أنقرة ولا عن تاريخ التجمع فى مدينة سروج ولا عن المدة التى أخذها الأفشين فى طريق درب الحدث ، وإنما لدينا ما يفيد بتجمع المعتصم بجيوشه فى مدينة سلوقية وانتظاره لمدة شهر وأنه

---

(١) ص ٢٣٢ النجوم الزاهرة :

أما التعريف بأشناس فإنه من كبار القواد بحيث أن المعتصم جعله فى فتح عمورية من بلاد الروم على مقدمته ويتلوه محمد بن ابراهيم بن مصعب وعلى الميمنة إيتاخ القائد وعلى الميسرة جعفر بن عبد الله بن الخياط . وعلى القلب عجيف بن عنبسة وفيما ذكرناه كفاية لمعرفة مقام أشناس

عاد من عمورية إلى بغداد عن طريق منبج ومنها إلى نصيبين ثم إلى بعينافة وليس لدينا ضبط لتواريخ الوصول والقيام فى العودة . . .

اشتراك العالم الاسلامى فيها :

وتقول كتب التاريخ أن المعتصم قطع أسماء العرب من ديوان الحرب واستبدل بهم الأتراك ، ثم تُظهر حملة عمورية أن جيوش المعتصم فيها العرب والأتراك والمغاربة والأعاجم وكل من دخل فى دين الإسلام ، فليس لدينا حملة أو حرب من الحروب تسترعى النظر وتدعو الناس إلى البحث والتدقيق مثل حملة عمورية التى هى من أهم حملات الدولة العباسية وأجدرها ، أن تكون موضع تحقيق المؤرخين والباحثين .

ربما أتساءل مع القارئ ، لماذا اخترت هذا الموضوع كمثل من أمثلة زحف المسلمين وجهادهم فأقول :

صورة عمورية والمعتصم فى ذهنى كناشىء :

إننى كنت فى السنوات الأولى من دراستى الابتدائية بمدرسة الناصرية حينما جاء أحد شيوخ دار العلوم وكانوا يلبسون هذا الزى الإسلامى الجميل أى الجبة والعمامة . جاء ليلقى درساً فى التاريخ الإسلامى على طلبة السنة الثالثة الابتدائية وكانوا يختارون للتمرين والتدريب العملى بإلقاء درس أمام أساتذتهم ، فوزّع علينا ورقة مطبوعة ، عليها عشرة أسطر تتلخص فى هجوم الروم على « زبطرة » وأخذهم السبايا من النساء والأطفال وأن امرأة صرخت وقالت « وامعتصماه » فوصل خبرها إلى الخليفة فقال « لبيك » وركب من ساعته ومعه الجيوش فأناخ على عمورية وافتتحها وقال أبو تمام يمدحه « السيف أصدق أنباء من الكتب » فكانت الفكرة التى أخذتها عن المعتصم وحربه تشبه الفكرة التى أخذتها عن

السموأل حينما رفض أن يسلّم درعاً لامرئ القيس أو لغيره واستعصم فى حصنه ودارت الحرب وقال قصيدته المعروفة .

ولما سألنا الشيخ صاحب الحديث عن المعتصم ، قال انه الثامن من بنى العباس ، وعن عمورية ، قال إنها مدينة بأرض الروم ، وانتهى الدرس .

وهو كما ترى درس لم يترك أى أثر فى نفوسنا ، وإنما كان بمثابة حصة مطالعة ، أو امتحان أدّاه المعلم الناشئ وحصل على الدرجات التى تؤهله أن يحمل شهادة تمكنه من اقتناص وظيفة عامة هى كما يعلم الجميع وظيفةمدرس اللغة العربية فى إحدى المدارس الابتدائية .

هكذا كان درس التاريخ فى أيامنا .

أثر المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار :

أما الأثر الذى توطد فى نفسى تجاه عن التاريخ الإسلامى نتيجة المحاضرات التى ألقاها علينا رجل من نوادر رجال مصر ومن أشجعهم وأشدهم تمسكا بتعاليم وعظمة هـــذا التاريخ الإسلامى الذى طالما أهملناه ، أعنى به المرحوم الشيخ عبد الوهاب النجار . كنا فى السنوات الأولى بمدرسة الحقوق وكانت الدراسة فى الصباح فأخذنا نتلقى دروساً بكلية الآداب بالجامعة المصرية القديمة — وتتلمذنا جميعاً على هذا الأستاذ الكبير الذى عرفنا منه المراجع مثل الطبرى وابن الأثير والبلاذرى وغيرهم. كان إلقاؤه رحمة الله عليه وقت الدرس يحرّك مشاعر الطالب فهو إذا تحدث عن الدولة العباسية جاء بالأسانيد وقرن التاريخ بالأدب وتحدث حديث المؤرخ الواعى الذى يعيش فى الفترة التى يتكلم عنها ، فهو لا يسرد لك الحوادث فحسب ، بل يعلق عليها وينتقل بك إلى تلك الفترة فكأنك عشت فيها وعرفت رجالها وسمعت خطبهم وكان رنين كلامه قوياً ، يتغلغل فى النفس ، فكنت أخرج من الدرس وفى مخيلتى الألفاظ والكلمات التى استعملها وأبيات الشعر التى رتلها ، فتلازمنى ، فأجد نفسى مدفوعاً بنفسى إلى مراجعة هـــذه

النصوص واستكمالها لـكى تلصق فى ذاكرتى لأتكلم بها وأستشهد بما فيها ، ومن فيض هذا الأستاذ العظيم عرفت التاريخ الإسلامى واطلعت على كنوزه وكتبت فيه . . .

فإليه يرجع الفضل الأول ، وانى أعدّه فى الطليعة الأولى من خدّام هذه النهضة الإسلامية المباركة — إننى لا أزال أذكر اللقاء الذى تم بيننا بحضور المرحوم الدكتور عبد الحميد سعيد بعد عودتى من تركيا فى سنة من السنوات وكيف قلت إن دروس الأستاذ قد دفعتنى إلى تتبع « عمورية » ومكانها والطرق الموصلة إليها ، وأن محاضراته قد جعلتنى أبحث أين درب الحدث وأين حصن الطوانة[1] وأين دارت معارك الصائفة ، وأين زبطرة[2] ومضيق الدرب وباب مضايق البدندون . . على ضوء هذه المعلومات فلأحاول أن أقدم صورة واقعية .

(١) حصن الطوانة : انظر الخريطة .

(٢) معجم البلدان جزء ٤ صفحة ٣٧٤ طبع مصر .

(زبطرة) بكسر الزاى وفتح ثانية وسكون الطاء المهملة وراء مهملة . مدينة بين ملطية والحدث فى طرف بلد الروم . سميت بزبطرة بنت الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام عن الـكلبى . . وطول زبطره فى الإقليم الخامس من جهة المغرب ثمان وخمسون درجة وثلث وعرضها ثمان وثلاثون درجة . . وقال أبو تمام يمدح المعتصم .

لبيت صـوتا زبطريا هرقت له كأس الكرى ورضاب الخرد العرب

فتوح البلدان للبلاذرى صفحه ١٩٥ .

قالوا : وكان مرج عبـد الواحد حمى لخيل المسلمين فلما بنى الحدث وزبطره استغنى عنه فزدع ، قالوا : وكانت زبطرة حصنا قديما روميا ففتح مع حصن الحـدث القديم فتحه حبيب بن مسلمة الفهرى ، وكان قائما إلى أن أخربته الروم فى أيام الوليد بن يزيد فبنى بناء غير محكم فأناخت الروم عليه فى أيام فتنة مروان بن محمد فهدمته فبناه المنصور ، ثم خرجت إليه فشعثته فبناه الرشيد على يدى محمد بن ابراهيم وشحنه ، فلما كانت خلافة المأمون : طرقه الروم فشعثوه وأغاروا على سرح أهله فاستاقوالهم مواشى فأمر المأمون بمرمته وتحصينه ، وقدم وفد طاغية الروم فى سنة عشر ومائتين يسأل الصلح فلم يجبه إليه وكتب إلى عمال الثغور فساحوا فى بلاد الروم فأكثروا فيها القتل ودوخوها وظفروا ظفرا حسنا إلا أن يقظان بن عبد الأعلى بن أحمد بن يزيد بن أسيد السلمى أصيب ، ثم خرجت الروم إلى زبطرة فى خلافة المعتصم بالله أبى اسحاق بن الرشيد فقتـلوا الرجال وسبوا النساء وأخربوها فأحفظه ذلك وأغضبه ، فغزاهم حتى بلغ عمورية وقد أخرب قبلها حصونا فأناخ عليها حتى فتحها فقتل المقاتلة وسبى النساء والذرية ثم أخربها وأمر ببناء زبطرة وحصنها وشحنها فرامها الروم بعد ذلك فلم يقدروا عليها .

دراسة إيجابية :

أن القاعدة التى يسير عليها كتاب التاريخ الحربى تتلخص فى دراسة وعرض أمور معينة :

أولا :— أسباب الحرب .

ثانيا :— تجمع القوات المحاربة من الطرفين وخط سيرها إلى ميدان المعركة .

ثالثاً :— شرح أدوار الحرب ومعاركها .

رابعاً :— نتائجها ومقدار الظفر الذى حازه المنتصر وأثر ذلك فى الحروب القادمة .

وسنبدأ فى الكلام على حرب عمورية بمقدمة تاريخية عن أسباب هذه الحرب :

أسباب الحرب :

فى ١٣ خلت من جمادى الآخرة سنة ٢١٨ هجرية توفى الخليفة المأمون غازيا وفى يوم الجمعة لأيام بقيت من رجب صلى الجمعة اسحق بن يحيى بن معاذ فى مسجد دمشق ، فقال فى خطبته : « اللهم وأصلح الأمير أخ أمير المؤمنين والخليفة من بعد أمير المؤمنين أبا اسحق ابن أمير المؤمنين الرشيد » وهكذا بدأ المعتصم حكمه .

وفاة المأمون :

توفى المأمون غازيا فى بلاد الروم وجاء بالطبرى صفحة ٢٠٧ ، جزء ٦ ما ذكره سعيد ابن علاف القارىء عند مرضه ووفاته ، ثم عن حمله إلى مدينة طرسوس ودفنه فى دار كان يملكها خاقان [1] خادم الرشيد ، وكيف صلى عليه وكيف وكلوا به

(١) جاء فى كتاب الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب المنسوب لابن شحنة الحنفى صفحة ١٠٠ — قال نقلا عن كمال الدين بن العديم — قرأت بخط ابن عمرو الطرسوسى قاضى المزة قال « والعجب أن عبدالله مأمون دفن فى بطانة محراب طرسوس بسلاحه ولما ملكت جيوش الدمستق طرسوس سقط محراب الجامع وسقط المأمون بسلاحه فأخذ الدمستق سيفه ورد الباقى على حاله إلى موضعه .

حرساً من أبناء مدينة طرسوس ، وغير ذلك من التفاصيل التى لا محل لذكرها هنا — وإنما تهمنا وصية المأمون لأخيه المعتصم وما جاء فيها من اهتمامه بأمر خراسان ، إذ كانت قد وصلت إليه الأنباء عن انسياب حركة الخرمية التى قامت فى سنة ٢٠١ واتجاهها إلى الجنوب وقد تطورت ثورتهم فى عهد المعتصم ، فأصبحت حركة « بابك الخُرَّمى » الشغل الشاغل للمعتصم وقواده وجيوشه ، وكان من نتيجتها ظهور قوم يسمون « المُحمِّرة » خرجوا بالجبال فلحقوا بالروم حين قاتلهم اسحق بن ابراهيم بن مصعب وكان عليهم قائد اسمه « برسيس » أو « فرسيس » أسكنتهم دولة الروم فى أطراف طرابزون فكانوا هم بأعمالهم أول سبب من أسباب قيام حملة عمورية فى عهد المعتصم .

المؤلف فى مكان وفاة المأمون :

وصل بى القطار فى سنة ١٩٣٤ من مدينة قيصرية إلى محطة بوزانتى فطلب إلىَّ النزول بها انتظاراً لقطار الشرق السريع الذاهب إلى حلب ، فوجدت نفسى فى هذه المحطة العالية لمدة ثلاث ساعات ، فإذا بى فى المكان الذى يقال له باب مضايق البدندون ، فى نفس المكان الذى توفى فيه المأمون وفى نفس الجهة التى أوصى فيها المأمون المعتصم بقوله « والخرمِيَّةِ فأغزهم ذا حزامة وصرامة وجلد ، واكنفه بالأموال والسلاح والجنود من الفرسان والرجالة فإن طالت مدتهم فتجرد لهم بمن معك من أنصارك وأوليائك » .

وصية المأمون :

وقد قام المعتصم عقب وفاة المأمون بهذه الوصية خير قيام ، لأنه فى طريق عودته إلى بغداد وصلت اليه الأنباء بانتشار هذه الفتنة واتساعها ، وكان المأمون بجيشه قد احتل جزءاً من شمال مضيق البدندون وهو الذى يقال له حصن الطوانة[1] وبقاياه

(١) وفى تلك السنة أمر المعتصم بهدم ما كان المأمون أمر ببنائه بطوانه وحمل كل ما بها من السلاح والآلة وغير ذلك مما قدر على حمله وأمر بصرف من كان المأمون أسكن من الناس إلى بلادهم الطبرى ص ١١٦٤ .

قائمة على يمين الطريق الموصل إلى بلدة نجدة (راجع الخريطة) .

فأمر المعتصم بهدم هـذا الحصن ونقل الرجال الذين فيه إلى الجهة الجنوبية من جبال طوروس تقصيراً لجبهة القتال . .

حروب بابك :

واتجه بكل قوته إلى حروب بابك الخرّمى فاقتلع الفتنة من الجبال وقضى عليها فى همذان وما حولها فانتقلت الحروب من الجنوب إلى الشمال فى أراضى أذربيجان وأرمينية حيث تولى الأفشين مقارعة بابك الخرّمى وضيق عليه المنافذ واكتسح صولته . فى تلك الأثناء طلب بابك الخرمى من الدولة البيزنطية أن تهاجم أراضى المسلمين فوجهت قوة حاصرت « قصريانة » وأراد تيوفيل الاتصال ببابك ولـكن قوة بابك كانت فى نهايتها وقد أدرك الأخير ما هو عليه من خطر فاتصل بتيوفيل محرضا وقال إن قوات الخليفة العباسى قد جمعت كلها للقضاء على ثورة الخرمية وأن الخليفة عاجز عن مقاومة الثورة الداخلية ومداومة الحرب على الحدود ، لأنه أشرك فى حرب بابك حائك ملابسه وطاهيه ، مستعملا التدليس على ملك الروم ، إذ أن بين قواد المتعصم من يسمى « جعفر بن دينار بن عبدالله الخياط » وهو من قواد العرب ، ومن بينهم قائد تركى اسمه أيتاخ وقيل أن بابك تظاهر بقبوله الدخول فى المسيحية ووعد بأن يدعو إليها بين أتباعه وأنصاره .

حملة تيوفيل :

وتمكن ملك الروم من أن يرسل حملة فيها عدد من البلغار والسلاف ومعهم الفرس من أتباع بابك الذين هزموا من إقليم همذان ولجأوا إليه ، وكان قيام هذا الجيش من طرابزون متجها إلى حصن زبطرة الذى كان يحتله المسلمون والذى يحمى فى المقدمة مجموعة من الحصون الإسلامية المعروفة جيداً فى الأقاليم الفراتية العليا .

هذه المجموعة التى تحيط بالفرات وتكون نصف دائرة بين آمد وملطية[1]
وهى حصن منصور وسميساط و بهنسة وغيرها .

(١) صبح الأعشى ص ١٣١ جزء ٤ .

(ملطية) ـ بفتح الميم واللام وكسر الطاء المهملة وبعدها ياء مثناة تحت مشددة مفتوحة وهاء فى الآخر . ضبطها ياقوت والمجد بفتحتين ثم سكون وقال ياقوت : كسر الطاء وتشديد الياء من قول العامة . وهى مدينة شمال حلب بميله إلى الشرق على نحو سبع مراحل منها . قال ابن السعيد : وهى قاعدة بلاد الثغور ، وموقعها فى الاقاليم السبعة . قال فى « الأطوال » : وطولها إحدى وستون درجة ، وعرضها سبع وثلاثون درجة ، ووافقه فى « القانون » على الطول وجعل العرض ثمانيا وثلاثين درجة ؛ وقد عدها ابن حوقل من جملة بلاد الشام وقال إنها من قرى بلاد الروم على مرحلة . قال صاحب حماة : والأليق عدها من بلاد الروم . ثم قال : وعدها بعضهم من الثغور الجزرية . قال فى « الروض المعطار » : وكانت قديمة تخربتها الروم فبناها أبو جعفر المنصور يعنى ثانى خلفاء بنى العباس فى سنة تسع وثمانين ومائة (لعله مصحف عن ثلاثين فإن المنصور تولى الخلافة سنة ست وثلاثين ومائة وتوفى سنة ثمان وخمسين ومائة ، ونقل ياقوت أنه أرسل من بنى ملطية سنة أربعين ومائة) . وجعل عليها سورا محكما — وهى بلدة ذات أشجار وفواكه وأنهار ، وهى مسورة ، فى بسيط من الأرض والجبال محفة بها من بعد ، ولها نهر صغير يمر بسورها ، ولها قنى تدخلها وتجرى فى دورها إلا أنها شديدة البرد — وهى فى شمالى الجبل الدائر الذى بسيس فى غربيه ، فى الجنوب عن سيواس ، وبينهما نحو ثلاث مراحل ، وفى الغرب عن كختا وبينهما نحو مرحلتين . وقد ذكر فى « تقويم البلدان » . أنها فتحت فى سنة خمس عشر وسبعمائة .

فتوح البلدان ١٨٩ .

وقالوا : وجه عياض بن غنم حبيب بن مسلمة الفهرى من شمشاط إلى ملطية ففتحها ثم أغلقت ، فلما ولى معاوية الشام والجزيرة وجه اليها حبيب بن مسلمة ففتحها عنوة ورتب فيها رابطه من المسلمين مع عاملها وقدمها معاوية وهو يريد دخول الروم فشحنها بجماعة من أهل الشام والجزيرة وغيرهما فكانت طريق الصوائف ، ثم ان أهلها انتقلوا عنها فى أيام عبد الله بن الزبير وخرجت الروم فشعثتها ثم تركها فنزلها قوم من النصارى من الأرمن والنبط .

وحدثنى محمد بن سعد عن الواقدى فى اسناده ، قال : كان المسلمون نزلوا طرندة بعد أن غزاها عبد الله بن عبد الملك سنة ثلاث وثمانين وبنوا بها مساكن وهى من ملطية على ثلاث مراحل واغلة فى بلاد الروم . وملطية يومئذ خراب ليس بها الأناس من أهل الذمة من الأرمن وغيرهم فكانت تأتيهم طالعة من جند الجزيرة فى الصيف فيقومون بها الى أن ينزل الشتاء ويسقط الثلوج فإذا كان ذلك قفلوا ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه رحل أهل طرندة عنها وهم كارهون ، وذلك لإشفاقه عليهم من العدو واحتملوا فلم يدعوا لهم حتى كسروا خوابى الخل والزيت ثم أنزلهم ملطية وأضرب طرندة وولى ملطية جعونة بن الحارث أحد بنى عامر بن صعصعة .

=

وقد بقيت زبطرة مجهولة التحديد وكان إسمها يظهر فى الكتب متعدد النطق فهى أحياناً زبطرة وزابطرة وزوبطرة ولقد عرفت بقاياها بالقرب من مدينة تركية اسمها الآن فيران شهر فى الجنوب الغربى من ملاطية وزبطرة هى المدينة التى جاء ذكرها فى تاريخ العرب بأنه عند دخول الروم صاحت امرأة هاشمية وقالت « وامعتصماه » .

وكان أمل ملك الروم فى زحفه أن يتصل بالثوار القائمين فى أرمينيا وأذربيجان كما قلنا ، فاحتل مدن : زبطرة وشمشاط[1] وملطية . وشمشاط هى غير

= قالوا : وخرج عشرون ألفا من الروم فى سنة ثلاث وعشرين ومائة فنزلوا على ملطية فأغلق أهلها أبوابها وظهر النساء على السور عليهن العمائم فقاتلن ، وخرج رسول لأهل ملطية مستغيثا فركب البريد وسار حتى لحق بهشام بن عبد الملك وهو بالرصافة فندب هشام الناس الى ملطية ثم أتاه الخبر بأن الروم قد رحلت عنها فدعا الرسول فأخبره وبعث معه خيلا ليرابط بها وغدا هشام نفسه ، ثم نزل ملطية وعسكر عليها حتى بنيت فكان ممره بالرقة ، دخلها متقلدا سيفا ولم يتقلده قبل ذلك فى أيامه .

(١) ياقوت الحموى جزء ٥ صفحة ٢٩٣ (شمشاط)

يكسر أوله وسكون ثانيه وشين مثل الأولى وآخره طاء مهملة . مدينة بالروم على شاطىء الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت وهى الآن محسوبة من أعمال خرتبرت ... قال بطليموس مدينة شمشاط طولها احدى وسبعون درجة وثلاثون دقيقة وعرضها سبع وثلاثون درجة وخمسون دقيقة طالعها النعائم بيت حياتها الجدى تحت ثلاث عشرة درجة من السرطان يقابلها مثلها من الجدى بيت ملكها مثلها من الحمل عاقبتها مثلها من الميزان وهى فى الاقليم الخامس . وقال صاحب الزيج طول شمشاط اثنتان وستون درجة وعرضها ثمان وثلاثون درجة ونصف وربع . وشمشاط الآن خراب ليس بها إلا أناس قليل وهى غير سميساط هذه بسينين مهملتين وتلك بمعجمتين وكلاهما على الفرات إلا أن ذات الإهمال من أعمال الشام وتلك فى طرف أرمينية . . قيل سميت بشمشاط بن ليفز بن سام بن نوح عليه السلام لأنه أول من أحدثها . وقد نسب اليها قوم من أهل العلم . منهم أبو الحسن على بن محمد الشمشاطى كان شاعرا وله تصانيف فى الأدب وكان فى عهد سيف الدولة بن حمدان وله فى على بن محمد الشمشاطى :

ما الزمان سطا على إشرافنا ... فتحزموا وغضوا عن الإنباط
اعداوة لذوى العلى أم همة ... سقطت خالتها الى السقاط
خضعت رقاب بنى العداوة اذرأت ... آثارها تنفذ تحت سياط
حتى اذا ركضت على أعقابها ... دلف النبط الى من شمشاق
صدق المعلم أنهم من أسره ... نجب تسوسهم بنو سنباط
آباؤك الاشراف الا أنهم ... أشراف موش وسامخ وخلاط

سميساط لأن سميساط تقع على نهر الفرات أما شمشاط فتقع فى الجهات الشمالية منها . وكان دخول ملاطية صلحا .

ولم يتمكن جيش الروم من التوغل أكثر من هذا فعادت الحملة عن طريق طرندة الواقعة فى الشمال الغربى من ملطية . ودخل تيوفيل مدينة القسطنطينية محاطاً بمظاهر الحفاوة وظهر بثياب أرجوانية على عربة تجرها خيول بيضاء ، وأُلبِس تاج النصر وتلقى صياح الشعب على نمط أباطرة الرومان القدماء .

دراسة الحصون الإسلامية وأهميتها :

إن موضوع دراسة هذه الحصون الموزّعة على الحدود الإسلامية من أدق المواضيع التى لم يتعرض لها أحد من المؤرخين إلى اليوم ، لأن لكل حصن قصة ولكل مدينة تاريخ ، وكان يسكن هذه الحصون قوم من مختلف العناصر الإسلامية فى مشارق الأرض ومغاربها وقد باعوا أنفسهم للجهاد وأوقفوا حياتهم على رد العدوان .

منها زبطرة التى انتهكت حرماتها وقام منها أناس وصلوا لرفع شكايتهم إلى مقام الخليفة فى مدينة سامرة أو « سُرَّ من رأى » فأمر المعتصم بعد مقابلتهم بالاستعداد لحرب الروم ، ودخل عليه عمه ابراهيم بن المهدى وأنشد بين يديه قصيدته المعروفة :

يا غارة الله قد عاينت فانتهكى هتك النساء وما منهن يرتكب
هب الرجال على أجرامها قتلت ما بال أطفالها بالذبح تنتهب ؟

فى هذه الأثناء كانت ثورة بابك قد انتهت ورجع قائد المعتصم المشهور الأفشين إلى « سُرَّ من رأى » وقد أفاض عليه الخليفة بكل مظاهر التكريم ، ودرس معه الطريقة التى يرد بها عدوان دولة الروم على حدود بلاده ، وكان أول ما فكر فيه الوصول إلى عمورية .

عمورية[1] :

والغريب أن كتب التاريخ تذكر بأن عمورية لم يقصدها جيش إسلامى قبل المعتصم ، ولكن المراجع التى تتكلم عن مادة الثغور تقول ومنهم ياقوت الحموى ، الذى ينقل عن مؤرخ قبله اسمه أبو صالح ، فيقول بأن معاوية غزا عمورية سنة ٢٥ هجرية — ويقول بأن معاوية غزى الروم سنة ٣١ هجرية . من ناحية المصيصة فبلغ درْوالية وهى مدينة اسكيشهر الحالية وتقع فى شمال عمورية وقال إن هذه الثغور أى طرسوس وأضنة والمصيصة موضع اهتمام الخلفاء ، ولا يتولاها إلا شجعان القواد من الراغبين فى الجهاد .

الهدف الأساسى لحملة عمورية :

إذن وضع المعتصم الهدف الأساسى من حملته « عمورية » وجعل خطته الوصول إلى أنقره واختار مكانين للتجمع والحشد : الأول — مدينة سروج وهى الواقعة فى شمال سوريا بين حرّان وعينتاب وأمر الأفشين حيدر بن كاوس أن يتجمع بعساكره وقواده فى هذه المدينة سروج ، وهى التى تقع فى الجنوب

---

(١) مادة الثغر ياقوت ص ١٨ جزء ٣ .

قال أبو صالح لما غزا معاويه عموريه سنة ٢٥ وجد الحصون بين انطاكية وطرسوس خالية فوقف عندها جماعة من أهل الشام والجزيرة وقنسرين حتى انصرف من غزواته ثم أغزا بعد ذلك بسنة أو سنتين يزيد بن الحر العبسى الصائفة وأمره معاويه أن يفعل مثل فعله : قال وغزا معاويه سنة ٣١ من ناحية المصيصة فبلغ درولية فلما رجع جعل لا يمر بحصن فيما بينه وبين انطاكية إلا هدمه . قال المؤلف رحمه الله ثم لم يزل هذا الثغر وهو طرسوس وأدنة والمصيصة وما ينضاف اليها بأيدى المسلمين وكان الخلفاء مهتمين بأمرها لا يلونها الا شجعان القواد والراغبين منهم فى الجهاد والحروب بين أهلها والروم مستمرة والأمور على مثل هذه الحال مستقرة حتى ولى العواصم والثغور الأمير سيف الدولة .

من مجموعة الحصون الأمامية التى أشرنا إليها أى التى تسمى الحصون الفراتية نسبة إلى الفرات بعضها على النهر و بعضها فى شماله وهى التى تحمى الجزيرة ، وتعتمد على الحصون الأمامية فى ملطية ودرندة وز بطرة والتى إذا خرجت منها الجيوش متجهة إلى بلاد الروم تتخذ درب الحدث المشهور .

أما التجمع الثانى هو الأساسى فى هذه الحملة فقد جعله المعتصم فى مدينة سلوقية[١] القريبة من البحر والتى تقع على مسيرة يوم واحد من مدينة طرسوس[٢]

---

(١) ياقوت الحموى جزء ٥ ص ١١٦ .

(سليقية) بفتح أوله وكسر ثانيه وياء مثناة من تحت وقاف مكسورة وياء أخرى خفيفه . مدينة وكورة ببلاد الروم وربما سموها سلوقية وهى من ناحية الشام بعد طرسوس يتولاها عامل الدروب وقد ذكرت حدودها فى باب الروم وقيل أن الدروع اليها منسوبة وكذلك الكلاب وليس قولهم فلان يقرأ بالسليقة من هذا فى شىء لأن ذلك يراد به الفصاحة والبلاغة ويقال لها سلقية أيضا .

(سلوقية) ياقوت جزء ٥ صفحة ١١٥ .

فى كتاب الفتوح لأحمد بن يحيى أن الوليد بن عبد الملك أقطع جند انطاكية . أرض سلوقية عند الساحل وصير عليهم الفلثر وهو سبط من الأرض معلوم كالفدان والجريب بدينار ومدى قمح فعمروها وجرى ذلك لهم وبنى حصن سلوقية . قلت أنا ولعل السيوف السلوقية والكلاب السلوقية منسوبة اليها وقرأت فى كتاب الحسن بن محمد المهلبى وقد كان فى جبال الثغر الجارح والكلاب السلوقية الموصوفة من بلاد سلوقية فنسبها اليها وهو صحيح .

(٢) (طرسوس) بها قبر المأمون ، وعليها سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب فى كتاب سير الثغور للطرسوسى أبي عمرو بن عبد الله فى كل سور خمسة أبواب حديد فأبواب السور المحيط بها حديد ملبس وأبواب السور المتصل بالخندق حديد مصمت وعدد شرافات السور الأول الذى يلى المدينة ثمانية آلاف شرفه وفيه من الأبراج مائة برج .

بين طرسوس والبحر اثنى عشر ميلا .
صفحة ١٨٤ تابع ابن السمنة .
معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٨) .

مدينة بثغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم عليها سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب يشقها نهر البروان . وقالوا سميت بطرسوس بن الروم بن اليفز بن سام بن نوح عليه السلام . وقيل أن مدينة طرسوس أحدثها سليمان كان خادما للرشيد فى سنة نيف وتسعين ومائة

قاله أحمد بن محمد الهمذانى . . قال أحمد بن الطيب السرخسى رحلنا من المصيصة نريد العراق والى أذنه ومن أذنه إلى طرسوس وبينها وبين أذنه ستة فراسخ وبين أذنه وطرسوس فندق بغا والفندق الجديد وعلى طرسوس سوران وخندق واسع ولها ستة أبواب ويشقها نهر البروان .

معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٩) .

لما فتح نقفور طرسوس نصب فى ظاهرها علمين ونادى مناديه من أراد بلاد الملك الرحيم وأحب العدل والنصفة والأمن على المال والأهل والنفس والولد وأمن السبل وصحة الأحكام والإحسان فى المعاملة وحفظ الفروج وكذا وكذا . وعدد أشياء جميلة فليصر تحت هذا العلم ليقفل مع الملك إلى بلاد الروم ومن أراد الزنا واللواط والجور فى الأحكام والأعمال وأخذ الضرائب وتملك الضياع عليه وغصب الأموال وعدد أشياء من هذا النوع غير جميلة فليحصل تحت هذا العلم إلى بلاد الإسلام فصار تحت علم الروم خلق من المسلمين ممن تنصر وممن صبر على الجزية . . ودخل الروم إلى طرسوس فأخذ كل واحد من الروم دار رجل من المسلمين بما فيها ثم يتوكل ببابها ولا يطلق لصاحبها إلا حمل الخف فإن رآه قد تجاوز منعه حتى إذا خرج منها صاحبها دخلها النصرانى فاحتوى على مافيها وتقاعد بالمسلمين أمهات أولادهم لما رأين أهاليهن وقالت أنا الآن حرة لا حاجة لى فى صحبتك فمنهن من رمت بولدها على أبيه ومنهن من منعت الأب من ولده فنشأ نصرانيا فكان الإنسان يجىء إلى عسكر الروم فيودع ولده ويبكى ويصرخ وينصرف على أقبح صورة حتى بكى الروم رقة لهم وطلبوا من يحملهم فلم يجدوا غير الروم فلم يكروهم إلا بثلث ما أخذوه على أكتافهم أجرة حتى سيروهم إلى انطاكية . . هذا وسيف الدولة حى يرزق بميا فارقين والملوك كل واحد مشغول بمحاربة جاره من المسلمين وعطلوا هذا الغرض ونعوذ بالله من الخيبة والخذلان ونسأله الكفاية من عنده . ولم تزل طرسوس وتلك البلاد بيد الروم والأرمن إلى هذه الغاية . . وقد نسب إليها جماعة يفوت حصرهم . .

معجم البلدان لياقوت صفحة (١٨) ج ٣ .

وقد نسبوا إلى هذا الثغر جماعة كثيرة من الرواة والزهاد والعباد . . منهم أبو أمية محمد بن ابراهيم بن مسلم بن سالم الطرسوسى الثغرى كذا نسبه غير واحد من المحدثين وهو بغدادى المولد سكن طرسوس وسمع يوسف بن عمر اليمامى وعمر بن حبيب القاضى ويعقوب بن اسحاق الحضرمى وأبا عاصم النبيل ومكى بن ابراهيم والفضل بن دكين وقبيصة بن عقبة واسحاق بن منصور السلولى واسود بن عامر شاذان وغيرهم روى عنه أبو حاتم الرازى ومحمد بن خلف وكيع ويحيى بن صاعد والحسين بن ابراهيم المحاملى وغيرهم وسئل عنه أبو داود سليمان بن الأشعث فقال ثقة . وأما ثغرا اسفيجاب فلم يزل ثغرا من جهته وقد ذكر اسفيجاب فى موضعه . نسب إليه هكذا طالب بن القاسم الفقيه الثغرى الاسفيجابى كان من فقهاء ما وراء النهر .

وهى التى تجدها الآن على الخرائط التركية «سيلفكة» أو «سولى» غربى مرسين .

ويهمنا هذا المرفأ بالذات لأن مواد التموين التى كانت تنقل بواسطة البحر كانت تصل إلى جيوش المسلمين من مصر وشمال أفريقية والشام إلى هذه المنطقة .

كما أن جنود المتطوعة من المصريين العرب والمغاربة الذين يمدون الصائفة فى كل سنة كانوا ينزلون فى هذا الشاطئ بالذات .

= (قبر المأمون بطرسوس) معجم البلدان لياقوت صفحة (٣٩) .

وبها قبر المأمون عبد الله بن الرشيد جاءها غازيا فأدركته منيته فمات فقال الشاعر :

هل رأيت النجوم أغنت عن المأ ... مون فى عز ملكه المأسوس

غادروه بعرصتى طرسوس ... مثل ما غادروا أباه بطوس

وما زالت موطنا للصالحين والزهاد يقصدونها لأنها من ثغور المسلمين . ثم لم تزل مع المسلمين فى أحسن حال وخرج منها جماعة من أهل الفضل إلى أن كان سنة ٣٥٤ . فإن نقفور ملك الروم استولى على الثغور وفتح المصيصة . ثم رحل عنها ونزل على طرسوس وكان بها من قبل سيف الدولة رجل يقال له ابن الزيات ورشيق النسيمى مولاه فسلما إليه المدينة على الأمان والصلح على أن من خرج منها من المسلمين وهو يحمل من ماله مهما قدر عليه لا يعترض من عين وورق أو خرثى ومالم يطلق حمله فهو لهم مع الدور والضياع واشترط تخريب الجامع والمساجد وأنه من المقام فى البلد على الذمة وأداة الجزية فعل وأن تنصر فله الحباء والكرامة وتقر عليه نعمته قال فتنصر خلق فأقرت نعمهم عليهم وأقام نفر يسير على الجزية وخرج أكثر الناس يقصدون بلاد الإسلام وتفرقوا فيها وتملك نقفور البلد فأحرق المصاحف وخرب المساجد وأخذ من خزائن السلاح مالم يسمع بمثله مما كان جمع من أيام بنى أمية إلى هذه الغاية .

صبح الأعشى صفحة (١٣٣) ج ٤ القلقشندى .

بفتح الطاء والراء المهملتين جميعا وضم السين المهملة وسكون الواو ثم سين ثانية — هكذا ضبطه فى « اللباب » والجارى على الألسنة سكون رائها وهى مدينة من بلاد الأرض على ساحل بحر الروم شمالا بغرب عن حلب وموقعها فى الأقليم الرابع . قال من « تقديم البلدان » : القياس أن طولها ثمان وخمسون درجة وأربعون دقيقة وعرضها ست وثلاثون درجة وخمسون دقيقة . قال فى « الروض المعطار » : وهى مدينة مسورة بناها الرشيد فى سنة سبعين ومائة وأكملها فى سنة اثنين وسبعين ولها خمسة أبواب : باب الجهاد وباب الصفصاف وباب الشام وباب البحر والباب المسدود والنهر يشق فى وسطها وعليه قنطرتان داخل البلد . قال ابن حوقل : وهى فى غاية الخصب وبينها وبين بلد الروم جبال هى الحاجز بين الروم والمسلمين وبها دفن المأمون بن الرشيد وكانت استعادتها من الأرمن فى الدولة الناصرية أيام السلطان حسن ابن محمد بن قلاوون .

تقدير عدد رجال الحملة :

يقدرون عدد الجنود التى جمعها المعتصم لهذه الحملة بمائتى وخمسين ألف مقاتل والأمر يحتاج لتحقيق : ذلك لأن الدولة الإسلامية وهى تتحمل عبء الدفاع عن الحدود الشمالية جعلت من أولى أعبائها إيجاد قوة من المتطوعة والمقاتلين الدائمين أو المستقرين فى تلك الأماكن المعرضة لهجات الروم . فهناك من الجنود ما يعتبر قائماً بالخدمة بصفة مستمرة فى هذه الجهات ، ولذلك فأنى لا أستبعد أن تكون القوة التى أتى بها المعتصم من أنحاء الممالك الإسلامية مضافاً إليها حاميات هذه الحصون لا تقل عما ذكره المؤرخون ، ثم إن النظر إلى اسماء قواد الأتراك والعرب والأعاجم يدل على أن هذا الجيش كان من أكبر الجيوش التى ساقتها الدولة العباسية فى عنفوان مجدها .

قواد الأتراك والفراعنة فى جيش المعتصم :

اشناس كان على المقدمة وهو من أقدر قواد المعتصم .

ايتاخ على المغاربة والأتراك

الأفشين حيدر بن كاوس بطل الحملة على بابك و بطل عمورية وأنقرة

إنما الأفشين سيف سله قدر الله بكف المعتصم

من سلالة ملوك اشروسنة (راجع مادة افشينة) .

عمرو الفرغانى بن أربخا وصحتها أريغا .

بغا[1] على ساقه عسكر المعتصم فى العودة اشتهر أيام المتوكل

---

(١) تاريخ ابن عساكر جزء ٣ صفحة ٢٧٢ « جاء ضمن من اسمه بغا » ذكر .

(بغا) أبو موسى الكبير أحد قواد المتوكل قدم معه دمشق سنة ثلاث وأربعين ومائتين ثم أنه أرسله لغزو الصائفة فغزاها وفتح عليه كان شجاعا ومن شجاعته أنه كان يوما ذاهبا فى طريق طبرستان فعرض له قوم من أهلها وقالوا له أعز الله الأمير ان فى بعض هذه الغياض سبعاً قد استكلب على الناس وأفناهم فقال لهم كونوا معى اذا أردت الرحيل غدا حتى تقفوا على موضعه فلما رحل من الغد انفرد فى عشرين فارسا من غلمانه ومعه قوسه ونشابتان فى منطقته ، فلما=

أسماء الأعاجم :

غطريف الخوجندى (نسبة إلى خوقند)

مالك بن كيدر

الشاه بن سهل وهو الرأس بن الرأس من أهل قرية خراسان يقال سجستان

السندى بن بختاشا

قواد العرب :

هرثمة بن النضر الختلى الوالى على مراغة (مدينة مشهورة بشمال إيران)

عجيف بن عنبسة

جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط

محمد بن ابراهيم

ابن الأقطع

محمد بن سعيد السعدى

احمد بن الخصيب

أبى سعيد محمد بن يوسف

يمكن دراسة شخصية القواد واحداً واحداً ، وقد اختير بغا على سبيل المثال لا لأهميته على غيره .

= صار فى الغيضة ثار السبع فأخذ نشابة فرماه بها فى لبته فمر السهم فيها الى الريش وركب السبع رأسه فنزل بغا اليه وحده فوجده ميتا فقاسوه بالأشبار فكان من رأسه الى رأس ذنبه ستة عشر شبرا ووجدناه أخص الشعر الا معرفته وكتب القوم بذلك الى المتوكل فوجه اليه بسبع خلع من خلعه الخاصة وخمسمائه ألف درهم وأشياء أخرصلة له وجزاء على قتله السبع قال القاضى أبو الفرج المعافا بن زكريا قولهم ووجدناه أخص يريدون أنه لا شعر عليه كما قال الشاعر .

قد خصت البيضة رأسى فما أطغم يوما غير تهجاع

وكان بغا مملوكا لذى الرياستين الحسن بن سهل وكان مع شجاعته من أهل الرواية وولاه المستعين ديوان البريد وكانت وفاته سنة ثمان وأربعين ومائتين .

علی بن حسن الزيدانی
احمد بن الخليل بن هشام
الحارث السمرقندی
العباس بن المأمون مات ودفن فی منبج
عبد الله بن الوضاح

نقش اسم عمورية على الأعلام :

وقد نقش المعتصم على الألوية التى تحملها الفرق وعلى التروس التى تحملها الجنود اسم « عمورية » ففهم الناس وفهم الخصم أنه جاد فى الوصول إلى هذا الهدف الذى وضعه أمامهم ، ولذلك قابل هذا التجمع تجمع رومى من جيوش بيزنطة التى قامت من القسطنطينية ووقف عند درولية وهى مدينة اسكيشهر الواقعة فى شمال حصن عمورية أو أن عمورية واقعة على الطريق الموصل إلى مدينة درولية على مسيرة ثلاثة أيام — فوصلت الأنباء بقوة الجيش الإسلامى المعتصى فتقدم عدد من قواد الروم ينصحون الإمبراطور بإخلاء عمورية من سكانها إلى مكان آخر منعاً لسفك الدماء . ولكنه رفض أن ينزل على هذه النصيحة .

التقسيم الادارى لدولة الروم :

ويعد تقسيم الدولة البيزنطية من ناحية المناطق العسكرية الخطرة من أدق الأمور وهو يحتاج إلى اهتمام خاص . فهم يطلقون اسم الاستراتيجوس على كل من يتولى منطقة محصنة ويطلقون اسم البطريك وإسم الاسبتار . ولذلك بعث تيوفيل بكثير من أعظم قواده وقد قتل منهم إثنان فى حصار عمورية : والأسماء التى تطلقها الدولة البيزنطية على بلاد آسيا الصغرى تستدعى تحقيقاً خاصاً فقد جاء فى شعر لأبى تمام [1] :

(١) راجع كتاب الأستاذ نجيب محمد البهبيتى صفحة ١٤٤ .

وطئت هامة الضواحى فلما أن قضت نحبها من القيذوق

(صحتها قبذوق بالباء وهى Cappadocia)

ألهتها السـياط حتى إذا استفت بإطلاقها على الباطلوق

(الجزء الشمالى من الأناضول Paphlagonia)

شنها شزباً فلما استباحت بالبقلار كل سهل وثيق

سار مستقدماً إلى البأس يزجى رهجاً باسقا إلى الأبسيق

(هى أبسيكون الجزء الواقع غربى قبذوقية وعاصمته بسيموس Pisidia)

خطة المعتصم فى غزو عمورية :

أما الخطة التى وضعها المعتصم باتفاق قواده فتقرر غزو أرض الروم من جهتين فى الشرق والجنوب هذا مع تعيين سير الجيش الأساسى من طرسوس شمالا إلى درب المضايق وهو يسمى درب السلامة أى أبواب كلكيا ثم يتجه إلى أنقرة حيث تلتقى به القوات المختلفة التى زحفت من جهة الشرق أى من مدينة سروج واتخذت لها منافذ مختلفة ومتعددة ..

درب الحدث :

وتتفق جميع المراجع على أن جيش الأفشين اتخذ طريق درب[1] الحدث وهو الطريق الموصل من مرعش فهل اتجه مغرباً أم اتجه إلى الشمال . الأغلب أن سراياه اقتحمت كل الطرق . . ومنها درب ملاطية الذى دخل منه الأفشين .

(١) دائرة المعارف الإسلامية ٣٢٦ المجلد ٩ .

« الحدث » أو الحدث الحمراء قلعة على الحدود طالما ذكرت فى الحروب التى نشبت بين العرب والروم . وهى تسمى عند اليونان Adata ولم تعرف بعد على موقعها الصحيح ، لأن هذه المدينة هجرها أهلها هجرانا أكثر من ستة قرون . غير أنه لا شك فى أن مكانها لم يكن بعيدا عن اينكلى Inekli على نهر آق صو، وهو الذى يسميه ياقوت (جـ ٤ ، ص ٨٣٨) نهر حورث ويقول إنه ينبع من بحيرة الحدث ويصب فى جيجان .

وروى ابن سرابيون Sarapion أن النهر يصب فى عدة بحيرات صغيرة تعرف الآن بكوينوك كول وأغصلى كول وباش كول ، وهذه الرواية أدق من الأولى إلا أن ابن سرابيون أخطأ ، كما بين « له ستراغ » Le Strange فى قوله إن هذا النهر رافد من روافد نهر القاقب (Melas)

وقد أخطأ رمزى Ramsay فى كتابه المسمى A Shetch of the Historical Geog-raphy of Asia Minor ص ٢٧٨ عندما وضع الحدث «أداتا» على مقربة من شمال مرعش.

واستولى جزء من العرب بقيادة عياش بن غنم على قلعة الحدث فى خلافة عمر بن الخطاب، ودمرها الروم عام (١٦٢ هـ — ٧٩٩ م) ولكن أعيد بناؤها بأمر الخليفة المهدى فى العام نفسه، ومن ثم سميت المهدية أو المحمدية تمجيداً له. ولكن هذين الإسمين لم يستطيعا أن يحلا محل الإسم القديم.

وكان للمدينة عند العرب أهمية حربية كبيرة لأنها تتسلط على أحد الطرق الحربية العظيمة الخارجة من حلب (عينتاب) إلى البستان فى آسيا الصغرى، فى حين يذهب طريق آخر إلى البستان مارا بمرعش.

ولهذا حصن هارون الرشيد الحدث، واعتبرت من أهم الثغور.

وكانت القلعة نفسها مشيدة على تل يسمى الأحيدب. أما المدينة نفسها فكانت فى حجم مرعش؛ وهوجمت كثيراً فى حروب بازيل الأول (٨٨٢ م) وليو السادس (٩٠٤ م) وعانت بلاء أعظم عندما أحرقها بارداس فوكاس سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) فاستجار أهلها بسيف الدولة (انظر هذه المادة) فأجارهم من غير تردد، وانتصر انتصاراً عظيما بجوار المدينة فى سنة ٣٤٣ هـ (٩٥٤ م)، ثم أمر بإعادة بنائها. ولكن ذلك لم يتم لأن الروم انتصروا مرة أخرى، وأصبحت لهم اليد الطولى فى هذه البقاع. وظل الأمر على ذلك إلى أن جاءت سنة ٥٤٥ هـ (١١٥٠ م) وفيها أعاد مسعود أمير قونية السلجوقى هذه المدينة إلى ملك المسلمين. وظلت فى قبضتهم إلى أن انتزعها منهم أرمن سيس بقيادة قسطنطين والد هيثوم، فحمل هذا بيبرس على إنفاذ جيش إليها سنة ٦٧١ هـ (١٢٨٨ م)، فاستولى على المدينة والقلعة وذبح أهلها ودمر المدينة تدميرا ومن هنا عرفت بكوينوك أى المحرقة (ولهذا ينبغى تصحيح القراءات المختلفة الواردة فى المقريزى والدمشقى).

وبقى هذا الإملاء إلى يومنا هذا علما على البحيرة والسهل حيث كانت تقوم الحدث (أداتا) يوما ما.

المؤلف: راجع صفحة ١٤٣ جزء ١٤ صبح الأعشى « رسالة القاضى محى الدين ابن عبد الظاهر رحمه الله بفتح الملك الظاهر بيبرس لمدينة قيصرية من بلاد الروم واقتلاعها من أيدى التتار، واستيلائه على ملكها وجلوسه على تخت بنى سلجوق ثم العود منها إلى مملكة الديار المصرية كتب بها إلى الصاحب بهاء الدين بن حنا وزير الملك الظاهر.

« حتى وصلنا الحدث الحمراء المسماة الآن بكينوك ومعناها المحرقة. وكان للملك قسطنطين والد صاحب سيس قد أخذها من أصحاب الروم وأحرقها وتملكها وعمرها بقصد الضرر لبلاد الإسلام والتجار. فلما كان فى ٦٧٢ سير مولانا السلطان إليها عسكر حلب فافتتحها بالسيف وقتل من بها — لاحظ أن صاحب مقال دائرة المعارف ينقل التسمية عن صبح الأعشى ولا يذكر المصدر فيخيل إلى القارىء أنه صاحب اليد الأولى فى اكتشاف الخطأ عند ذكره اسم كوينوك ».

(١) البلاذرى ١٦٣.

حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى، قال: خرج ميخائيل من درب الحدث فى ثمانين ألفا فأتى عمق مرعش فقتل وأحرق وسبى من المسلمين خلقا وصار إلى باب مدينة مرعش وبها

عيسى بن على ، وكان قد غزا فى تلك السنة فخرج إليه موالى عيسى وأهل المدينة ومقاتلتهم فرشقوه بالنبل والسهام ، فاستطرد لهم حتى إذا تحاجم عن المدينة كر عليهم فقتل من موالى عيسى ثمانية نفر واعتصم الباقون بالمدينة فأغلقوها فحاصرهم بها ثم انصرف حتى نزل جيحان وبلغ ، الخبر ثمامة بن الوليد العبسى وهو بدابق ، وكان قد ولى الصائفة سنة إحدى وستين ومائة فوجه إليه خيلا كثيفة فأصيبوا إلا من نجا منهم فأحفظ ذلك المهدى واحتفل لإغزاء الحسن بن قحطبة فى العام المقبل وهو سنة اثنتين وستين ومائة ، قالوا : وكان حصن الحدث مما فتح أيام عمر فتحه حبيب بن مسلمة من قبل عياض بن غنم وكان معاوية يتعهده بعد ذلك ، وكان بنو أمية يسمون درب الحدث السلامة للطيرة لأن المسلمين كانوا أصيبوا به فكان ذلك الحدث فيما يقول بعض الناس ، وقال قوم : لقى المسلمين غلام حدث على الدرب فقاتلهم فى أصحابه فقيل درب الحدث ، ولما كان زمن فتنة مروان بن محمد خرجت الروم فهدمت مدينة الحدث وأجلت عنها أهلها كما فعلت بملطية ، ثم لما كانت سنة إحدى وستين ومائة خرج ميخائيل إلى عمق مرعش ووجه المهدى الحسن بن قحطبة ساح فى بلاد الروم فثقلت وطأته على أهلها حتى صوروه فى كنائسهم ، وكان دخوله من درب الحدث فنظر إلى موضع مدينتها فأخبر أن ميخائيل خرج منه فارتاد الحسن موضع مدينته هناك فلما انصرف كلم المهدى فى بنائها وبناء طرسوس فأمر بتقدم بناء مدينة الحدث ، وكان فى غزاة الحسن هذه مندل العنزى المحدث الكوفى ومعتمر بن سليمان البصرى فأنشأها على بن سليمان بن على وهو على الجزيرة وقنسرين وسميت المحمدية وتوفى المهدى مع فراغهم من بنائها فهى المهدية والمحمدية ، وكان بناؤها باللبن وكانت وفاته سنة تسع وستين ومائة واستخلف موسى الهادى ابنه فعزل على بن سليمان وولى الجزيرة وقنسرين محمد بن ابراهيم بن محمد ابن على ، وقد كان على بن سليمان فرغ من بناء مدينة الحدث وفرض محمد لهم فرضا من أهل الشام والجزيرة وخراسان فى أربعين دينارا من العطاء وأقطعهم المساكن وأعطى كل امرىء ثلثمائة درهم ، وكان الفراغ منها فى سنة تسع وستين ومائة ، وقال أبو الخطاب : فرض على بن سليمان بمدينة الحدث لأربعمائة آلاف فأسكنهم إياها ونقل اليها من ملطية وشمشاط وسميساط وكيسوم ودلوك ورعبان ألفى رجل .

البلاذرى ١٩٤

قال الواقدى : ولما بنيت مدينة الحدث هجم الشتاء والثلوج وكثرت الأمطار ، ولم يكن بناؤها بمستوثق منه ولا محتاط فيه فتثلمت المدينة وتشعثت ونزل بها الروم فتفرق عنها من كان فيها من جندها وغيرهم ، وبلغ الخبر موسى فقطع بعثا مع المسيب بن زهير وبعثا مع روح بن حاتم وبعثا مع حمزة بن مالك فمات قبل أن ينفذوا . ثم ولى الرشيد الخلافة فأمر ببنائها وتحصينها وشحنتها وإقطاع مقاتلتها المساكن والقطائع .

وقال غير الواقدى : أناخ بطريق من عظماء بطارقة الروم فى جمع كثيف على مدينة الحدث حين بنيت وكان بناؤها بلبن قد حمل بعضه على بعض وأضرت به الثلوج وهرب عاملها ومن فيها ودخلها العدو فحرق مسجدها وأخربها واحتمل أمتعة أهلها فبناها الرشيد حين استخلف .

وحدثنى بعض أهل منبج ، قال : إن الرشيد كتب إلى محمد بن ابراهيم بإقراره على عمله فجرى أمر مدينة الحدث وعمارتها من قبل الرشيد على يده ثم عزله .

ابتداء العمليات في سروج :

وتدل أسماء القواد على أن هذه القوات التى تجمعت فى بلدة سروج كان فيها قوات من الأكراد والأرمن وأهل خراسان وكان فيها والى مراغة وهى الواقعة فى أذربيجان وبهذا يصدق قول المراجع الرومية فى أن أمير ملطية صحبه متطوعة من الأرمن فى صفوف المسلمين .

أما الجيش الأساسى ، فقد جعل المعتصم المقدمة تحت قيادة القائد أشناس والميمنة إيتاخ والميسرة جعفر بن دينار بن عبد الله الخياط وجعل القلب تحت قيادة عجيف بن عنبسة .

خط السير على درب طرسوس :

جعل المعتصم الهدف الوصول إلى أنقرة ، فى مرحلة الزحف الأولى وفى يوم الأربعاء ٢٢ رجب تقدم أشناس فى درب طرسوس إلى مرج الصفصاف الواقع قرب حصن لؤلؤة ، ولما مر من أبواب كيليكية وهى درب المضايق — كما قلنا — احتل الطوانة [(١)] وتقع — كما قلنا — على يمين الطريق الموصل إلى مدينة نجدة ولا تزال آثارها باقية إلى اليوم (راجع الخريطة) .

ثم سار بقية الجيش و بين كل فريق والآخر مسيرة يوم ، ووصلت الأنباء حينما وصل اشناس إلى مرج الأسقف وهو مرحلة على الطريق الواقع شمالى جبال طرسوس اللكام بأن جيش الروم يتجمع على نهر الهليس ليهاجم جيش العرب بعث المعتصم بخطاب إلى أشناس يطلب إليه التمهل فى السير ، وذلك لأن مؤخرة

= قالوا : وكان مالك بن عبد الله الخثعمى الذى يقال له مالك الصوائف وهو من أهل فلسطين غزا بلاد الروم سنة ست وأربعين وغنم غنائم كثيرة ، ثم قفل : فلما كان من درب الحدث على خمسة عشر ميلا بموضع يدعى الرهوة أقام فيها ثلاثا فباع الغنائم وقسم سهام الغنيمة فسميت تلك رهوة مالك .

(١) الحصن الذى بناه المأمون ثم هدمه المعتصم .

الجيش وقافلة الأمتعة لم تكن بعد قد تحركت من مكانها وأخذت طريقها على الدرب : لاحظ ارتفاع الجبال فى هذه الناحية ومصاعب الحماية والوقاية من المفاجئة.

و بعد ثلاثة أيام وقد قطع أشناس مرحلة فى السير وصل إليه كتاب من المعتصم لكى يبعث بمفرزه تقدمية تأتى إليه ببعض أسرى الروم حتى يقف على معلومات بشأن جيش الامبراطور ، وقد اختار أشناس من جنده عمرو الفرغانى بن إر بغا — وهو من الفراغنة أى من سكان فرغانة — على رأس مائتى فارس فتمكن من تصيد بعض الأسرى وعلم منهم بأن معسكر امبراطور الروم على مقربة منهم وأنه يعد كمينا فى الجبال ليفاجىء به جيش العرب عند خروجهم من دروب جبال طوروس . على عدة دفعات — أو عند محاولتهم اجتياز النهر .

طلائع أشناس :

وقد تمكن أشناس من إرسال عدة طلائع جابت المناطق الواقعة فى شمالى المنطقة التى يحتلها ، فأفضت إليه بمعلومات قيمة عن تجمع الروم وانتظار الامبراطور لجيش العرب وأنه كان على وشك أن يأمر بالتقدم ثم بالهجوم على العرب لولا وصول أخبار إليه تقول بأن جيشاً عربيا آخر دخل أرض الروم من ناحية الأرمنياق أى أرمينيا وهو كما نعلم الجيش الذى يقوده الأفشين وعليه نجحت الخطة التى وضعها المعتصم مع قواده فى مخاتلة الخصم وتوزيع قواته ، لأنه فى تلك الفترة بالذات اتجهت أنظار ملك الروم إلى أن يتجه بنفسه للقاء الجيش العربى الذى يقوده الأفشين القادم عليه من الشرق . وعين أحد قرابته على رأس الجيش المعسكر لمقابلة الجيش العربى الذى يقوده المعتصم والزاحف من الجنوب .

ولما وصلت هذه الأنباء إلى القائد أشناس بادر بإبلاغ المعتصم الذى كان أول ما فكر فيه أن يبعث بأنباء اتجاه الجيش الرومى إلى الشرق وجعل عشرة آلاف درهم لمن يصل إلى الافشين و يعلمه بذلك حتى يأخذ حذره قبل الاشتباك .

ويظهر أن تقدم الافشين كان غير مقتصر على درب الحدث وحده إذ أن بعض وحداته وسراياه ولجت من جهات أخرى، وعلى كل فليس لدينا من المراجع ما يحقق الطرق والمراحل التى قطعها الافشين لحين وصوله إلى أنقرة ولكن تقدمه يدل على عقل جبار ومقدرة خارقة للعادة .

قتال الأُفشين :

وفى الكتب العربية أن جيوش الأفشين التقت مع عسكر ملك الروم وقت صلاة الظهر وقاتلوهم قتالا شديداً ثم رجعوا إلى موضع عسكر الملك فوجدوا المعسكر خاليا بعد أن اختل عسكره .

فى هذه الأثناء تقدم أشناس فى طريقه إلى أنقرة فلما كان على بعد ثلاثة أيام منها علم من أسير وقع بين يديه أن الأفشين على مقربة منهم فلم يصدقه وكانت أنقرة قد أخليت وخرج بعض أهلها قاصدين بعض الملاحات القريبة منها ، فلما وصلت طلائع أشناس علم من أهل أنقرة بخبر المعركة التى نشبت بين الأفشين وجيش الامبراطور وهى المعركة التى بدأت فى يوم الخميس ٢٥ شعبان وتمكن الروم من الحصول على انتصارات أولية فيها وسببوا بعض الخسائر للمسلمين ثم تقدمت فرسان المسلمين وقت الظهيرة فانتزعوا النصر من خصومهم وسببوا هزيمة الروم وطالت المعركة حتى الليل فتمكن هؤلاء من ترك ميدان القتال. ويقال بأن الهجوم الذى شنّه المسلمون أوقف نتيجة نزول الأمطار التى سببت فى ضعف أوتار سهام المحاربين من عساكر الترك ، وهى النقطة التى سئل عليها الأفشين بعد ذلك « كيف ترك ملك الروم يفر دون أن يسعى للقبض عليه ».

فقال « أن الملوك تبقى على بعضها » يقصد بذلك أنه ملك من سلالة ملوك أشروسنة وهى إقليم من أقاليم التركستان وهو أن أبقى على ملك الروم

كأنما يعامله كملك يعامل نده . وعليه فقد هرب الامبراطور من وسط جنده وشق له طريقا وسط طلائع جيش الأفشين متجها إلى مدينة أماسيا فى الشمال .

قواد الروم :

وتروى كتب التاريخ البيزنطية أن القواد الذين نجوا من المعركة سجدوا تحت أقدام امبراطور وطلبوا منه أن يحكم عليهم بالإعدام ، فأبى وأمر بجمع بقايا جيشه الذى تمت هزيمته علي يد الأفشين واستعد للزحف من أماسيا على أنقرة .

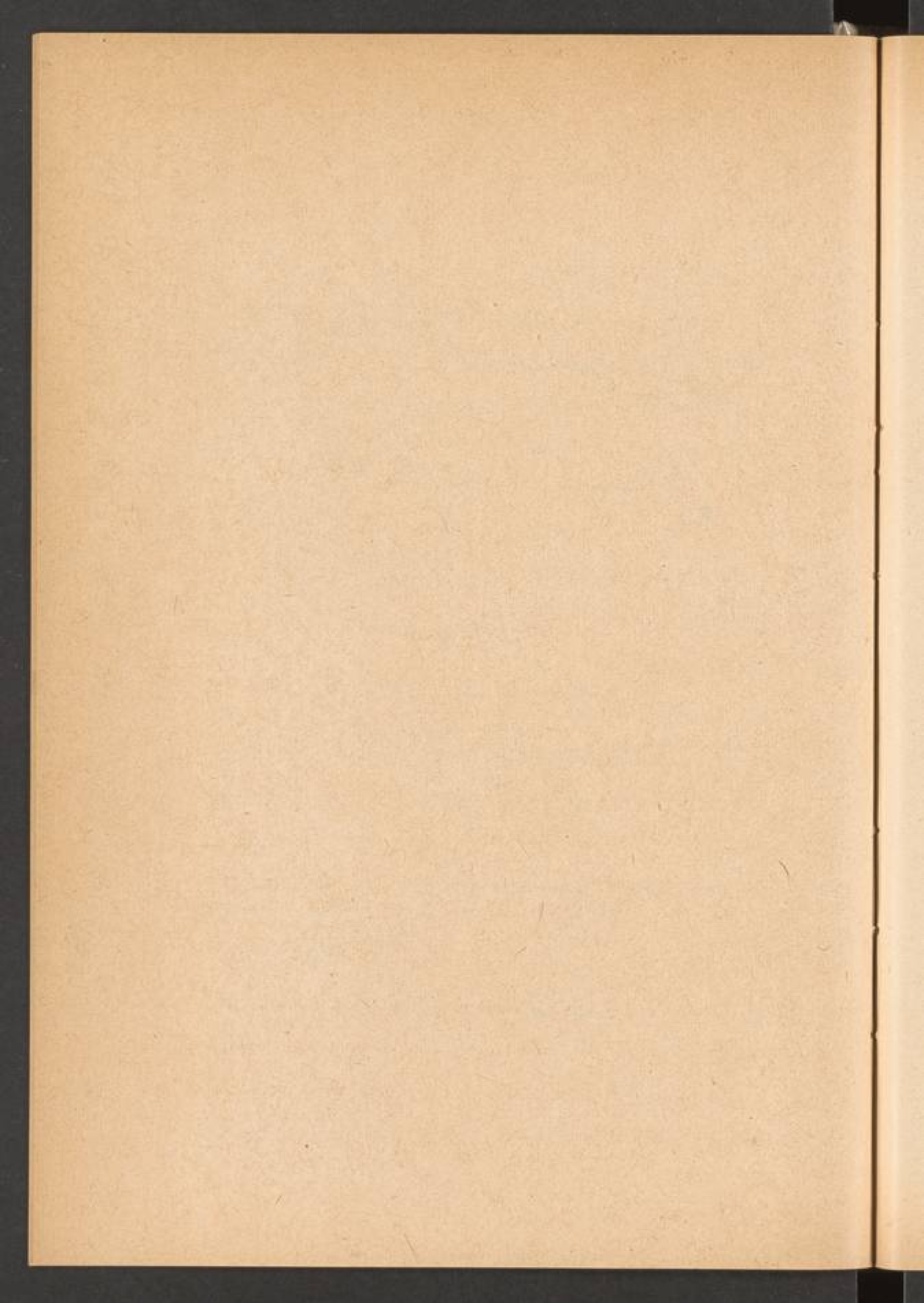
اجتماع فكى الكماشة :

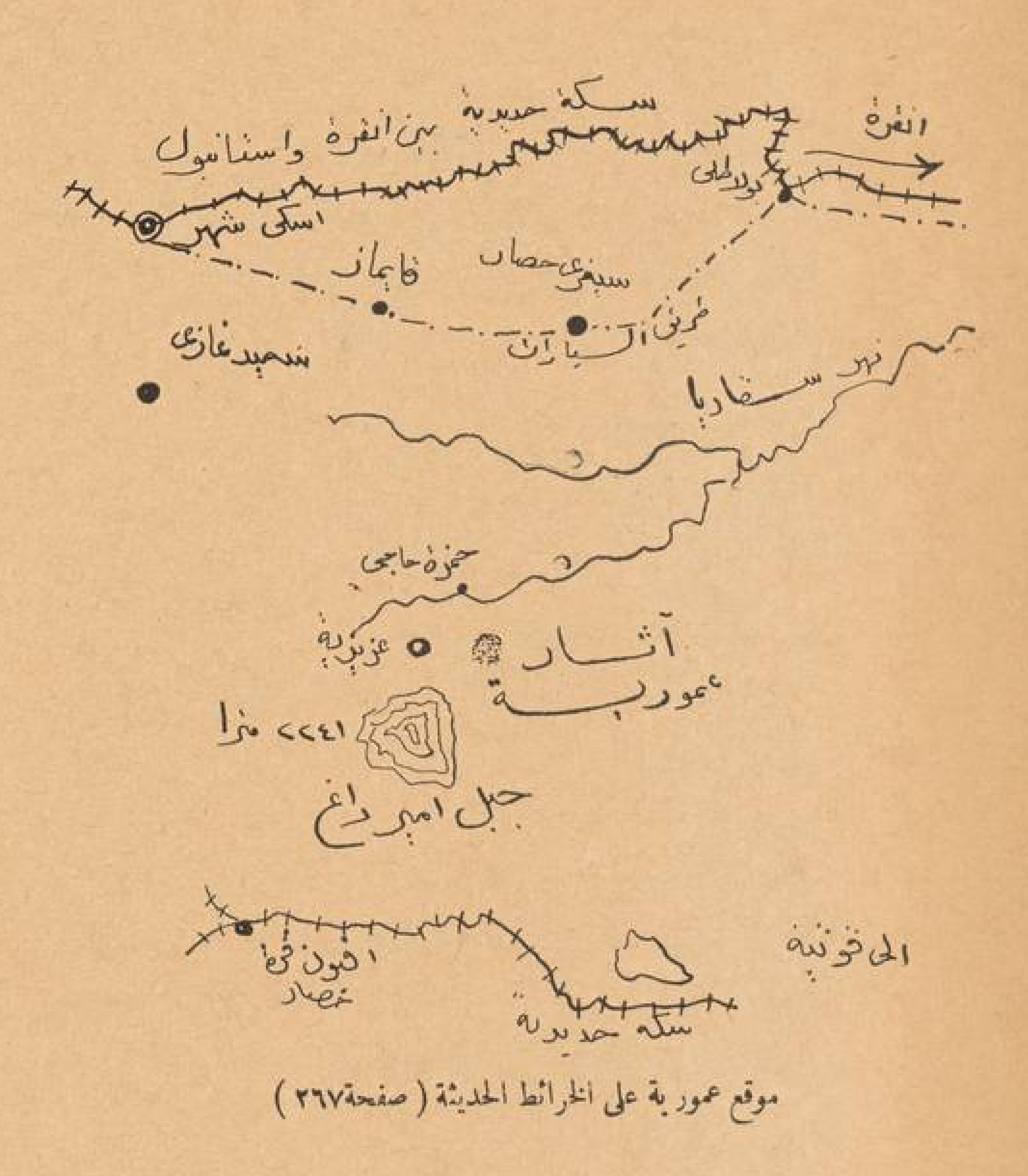
جاءت هذه الحركة بعد فوات الفرصة لأن الخطة التى وضعها المعتصم ونفذها الأفشين بعبقريته الحربية أتمت ضم فكى الكماشة على مدينة أنقرة التى دخلها المعتصم بعد أن دخلها أشناس قبله بيوم واحد .

وفى اليوم الثالث جاءت الأنباء من الأفشين تنبىء بقدومه على أمير المؤمنين وفى اليوم التالى وصل هازم بابك الخرمى وهازم الامبراطور تيوفيل منضما إلى الخليفة المعتصم .

لقد أثر هذا النجاح العظيم بعد الكارثة التى حلت بجيش الروم فى نفسية الامبراطور تيوفيل الذى بعث بالبعوث إلى المعتصم وأدعى بأن قواده تجاوزوا أوامره عند أخذهم زبطرة وتعهد ببناء المدينة المخربة علي نفقته وأن يعيد إلى المعتصم سكان زبطرة ، فلم تؤد هذه التوسلات إلى نتيجة بل احتفظ المعتصم بالرسل لديه إلى أخذه مدينة عمورية .

* * *





موقع عمورية على الخرائط الحديثة (صفحة ٢٦٧)

أين عمورية ؟؟

إذا فتحنا خريطة آسيا الصغرى ونظرنا إلى الطريق الموصل من قونية إلى اسكى شهر نجد أن موقع عمورية على هذا الطريق .

وإذا نظرنا إلى خريطة تفصيلية نجد أن عمورية تقع جنوبى سفرى حصار وهى التى توهم كثيرون من المؤرخين والكتاب أنها عمورية ، والحقيقة أن عمورية تقع جنوبى نهر سقاريا على مقربة من قرية تدعى حمزة حاجى وعلى شرق قرية تسمى عزيزية — وهى فى كنف جبل يسمى « أمير داغ » ويطلق الأتراك اسم « آثار قلعة » على بقايا عمورية .

ولا شك فى أن الوصول من أنقرة إلى عمورية يحتم المرور على « سفرى حصار » وهى المدينة التى وجدت بين بعض آثارها نقود باسم تيوفيل ولوحات حجرية باسم قواده الذين دفنوا فيها .

سقوط عمورية :

إن المرحلة الثانية لزحف جيش المعتصم على عمورية تبدأ من أنقرة حيث قسم الخليفة الجيش إلى ثلاثة أقسام وجعل بين كل واحد منها فرسخين واحتل المعتصم الوسط . ونقل أشناس من المقدمة إلى الميسرة وجعل الافشين على الميمنة واستغرق السير إلى عمورية سبعة أيام ولا تتحدث المراجع عن هذه المراحل السبع ، ولقد كنا نتشوق إلى معرفة كل مرحلة منها لنضع على الخرائط بالضبط طريق السير ومكان التوقف .

وتقول المراجع العربية أن أشناس كان أول من وصل إلى عمورية وردها يوم الخميس ضحوة فدار حولها دورة بعسكره ثم جاء بعده الافشين فى اليوم الثالث وكانت عمورية فى أزهر أيامها وكان سورها يشمل أربعة وأربعين برجاً ، ولما جاء المعتصم قسمها بين القواد فجعل إلى كل واحد منهم عدداً من الأبراج على قدر ما تحت قيادته من الجند ، فصار لكل قائد ما بين البرجين إلى عشرين برجاً ، وقد دام

الحصار خمساً وخمسين يوماً ، وكان الجيش قد أتم الأهبة والاستعداد لهذا الحصار كما عقد أهل عمورية العزم على المقاومة إلى النهاية ، وقد بدأ المجاهدون بحفر الخنادق حولها ثم وضعوا المجانيق التى بدأت تقذف الأحجار الضخمة ، وكانت أعمال الرجال الموكلين بنقب الأسوار تتم من داخل عجلات مغطاة وتحميهم رماة يرسلون سهامهم إلى من كان على الأسوار وقد مات من الجانبين عدة آلاف فى الأيام الثلاثة الأولى من ابتداء الحصار .

وتقول الرواية العربية ، إن رجلا من عمورية جاء إلى المعتصم وأعلمه بموضع فى المدينة يمكن مهاجمتها منه لأن الأمطار التى هبطت أحدثت سيلا سبب سقوط قسم من السور ، فأمر المعتصم بنقل مضربه إلى ذلك الموضع وحشد المجانيق على ذاك البناء وسلط حجارته عليه ، فلما رأى أهل عمورية ذلك لجأوا إلى كل ما لديهم من وسائل الحيل واستعملوا الخشب وبطنوه بالجير لتخفيف وقع الأحجار وتكرر الضرب المتصل من المجانيق المركزة فتداعى كل السور من هذه الناحية .

وأراد قائد عمورية أن يتصل بالامبراطور ويعلمه بتهدم السور وموقف الحامية المحاط بالأخطار وبقوة الجيش الإسلامى المحاصر وما هو عليه من بأس وأنه اعتزم على خروج الحامية ليلا ومواجهة الحصار وافتتاح طريق بين الأعداء ووجه الكتاب مع رجل فصيح بالعربية وغلام رومى فخرجا من المدينة وعبرا الخندق ووقعا فى الجهة التى يحتلها أبناء الملوك الشرقيين الذين يحاربون تحت قيادة عمرو الفرغانى — فلما وقعا بين يدى الجند سأله بعضهم من أين أنتما فقالا نحن من أصحابكم قالوا من أصحاب من فلم يعرفا أحداً من قواد أهل العسكر يسميانه فجىء بهما إلى الفرغانى ابن أربغا فوجه بهما عمرو الفرغانى إلى أشناس الذى أرسلها إلى المعتصم الذى أمر بتفتيشهما فوجد معهما الكتاب ، فلما قرأه المعتصم أمر للرجل الذى يتكلم العربية والغلام الرومى ببدرة فأسلما وخلع عليهما . ثم أمر بهما بالمرور حول عمورية .

وقد أدى هذا إلى زيادة الحرص على المدينة وأمر المعتصم أن تكون الحراسة ليلا ونهاراً وأن يبيت الفرسان على دوابهم بالسلاح وهم وقوف كيلا يفتح الباب ليلا فيخرج من عمورية فريق من حاميتها .

وقد بقيت الحراسة كاملة والنوبة للفرسان على ظهور الدواب ، والخيول بسروجها حتى انهدم السور ما بين برجين فى الموضع الذى وقف عليه المعتصم .

ويظهر أن القتال كان شديداً حول عمورية وأن جراثيم الشقاق الذى ظهر بين قواد المعتصم بدأت حول عمورية إذ أن بوادر التنافس بين أشناس والأفشين ظهرت هناك ، وكلاهما من قواد الأتراك ، فقد كان أشناس وجنده أول مهاجم ولما لم يصل إلى نتيجة حاسمة تقدم الأفشين فى اليوم التالى فقاتل جنده والمعتصم يرقبه من أعلى فرسه وحوله أشناس والأفشين فقال المعتصم مظهراً رضاه وإعجابه ما أجمل القتال اليوم ، وكان عمرو الفرغانى غير بعيد فأضاف « هو خير منه بالأمس » وعليه وضعت مؤامرة لاغتيال المعتصم ثم وضعت مؤامرة للتخلص من الأفشين [١] .

وفى اليوم الثالث كانت الحرب على المعتصم وجنوده وكان معه المغاربة . ويقول المسعودى : المغاربة والمصريون والأتراك والقائم عليهم أيتاخ ثم تحولت الحرب فى نهاية هذا اليوم لصالح العرب .. واستمر الأمر كذلك والثغرة تتسع يوماً بعد يوم والحامية تدفع عن الثغرة ، وأخيراً تقدم القائد الرومى المكلف بالموضع الذى تهدم من السور وطلب التسليم وخرج إلى المعتصم وقال لأصحابه ألا يحاربوا حتى يعود ، ولكن الهجوم استمر ، فإذا بعبد الوهاب بن على أحد اتباع المعتصم يومئ إلى الناس بيده أن أدخلوا المدينة فدخل العرب مدينة عمورية وقد انتهت مقاومة حاميتها .

ليس من حقى أن أطيل هذا البحث بالكلام على ما لحق عمورية وكيف رجع المعتصم من أواسط آسيا الصغرى وما حمله من الأسرى والغنائم إذ أن هذا

---

(١) ظهر العداء فى صفوف القواد الأتراك بين حزب أولاد المرك وعلى رأسهم الأفشين وعمرو الفرغانى وحزب المصطنعين من أتباع الخلفاء والولاة أمثال أشناس .

يخرجنا عن الهدف الذى وضعنا البحث فى نطاقه ، وإنما أذكر أن زحف المعتصم وجيوشه « قد تكلل بالنجاح والظفر » .

وأنه حقق الأهداف التى وضعها المعتصم أمامه ونفذ خطة محكمة وقد تلقى العالم الإسلامى أنباء انتصاره بمظاهر السرور والفخر .

أبو تمام :

وفى عودة المعتصم لبغداد وعند مدينة المصيصة[1] وقف الشاعر أبو تمام بين يديه .

---

(١) ١٦٩ البلاذرى . (راجع الخريطة)

محمد بن سعد عن الواقدى وغيره ، قال : لما كانت سنة أربع وثمانين غزا على الصائفة عبد الله بن عبد الملك بن مروان فدخل معه درب أنطاكية وأتى المصيصة فبنى حصنها على أساسه القديم ووضع بها سكانا من الجند فيهم ثلثمائة رجل انتخبهم من ذوى البأس والنجدة المعروفين ولم يكن المسلمون سكنوها قبل ذلك وبنى فيها مسجدا فوق تل الحصن ثم سار فى جيشه حتى غزا حصن سنان ففتحه ووجه يزيد بن حنين الطائى الأنطاكى فأغار ثم انصرف إليه ، وقال أبو الخطاب الأزدى :

كان أول من ابتنى حصن المصيصة فى الإسلام عبد الملك بن مروان على يد ابنه عبد الله ابن عبد الملك فى سنة أربع وثمانين على أساسها القديم فتم بناؤها وشحنها فى سنة خمس وثمانين وكانت فى الحصن كنيسة جعلت هريا وكانت الطوالع من انطاكية تطلع عليها فى كل عام فتشتو بها ثم تنصرف . وعدة من كان يطلع إليها ألف وخمسمائة إلى الألفين ، قال . وشخص عمر بن عبد العزيز حتى نزل هرى لنصيصة وأراد هدمها وهدم الحصون بينها وبين أنطاكية وقال : أكره أن يحاصر الروم أهلها فأعلمه الناس أنها إنما عمرت ليدفع من بها الروم عن أنطاكية وأنه إن أخربها لم يكن للعدو ناحية دون أنطاكية فأمسك وبنى لأهلها مسجدا جامعاً من ناحية كفربيا واتخذ فيه صهريجا وكان اسمه عليه مكتوبا ، ثم إن المسجد خرب فى خلافة المعتصم بالله وهو يدعى مسجد الحصن ، قال : ثم بنى هشام بن عبد الملك الربض ثم مروان بن محمد الخصوص فى شرقى جيحان وبنى عليها حائطا وأقام عليه باب خشب وخندق خندقا فلما استخلف أبو العباس فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل زيادة فى شحنتها وأقطعهم ، ثم لما استخلف المنصور فرض بالمصيصة لأربعمائة رجل ثم لما دخلت سنة تسع وثلاثين ومائة أمر بعمران مدينة المصيصة وكان حائطها متشعثا من الزلازل وأهلها قليل فى داخل المدينة فبنى سور المدينة وأسكنها أهلها سنة أربعين ومائة وسماها المعمورة وبنى فيها مسجدا جامعا فى موضع هيكل كان بها وجعلها مثل مسجد عمر مرات ، ثم زادفيه المأمون أيام ولاية عبد الله بن طاهر بن الحسين من ناحية المغرب وفرض المنصور فيها لألف رجل ، ثم نقل أهل الخصوص وهم فرس وصقالبة وأنباط نصارى ، وكان مروان أسكنهم إياها وأعطاهم خططا فى المدينة عوضا عن منازلهم على ذرعها ونقض منازلهم وأعانهم =

وأنشده البابية المشهورة :

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

بيض الصفاع لا سود الصحائف في   متونهن جلاء الشك والريب

فرتلت الدنيا هذه القصيدة العصماء خلال القرون والغريب أن الشاعر العربي مدح في شعره أكثر من واحد من قواد المعتصم في مقدمتهم الأفشين وجعفر بن رودنيار ومحمد بن يوسف الثغري .

وهو كما قال الأستاذ محمد البهبيتي في كتابه عن ابى تمام صفحة ١٤٤ .

« قد لعب بالبديع لعبا وروض أوابده ترويضاً تراه يجانس بين الألفاظ الأعجمية والألفاظ العربية » .

= على البناء وأقطع الفرس قطائع ومساكن ، ولما استخلف المهدى فرض بالمصيصة لألفي رجل ولم يقطعهم لأنها قد كانت شحنت من الجند والمطوعة ولم تزل الطوالع تأتيها من انطاكية في كل عام حتى وليها سالم البرلسي وفرض موضعه لخمسمائة مقاتل على خاصة عشرة دنانير عشرة دنانير فكثر من بها وقووا وذلك في خلافة المهدى .

وحدثني محمد بن سهم عن مشايخ الثغر ، قالوا : ألحت الروم على أهل المصيصة في أول أيام الدولة المباركة حتى جلوا عنها فوجه صالح بن علي جبريل بن يحيي البجلي إليها فعمرها وأسكنها الناس في سنة أربعين ومائة وبنى الرشيد كفربيا ويقال بل كانت ابتدأت في خلافة المهدى ثم غير الرشيد بناءها وحصنها بخندق ثم رفع إلى المأمون في أمر غلة كانت على منازلها فأبطلها وكانت منازلها كالخانات وأمر فجعل لها سور فرفع فلم يستتم حتى توفى فأمر المعتصم بالله بإتمامه وتشريفه ، قالوا :

وكان الذى حصن المثقب هشام بن عبد الملك على يد حسان بن ما هويه الأنطاكي ، ووجد في خندقة حين حضر ساقا مفرط الطول فبعث به إلى هشام ، وبنى هشام حصن قطر غاش على يدى عبد العزيز بن حياة الأنطاكي ، وبنى هشام حصن مورة على يدى رجل من أهل أنطاكية وكان سبب بنائه إياه أن الروم عرضوا لرسول له في درب اللكام عند العقبة البيضاء ورتب فيه أربعين رجلا وجماعة من الجراجمة وأقام ببغراس مسلحة في خمسين رجلا وابتنى لها حصنا وبنى هشام حصن بوقا من عمل أنطاكية ثم جدد وأصلح حديثا ، وبنى محمد بن يوسف المروزى المعروف بأبي سعيد حصنا بساحل أنطاكية بعد غارة الروم على ساحلها في خلافة المعتصم بالله رحمه الله .

حدثني داود بن عبد الحميد قاضي الرقة عن أبيه عن جده أن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفى قبل ذلك .

وفى نظرى أن شعره مصدر للتاريخ لم يدرس بعد الدراسة الكافية ، فعلى أولئك الذين اتخذوا الأدب صناعة لهم أن يعودوا إليه .

* * *

أما أنا فأختصر البحث لأقول أن زحف المعتصم على عمورية يمثل فى نظرى عبقرية القواد المسلمين من مختلف أجناسهم من عرب وترك وفرس .

واضع فى المقام الأول منهم الأفشين هذا القائد العظيم الذى يرجع إليه الفضل الأول فى الزحف وفى تحقيق الانتصار على الروم قبل سقوط أنقرة ولست أدعى شيئاً غير معلوم فإن مقدرته العسكرية ظهرت فى مصر وفى إبان فتنة بابك . وفى زحفه من سروج إلى درب الحدث ثم إلى أنقره فهو عميد قواد المسلمين فى القرن الثالث الهجرى .

* * *

برهنت حملة عمورية على تفوق قواد المعتصم وعلى تفوق الجيوش الإسلامية فى الزحف والحماية والوقاية ، وكانت من الحملات التى فاقت فى أهبتها وترتيبها وسيرها كل الحملات التى تقدمتها .

وقعة زعزت مدينة قسط طين حتى ارتجت بسوق فروق
فوحق القنا عليه يمينا هى أمضى من الحسام العتيق

فى الوقت الذى يقف فيه العالم الإسلامى وقفته الكبرى ليؤكد للدنيا مرة أخرى إننا أحياء علينا أن نستوحى من تاريخنا مواقف العظمة والتضحية ، وعمورية أحد المواقع التى نقف أمامها لنقول فى مواجهة الدنيا إننا لا نزال أحياء وفى وسعنا أن ننتزع النصر والغلبة وأن نكتب الملاحم التى كتبها الأجداد بنفس العزيمة الصادقة والتصميم الذى لا يلين .

وأين صالحية مصر ..؟

حيث كان مركز تجمع الجيوش المصرية الإسلامية

موقعها :

أما موقعها فعلى نهاية الخط الحديدى المعروف بها ، وكانت تربطها بالقنطرة سكة حديدية ، أقيمت أيام الحرب الماضية ، ثم نزعت قضبانها الحكومة المصرية لسبب لا يعلمه إلا الله ، و بقيت المحطات بين الصالحية والقنطرة أنقاضاً ، تذكر الناس بحملة فلسطين ١٩١٥ وأنفار السلطة وكانت القطارات تمر على الخط بعد منتصف الليل ، ولا يزال صدى أصوات المجندين للسلطة وأغانيهم البريئة يرنّ فى أذنى ، حينما كنا صغاراً فيقطع نومنا الهادئ صفير القطارات العسكرية تحمل العتاد والرجال للجبهة فى شرق القنال .

جمالها :

وصالحية مصر ، فيها جمال الواحة ، وجمال الريف ، ولقد دخلتها وقت طلوع الفجر ، فأخذتنى روعة الصحراء ، ورأيت الرمال ممتدة إلى نهاية البصر ، تلك الرمال التى قال عنها العرب : الجفار والغرابى والهبير ، وهى الواقعة وراء جبال طىّ إلى أرض مصر ، أما نخيلها فيبدو كغابة من غابات إقليم الشرقية ، التى ينفرد بها إقليم الحوف كما كان يطلق عليه قديماً ، إذا أتيت إليها من الغرب مشرقاً ، شممت لأرض الحوف نسيما أرق من نسيم الدلتا ، لأنه يحمل أريج

الصحراء ، و إذا نظرت إلى نخيل الصالحية عند الشروق أو فى ليالى القمر ، شهدت منظراً لا تشبع العين منه ، وتحس فى صالحية مصر بالنشاط الذى يملأ النفس والجسد ، و يجعلك تفكر فى آفاق بعيدة فيما وراء النظر ، فيما وراء هذه الرمال ، حيث مشرق الشمس ومطلع سراج الدنيا . والصالحية من بناء سلطان عظيم ، هو الملك الصالح نجم الدين أيوب طيب الله ثراه أنشأها سنة ٦٤٦ هجرية على طريق القوافل بين مصر ودمشق ، لتكون منزلة لعساكر الإسلام ، إذا خرجوا من مصر للجهاد فى الأراضى المقدسة ، أو عادوا من الحرب إلى مصر ، و بنى بها قصراً وجامعاً وسوقاً ، وكان ينزل بها و يقيم فيها ، ودخلها من بعده الكثير من ملوك مصر وأمرائها فى ذهابهم للفتوح وعودتهم منها ، ولذا تألق اسم الصالحية فى تاريخ مصر العربى ، وعرف صعيدها الكثير من العز والمجد ، وورد ذكرها فى مختلف التواريخ والسير .

أهلها :

وأهلها من صميم العرب ، لهم فى التاريخ المواقف الخالدة ، وكانت الرياسة فيهم ولا تزال إلى اليوم فى آل الحوت ، وهم فرع من بنى سليم [١] ، جاءوا مع السيد عزاز صاحب الجزيرة البيضاء ، وكانت هذه النواحى وما حولها من قديم الزمن وقبل بناء الصالحية منازل لجماعات من القيسية واليمنية ، وكان كبيرهم ربيعة بن قيس ، وورد ذكره إبان حوادث المأمون وأخيه الأمين ، فهو الذى تمسك ببيعة الأمين الخليفة العباسى ، وكانت مصر قد خطبت باسم المأمون وله عامل بالفسطاط فبعث برجل اسمه الجروى ، هذا الذى سار فى جماعة من لخم وجذام إلى بلدة فاقوس ، فنزل مع قومه بها . وكانت له مع قبائل البلاد وقائع وحروب .

---

(١) خطط على مبارك باشا .

وكانت هذه المناطق موطناً للعرب ، من بنى عمرو و بنى حرام و بنى عقبة و بنى زهير و بنى واصل والبقرية ، وهم الذين تفرقوا فى النواحى وعمروا القرى والبلاد ببطونهم وأفخاذهم .

بناؤها على الدروب :

ولما تم بناؤها أصبحت الصالحية من أهم منازل الدرب السلطانى الذى كان يربط مصر القاهرة بقلعة دمشق ، طوال الأزمان الماضية ، وقد وصفه المقريزى فقال إنه كان عامراً إلى سنة ٨٠٦ هجرية وكان لا يخلو من المسافرين لأنه ممر البريد السلطانى بين العاصمتين . ولما جاء الفرنسيون رسموه على خرائطهم ووضعوا عليها أماكن الآبار ، وساروا فيه بجنودهم إلى الشام وفى عودتهم إلى مصر .

ذكرياتى :

ولقد قطعت الطريق بين مصر وفلسطين فى ذهابى إلى سوريا وعودتى منها مراراً عديدة ، وكنت أقطع القنال أحياناً من السويس وأحياناً من الاسماعيلية مخترقاً سينا ، وكنت كلما لاح لى نخل القرين وأنا على مفترق الطريق قبل بلدة التل الكبير ، أذكر الدرب السلطانى القديم ، الذى كان يتجه من العباسة إلى بلدة القرين ثم إلى الصالحية وأحدث نفسى بالآمال فأقول « متى يعبد للسيارات فتسير عليه » ، ومتى تهتم السلطات المختصة بالنواحى التاريخية ؟ أليس فى كل مرحلة منه ذكريات ، وفى كل محطة بريد أثر أو بقايا أثر ، يحدثنا عن ماضينا المجيد الذى يحاول البعض أن تنساه مصر ، وما كان لمصر أن تنساه .

ابن بطوطه :

وهذا الدرب السلطانى يعرفه ابن بطوطة الرحالة المشهور فقد سار فيه وتحدث عن منازله ووصفها بقوله « ولكل منزل منها فندق ينزل فيه المسافرون

بدوابهم ، وبخارجه ساقية للسبيل وحانوت للشراء » وذكر الصالحية عند نزوله بها .

عبد الغنى النابلسى :

أما الشيخ عبد الغنى النابلسى فكان أوسع وصفاً منه حينما تناول الصالحية بكلامه ، فقال « وفى داخل القرية جامع السلطان قايتباى وعمارته متينة ، له إيوان عريض فيه المنبر والمحراب وله منارة عظيمة . . . وأهلها حارتان متميزتان فى الألفاظ والمعانى فمنهم القيسى الأحمر واليمنى الأبيض » .

القيسية واليمنية :

ولو شئت دليلا على قيام القيسية واليمنية بقرى مصر ، فاذهب اليوم إلى بلدة السماعنة من قرى فاقوس ، تجد فتياتها لا يتخذن غير اللون الأبيض لخمارهن ، وإذا جئت لجزيرة سعود وجدت نساءها يلبسن الحزام الأحمر ولا تعرف واحدة منهن شيئاً عن النزاع القديم الطويل الأمد بين اللونين ، والذى يمكن تتبعه من خراسان إلى ما وراء النهر فى أواسط آسيا والعودة به إلى أيام الجاهلية ، والتحدث عنه فى الجزيرة الخضراء أى بأرض الأندلس .

مركز لتجمع الجيوش :

ونعود إلى الصالحية فنقول إن موقعها على طرف الأراضى الزراعية وعلى حافة الصحراء ، قد جعل منها مركزاً هاماً لتجمع وحشد الجيوش الإسلامية فى القرون الوسطى ، حتى بعد انتهاء الحروب الصليبية ، فورد اسمها كثيراً فى حملات ملوك مصر ضد هولاكو وأبنائه وأحفاده ، وكانت لها شهرة تاريخية بتوالى هذه الحروب وتتابع الأحداث التاريخية والمواقف الرائعة التى حدثت بها .

هجوم التتار :

فى سنة ٦٥٦ هجرية دخل هولاكو بغداد مقتحماً الجزء الغربى من بلاد المسلمين فقضى على خلافتهم ، وكان جده قد سبقه عام ٦١٨ فدمر الأجزاء الشرقية من أرض الإسلام فى بخارى وسمرقند والرى ، فأراد أن يتم عمله بتدمير مصر والشام ، ولذا زحف على حلب واستولى عليها ، و بعث برسالة إلى سلطان مصر الملك المظفر قطز ، يهدد و يتوعد ، وسار إلى دمشق ففتحها ، وكان المظفر من أبطال المسلمين ، فلم يرهبه التهديد ولا الوعيد ، وكانت جيوش هولاكو لا تقهر ولم يسبق لقوة فى العالم أن هزمتها أو صمدت أمامها ، فاكتسحت بقية الشام ووصلت طلائعها إلى غزة فقام المظفر قطز يدعو إلى الجهاد ، واتخذ الصالحية مركزاً تجتمع فيه .

الجيوش المصرية :

وكان الناس فى قلق وخوف ووجل ، حتى هاجر الكثيرون إلى بلاد اليمن و برقة والنوبة ، ولما تكامل حشد الجنود فى معسكر الصالحية ؛ طلب السلطان الأمراء وتحادث معهم بشأن الرحيل لقتال هولاكو وجنوده ، وكان الرأى الغالب أن جيش التتار لا يقاوم ولا يدفع ، فلم ينطق أحدهم بكلمة واحدة بل امتنعوا عن الكلام فاحتد السلطان وقال لهم « يا أمراء ، لكم زمن تأكلون أموال بيت المال وأنتم للجهاد كارهون ، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبنى ، ومن لم يختر ذلك يرجع لبيته ، فإن الله مطلع عليه ، وخطيئة حريم المسلمين فى رقاب المتأخرين » ولما جاء الليل ركب المظفر قطز وقال « أنا ألقى التتار بنفسى » .

فقويت العزائم وسار الأمراء معه وتحرك الجيش إلى الشام ، والتقى الجمعان فى يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٥٨ هجرية بأرض فلسطين فى بلدة عين جالوت

وهى المعركة التى صرخ فيها السلطان ثلاثاً « وا إسلاماه » فمن الله بالنصر المبين عليه ، فخلصت الشام ونجت مصر .

تجمع جيش مصر بالصالحية :

كان هذا الجمع فى النصف الأخير من سنة ٦٥٨ بالصالحية ، وكنت كلما قرأت عنه فى المراجع ؛ أحدث نفسى ؛ متى أرى نصباً تذكارياً على ربوة عالية فى ميدان متسع ، يذكر الناس ويوحى إلى الأجيال القادمة ، بهذه الوقفة الرائعة به وهذه كلمة واحدة قد غيرت تاريخ المشرق ولو صدر مثلها من ملك من ملوك أمة من بعض الأمم لنقشوها على الأحجار ولقنوها للأحداث والنشء عندهم ، وليس هناك أحق من الصالحية فى نظرى بمثل هـذا الأثر ، الذى يعلم الناس ما يجهلون من آيات تاريخهم ، لأن على أرضها قيلت هذه الكلمة الفاصلة .

تاريخها :

ويطول بنا الكلام إذا تحدثنا عن كل ملك نزل بها وأقام فيها ، ولكنى أكتفى بمناسبة سارة . ففى يوم الإثنين ٢٠ المحرم سنة ٧٠١ عاد الناصر محمد ابن قلاون من الصيد بالبرية إلى معسكره بالصالحية وكانت هناك بعثة من قازان ملك التتار من سلالة هولاكو ، فخلع السلطان على الأمراء واستعرض الجيوش فدهش السفراء من زى عساكر مصر واستعدادهم ، وقال المقريزى « إن الرسل أدخلوا إلى الدهليز السلطانى بالصالحية بين يدى السلطان ، وقد أوقدت الشموع الشموع والفوانيس والمشاعل وغيرها ، حتى أن البرية أصبحت حمراء تلتهب نوراً وناراً ، فخلع عليهم وأعطى كل واحد منهم عشرة آلاف درهم » وانصرفوا بكتاب من الملك الناصر .

ومثل هذا كثيراً لو تناولناه بالجمع فى تاريخ الصالحية لأخرجنا كتاباً عنها .

ولكنها نظرات عابرة فى حياة بلدة أعزها ولها مكانة فى نفسى ، أكتبها لعلمى بأن البلدان والرسوم والأطلال مثلها كمثل الرجال تتكلم أحياناً ، وتوحى عن ماضيها ولا سيما إذا حفل هذا الماضى بعظائم الأمور .

الغورى :

ونزلها آخر ملوك مصر المستقلة ، السلطان الغورى فى يوم الثلاثاء ٢٥ ربيع الآخرة سنة ٩٢٢ هجرية ، ولما أراد الرحيل إذن لخليفة الإسلام وللقضاة الأربعة أن يتقدموه إلى غزة . وكانت رحلة بعيدة عن السعد ، اختتمت بها مصر حياتها الحرة ، فانتهى عهد وبدأ بها عهد ، وجاء ذكر الصالحية فى تاريخها كنغمة غير مسموعة ، وسط قطعة موسيقية مملوءة بنغمات أقوى ، ولكنها كانت للأسف نغمات الحزن والأسى والدموع . . .

مركز الصالحية :

هذه صالحية مصر ، أشير إليها كى يذكرها الناس فى وقت نسى الناس فيه كل شىء ، وتقرر الحكومة المصرية فيه إنشاء مركز جديد ، يقتطع من أراضى مركز فاقوس ، فتقلب جميع الأوضاع ، وتدرس مختلف الأسماء ، وشتى القرى والبلاد ، وتنسى الصالحية ، كما نسينا تاريخها ومنزلتها — واجتهد أن أذكر الناس بها ، وأحاول ذلك المرة بعد المرة ، فلا يسمع لى أحد ، ولكن الصالحية هى من بناء ملك عظيم ، وكانت من منازل عظماء الملوك ، ومنها خرجت جيوش الإسلام وعادت إليها منصورة . فكم منا يعرف ذلك ويذكره ؟ وكم من أهلها يعرف أن هذا الثرى الذى يمشون عليه ، حمل أعلام العز والمجد والقوة والعمل فى سبيل الله ؟ لن يضيرها أن تتجاهلها وزارة الداخلية المصرية ولكن يضيرها أن ينساها الناس ولا سيا أهلوها .

الحصون والقلاع التي فتحها
الناصر محمد بن قلاوون في ملك الأرمن

مقدمة :

أفرد الدكتور على ابراهيم حسن فى كتابه « دراسات فى تاريخ المماليك البحرية » باباً عن السياسة الخارجية ضمنه حروب مصر وعلاقاتها مع الدول الأجنبية ، وهو بحث شيّق دل على سعة اطلاعه وتدقيقه حينما عرض لما يتعلق بدول المغول فى فارس والقفجاق والهند ، ولكنى دهشت حينما أفرد قسما لدولة سماها أرمينية وأدخل فى حروب مصر معها فتح ملطية وآمد وغيرهما من البلاد الإسلامية إذ قال فى صفحة ١٦٨ « إلا أن الأرمن قد عاودوا العصيان فأرسل إليهم الناصر حملة وأمر تنكز بالانضمام إليها ، فخرج فى أول محرم سنة ٧١٥ وحاصر ملطية ودخلها فى يوم الثلاثاء ٢٣ محرم من تلك السنة . » وفى صفحة ١٦ « توالت انتصارات جند الناصر ففتحوا مدينة عزقية من أعمال آمد فى سنة ٧١٥ ثم فتحوا آمد بعد ذلك وقد ساعدت الأحوال السيئة فى بلاد أرمينية الناصر محمداً على غزوها فقد تولى عرشها الملك ليو الخامس » .

أرمينية :

والمعروف أن أرمينية الجغرافية لم يكن لها وجود سياسى فى ذلك الوقت ، ولم تكن ملطية ولا آمد تحت سلطان الملك ليو الخامس ، وإنما كانت هناك مملكة للأرمن على أطراف بحر الشام وكان صاحبها يطلق عليه «متملك سيس» وقد انحصر ملك الأرمن فى منطقة من السهول حول مدينة سيس تحيط بها الحصون التى أنشأها المسلمون والصليبيون واحتلها الأرمن وتحصنوا فيها ، وكانت هذه الإمارة تخضع أحياناً خضوعاً إسمياً لمصر وتحالف المغول إذا جاءوا للفتح

وتدارى ملوك الروم من سلاجقة وتركمان ، إذن فلا علاقة بين هـذه المقاطعة والحروب التى قامت فى عهد الناصر فى ديار بكر والجزيرة وأرض الروم وترتب عليها فتح ملطية وآمد وغيرهما فقد حضر أبو الفداء تجمع عسكر مصر والشام فى حلب ولازم الحملة فى خروجها لفتح ملاطية وحدثنا عن المراحل التى قطعها الجيش المصرى من عينتاب إلى نهر المرزبان وصحته مرزمان إلى رعبان فالنهر الأزرق قال « وجعلنا حصن منصور على يميننا » ثم إلى ز بطرة حتى حصار ملطية ولم يذكر لنا الأرمن فى طريقه ولا فى عودته كأصحاب دولة وسلطان وإنما ذكر فى ملطية حاكما اسمه جمال الدين الخضر وهو من بيت بعض أمراء الروم . وأماكن هذه المواقع التى مرت بها الحملة فى سيرها وعودتها معروفة على الخرائط وهى بعيدة عن أراضى ملك الأرمن فى سيس . وما قلناه عن ملطية ينصب على آمد الواقعة على نهر دجلة وبينها وبين « ليو الخامس » متملك سيس مراحل وأراض شاسعة منها ما هو تحت حكم مصر ، ومنها ما هو على حدودها فى الولايات التى كانت خاضعة أو متحالفة مع خانات أو إيلخات مغول فارس،وهى بقاع إسلامية لم يكن للأرمن وملكهم شأن بها . ودليلنا على صحة ما سقناه قول صاحب البداية والنهاية عند ذكره فتح ملطية «وقد كانت ملطية إقطاعاً للجوبان[1] أطلقها له ملك التتار فاستناب بها رجلا كردياً فتعدى وساء وظلم فكاتب أهلها السلطان الناصر وأحبوا أن يكونوا فى رعيته » . صفحة ٧٣ جزء ١٤ .

ابو الفداء :

وفى أبى الفداء ما يشرح شكوى أهل ملطية إذ قال « إن المسلمين الذين كانوا بها اختلطوا بالنصارى حتى إنهم زوجوا الرجل النصرانى بالمسلمة وكانوا يعدون الإقامة للتتر ويعرفونهم بأخبار المسلمين » صفحة ٩١ جزء ٤ .

(١) راجع ما كتبناه عن الجوبان صفحة ٢٨٦ من هذا الكتاب .

قاضى ملطية :

ويظهر أن قاضى ملطية كان أول من تلقى جند الناصر وطلب منهم الأمان لبلد لأن له يداً فى هذه الشكوى التى جعل من ضمن ما جاء فيها ما يبرر استفزاز حمية الناصر الدينية وإن كان أبو الفداء يضيف إلى ذلك سبباً آخر هو تعرض أهل ملطية لجند مصر المقيمين فى القلاع الشمالية مثل قلعة الروم وبهنسى وكختا وكركر فى غدوهم ورواحهم . ويذكر المقريزى فى السلوك (صفحة ١٣٤ جزء ٢ للدكتور زيادة) إن التعرض كان ضد الفداوية من أهل قلعة مصياف الذين أرسلهم الناصر لاغتيال قراسنقر المقيم بمدينة مراغة وإن الكردى الذى تغلب على ملطية وجبى أموالها قبض عليهم وترتب على ظهوره أن نائب ملطية من جهة جوبان ويقال له بدر الدين ميرامير بن نور الدين خاف أن يأخذ الكردى نيابة ملطية منه فكاتب الناصر واتفق معه على تسليم البلد إليه ، وقد خص فتح ملطية بصفحة فيها تفاصيل عن تسليم المدينة واحتفال نائبها والتشاريف والخلع التى وجهت إلى أعيانها ، ولم نجد فيها ولا فيما لدينا من المراجع إشارة أو كلمة يفهم منها أن ملطية كانت تحت حكم « ليو الخامس » .

أخطاء المؤرخين :

ونحن نلتمس للدكتور على ابراهيم حسن عذراً لأن السير وليم موبر فى كتابه « تاريخ المماليك فى مصر » ذكر فى الصفحة ٨١ (طبعة مصر مترجمة) « أرسل السلطان الحملات على بلاد الأرمن التعسه وحصرت عساكره ملطية » ، وجاء من بعده الأستاذ أنور زقلمة فوضع كتاباً عن « تاريخ المماليك » طبعة مصر كتب فى صفحة ٦٣ منه « وعاد الأرمن مرة ثالثة للعصيان عام ١٣١٤ فى عهد الناصر فأرسل لهم حملة قوية حاصرت مدينة ملطية » . وفى ذلك ما يشعر بأنهم

ينقلون جميعاً عن مصدر واحد وصاحب هذا المصدر إما اختلط عليه الأمر ولم يفرق بين ولاية سيس وأرمينية الجغرافية أو فهم من وجود طائفة من الأرمن فى ملطية أنهم أصحاب الأمر والنهى فيها ، أو هو على علم تام بهذه الحقائق ولكنه كغيره من كتاب الغرب الذين لا يملكون التحرر من تقاليد الحروب الصليبية ولذلك ينظرون دائماً بمنظار مكبر إلى كل ما يذكر بآثارها ، ولما كانت ولاية سيس من تلك البقايا فهم يحملونها برغم أنف الزمن دوراً مهما فى التاريخ والحروب والعلاقات السياسية ويضيفون إليها بلاداً إسلامية طال عهدها بالإسلام وأهله ، ويكبر على أنفسهم الاعتراف بأنها ولاية صغيرة فى كيليكية .

واجب العلماء :

وواجب علمائنا فى التاريخ وضع الأمور فى نصابها وإعادة الحق لذويه ، ودولة المماليك من الدول الإسلامية التى لم ينصفها التاريخ وتعرضت لشتى الهجمات من مؤرخى الغرب ، ولكن الدكتور على إبراهيم حسن أنصفها فى كتابه وهذا من دلائل النهضة القائمة والوعى التاريخى لإعادة القيم الحقيقية لذلك العصر فله عظيم الشكر والثناء .

ولاية حلب :

وقد اطلعت بعد كتابة ما تقدم على تحديد نيابة حلب فى عهد الناصر كما جاء فى مسالك الأبصار ونقل ذلك صاحب صبح الأعشى فإذا فيه « ولاية حلب متصلة ببلاد سيس والروم وديار بكر وبرية العراق وتحدها من الشمال بلاد الروم مما وراء البهنسى وبلاد الأرمن على البحر الشامى » .

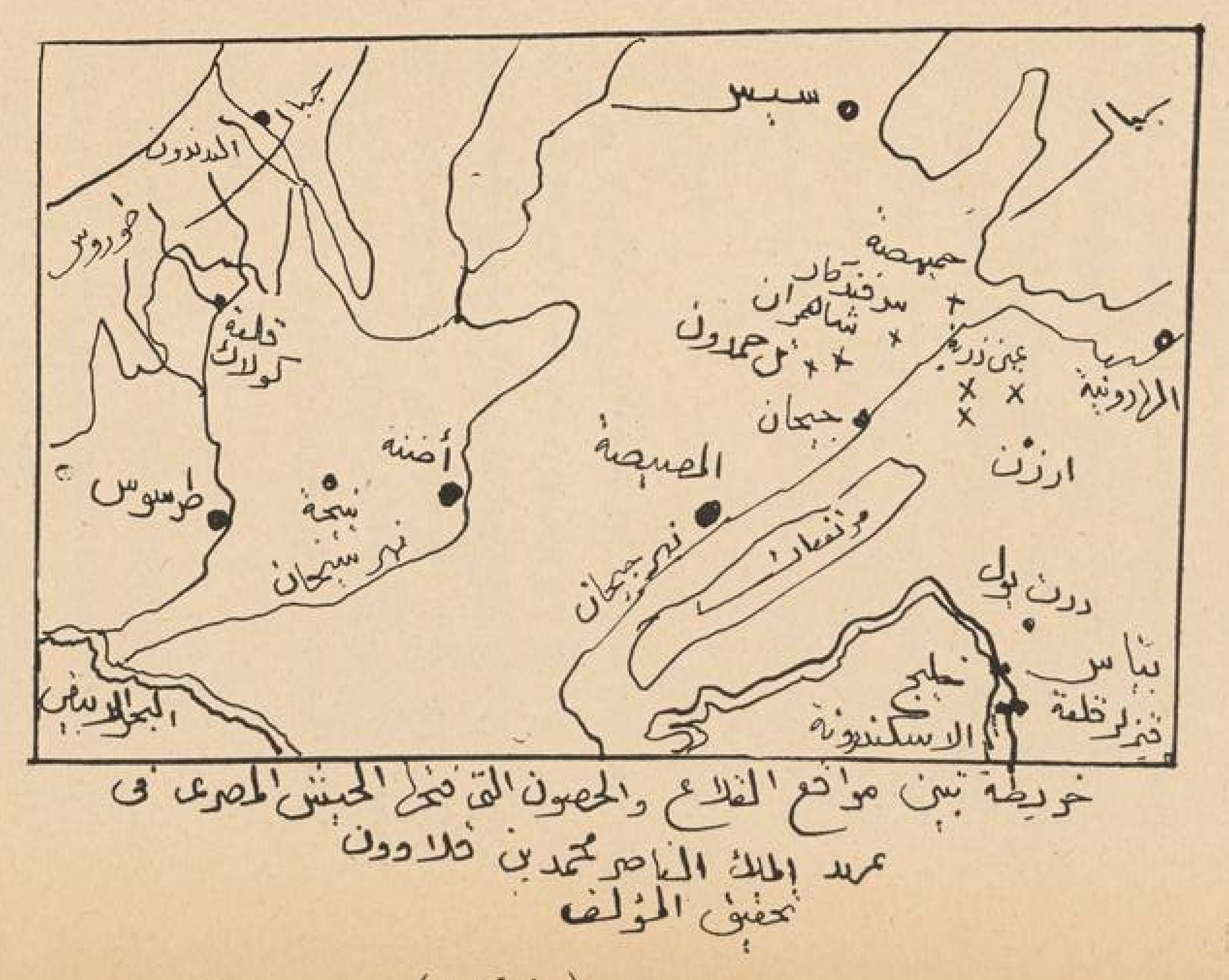
بلاد الأرمن :

ويفهم من ذلك أن بلاد الأرمن يقصد عند ذكرها الأراضي الواقعة على خليج الأسكندرونة والبحر الأبيض المتوسط وهى التى يطلق عليها اسم كيليكية أو ولاية أدنه التركية حالياً والتى يخترقها نهرا سيحان وجيحان من الشمال إلى الجنوب : وعرفت بهذا الاسم فى هذا العصر الذى نتحدث عنه وإلا فهى قديماً بلاد الثغور والعواصم وفيها قبر المأمون بطرسوس وضمت إلى مصر من عهد أحمد بن طولون ولها تاريخ طويل ومعارك وأيام .

ولما تملكها الأرمن بعد الحروب الصليبية تعرضت لهجمات المصريين فانتزع الملك الظاهر بيبرس قلاع بغراس والبهنسى ودربساك سنة ٦٨٨ ثم فتح الأشرف خليل بن قلاوون قلعة الروم ٦٩١ وهى نهاية ما وصل إليه الأرمن شرقاً، وافتتح الناصر الحصون الواقعة فى الشرق من جيحان ، ثم جاء الأشرف شعبان ففتح عاصمتهم سيس وبقية ما حولها من البلاد على يد قشتمر المنصورى نائب حلب وبذلك أصبحت ولاية أدنه بأكملها تحت حكم مصر حتى الفتح العثمانى .

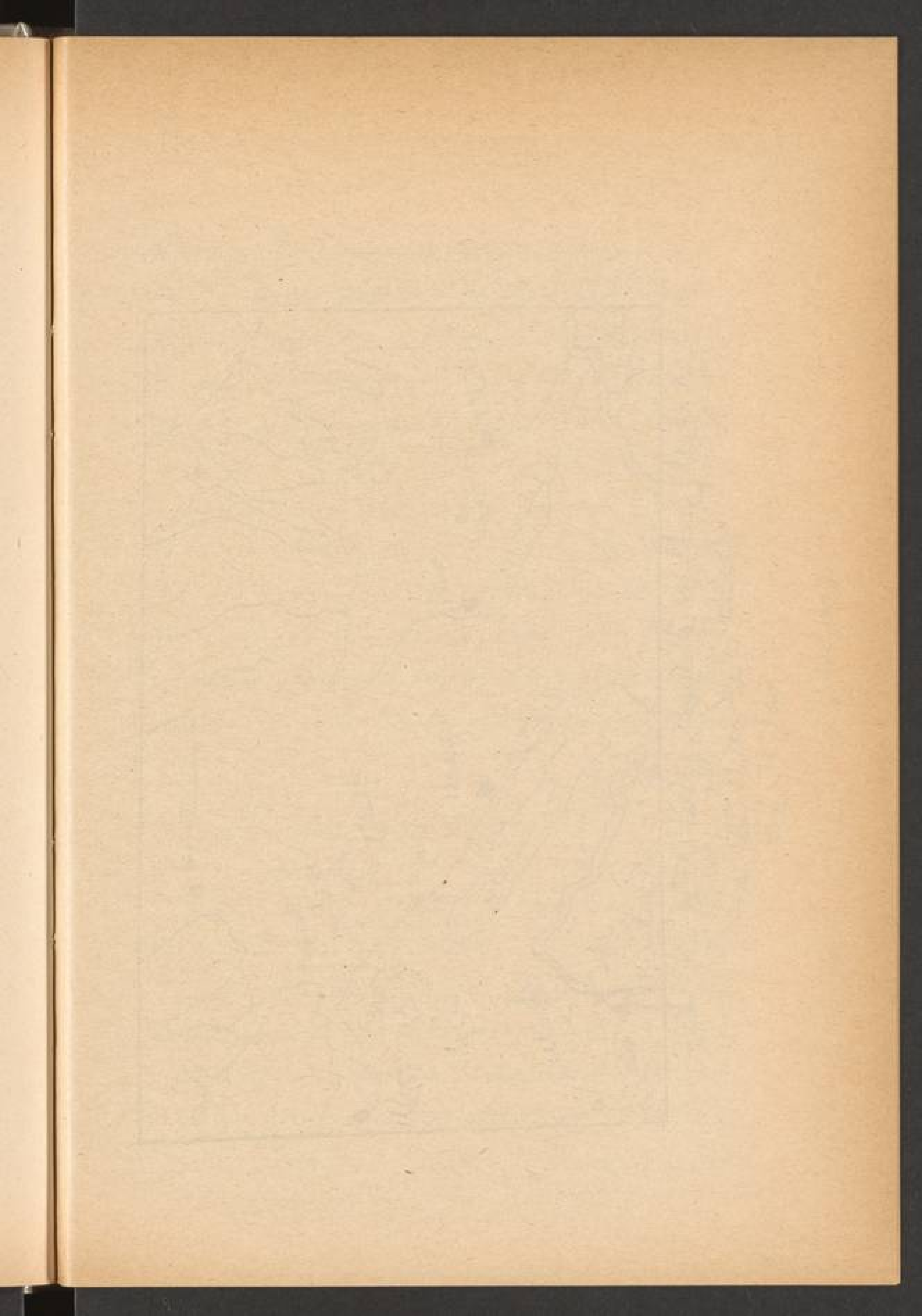
الحصون والقلاع

وجاء ذكر الحصون والقلاع التى تسلمها الناصر من ملك الأرمن فى كتب التاريخ وليس بينها خبر عن ملطية أو آمد ، ونظرة يسيطة إلى خريطة مفصلة لتلك المنطقة تجعلنا نتحقق من مواقع القلاع التى ضمها الناصر من بلاد الأرمن وهى تكون مع الأراضى ما يشبه المثلث قاعدته خليج الأسكندرونة بين بياس وإياس وأدمة الهارونية (نسبة لهارون الرشيد) وهى جميعاً شرقى نهر جيحان . ويقول أبو الفداء « وهو ملك كبير وبلاده كثيرة » ويقول صاحب السلوك « وأقطع السلطان أراضى سيس لنائب حلب ونائب الشام وغيرهما من الأمراء وأقر فيها جماعة من التركمان والأجناد ، فاستعملوا الأرمن فى الفلاحة وعمل فى كل قلعة من قلاع الأرمن نائب ورتب فيها عسكر » .



خريطة تبين مواقع القلاع والحصون التي فتحها الجيش المصري في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون
تحقيق المؤلف

(صفحة ٢٨٤)



حقيقة الجلاء

ولكن الكتب التى أخذت من المصدر نفسه تقول بجلاء عسكر مصر ومنها كتاب الدكتور على ابراهيم حسن الذى يقرر فى صفحة ١٦٩ « ثم جلت جيوش الناصر بعد أن أجمعت كثيراً من الأسلاب والغنائم » والحقيقة أن الجلاء كان عن الأراضى الواقعة بين النهرين أى شمال المصيصة وأدنة .

ملك الأرمن

أما ما كان شرقى جيحان فهو الذى تناوله الأقطاع ، ودليلنا على ذلك أن ملك الأرمن بعث بمفاتيح القلاع إلى القاهرة : وهى إياس (٣ قلاع) والهارونية والنقير وكودا والحميمصة ونجيمة » كما جاءت فى كتاب تاريخ سلاطين مصر والشام . ويضيف أبوالفداء سر فندكار والمصيصة وكوبرا ، ويقول « ضرب المسلمون برج إياس الذى فى البحر واستنابوا بالبلاد المذكورة نواباً »...
وأين هذا من تجنى المراجع الأوروبية علينا ومن ينقل منها فى غير تحقيق وتثبت ؟

هجمات التركمان

ومع بقاء ملك الأرمن فى عاصمته سيس حتى عهد الأشرف شعبان تحت حماية ملوك مصر بقيت بلاده معرضة لهجات التركمان وعسكر ابن قرمان من آسيا الصغرى ، ولذلك نجد أن كتب التاريخ تحدثنا باحتلال جند الناصر لبعض القلاع الواقعة على سفوح جبال طوروس أو التى تعترض الطرق الموصلة للجبال ، نذكر على سبيل المثال قلعة كولاك فى شمالى طرسوس على خط عرض واحد مع الهارونية وهى فى نهاية الغرب من ولاية أدنة ، وهناك « بارى كودك » افتتحها باى دمير الخوارزمى فى عهد الناصر وهى إلى الشمال من طرسوس ، ومنها « قلعة لؤلؤة » وهى شمالى كولاك .

تفسير تسليم القلاع

ولا أجد تفسيراً لاحتلال هذه المناطق غير أن ملك الأرمن سلم بما بين يديه من الحصون التى على الشرق بشرط حمايته من الغرب فصرح للمصريين باحتلال الحصون والمضايق التى يتسرب منها التركمان وعسكر ابن قرمان من الجهة الشمالية والغربية لمهاجمة بلاده .

إن التاريخ علم يتقدم مع الزمن شأنه شأن غيره من العلوم وقد يأتى لنا المستقبل بنصوص تفسر لنا كل ذلك فلا أجزم بشىء نهائى .....

شهداء الإسلام المجهولين :

سيف الدين جوبان

نائب مملكة التتر

شهداء المسلمين هم الذين قتلوا فى سبيل الله ويحسبهم الناس أمواتا وهم أحياء عند ربهم كثيرون ولو شئنا لعددنا الكثير من شهدائنا المعترف باستشهادهم فى سبيل الحق وموتهم فى الدفاع عن العقيدة ولكننا نرغب فى أن نشيد بذلك الفريق من المسلمين الشهداء الذين عاينوا الموت ، وبقى إسمهم مطمورا وعملهم مجهولا .

كلنا يعرف شيئا قل أو كثر عن مملكة التتار أو المغول التى كان على رأسها « هولاكو » الذى دمر بغداد واستباحها سنة ٦٥٦ هـ والتى سببت المتاعب والآلام للمسلمين لما ارتكبته من المظالم وكانت سياستها تقوم على القوة الغاشمة ونزع الرحمة من النفوس وقد أنشأ « جنكيز خان » عقوبة القتل لمن يرق قلبه من جنود التتر فيطعم أسيراً أو يسقيه .

ويشاء ربك أن تضعف هذه القوة شيئاً فشيئاً أمام قدسية الرسالة المحمدية فإذا بها تصبح قوة إسلامية وإذا بهؤلاء الذين تغلبوا على الإسلام قد أخذوا يدافعون عنه ولكن بين الفترة الأولى والثانية أو بين الكفر والإيمان مهلة من الزمن هى التى يبدو فيها الاستشهاد عظيما وتبرز فيها أسماء الشهداء من الذين يعتبرون الرعيل الأول الذى دعا إلى الحق بين هؤلاء القوم . . .

وأعرف من هؤلاء أميراً كبيراً من أمراء الدولة التترية والتى يطلق عليها فى التاريخ الإسلامى « الدولة القانية » نسبة إلى القان أو الخان الأعظم . هذا الأمير هو سيف الدين جوبان قال عنه الذهبى « كان بطلا شجاعا مهيبا شديد الوطأة كبير الشأن عالى الهمة صحيح الإسلام ذا حظ من صلاة وبر » وقال عنه صاحب النجوم الزاهرة بعد أن وصفه برسوخ القدم فى الإسلام « أنه أجرى المياه إلى مكة المكرمة فى جمادى الأولى سنة ست وعشرين وسبعمائة وأنشأ مدرسة بالمدينة المنورة كانت مجاورة للحرم الشريف » .

لفتت نظرى هذه العبارات فأردت أن أتتبع شخصية هذا الأمير الذى غلبت عقيدته الإسلامية على جنسيته المغولية فرأيت أن هذا الأمير وصل إلى أعلى الدرجات فى بلاده حتى كان نائب المملكة ووزيراً لعاهلين من كبار ملوك التتر هما « خودابندا » و « أبى سعيد » وقد دفعه إيمانه إلى إقرار الصلح وحقن دماء المسلمين فى كل مناسبة عرضت عليه ويرجع إليه الفضل فى جمع الشمل وتوطيد المسالمة بين الملك الناصر محمد سلطان مصر وملك التتر « أبى سعيد » .

فقد كانت الحرب بين هؤلاء وبين ملوك الإسلام فى مصر لا تنقطع ونزلت جيوش المغول على مدينة الرحبة فى رمضان وحاصرت قلعتها ونصبت المنجنيق عليها ولكن الأمير المسلم فى جيش المغول حال دون استعماله ضد عسكر مصر وعمل كل ما فى طاقته لمنع القتال وكان يقول لمن يثق فيه « ماذا يقول الخلق عنى لو غلب القان على الرحبة وسفك دم أهلها وهدمها فى رمضان . فى هذا

الشهر المعظم ؟ أما كان عنده نائب مسلم يبدى له النصيحة ويثنيه عن عزمه ؟ »

وقفل جيش المغول راجعا إلى إيران وجاء حقن دماء المسلمين على يديه .

وذكر المقريزى « أنه بعث برسول خاص إلى الدولة المصرية يطلب ضيعة خربة من ضياع مصر المتروكة لينفق من ماله على عمارتها وأن يجعلها وقفاً على الحرمين الشريفين .

وكان له ولدان نشأ كل منهما فى الإسلام ووصل أحدهما إلى أعلى الرتب العسكرية لدى المغول وهى قيادة عشرة آلاف مقاتل وتولى الثانى الحكم عن دولة المغول فى آسيا الصغرى . . . « لم تترك الوشايات ولا الدسائس هذا البيت عامراً لأنه لمع فى الفترة التى جاءت للمغول قبل أن يثبت الإسلام فى قلوب غالبيتهم وكان ملوكهم ينظرون بعين الشك إلى أمور لو جاءت بعد ذلك الزمن لاستساغها عقولهم .

وجاءت نكبة الأب عن طريق أبنائه فقد غضب الخان على الإبن الأول فقتله فخاف الإبن الثانى على نفسه وفر من بلاد الروم إلى مصر وتلاحقت المصائب فجاءت الخاتمة على الأب الذى لجأ إلى مدينة « هرات » فاستقبله حاكمها وأنزله بقلعتها ثم قتله ظلما .

وكانت للشهيد إبنة هى زوجة الخان فحزنت على والدها وعملت على نقل جثمانه من بلاد الأفغان إلى مكة المكرمة حيث طيف به حول الكعبة بين التهليل والتكبير ، وذهبوا به إلى عرفات ، ثم إلى المدينة المنورة حيث دفن بالبقيع .

فهذا رجل من شهداء الإسلام مات مظلوما وقضى شهيدا لم يذكره قومه لغضب عاهلهم عليه ولم يذكره غيرهم رغم أياديه البيضاء عليهم ومساعدته إياهم .

إن العمل الذى كان يشغله كنائب للملكة وصلته بالملك ووالد لزوجة الخان لم يمنعه كل منهما من أن يقوم بما يفرضه عليه إيمانه وتفانيه فى خدمة هذا الدين

لحنيف حتى دفعه إيمانه لأن يرسل بالكتب على نصال من « النشاب » إلى عسكر مصر وأمرائها المحاصرين فى قلعة الرحبة يقوى عزائمهم ويدعوهم إلى الثبات حتى لا يقعوا فى أيدى الجنود المغول الذين تحت قيادته .

وأمثال هذا الشهيد من شهداء المسلمين كثيرون فى تاريخنا نبعثهم من النسيان لنبرز تلك العالمية الكبرى فى الإسلام التى تعلو على الأوطان والأجناس والألوان وهى قوة هذا الدين وفيها تتمثل عظمة الرسالة المحمدية .

كل هذا ما يدعونا فى أن نفكر فى أثر الإسلام فى شئون هذا الكون ، لأننا لا نجد فى تاريخ العالم نظاما آخر يدانيه أى ينقلب أمام هدايته ألد أعدائه من الخصومة الشديدة له إلى الدفاع عنه ويصبحون سيوفا يذودون عنه ويستشهدون من أجله ... فطوبى لهم ...

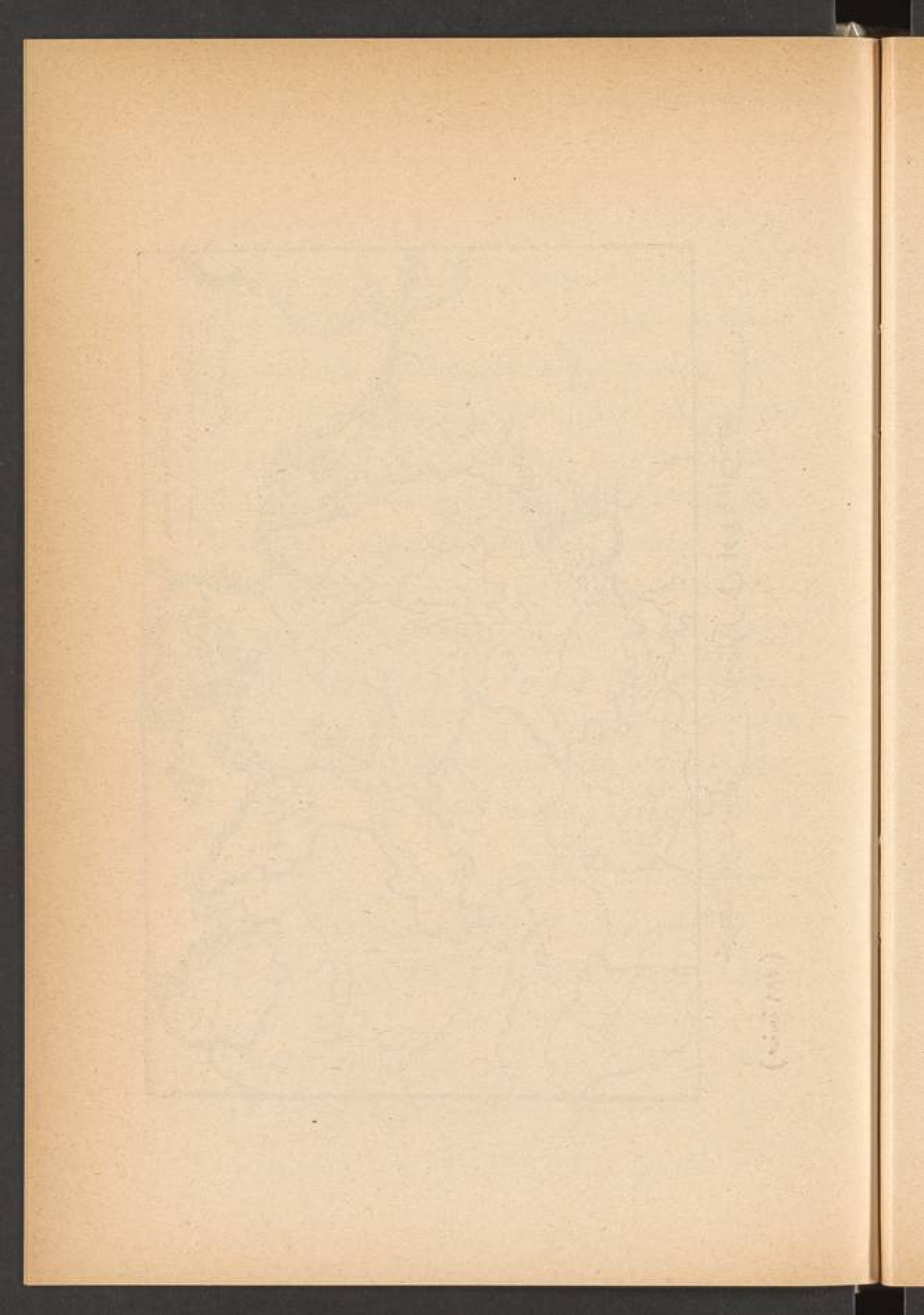
الدفاع عن أوروبا الغربية

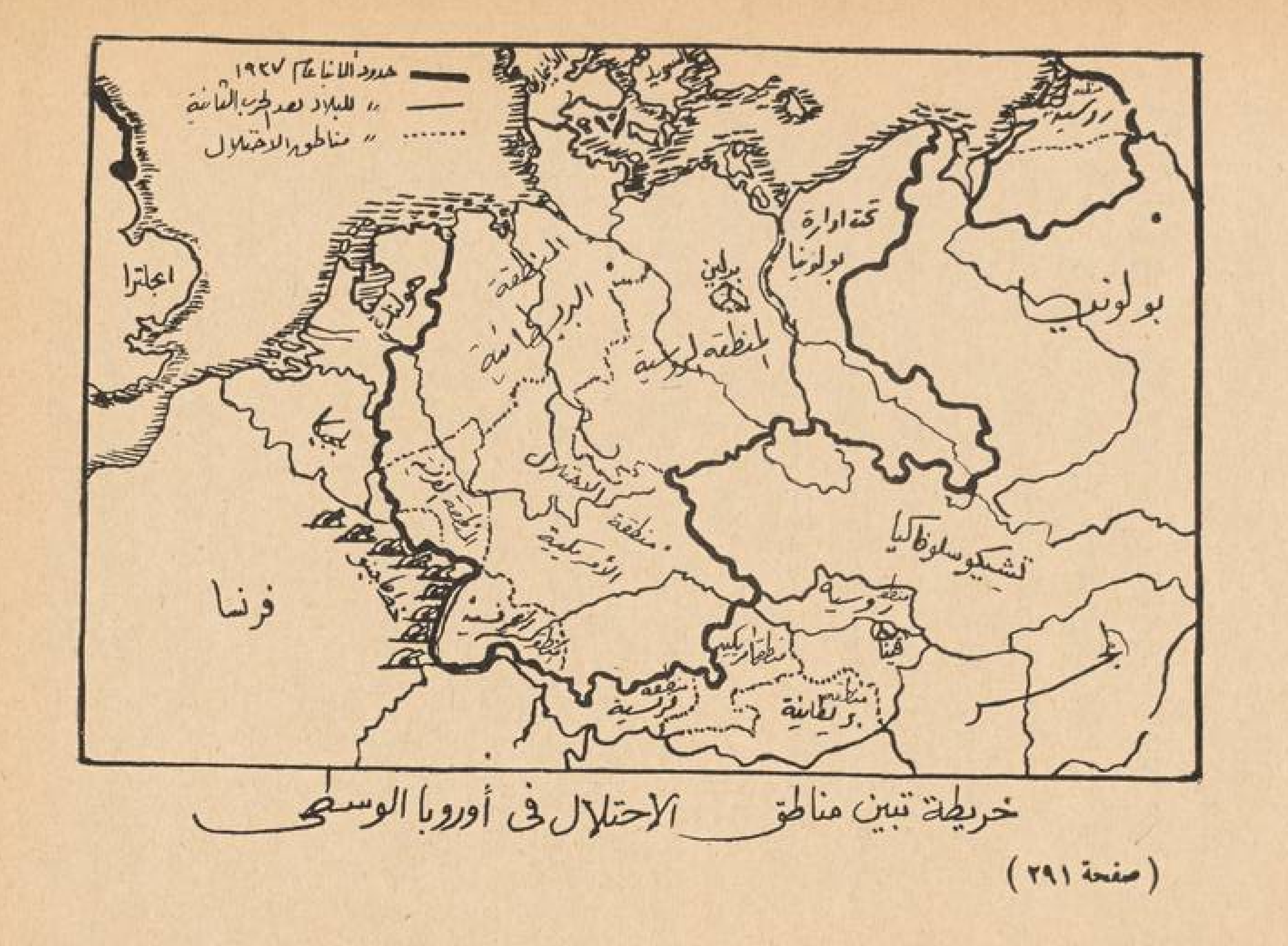
دراسات عسكرية عن الحرب العالمية القادمة

أوراق متناثرة من روما :

وقعت أمام نظرى بعض الأوراق التى كنت جمعتها بروما فى أوقات فراغى فى تصفحى للجرائد ، فإذا بها داخل ملفات صغيرة : تحت عناوين « حلف الأطلنطى » « دراسات استراتيجية » ، « أعباء إيطاليا فى الدفاع عن أوروبا » هى كما قلت قصاصات من الصحف الإيطالية يرجع تاريخها إلى الفترة الواقعة طول يوم ١٧ ديسمبر سنة ١٩٥٢ وهو تاريخ انعقاد مجلس حلف الأطلنطى فى باريس . كنت قد جمعتها وصنفتها على أمل كتابة تقرير عن هذا الاجتماع مدة شغلى لمنصب سفير مصر بروما ولكن الأيام لم تسمح لى بكتابة حرف واحد منه ، لماذا ؟ لأن حياة الفرد منا ليست ملكا له فقد يفكر يوما فى شىء ثم يبدأ العمل لتنفيذ ما أوصله إليه تفكيره ثم تخطر له مسألة جديدة ثم أخرى . وتنتهى به الأيام فإذا بكل المحاولات التى بدأ بها تنتهى إلى لا شىء ، فيقنع بالوقوف فى مكانه ويترك كل المشاريع التى خيل إليه أنه بوسعه تنفيذها أو إخراجها إلى خير الوجود فإذا بها تقف ثم تنتهى بأن تصبح ذكريات أو خاطرات .

من هذه الأوراق المنثورة والتعليقات اليومية تكونت لدى فكرة عن موضوع الدفاع عن غرب أوروبا ، وهو موضوع هام ، لأنه يتعلق بعرض بعض المسائل العامة ذات الطبيعة الواقعية أى المتصلة بحقائق هذا الكون أقصد من المواضيع التى يحياها العالم كل يوم وكل ساعة .





خريطة تبين مناطق الاحتلال فى أوروبا الوسطى

(صفحة ٢٩١)

موضوع هام :

أى يتناوله رجال السياسة الأوروبية والأميركية بأبحاثهم ويتناوله رجال العسكرية بمشاريعهم وآرائهم .

فهل هو جدير بأن يأخذ بعض الوقت ؟ ؟ هنا تختلف الآراء : لأن السؤال الذى يعرض لأول وهلة هو وما دخلنا نحن فى حلف بعيد عنا ؟ وما شأننا فى تناول أبحاث وآراء قد تبدو لنا بعيدة الاحتمال لا تمسنا فى قريب أو بعيد أو على رأى القائل منا « لا ناقة لنا فيها ولا جمل » ؟ وهذا الكلام وجيه على علاته وله أنصاره . . خصوصا وأن فتح هذا الموضوع الشائك قد يفسر بأننا من أنصار كتلة الغرب أو كتلة الشرق أو إننا نحابى زيدا حينما ضرب عمروا . الحقيقة إننى لم أنظر لشىء من ذلك ، وإنما نظرت فى دراستى لهذا الموضوع إلى أشباع رغبة إنسانية هى الاطلاع على ما يفكر فيه الغير أو لماذا يشغلون أنفسهم بهذا الأمر العظيم « الدفاع عن أوروبا » ؟ فإذا نقلت للقارىء صورة واضحة معقولة عددتنى سعيداً لأن بعض الوقت الذى صرفته فى القراءة قد أفاد وأن بعض الجهد التى بذلته فى الجمع والتبويب قد لقى بعض التقدير فى نظره .

لست بخبير :

وأود أن أعلن أننى لست بخبير فى هـذه الشؤون وإنما أنا رجل ينقل ويلخص ويستخرج بعض الحقائق والمعلومات ثم يلائم فيما بينها ويجعلها فى صورة سهلة مقبولة للفهم بعيدة عن التعقيد .

المخضرمون أمثالى كثيرون : أقصد الذين شاهدوا الحرب العالمية الأولى وحضروا الحرب العالمية الثانية وقد يمتد بهم الأجل حتى يروا الحرب العالمية الثالثة القادمة :

الحروب مدرسة كبرى :

وطبيعى أننا شغلنا أنفسنا لربع قرن فى المعاهد والجامعات و بعد تخرجنا منها فى ضبط نتائج الحرب الأولى وما كدنا نتم هـذه الدراسات أو بعضها حتى دهمتنا الحرب العالمية الثانية ولا نزال نفكر فى آثارها ونتائجها .

والحقيقة الماثلة أمامنا هى أن الحرب الأخيرة لم تحطم ألمانيا وحدها بل حطمت القارة الأوروبية بأكملها التى أصبحت بين قوتين قوة السوفييت فى الشرق ، وقوة أميركا فى الغرب ، وانقسمت إلى شطرين قسم يستمد حيويتـه من الشرق ، وقسم يستمد حيويته من الغرب وفى وسط غمرات هذه الحرب الباردة يعيش الملايين العديدة من سكان أوروبا بين القلق المستحوذ عليهم لحاضرهم ومستقبلهم .

حينما سقطت أوديسا فى أيدى السوفييت بعد استرجاعهم للأراضى التى احتلها الألمان فى زحفهم إلى استالينجراد ، لقيت بطريق المصادفة فى بيروت أحد رجال الوكالة اليهودية العائدين من العاصمة الروسية فـكان أول تعليق له على الحوادث : « لقد ظهرت المتناقضات » قلت « ماذا تعنى » ؟ قال « إن بوادر الشقاق والنزاع بين المعسكرين الحليفين قد ظهرت ، وقد انقسم عالم ما بعد الحرب إلى شطرين السوفييت من جهة ، وأميركا وحلفائها من جهة أخرى ، وأخـذ كل منهما يستعد لجولة ثالثة » .

اجتماعات لتحديد هدنة مؤقتة :

فإذا نظرنا أمام التحليل المنطقى منذ ذلك التاريخ إلى اليوم نجد أن اجتماعات يالطا وطهران و بوتسدام وفيما بينها اجتماع أوتاوا بكندا لم تـكن سوى اجتماعات تهدئة لتركيز خط هدنة وهى يبدأ من بلاد الشمال و يخترق ألمانيا إلى النمسا ثم يوجوسلافيا فتركيا و إيران وحدود الصين والملايو وكوريا ، إن الاجتماعات المتتالية

والثورات المتعاقبة وتدخل أميركا فى كل هذا لم يكن له من أثر سوى إيجاد خط حدود وهمى كما قلت يمتد مئات الآلاف من الكيلو مترات بين كتلتين عالميتين : تستعدان للجولة الثالثة وفى الصفحة الأولى من كتاب الجنرال جودريان الألمانى Kann Westeuropa Verteidigt Werden يشير إلى كتاب وضعه جول فيرن الكاتب الفرنسى تحت إسم « ثمانون يوما حول الأرض » فيقول إن الزمن قد تغير فأصبح العالم يحتاج إلى ساعات للتعرف عليه .

أوروبا سياسة خاضعة لعوامل خارجية :

وفى الكتاب الذى وضعه Mikshe War between Continents.

يقول : إن العالم يواجه حالة فريدة لأول مرة فى التاريخ إذ أصبحت سياسة الدول الأوروبية خاضعة لعوامل عالمية خارجة عن النطاق الأوروبى وتأثيراته ومراميه وأهدافه أى أن أوروبا فقدت سيطرتها على الحوادث العالمية وأصبحت هذه الحوادث العالمية هى التى تسير شعوب أوروبا وتوجّهها وتقودها وتسوقها فى المستقبل .

فإذا ظهرت لنا جلياً هذه الحقيقة يجب أن نسلم بأن مشاكل الدفاع عن أوروبا الغربية قد أصبحت عالمية أى أن عبء الدفاع عنها أصبح يقع فى المقام الأول على قوات تأتى من خارج نطاق القارة الأوروبية أى أصبح الدفاع عن غرب أوروبا جزءاً متمماً لخطة دفاعية كبرى قد أخذت أميركا عهداً على نفسها أن تقوم بالقسط الأكبر منها ... لحماية العالم ومنع العدوان عنه .

وجود أميركا :

ولا شك فى أن وجود العامل الأميركى فى أوروبا قد أثار المشاكل لحكومات هذه الشعوب الأوروبية وللأميركان أنفسهم ، ولأن تدخلهم هذا كان سبباً

فى إيجاد عدة قواعد عسكرية موزعة على أوروبا وأفريقية ، فلننظر ماذا يقولون فى أوروبا عن ذلك . إن فريقاً كبيراً ينادى بأن النزاع هو تنافس للسيطرة على الأرض وأن مشروع مارشال ما هو إلا الطريق لتمكين السيادة الأميركية على أوروبا ، وأن الدول الغربية ستصبح مستعمرات للدولار ، وإن الاستعمار الأميركى يحشد قواه لأجل زيادة التسليح ويثير الحروب لكى يجد مكاناً لتصدير أسلحته وتجارتها[1] .

كل هذا قد قيل ويكفى أن نفتح جرائد الشيوعيين فى فرنسا وإيطاليا لتقرأ المقالات الضافية كما يكفى أن تنصت إلى إحدى محطات الإذاعة بالبلاد الواقعة تحت سيطرة السوفيت لتسمع الكثير من ذلك .

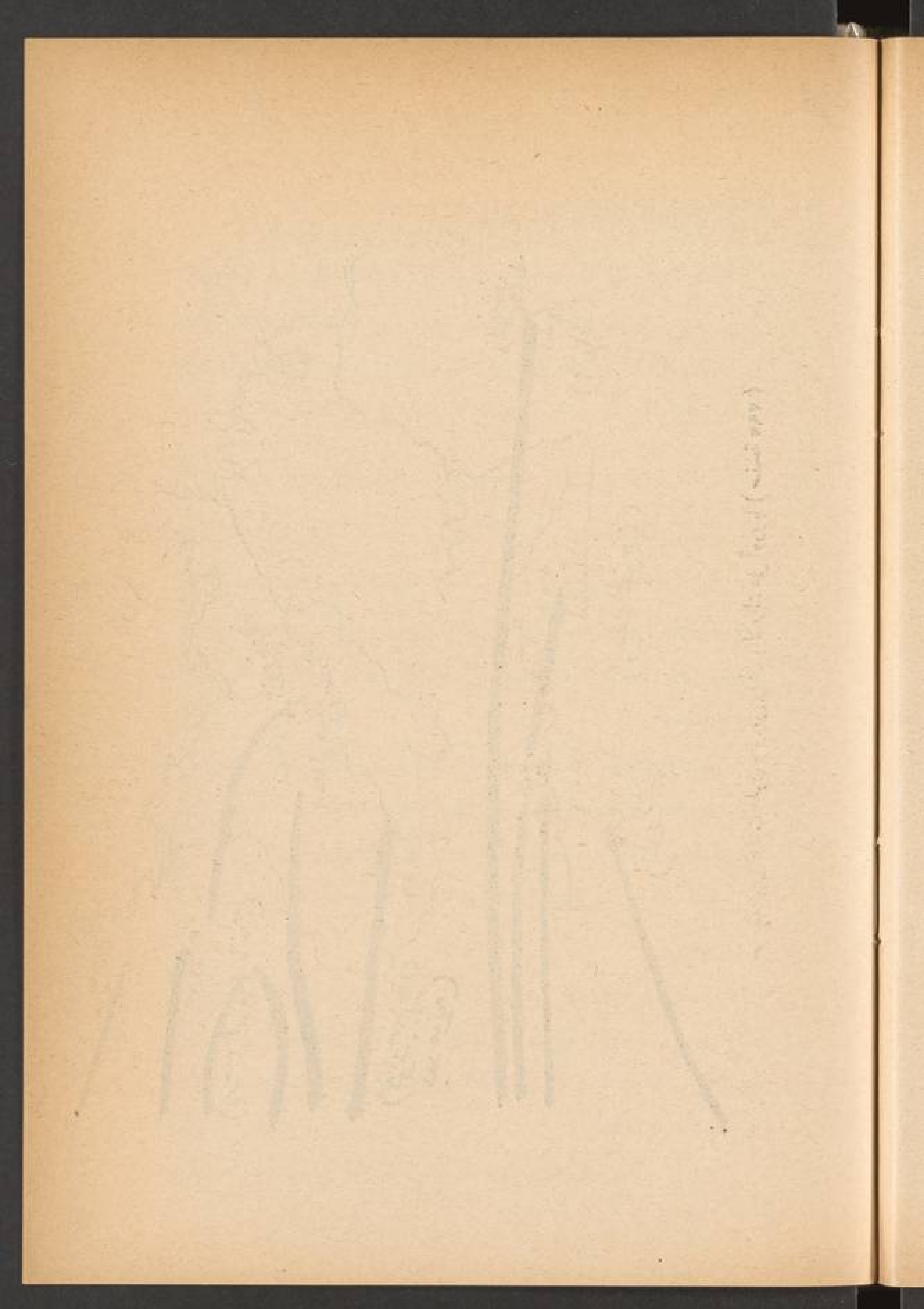
* * *

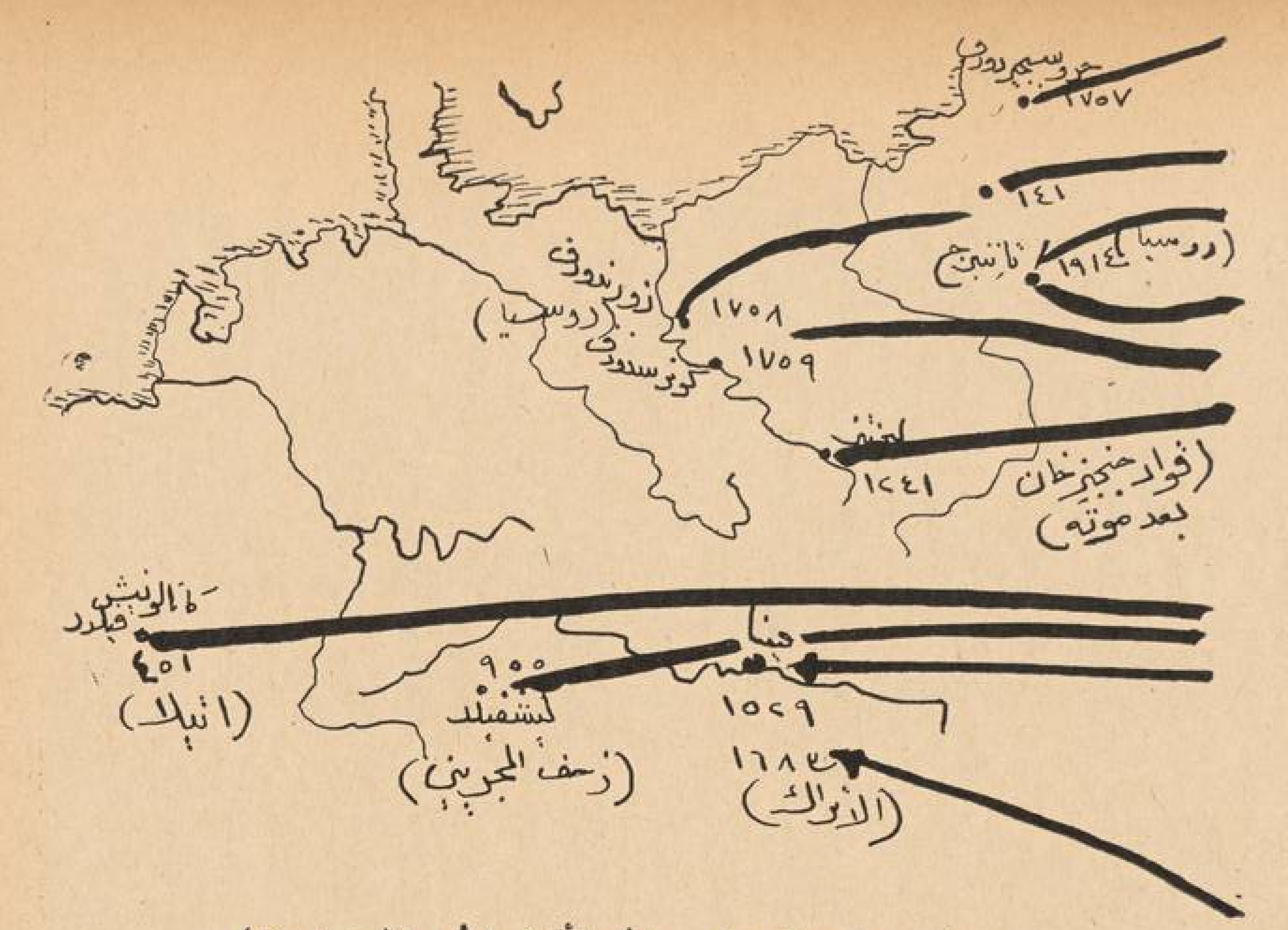
لقد ظهرت المتناقضات منذ اليوم الأول وأخذ كل فريق يستعد لمنازلة الآخر ، وليس من موضوع هذا البحث التكلم عن مشاكل الدفاع عن البحر الأبيض المتوسط أو الشرق الأوسط أو أواسط آسيا أو متاعب الشرق الأقصى وهى المناطق التى يقال عنها مناطق الاحتكاك الدائمة ولا نقدم صورة عن الاستراتيجية التى أطلق عليها اسم جديد هو الاستراتيجية العالمية أو الكونية Planetary Stratgy كل هذا بعيد عن متناول هذا البحث المبسط الذى يجب أن نحدد له أغراضا واضحة وهى : الدفاع عن أوروبا الغربية وحدها فلا نخرج عنها .

* * *

(1) « La Lutte pour le repartage du monde dejà partagé » le Plan Marshall est une Organisation de l'hegemonie amercainne en Europe. «Les autres pays marshallisés en simples colonnies americainnes». L'imperialisme fabrique des armements. pour faire l'a guerre, fabrique des guerres. pour faire ecouler des armements.

راجع كتاب : « Demain l. Armée Française »





خريطة تبين حملات الهون والروس والمجر والأتراك على أوروبا (صفحة ٢٩٥)

توزيع الأعباء العسكرية على بريطانيا وأمريكا :

إذا وضعت على خريطة أوروبا خطاً بين تريستا وإجدابية أو العجيلة ونزلت جنوباً إلى أفريقيا ثم سرت على حدود سويسرة وألمانيا الغربية إلى الدانيمارك و بلاد الشمال فهذه هى أوروبا الغربية فى المعنى الحديث المتفق عليه أى أن أسبانيا وأراضى المغرب العربى تدخل بأكملها ضمن هذا النطاق الجديد .

ألمانيا الخط الأمامى للدفاع عن أوروبا :

وحينما يتكلم هرمان رواشنج الألمانى يقول « ان المانيا كانت لمدة عدة قرون الدرع الأمامى لأوروبا ، بل كانت لغاية الحرب الأخيرة مركز هذه القارة قد انتهى الأمر بها أن مسحت من الخريطة الأوروبية بواسطة من سماهم السياسيين الديماجوجيين أى الذين لا ينظرون لأكثر من أنوفهم Nos politiciens Demagogues .

ولدينا فى مقدمة كتاب Gudrian بحث شيق من الحملات التى تعرضت لها أوروبا من الشرق وقد وضع لها خريطه تبين اتجاهات هذه الحملات منذ عهد اتيلا فى سنة ٤٥١ إلى معركة تاننبرج سنة ١٩١٤ وكيف وقفت جميعاً فى ألمانيا ويذكر من بينها معركة على نهر الأودر أوقف بها الزحف المغولى سنة ١٢٤١ على أوروبا.

عين جالوت :

إن هذه المعركة الفاصلة تشبه المعركة التى أوقف بها المصريون تحت قيادة قطز و بيبرس زحفاً مغوليا على مصر عند عين جالوت وكانت مظاهر الشجاعة التى أبدتها قوات المماليك البحرية مضرب الأمثال لعدة قرون بعد ذلك ، وهذا ما جاء فى كتاب صبح الأعشى .

« وكفى بالنصرة يوم عين جالوت لما كسر المظفر قطز صاحب مصر عساكر

هولاكو ملك التتر بعد أن عجزت عنهم عساكر الأقطار » .

وكانت للمعركتان وتقارب تاريخهما موضوع حديث لى فى ألمانيا فى زيارتى لها عام ١٩٥١ مع أن الذى عرف عن زحف المغول بعد استيلائهم على أقاليم الروسيا وبولونيا والمجر ان توقفهم عن فتح أوروبا كانت بناء على أمر صدر للقائد سابوتاى وزميله باتو بالعودة إلى مقر الخان الأكبر فى قرة قوروم لحضور اجتماع قواد الجيش المسمى قورولطاى فى لغتهم .

فى هذه الناحية بالذات يوجه الألمان اهتمامهم بالدراسة المستفيضة لبيان الدور الذى لعبته أمتهم فى تاريخ الدفاع فى أوروبا حتى يوجهون الأنظار إليه[1] .

زحف المسلمين على أوروبا :

ولن أترك هذه الناحية بالذات من غير أن أشير إلى زحف المسلمين أكثر من مرتين إلى أوروبا وإن كان هذا خارج نطاق هذا البحث وأنما يمسنا من قريب إذ

---

(١) ظهر جيش المغول فى سنة ١٢٣٩ تحت قيادة سابوتاى وباتو فى المناطق التى نطلق عليها إسم الروسيا الآن والتى كانت مجالا للهجرات الآسيوية دفعوا أمامهم قبائل القبجاق التى كانت تسكن الجزء الجنوبى من روسيا ومن هذه الدفعة جاء الملك الظاهر بيبرس لمصر واتجه الباقى إلى أراضى المجر ويوجوسلافيا ومقدونيا وأهلها من سلالة هذه الهجرة لم يكن القصد من هذه الحملة التى اتجهت إلى بولونيا فتح أوروبا وإنما كانت تحت قيادة بايدار لحماية الميمنة للجيوش المغولية التى انحدرت إلى سهول المجر .

جاء زحفها على ألمانيا من طريق كراكوفيا حيث هزمت البولونيين ودخلت برسلاو واقتحمت خيولهم نهر الاودر سباحاق Ratibor فتحصن دوق دوك بوهيميا فى Ligniz ثم هزموه فى Wahsltalt وقتلوه ومعه عميد هيئة فرسان التيوتون .

كان جيش الأوروبيين مكونا من فرسان سيليزيا وبولونيا وعدد من الصليبيين الألمان وقد تحمل متطوعة من عمال مناجم جولدبرج سيلا من نبال المغول ثم دخلت قوات الخيالة الألمانية التى جاهدت ثم لم تلبث أن ولت الأدبار أمام قوة وضغط المغول وتكتيك الأنظمة العسكرية الآسيوية وقد ذكرت المراجع البولونية استعمال الدخان للتغطية والغازات التى أثارت رعب الأوروبيين . وكانت أبواب ألمانيا وأوربا مفتوحة أمام الزحف المغولى وقد بقى الجيش عشرين يوما فى سيليزيا ثم اضطر للعودة .

راجع Empire jaune صفحة ١٩٠ Jen Kiskan

يرجع الكثير مما لقيناه فى حياتنا السياسية من متاعب إلى الأثر الذى تركته هذه الفتوحات فى نفسية الشعوب الأوروبية إزاءنا إلى اليوم .

* * *

وإذا اطلعت على الكتابين الذين وضعهما Lothrop Stoddard

The Rising Tide of Cotor Against White World Supremacy.
The Revolt Against Civilisation

نجده يضع زحف المسلمين من الشرق إلى الغرب ضمن الحملات التى قامت بها الشعوب المتأخرة والمتبربرة على مدنية الرجل الأبيض وليس هذا رأيه فحسب بل رأى الكثيرين ممن أعماهم التعصب الدينى وهو ما لا يمكن التسليم به ويظهر أن إهمال دراسة التاريخ الإسلامى فى مصر يرجع إلى إيمان بعض رجال السياسة والتعليم المسلمين وأهل الرأى بمصر بأمثال هذه الادعاءات والتى جاءت حتى على لسان ولز وغيره من دعاة سيطرة الرجل الأبيض على العالم .

وللألمان الحق كله فى أن يثيروا مثل هذا الجدل فيما يختص بالزحف من الشرق على بلادهم لكى يثبتوا أحقيتهم للعالم الحر فى المساهمة الفعالة للدفاع عن أوربا الغربية وإن بلادهم من دعائم المدنية الأوروبية .

وسنرى فى كلامنا مقدار تطور الفكر الألمانى فى هذه الناحية ورغبته فى أن يساير فكرة التعاون الأوروبى والحلف القائم والاتجاه الجديد لإحياء ألمانيا مرة أخرى . كما أن هذا الأمل الألمانى يقابله أمل فرنسى ولكن بأسلوب آخر .

رأى الألمان والفرنسيين :

ولكى نسير على خطة أقرب إلى المنطق ما أمكن نجد من واجبنا استعراض المشاريع الفرنسية والألمانية وهى التى تتفق على رأى واحد فيما يختص بأوروبا فكلها تقول : « بأن الحرب العالمية الثانية جعلت إمكانيات أوروبا العسكرية

والاقتصادية فى حاجة إلى المساعدة الأميركية » وجميع هذه المشاريع تقول « بأن الفرص التى أمام أوروبا لا يستهان بها ، وإن وسائلها غير محدودة بل هى أكبر مما يتصوره أهلها ، وأن الخطوات التى سارت عليها الشعوب الأوروبية الغربية بمساعدة أميركا نحو الإنشاء والتعمير والاستعداد الحربى كبيرة ولا ينقصها سوى الإيمان بمقدرتها والوثوق من إمكانياتها أى أن العامل النفسانى وحده هو الذى ينقص هذه الشعوب فى الوقت الحاضر ، لكى تبرز مرة أخرى لتدافع عن نفسها » .

رأى فيجاند :

ويقول الجنرال فيجاند وهو أحد كبار قواد فرنسا : « إن الظروف قد وضعت أوروبا الغربية فى مركز لا نظير له ، وأن الفرص مواتية لها لكى تسترد مكانتها الأولى كأكبر قوة عسكرية فى العالم » . ولذلك فهو يقف ضد كل دعوة للتردد ؛ بل يجاهر بأن تقدم بلاده فرنسا على أن تحمل أكبر الأعباء العسكرية فى القارة الأوروبية ويقول أن انقسام العالم إلى شطرين أدى إلى أن كلا من الكتلتين الشرقية والغربية تدعى المحافظة على السلام ولم يمنع هذا من أن كل واحدة منهما أن تستعد للجولة الثالثة ، ويظهر أن الاتحاد السوفيتى يصرف أكثر من ٢٠ ٪ من دخله على التسليح وأن الكتلة الشرقية تحتفظ بما يقرب من مليونين وثمانمائة الف مقاتل تحت السلاح . ويقدر بعض المراقبين العسكريين أن قوة الاتحاد وحده تتراوح بين ١٥٠ و ١٨٠ فرقة من الجيش العامل منها عدد لا يستهان به من الفرق المدرعة أو الفرق الميكانيكية السريعة أى ما يقرب أو يزيد على ٢٥٫٠٠٠ ألفا من الدبابات والسيارات المدرعة هذا غير ما لدى الاتحاد من قوات هوائية على أتم استعداد فإذا أضفنا تفوق الروس كما ظهر فى الحرب الأخيرة فى مدفعيتهم تبين لنا صحة الرأى القائل بأن لديهم من الوحدات المخصصة لسلاح المدفعية ،

والتى تصل فى أهبتها وتشكيلها إلى معدل فرقة كاملة للمدفعية أى لدخول الحرب على نظام فرق قائمة بذاتها : لكى تحتل أماكنها لسد الثغرات فى أى جبهة .

فاذا انتقلنا إلى البلاد الواقعة وراء ما يطلق عليهم الحلفاء إسم الستار الحديدى وإذا أخذنا فى الاعتبار القوات البحرية الناشئة ، وجدنا الاتحاد السوفيتى قد وفق فى إنشاء آلة محكمة للحرب شديدة البطش معتمدة على ملايين من الرجال يمدون هذه الآلة بجهودهم وثقتهم بإيمانهم .

وليس من مقصد هذا الحديث التكلم عن أثر الاكتشافات الذرية الحديثة ومقدار ما يلازمها من حظ فى المستقبل إذ أن الطرفين يدعى كل منهما أنه على علم بأسرار هذه القوة الجديدة ، ولكن الشيء الظاهر الواضح لنا هو أن الكتلة الشرقية لديها جيوشها وهى قائمة بعدد رجالها وعدتها وتلادها وعلى استعداد للقيام بما يفرض عليها ، بينما الجهود التى تقوم بها حكومات الجانب الغربى لا تزال محدودة ولذلك . يقول أعداء الكتلة الشرقية : إن الغاية والنهاية للاتحاد السوفيتى هى تحقيق الثورة العالمية بالعنف وأن هذا الاستعداد القائم لا يخفى وراءه بتاتاً أغراضاً للسلم والطمأنينة والأمن وراحة الشعوب كما يدعى .

الجيش الأحمر مهمته دفاعية :

ويقول أعضاء الاتحاد السوفيتى أن أساس تشكيل القوات السوفيتية من يوم أنشاء الجيش الأحمر هو حماية الثورة وضمان السلم ؛ بل إن أغلب الكتب التى ظهرت فى روسيا أو فى خارج النطاق السوفيتى عن تطور الجيش الأحمر أشارت إلى أن أساس التعبئة والعمل والتنظيم فى الجيش هو دفاعى أكثر منه هجومى . فمن الظلم والإجحاف أن يسند إلى القائمين بالأمر هناك سياسة تتجه إلى الفتح إلى العدوان .

رأى الفيلسوف رينان فى الروس :

ويميل الجنرال فيجاند حينما يكتب عن هذه المسألة بالذات أن ينقل نبوءة جاءت على لسان الكاتب والمفكر الفرنسى رينان بعد حوادث سنة ١٨٧٠ « أن الروس مثل تنين السماء الذى يكنس بذنبه النجوم فهو سيسوق فى يوم من الأيام قطعان آسيا الوسطى من أتباع جنجيز خان والشعوب الصفراء ويزحف بها على أوروبا » . وهنا يتساءل الجنرال كيف يمكن السكوت لمدنية عريقة فى مسيحيتها وتراثها القديم من تقدم الإغريق والرومان أمام هذا وتخضع لقوة إسيوية؟

قوة أوروبا فى تسلحها :

ولذلك فلا أمل لشعوب أوروبا إذا لم تأخذ بأسباب القوة ، أى أن أوروبا لكى تحافظ على السلم يجب أن تكون شعوبها مدججة بالسلاح ، لأنها مهددة بالزحف الشيوعى والاستعمار السوفيتى ولا ينقذها سوى الاستعداد الحربى ، وأن يشعر أبناؤها بضرورة الدفاع عن استقلالها وعن أراضيها وعن مدينتها المسيحية .

ويوجه فيجاند السؤال التالى هل تملك أوروبا وسائل الدفاع عن نفسها وهى لديها الإمكانيات لتصد العدوان عنها ؟

هنا لا يتردد القائد الفرنسى من المجاهرة برأيه كما يأتى : « نعم إن بلاد حلف الأطلنطى تملك من الإمكانيات العسكرية ما يجعلها فى مركز أكثر ثباتاً من مركز الروسيا وأتباعها » .

وهنا يقع الجنرال فى تناقض غريب لأنه حينما يتكلم عن أوروبا الغربية يضيف إليها إمكانيات الولايات المتحدة وتعداد سكانها . ثم يريد أن يدخل فى حسابه سكان المستعمرات ، ويقدم إلينا صورة مطولة عن إنتاج الحديد والصلب والنحاس وغيره . ثم تنتقل من كل ذلك إلى أيام الحرب العالمية الأولى ، وكيف تمكنت مجموعة من الدول الديموقراطية من التغلب على ألمانيا القيصرية ؛ ثم

استعرض أخطاء الحلفاء بعد هذه الحرب ومواقف بريطانيا وأميركا من فرنسا في مؤتمرات نزع السلاح ، ثم في تأكيد نظام الضمان الجماعي .

وخلص من كل ذلك إلى أن ضعف فرنسا في سنة ١٩٣٩ يرجع إلى سياسة الحلفاء : التي لم نعرف كيف تعبيء القوى في المدى الضروري والزمن اللازم لضرب الضربات الحاسمة ، وعليه أصبح الحلفاء بعد ست سنوات قضوها في حرب قاتلة في مركز لا يحسدون عليه إذ لم يتيسر لهم تحقيق السلام أو فرض إرادتهم على أي ركن من أركان العالم . وهنا يتضح خطأ سياسة حلفاء فرنسا الذي سببوا هزيمة فرنسا ١٩٤٠ . ولذلك جاء اتجاه الديموقراطيات ومعها أميركا إلى نظام عقد المواثيق وتأكيد الأحلاف وأخيراً إلى إبراز حلف الأطلنطي الذي عقد في ٤ إبريل ١٩٤٩ حينما تفاهم شعوب ١٢ دولة على تأكيد إرادتهم ووضع مواردهم كلها للدفاع عن حرياتهم ومعتقداتهم ومدنيتهم وهي الولايات المتحدة وكندا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا وبلجيكا وهولندة والنرويج والدانيمارك وإيسلندا والبرتغال ولوكسيمبرج . وهذا ما كان المحتم الأخذ به بعد الحرب العالمية الأولى مباشرة في ١٩٢٠ وفي نظر فيجاند أن هذا الحلف لا يؤدي إلى نتيجة ما لم تدعمه إرادة فعالة ورغبة أكيدة وقيادة حازمة . أي أن تسلم مقاليده لقواد فرنسا .

مركز قيادة حلف الاطلنطي :

وكان أن الزائر لمدينة باريس في طريقه إلى فرساي يجد مركز قيادة أوروبا الغربية بهيئته الكاملة تحت قيادة أميركية باشتراك بقية الدول . ومن هذه القيادة صدرت الاتفاقات التي تخصص لكل دولة حصتها في التسليح وواجبها في الدفاع . ومن هذا الميثاق تكونت عدة لجان أهمها لجنة وزراء الخارجية ووزراء الدفاع وهي التي أشرنا إليها وهي لتحديد الخطط الكبرى والاتفاق على تنفيذها ثم لجنة رؤساء أركان الحرب ، ثم لجنة التسليح ، وكلها ترمي إلى غرض واحد : هو

تمكين أوروبا الغربية من إنشاء وتشكيل وحدات القتال الكبرى اللازمة لها .

حديث مع السنيور باتشاردي وزير الحربية الإيطالية :

حدثنى السنيور باتشاردى وزير الدفاع الإيطالى فى الليلة السابقة لسفره لمصر فقال : « إنه تسلم فى نهاية الحرب وحدات متفرقة من الرجال الذين قاموا بالمقاومة وساعدوا الحلفاء فى حربهم ضد الألمان ، وكانت كل واحدة منها لا تتعدي مفرزة صغيرة من الجنود ومن مجموع هذه الوحدات أمكنه أن ينشىء فى خمسة أعوام جيشاً إيطاليا ».

كيف يتم إنشاء فرقة :

ثم قال « إن عمله الأساسى حينما يريد أن يشكل فرقة مدرعة هو تدريب الكادرات اللازمة للفرقة من سائق إلى مهندس إلى جندى إلى صف ضابط مختص . قال إن عملية التدريب تأخذ سنتين حتى إذا أتمها أخذ التجهيز سنة أخرى ثم يتسلم أفراد الفرقة المعدات التى سبق أن تدربوا وتمرنوا على ما يماثلها فتخرج الفرقة إلى الوجود كوحدة قائمة بذاتها مستعدة لدخول الحرب » . وهو رجل قدير أدى لبلاده أكبر الخدمات فى هذه الناحية

٣ قيادات :

ويظهر أن نظام الحلف أدى إلى إيجاد ثلاث قيادات أو حكمداريات كما جاء فى الكتب العسكرية القديمة : قيادة الشمال وقيادة الجنوب وقيادة الوسط التى أسندت إلى الجنرال جوان المندوب السابق فى مراكش .

وجوان من خريجى دفعة ١٩١٢ فى سان سيركان رفيقا لديجول ، وقد سحبته فرنسا من مراكش لكى تضمه فى صف إيزنهاور ومونتجومرى حتى

تستعيد ثقتها فى العسكريين من رجالها[1] .

رأى فرنسا :

وحينما تتقدم فرنسا بجوان نعلم بأن لها استراتيجية خاصة ومذاهب عسكرية معلومة فى الدفاع عن أوروبا ، فهى لا تسلم أولا بوضع جيشها بأكمله تحت تصرف قيادة الحلفاء بل تحاول أن تجعل لها جيشين : الجيش المكون من الفرق المسلم بها فى حلف الأطلنطي ثم الجيش الوطنى الذى يحتفظ به لحماية مستعمراتها .

ويقول القواد الفرنسيون أن خط الدفاع الأول لأوروبا أى لقيادة الوسط هو نهر الرين معتمداً على جبال الإلب ، ثم يعودون فيقولون إن المجال المتروك أمام تحركات الجيوش فى هذه الحالة ليس بكاف ، ولذلك يرغبون فى امتداد خط الدفاع الأول حتى يشمل ألمانيا الغربية بأكملها أى ما بين نهرى الرين والإلب ويقولون إن عمق الدفاع الأوروبى يستلزم أن تستند فى مؤخرته على أفريقيا الشمالية ، ولما كان البحر المتوسط يفصل ما يسمونه بالكتلة الأورو ـ أفريقية ، فإن شرائط الدفاع الغربى يستلزم السيطرة التامة على هذا البحر ، وهذا من طبيعته يجعل الأعباء التى على إيطاليا لا يستهان بها ، لأن خط الاتصال مع القارة يحتم السيطرة التامة على صقلية وشبه الجزيرة الايطالية إذا أخذ فى الاعتبار أن منطقة الدفاع فى جبال الألب ستكون أولى المراكز الأمامية ، أي أن المقاومة فى المرتفعات الألبية تحتم أن تكون إيطاليا مركزاً للتموين وقاعدة للامداد فى حالة القيام بالهجمات المضادة التى ستعقب الدفاع عن أوروبا .

رأى أمبركا :

والمبدأ الذى يأخذ به الأميركان هو ضرورة الاعتماد على إسبانيا علاوة على

---

(١) اشترك فى فتح مراكش والحرب العظمى وحرب الريف وحرب ١٩٤٠ ومعارك تونس وصقليه وإيطاليا وفى تحرير فرنسا وكتب تاريخ الآلاى الأول للقناصه المراكشيه .

إيطاليا لأن أوروبا الغربية وحدة لا تتجزأ ؛ فلا يصح أن يبق جزء من قواتها المسلحة لا تشترك فى هذه المعارك ، ولذلك يضعون تسليح إسبانيا فى مقدمة البرامج ... ثم يجعلون من ألمانيا الغربية حجر الزاوية لكل تفاهم عسكرى .

ولم نعرض للآن لشىء من النظريات الألمانية الخاصة باشتراك بلادهم فى هذا الدفاع رغم دعوتهم — أى القواد الألمان — لإبداء الآراء من وقت لآخر .

رأى الجنرال جودريان الألماني :

ولقد تعرض لهذا البحث الجنرال جودويان Generaloberst Gudrian الذى عمل طويلا كمفتش للقوات الألمانية المدرعة ، تعرض لذلك فى كتابين : الأول « هل يمكن الدفاع عن أوروبا الغربية[1] » ؟ والثانى « هذا ما لا يمكن أن يدوم » !

أثارت الأبحاث التى نشرها جودريان وتنبؤاته ضجة وسط الأوساط العسكرية . وقد نشرت الموند ترجمتها الفرنسية فى أعدادها وعلقت عليها ، أما الكتاب الأول فقد قرأته فى أصله الألمانى .

مقارنة بين المذهبين :

ولا يمكن المقارنة بين النظريات الفرنسية التى عرضها فيجاند ، وهذه الأبحاث لأن فيجاند والقواد الفرنسيين لم يحاربوا الروس كما حاربهم القواد الألمان والذى يؤخذ على الفرنسيين هو ما يسمى بالموقف المقيد بالتزامات ، أى أنهم يضعون شروطا قد يصعب إجابتها ، فهم مثلا يريدون أن يحدوا من تسليح ألمانيا ، ويريدون أن تكون فرنسا ومعها إيطاليا فى المقام الأول بدلا من يكون الاتصال بأوروبا عن طريق إسبانيا والبرتغال . وبينما يشير الألمان إلى

---

(1) راجع كتابى: Kann Westeuropa verteidigt Werden, «Ca ne peut pas durer»

أهمية جبال البرانس كخط دفاعى ثان ، يلح الفرنسيون على اعتبار الألب الخط الأول . وإذا نظروا إلى البحر المتوسط قالوا إن أساس الدفاع عن أوروبا هو شمال أفريقيا أى المستعمرات الفرنسية تونس والجزائر ومراكش ، ولذلك تمكن مندوبهم فى هذا العام من التصريح بأنه لن تقوم فى مراكش حكومة شرقية مائة فى المائة ، أى إسلامية مستندة على رأى أهل البلاد والمؤسف أنهم أقنعوا العالم بذلك .

الحرب العالمية الثالثة فى نظر جودريان :

ويقول جودريان إن الحرب القادمة لن تكون مثل ما تقدمها من الحروب لأن الحرب الثالثة تتطلب أولا : حماية القوات الاحتياطية ثم المراكز الصناعية ثم القواعد الجوية قبل كل حساب . وتكلم عن طريقة إدارة الحرب المدنية فى الجو والبحر ، وأن العمليات الأرضية لن يتحقق لها النجاح إذا لم تدرس تماما وسائل حماية السكان الوطنيين أولا ، وأن يحسب لها حساب .

وحينما تكلم عن دعوة الشباب الألمانى قال كلمة داوية : هل نحن رفاق فى السلاح أم جنود مرتزقة ؟ وأشار بحنكة إلى تردد الإنجليز فى موقفهم إزاء ألمانيا ، وأنه لم يكن فى يوم من الأيام موقفاً ودياً ، وأن فرنسا تحارب دائما وتقف حجر عثرة فى سبيل تسليح ألمانيا . ثم قذف بالحقائق التى يجب أن يلم بها إيزنهاور وغيره من قواد الحلفاء إذا أريد حقيقة إنقاذ أوروبا ، منها ما هو سياسى يتعلق بتحقيق الوحدة الألمانية ، ومنها ما هو عسكرى وأولها : تحقيق المساواة التامة فى الحقوق : أى فى القيادة والتسليح . وقال إن الحلفاء الذين حطموا أوروبا لكى يكسبوا الحرب لم يضمنوا السلم ولا حققوه ، وإن ما يقال له حرية ديموقراطية وحقوق إنسان لا تزال أمام الألمان آمالا وسرابا لا حقائق ملموسة . واستمر يدافع عن وجهة نظر بلاده بإحساس الرجل الذى قدم علمه كجندى وفنه العسكرى والذى يفس من بعيد الأخطار القادمة .

أما فى كتابه الآخر فقد ذكرنا لمحة تاريخية عن الهجمات التى تلقتها أوروبا من الشرق ، وهو هنا يقول أن الأربعين فرقة التى تحاول قيادة الأطلنطى خلقها كقوة تصادمية اولى لا تكفى لصد هجوم الشرق الخاطف ، وأن الدفاع الأوروبى سيستند فى النهاية على جبال الألب وجبال البرانس .

لقد طلبت حكومة ألمانيا الغربية الدخول فى مواثيق أو الحصول على تعهد بضمان عدم الاعتداء عليها ، فكان الجواب ألا يكفى وجود جيوش الاحتلال فى أراضيك ؟

وكان تساؤل القادة الألمان ومن يضمن استمرار بقاء جيوش الاحتلال عند قيام حرب فى أراضينا ؟ ولم يتلق الألمان إجابة صريحة .

* * *

رأى المؤلف في الدبلوماسية :

تجتمع السياسة مع الاستراتيجية ثم مع علم الاقتصاد ، ويحتاج السياسى إلى شىء من طول الأناة ، فما هو إلا باحث ينظر إلى الحقائق ويستخرج منها نظرة إيجابية ، وللوصول إلى شىء من ذلك يلزم أن تتكون لدى السياسى حاسة سادسة ، هذه الحاسة هى أساس الدبلوماسية الحديثة ، أنه لا يخلق المشاكل بل يحلها ويشعر بها قبل أن تستفحل فيتحاشاها .

أقول هذا وبين يدى تقدير أولى للقوات المحاربة ، التى باستطاعة الديموقراطيات حشدها :

	فرق مدربة
فرنسا	٣٠
تركيا	٢٠
أسبانيا	٢٠
بلجيكا	٥

		فرق مدربة
٥	هولنده	
٥	النرويج	
٥	البرتغال	
٥	الأمم العربية	مصر وسوريا ولبنان والعراق والمملكة الأردنية

خمس فرق للدول العربية غير كافية :

ولقد علمت من هذا التقدير أن أعطيت للأمم العربية خمس فرق، وهى على ما أعتقد لا تنقص عن خمسين مليونا من النفوس إن لم تزد. وما مقدار خمس فرق فى تقدير العالم الديموقراطى الحر أعطى لبلجيكا وسكانها سبعة ملايين .

ورأيى كالرأى الذى أبداه جودريان : أتساءل .

« أرفاق فى السلاح أم جنود مرتزقة ؟ » .

وأول شرط هو التكافؤ والمساواة العامة فى التسليح والقيادة ، وأهم منها الحرية والاستقلال للأمم العربية المستعبدة قبل أى خطوة للأمام : استقلال تونس ومراكش والجزائر ، وحقوق الإنسان للشعوب المسلمة .

فهل يسمع لنا صوت ؟ وهل نصل إلى التسليح كاملا ؟

سؤال يجيب عنه الغد ...

الأمـة المسـلحة لا تخشى الحرب!

« الروح العسكرية هى التى تخلق العزيمة ، وتوجـد السلاح ، وتقلب الهزائم نصرا . . . إننا لا نخاف الأخطار بل نحبو إليها . . . »

حينما أمضيت معاهدة ١٩٣٦ بين مصر وبريطانيا ، تلقى العالم هذا النبأ بتحفظ زائد . وكان اهتمام الصحافة الأوروبية بهذا الحدث لا يقل عن اهتمام الصحافة فى مصر وفى أنحاء العالم العربى ، ولـكن اهتمام المجلات التى تعبر عن الرأى الصحيح كان أفصح من الجرائد اليومية ، فقـد تتبعت ما كتبته بعض المجلات فى فرنسا وإيطاليا ، ووجدت شبه إجماع بين غلاة المستعمرين بالقول : « إن هذه الخطوة دليل على تفكك سيطرة الأوربيين ، وإنه إذا كانت بريطانيا قد عجزت عن حكم أمة شرقية ، فلتترك المـكان لغيرها من الأمم الأوروبية الناهضة لتحكم مصر ؛ فهى أعرف من غيرها ، وأقدر من الانجلوسكسون على ذلك» .

وحينما زار ملك إيطاليا القاهرة والأقصر ، نشرت الحـكومة الفاشية كتيباً جاء فيه إن الرمال التى تطأها بقدميك قد ظللتها قبل عشرين قرناً أعلام روما وداستها أقدام جحافلها ، أنها لا تزال تتعرف إليك وإلى إيطاليا باعثـة مجد روما !

وأترك للقارىء أن يزن معنى هذا الـكلام . . . لأننا لا نزال نواجه بعض هذا فى ناحية الشرق بعد أن تحطمت إمبراطورية موسولينى ، إننا نسمع لغطا من إسرائيل ، ولست ألقى هذا القول جزافاً لـكى نرتمى فى أحضان الغير ، وإنما أقول : إننا يجب لـكى نحيا أن نـكون أقوياء أى نصير « أمة مسلحة مدججة

بالسلاح » لا تخشى الحرب ولا أهوالها ولا متاعبها . وأن الروح العسكرية يجب أن تغرس فى النفوس غرسا ، فهى التى ستخلق العزيمة الجبارة فينا ، وستوجد السلاح لنا ، وستعلمنا كيف نقلب الهزيمة نصراً وكيف نحبو إلى الأخطار . . . حينئذ ندعو أنفسنا أمة ، ونقول نحن أبناء مصر القاهرة . التى انتصرت على الأحداث والأقدار ، وقدمت فى الحروب الصليبية مليونين من أبنائها ، وطوت أعظم صفحات الخلود ، وكتبت أكبر ملاحم الحروب .

فى تلك السنة أى ١٩٣٦ وكنت أشغل وظيفة قنصل مصر العام بالقدس ، زارنى بريطانى يشغل منصباً كبيراً بحكومة فلسطين ، ورجانى أن ألقى حديثا بالإذاعة عن المعاهدة وما حققته لمصر من أهداف ، وكنت أجهل الدوافع الحقيقية لرجالنا بمصر ولم أكن قد تعمقت فى الأمور ، فخيل إلى وقتئذ أن المحالفة الجديدة التى وقعناها قد جعلت مصر طليقة فى زيادة قواتها العسكرية ، وأنها ستسير حتما نحو استكمال أهبتها ، وتكوين جيش حديث وطبقة من الضباط الممتازين ، الذين يصح أن يعتمد عليهم فى وضع الخطط ورسم القيادة وسوق الجيوش ، فأشرت إلى كل هذا فى حديثى وأطلت القول ، وجاءت محطة الإذاعة فنقلت كل ما قلت إلى الانجليزية و إلى العبرية .

ثم مرت الأيام فنقلت بسرعة بعيداً عن القدس ، وجاءت السنوات تترى فلم أعلم ما ذا حدث ببلادى بين ١٩٣٦ و ١٩٥٠ ، ولم أتتبع عمل البعثة العسكرية البريطانية ، وكنت أجهل حقيقة أسباب النزاع بين شاغلى منصبى رئيس هيئة الأركان حرب ومفتش عام الجيش ، ثم قامت الحرب العالمية الثانية ، وكان أول واجب شعرت به هو أن أتقدم بطلب كتابى لوزارة الدفاع أعرض عليها تجنيدى للدفاع عن بلادى ، ولكى أنضم إلى إحدى الوحدات المقاتلة فى الصفوف الأمامية ، وكان هذا الطلب عن طريق وزارة الخارجية إلى وزارة الحربية .

تقدمت بهذه الرغبة علماً منى بأننا سنقاتل بل لقد كنا نتشوق بعد إعلان

الحرب إلى أمرين :

الأول : اشتباك القوات المصرية للدفاع عن أراضينا بمجرد اقتحامها من قوات المحور .

الثاني : انتهاز فرصة قيام الحرب وحاجة الحلفاء إلى الجنود لإعادة تدريب الجيش المصرى وتسليحه تسليحاً حديثاً حتى يقوم ببعض الأعباء والواجبات المفروضة على أمة حديثة حية تتطلع أن تجاس وسط الأمم الحرة المجاهدة التى كتبت التاريخ بدماء أبنائها .

فى هذه الأثناء تلقيت أمراً بالسفر إلى بيروت ، وتسلم عملى بسوريا ولبنان حيث واجهت أيام الحرب بطولها إلى أن عدت فى النصف الأخير من عام ١٩٤٤ ولقد رأيت فيها الكثير من العجائب التى فتحت ذهنى وعلمتنى من شئون بلادى ما لم أكن أعلم .

ثم انتهت الحرب العالمية الثانية وجاءت بعدها حرب فلسطين وأظهرت تجاربها ودروسها صحة ما تنبأنا به ، وحقيقة ما كان يجول فى أنفسنا ، وتحت دروس المعارك والهزائم والضعف والتفكك والانهيار ، . . اتجهت الأنظار إلى إلى زيادة قوات الجيش المصرى ، وإعادة تسليحه ، وتخصيص الملايين لتدعيم وحداته الفنية وقواته المدرعة وتهيئة مصانع حربية ومنشئات له .

ولما أعلن هذا البرنامج وهو نفس البرنامج الذى كان يجول بخواطرنا سنة ١٩٣٩ ، وكنا نؤمل أن يتم بكامله أو ما يشبهه ابتداء من تلك السنة أى عقب توقيع معاهدة التحالف ، لأن أولى بسائط المحالفة أن يقوى الحليف حليفه وأن يشد أزره ويبسط له الثقة ويدربه على الرماية ويعلمه من فنون الحرب وأمور الحيل والمخاتلة فى الحروب ما لم يكن يعلم .

فى تلك اللحظة نشرت جريدة الأهرام مقالا المرحوم إسماعيل صدقى جاء فيه : « إن خلق جيش جديد وأدوات دفاع جديدة تشمل البر والجو

والبحر لا يخضع لقواعد ثابتة أو لمبادىء مقررة ، بل هو وليد السياسة الدولية والظروف الخارجية » .

ولم أكن يوما على وفاق مع أفكار المرحوم إسماعيل صدقى ، بل لقد اختلفت معه فى بعض ما جاء بمذكراته عن جغبوب ، ونشرت أقوالى تصحيحاً لحوادثها ومشاكلها ، وأظهرت أن جانب المفاوضين المصريين كان ضئيلا لدرجة لا تستحق أن تكون موضع افتخاره رحمة الله عليه .

ومع هذا ، فإنى أشهد له بأشياء كثيرة أهمها فى نظرى شجاعته النادرة وجسارته فى مواجهة الرأى العام بالحقائق التى يؤمن بها و بحجته ومنطقه ونصائحه التى لا تنقصها الصراحة والتى عرف دائما كيف يصيغها فى أسلوبه الخاص الذى يريد أن يفهمه به الخاصة حينما يقرأون ما بين السطور ، والتى لا يقدر خصومه على التمسك بحرف واحد منها لمهاجمة الحقائق التى يسوقها .

الحق أقول أننى أعجبت بهذا المقال وأعجبت بموقف المرحوم توفيق دوس منه و إن كنت أقول أن ما تقوم به مصر اليوم من تحمل أعباء التسليح و إيجاد جيش قوى ، سياسة كان من المحتم الأخذ بها فى المدة بين ١٩٣٦ و ١٩٤٠ ، أما اليوم فقد أصبح عبء التسليح فرضا على الدول الديمقراطية التى تقول أنها تريد منا أن نكون حلفاء لها ، فأنا أقول أن السياسة التى يجب أن نأخذ بها هى سياسة الأقوياء ، يجب أن نكون أمة مدججة بالسلاح لكى يحترمنا الصديق والحليف ، ويرهبنا العدو ولا وسط لذلك .

فإذا قال المرحوم إسماعيل صدقى :

« إن الدول ركزت عنايتها واهتمامها فى إصلاح حال سكانها » .

فهذا صحيح ومسلم به ، ولكن هذا لا يكفينى من غير جيش قوى ، وإذا قال :

« إن الدول عنيت بالتكتل والتفاهم اللذين يحميانها من خطر الاندفاع وراء نفقات التسليح الباهظة » .

فهذا معناه الدفاع المشترك أى تلقى معونة التسليح من الغير ، ونحن نسلم بالتسليح الكامل ، ولكن على طريقتنا و بشروطنا .

ولذلك نفترض أمرين : الأول التسليح الحديث كما تفهمه دول أوروبا أى إلى نهاية ما يمكن أن يكون عليه هذا التسليح ، فنحن لا نقبل الدفاع المشترك إلا وهو مقترن بتسليح عدة فرق حديثة لا تقل عن خمس فرق فى المرحلة الأولى . فهل الديمقراطيات مستعدة لذلك ؟

الثانى لو سلمت لنا بالتسليح الكامل لا نفهم أن المبالغ المرصدة للدفاع فى ميزانيتنا توجه إلى غير الجيش كما يفهم من كلام المرحوم إسماعيل صدقى ، بل يجب أن تبقى كما هى و يزاد عليها .

لأننا نطلب أن تصرف هذه المبالغ على المدارس العسكرية ، وعلى تهيئة الجيش لاستيعاب (٢٠٠ر٠٠٠) مائتى ألف مجند مصرى كل سنة ، أى أننا نطلب من حكومتنا أن يصل كادر الضباط إلى أكثر من عشرين ألفاً من الضباط المدربين تدريبا كاملا على فنون الحروب الحديثة ، ونقصد من هذا أن يكون احتياطى الضباط فى الجيش مكوناً من كل مصرى حامل لشهادة عالية .

فالمهندسون المدنيون هم ضباط مهندسون بأكملهم .

والأطباء « « أطباء «

والمحامون والموظفون وسائر حملة الشهادات ضباط بالجيش كافة من غير استثناء واحد أو إعفاء واحد .

فأنت ترى أننا أمام برنامج ضخم يتطلب من الرجال المسئولين تهيئة جيش عظيم لا يقل عن جيوش الأمم الراقية ، وينتهى بنا إلى الجمع بين إنشاء الجيش

المهنى L'armée Porofessionelle ، وخلق الأمة المدججة تحت السلاح أى التى بوسعها أن تقذف فى الميدان بما لا يقل عن عشر فرق مدربة ومنظمة لتحمل أعباء القتال أمام جيوش أوربية منظمة على أحدث طرق القتال .

فهل يكون الثمن الذى ندفعه للدفاع المشترك كبيراً علينا ؟ . لا أننى لا أفهم دفاعا مشتركا أو تحالفا مع هيئة الأمم المتحدة أو مع الديمقراطيات لا يكون أساسه الجيش اللجب والمعونة العسكرية التى تبذل عن طيب خاطر فى جانب من يدعونا للتحالف والدفاع المشترك .

إن واجبنا يحتم علينا أن يكون بالجيش مجموعة من المعاهد والمدارس والمعسكرات التى تخرج كل عام آلاف الضباط وضباط الصف وعشرات الآلاف من الجنود المدربين على القتال وحمل السلاح ، ولدخول المعارك فى الليل وفى النهار ، وفى آسيا وأفريقيا وأوربا فى البحر والبر والجو ، وفى زمهرير البرد والثلج وتحت الشمس المحرقة .

إن العزيمة القوية هى التى تخلق هذه الأداة الجبارة ، والتى يجب أن يأتى إليها السلاح والعتاد والذخيرة من غير أن تتحمل مصر مليما واحداً ثمنا لها . إننا سنقدم قوة الرجال المحاربين فيأتى إلينا السلاح كما يأتى إلى سائر الأمم والشعوب التى أقسمت أن تعيش حرة فى هذا العالم .

فهل هناك إرادة حاسمة وعقيدة ثابتة وعزيمة تعمل إذا وعدت ، وتعرف كيف تجعل كفاح المصريين دائما وإرادتهم غالبة ومشيئتهم محترمة ؟

إننى لا أشك لحظة واحدة فى أن طريق العمل واضح سهل بين كما عرضته .

ولكن الوقت يمر سراعا ، ونحن جامدون فى مراكزنا .

ومرة أخرى أقولها بكل صراحة :

« إن الرأس المفكر هو الذى يكتشف طريق الصواب ويستمر على السير فيه » .

ويومئذ أؤمن إيماناً راسخاً بأن شهداءنا وضحايانا كانوا الطليعة الأولى التى قادتنا إلى حيـاة أرقى وأسعد وأقرب إلى المعقول والمنطق ، من الحياة التى نحياها اليوم .

بالجيش نبدأ ، لـكى تثق الدنيا فينا ، لنشعرها بأننا نعمل تحت قيادة حازمة . وأن هذه القيادة قد قررت أن تقطع بنا مرحلة التخلف والتأخر التى نعيش فيها ، إلى مرحلة الحياة الحرة الصحيحة ، ورحم الله أبا الطيب حينما قال :

فلولاك لم تجر الدماء ولا اللهى ... ولم يك للدنيا ولا أهلهـا معنى

وما الخوف إلا ما تخوفه الفتى ... وما الأمن إلا ما رآه الفتى أمنا

وإنى أوجهها إلى الجيش المصرى عنوان المجد القادم علينا . ذلك الجيش الذى أرجو ألا أترك هذا العالم قبـل أن أؤدى خدمتى فيه ، إذا دقت ساعة الأخطار ؛ كما خدمه وقاتل فى صفوفه أبى وجدى من قبل .

نشرت فى أول يونيو ١٩٥١ بمجلة العالم العربى .

ماذا نعمل؟ وأين الهدف؟ وإلى أين المصير؟

يتطور العالم منذ سنة ١٩٤٧ ، وتسير الشعوب نحو التحرر والاستقلال والتقدم المادى والإنعاش الاقتصادى ، فالأمم التى أنهكتها الحرب مثل بريطانيا وفرنسا وغيرها من غرب أوربا ، قد استعادت قدرتها الإنتاجية بل زادت عما كانت عليه سنة ١٩٣٩ ، حتى الأمم التى حاربت الديمقراطيات مثل إيطاليا وألمانيا واليابان . قد انتقلت من منصة الأعداء إلى منصة الأصدقاء ، أى أخذت مكانها بين الأمم الحرة وبدأت تستعيد قوتها الإنشائية وتضاعف إمكانياتها الإنتاجية وتسير بخطوات وئيدة نحو استكمال تعبئتها الدفاعية وإيجاد جيوش لها وما يقال عنها قد ينصب على مجموعة غيرها من الشعوب الأسيوية والأفريقية تعمل وتكافح فى طريق التطور والإنشاء والتعمير .

وتنفرد مجموعة من الشعوب بموقف التردد والجمود ، هى الشعوب العربية .. إنها تنتظر وتؤمل فى الأقدار ونتائج تطور الحرب العالمية الثالثة ، لكى تفكر فى تقرير مصيرها ومستقبلها بين الفريقين الشرقى أو الغربى ..

أما أنا فأقول : أن الشعوب العربية إذا تحررت حقاً وخرجت إلى الحياة الطليقة الصحيحة . فإنها ترحب بمن يواجهها بالحقائق ، بل إنها لا تبخل عن تقديم البذل والتضحية ، وأن تشترك فى الحرب القادمة ، وأن تحمل أعباء الحياة الحديثة . نعم : إذا أيقنت هذه الأمم وآمنت بأن ضحاياها ستكون الطليعة الأولى التى تسير نحو تحقيق حياة أرقى وأسعد وأقرب إلى المعقول والمنطق من الحياة التى تحياها اليوم ..

تلك هى الصيحة التى وجهتها ولا أزال أوجهها وأجهر بها وإلى أمام الأحداث.

العالمية القادمة علينا ، لا أتراجع عن هذه الصيحة، بل أرددها أمام أبناء الشعوب العربية الأحرار وأنا واثق من أن فريقاً منهم سيعارض ما أقول ولكنه فى النهاية سيرحب بكلماتى .

لأن الكثيرين سيشعرون أننى أؤمن بالقوة الكامنة فى الشعوب العربية ، وأعرف أن تلك القوى لم تمتحن بعد ، ولم تواجه المصاعب والمشاكل التى تصهر الأمم لكى تظهر عظمتها وقدرتها وفعاليتها للعالم ، وأنه لا سبيل لكى تقر لنا الإنسانية وشعوب الأرض، بأننا أمم حية نعيش فى القرن العشرين وبوسعنا أن نعمل ما يعمله الغير ، إذا لم نُبرز هذه القوة الكامنة ونقبل للمعركة ونحارب فى صفوف الشعوب الحرة المجاهدة .

أما الموقف السلبى فلم يعد يكفى فى هذا الزمن لأن العالم الذى نعيش فيه يسرع الخطى ، وكل يوم يمر ينتقل فيه هذا العالم بشعوبه إلى مرحلة جديدة ، إذن، لا معنى للوقوف والجمود، والاكتفاء بالعيش أمام سراب الآمال والعواطف والأقوال ، وإلا ، فما الذى عملناه لأنفسنا إلى اليوم ؟ وما الذى بنيناه وأنشأناه بأيدينا من عظائم الأعمال ؟ أننا لا نستطيع أن نقدم دليلا واحداً سوى أننا لم نوافق فى السنوات التى أعقبت الحرب سياسياً أو اقتصادياً أو عسكرياً .

فما هو هدفنا ؟ وماذا ننوى أن نعمل ؟ وأين يكون مصيرنا ؟ سؤال لا إجابة له

أما الثورات التى قمنا بها فى الثلاثين سنة الماضية ، فقد قامت ثم هبطت ، ولم تغرس فى نفوس الناس تلك الدوافع النفسية والخلقية التى تحمل طابع الدوام والاستمرار . واليقظة الشاملة .

إنها لم تكن وليدة ذلك الإحساس الثورى والجماعى الذى يلازم الحركات القومية الكبرى ، ويسرى فى النفوس سريان النار فى الهشيم ، فيؤثر فى حياة الأفراد والجماعات والأحزاب والشعوب فيجعلها جميعاً تؤمن إيماناً راسخاً جماعياً برسالة الشعوب وضرورة انتقالها من حال إلى حال ، أو يتملكها تلك الإرادة

الحاسمة التى تفرض عليها قطع مرحلة معينة فى طريق التحرر الفكرى والانطلاق الذهنى وتأكيد شخصيتها وتصميمها للسير فى طريق التقدم والرقى ، أو الخروج من فوضى القرون السالفة وغمرات الانحلال والتفكك . .

إن ما يسميه الناس ثورات ، ما هى إلا حركات قامت فترة ثم نامت أو تسربت فى الطرق والمخارج التى أراد بعض القادة ان تتنفس فيها تلك الحركات حتى لا تحقق المصلحة العامة الأهداف الكبرى التى تسير فيها الحركات الشعبية المماثلة لها فى كافة بلاد العالم الحر .

ودليل على ذلك ، ماترونه من مظاهر الخراب والتأخر فى كل بلدان العرب وفى جزء كبير من الشرق الأدنى .

وإلا فأين التحمس المفروض ان تحاط به المصلحة العامة لدى هذه الشعوب ؟

إن الروح المتحكمه والسائدة فى أوساطنا هى بلا شك روح تغلب عليها الانفرادية والمصلحة الذاتية ، وهى التى تمثل الدوافع الأساسية لعمل الأغلبية الساحقة من الأفراد والجماعات .

فالقول بأن هناك ثورات قامت فى البلاد العربية ، وان هذه الثورات قد نقلت هذه الشعوب ، قول فيه الكثير من المبالغة والتفاؤل الذى لا يتفق مع الواقع ، بل يحمل فى ثناياه طابع الغرور والتخدير ومايجره من الأخطار على مستقبل هذه الشعوب .

بقى السؤال الآتى : لماذا لم تنجح الحركة العربية التى قامت سنة ١٩١٦ ؟. والجواب على هذا السؤال سهل واضح لا يتطلب عنتاً . وهو أنها ، أى هذه الثورة لم تكن فى الأصل والمبدأ عربية ، بل كانت من عمل أيد أجنبية ، فلو كانت أصيلة فى عروبتها أو إسلاميتها ، لماوقف أمامها حائل ولكانت تغلبت بإرادة الله ممثلة فى إرادة الشعوب على كل ما قام فى وجهها من عقبات .

ولكنها كانت تمثل ذلك الفريق الذى لم تتحرر منه البلاد العربية —

وهو الذى يريد أن يصبغ رغبته الانفرادية ومصالحه الذاتية على مقدرات الشعوب العربية وهى تجاهد لكى تنهض وتستقل وتنعم بالحياة الحرة والمثل الديمقراطية الصحيحة .

فجاءت النتيجة المحتومة والمنتظرة ، وهى أن ذلك الفريق أحاطها بالقيود والأغلال وسلمها راضياً للدولة الغاصبة، بدلا من أن تنعم بالمثل العليا التى حاربت من أجلها .

والغريب أنه لا يزال وسط الصفوف ، وفى الطلائع ومن بين الذين يتشدقون بالوطنية شراذم ، من هذا الفريق وهم الذين ما زالوا يلعبون بالنار على حساب مستقبل الأمم العربية كافة . ونتساءل ولا إجابة لهذا السؤال :

لماذا اختير هؤلاء بالذات لتصدر الحركات العامة ؟.

ولماذا يقفون فى المقدمة بعد أن أتت الهزائم على أيديهم وبعد أن لازمهم سوء الحظ والطالع فى كل عمل تولوه ؟ هل نصدق حقاً أنهم كانوا يجهلون أمر المعاهدات السرية التى قسمت أملاك الدولة العثمانية إلى دويلات ومناطق نفوذ بين الدول الكبرى ؟

أكانوا حقاً لا يدركون معنى وعد بلفور ولم يسمعوا به ؟

ثم ما هى علة تواردهم وتزاحمهم على مفاوضة وايزمان باسم المرحوم الملك فيصل — طيب الله ثراه — ومن غير علمه ؟ .

إن هذا الفريق الذى استمر يقودنا إلى المهالك كان ضعيفاً فى عمله قاصراً فى تفكيره ، ولهذه الأسباب بالذات اختير لعمل معين أداه فأحسن أداءه للمستعمر ، ولا يزال هذا الفريق يتصدر الحركات العامة ، لكى تأتى الأرزاء على يديه مقرونة بالنكبات .

فهل من عجب إذا نادينا بأننا لا نريد أن تتكرر هذه المآسى مرة أخرى فى تاريخنا ؟

ولذلك قلنا : نريد وعياً جماعياً ونهضة شعبية شاملة ، ولا سبيل لذلك سوى أن نقاتل فى الصفوف الأمامية وأن تكون علاقة أمم العرب مع الديمقراطيات علاقة أمم حية قد تملكها الوعى القومى الصحيح وأننا كشعوب نمد يدنا بشجاعة وإخلاص حتى لا يقال عنا فى المستقبل كما قيل عنا فى الماضى ، إننا كنا نساق كالأنعام أو كحمر مستنفرة .

إننى لا أزال أفرق ما بين الديموقراطيات الكبرى وفرنسا ، لأننى أعرف تماماً كيف قوبل عدوان فرنسا على استقلال كل من لبنان وسوريا من جانب الديموقراطيات ، وكيف دفعت هذه الأذى عن البلدين ، لقد عشت فى غمرات تلك الفترة التى يعرف أسرارها الكثيرون من أحرار السوريين واللبنانيين ، وهى أمور لا تحتمل الجدل ولا يأتيها الشك .

ولقد كنا نطمع ونؤمل فى أن تسير حركة التحرير نحو أمم شمال أفريقيا ، وكنا على مقربة من النجاح لو عرفنا كيف نوجه أمورنا الوجهة الصحيحة فى السنوات التى أعقبت الحرب مباشرة .

ولكن رجال العرب ساروا فى خطة أخرى . إذ لم تظهر دلائل نيتهم فى أن ينقلوا الشعوب العربية أو يدفعوا الجماعات الناهضة بإيمانهم وتوجيهاتهم وخططهم وعملهم وجهادهم المنظم وكفاحهم الصامت — من حالة الفوضى التى تركها الاستعمار عليها — إلى حياة الأمم القادرة على مواجهة متاعب القرن العشرين وما تستلزمه من تصميم وتدريب وعمل منظم .

إننا كنا ندعو الأمم العربية أن يكون السلم الذى تعيش فيه كفاحاً دائماً .
وأن يكون عهد الرخاء والسلم المدعم بالتصميم والعمل المنظم ثورة دائمة .

أما ونحن لم نستفد شيئاً من دروس وتجارب الحرب العالمية الأولى ولا الحرب العالمية الثانية ، ولم نحمل أعباء المعارك فقد كنا نعيش على هامش الحرب ، وكنا موضع سخرية الطرفين وتكفينا إشارة رجال المحور لنا : « حكومتكم حيادية

وأراضيكم تجار بنا » فهل نقبل هذا الوضع لأنفسنا مرة أخرى ؟ لا .

لقد اشتركت فى الحرب الأخيرة أمم كثيرة ، وجاءت فرنسا بكتائب من إخواننا المغاربة وأصدقائنا السنغال فى كل الميادين فهل يكفى هذا ؟ لا .

إن ما أنادى به هو قتال الند مع الند ، أى العمل نحو وضع شعوب العرب وضعاً أوروبياً مثل الأمم الحية التى تتلقى المعونة كاملة فى التسليح والتدريب وفى الانعاش الاقتصادى والمالى وأن تشترك فى المؤتمرات وتنسيق القيادة ورسم الخطط إننى أطلب أن تثق الديمقراطيات فى رجالنا وفى نياتنا وآمالنا . ولذلك أطلب التسليح إلى نهاية ما يمكن أن يكون عليه التسليح الحديث ، كما تتسلح الآن إيطاليا وفرنسا ثم ألمانيا وأسبانيا . بدون أن تتحمل أعباء هذا التسليح من مالها .

إننى أطلب المعونة للانعاش المادى كما تقدم تلك المعونة فى أوربا وأمريكا وللوصول إلى ذلك يجب استعادة الثقة المتبادلة بين الشعوب العربية والشعوب الديموقراطية ولنبدأ نحن بالخطوة الأولى وهى ليست بعسيرة ! ! ما علينا إلا أن نبرهن للعالم أجمع أننا أهل جد وعمل وبذل وتضحية وفهم لحقائق الأمور .

وأول مظاهر هذه الخطوة : الدعوة إلى الاقتصاد التام فى كل مظاهر الترف والـكماليات ، وأهم ما نعنى بهذا القضاء على تضخم الوظائف الحـكومية وقفل أبواب الصرف المخصصة للانفاق على المظاهر ، أى أن تقتصر الميزانيات العامة للدول العربيـة على الضرورى النافع الذى لا يحمل طابع الدعاية والتهويش والترغيب والإغراء .

من هنا نبدأ ، لتثق الدنيا فينا ، لنشعرها بأننا نعمل تحت قيادة حازمة وأن هذه القيادة قد قررت أن تقطع بنا مرحلة التخلف والتأخر التى نعيش فيها إلى مرحلة الحياة الحرة الصحيحة .

لقد وطنت الديمقراطيات أنفسها على رسالتها العالمية فهى لا يهمها إذا قلنا أننا كفرنا بها ، وإن كانت ترحب بأية حركة تقدمية تبدو فى صفوفنا ، أما اسرائيل

التى لا تنفك تتحرش بنا الآن ، فستقف عند حدها وتفكر مرتين حينما تلمس لأول وهلة فى حياتنا أننا نسير بحق فى خطوات فاصلة نحو التقدم والانتعاش والأخذ بالمدنية الصحيحة . حينئذ نعرف كيف نحل مشاكلنا معها .

وأقولها مرة ثانية ، إن كل سياسة تبنى على انتظار قيام عوامل خارجة عن إرادتنا ولا شأن لنا بها ، هى سياسة تحمل معها جرائيم الفشل بل تؤدى إلى بقاء البلاد العربية فى نطاق الأمم المتخلفة عن غيرها فى القرن العشرين .

فلمصلحة من يفرض علينا هذا ؟ .

فهل هو لمصلحة هذا الفريق — الموزع بين الأفراد والأحزاب والجماعات — الذى يريد أن نستمر شعوباً بسيطة تشغلها الأوهام وسفاسف الأمور وتستهويها الألفاظ وتسوقها الدعايات ؟ .

أليس هؤلاء هم خدام الاستعمار وعباده وإن تظاهروا بعدائه فهم يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم ؟ والويل لأمم تسير وراءهم[1] ...

---

(١) صيحة نشرت بمجلة العالم العربى فى يونيةسنة ١٩٥٠ . ولقد خرجت مصر بثورة من نطاق السلبية وتحقق كل ما تنبأ به المؤلف .

الحرب الثالثة
هل تقوم؟ ومتى تقوم؟

« إذا زلزلت الأرض زلزالها ، وأخرجت الأرض أثقالها ، وقال الانسان مالها ، يومئذ تحدث أخبارها ... » (قرآن كريم)

الحرب واقعة :

يسير العالم بخطوات وئيدة نحو النتيجة المحتومة ، وهى الحرب بين المعسكرين : الشرقى والغربى ، الشيوعى والديموقراطى ، سيقع التصادم بين عقيدتين ومدنيتين ونظامين للحياة ، رغم كل المحاولات التى بذلت والتى ستبذل لاستبعاد فكرة الحرب أو تأجيلها ، فالحرب واقعة لا محالة . لأن الكرة الأرضية لا تحتمل نظامين متناقضين .

الديموقراطية والشيوعية :

والنظام السائد فى العالم الديموقراطى هو وليد التطور الذى بدأ فى أميركا وفى أوروبا عقب الثورة الفرنسية ، والذى يستند على وثيقة حقوق الإنسان وعهد الأمم المتحدة ، والذى يؤمن بحرية الفرد وقدرته على الرقى والتقدم والانطلاق وحده ، والذى يريد أن يفرض المساواة بين الشعوب ... كما يدعى ويقول : أما النظام السوفييتى فوليد ثورة ١٩١٧ التى قامت فى بلاد مختلفة أو دول أسيوية أى نصفها فى أوروبا ونصفها فى آسيا ، فى الأراضى الروسية حيث السهول المتسعة التى حملت جيوش التتار والمغول فى أوائل التاريخ إلى عهد جنجيز خان ، لقد كان قيصر روسيا يدعى أنه وارث ملوك القبجاق وهم أصحاب مدينة سراى ،

الذين دانت لهم دنيا الحروب والمعارك من أسوار الصين إلى أواسط أوروبا . إنه كان يتشبه بهم ويسير فى بلاطه على مراسم الملك لديهم .

الثورة الروسية :

والثورة الروسية هددت أوروبا منذ قيامها ، وهى لا تزال تهدّد العالم إلى اليوم من كوريا فى أطراف آسيا ومن سنغافورة إلى الهند إلى إيران ثم إلى تركيا والبلقان ، وتحتشد فى قلب القارة الأوروبية ١٥٠ فرقة مدربة مسلحة ، وعلى استعداد لقبول المعركة واحتلال الجزء الغربي منها ، ثم تسير لفتح بقية العالم .

مقدمة أو نهاية :

لقد كانت لبعض الناس مقدمة أو خطوة أولى تتبعها خطوات وللبعض الآخر نهاية معركة فاصلة خاسرة . يراها أنصارها وأتباعها والمؤمنون بها فجر دنيا جديدة لتحقيق فردوس عالمى ، ويراها البعض من الناس ختام دور كان يسوده القلق فى الروسيا وانتهاء عهد ظلم وتحكم فى العالم .

عالم جديد :

إن أصحاب نظرية السوفييت يريدون عالماً جديداً تسوده الحرية والمساواة التامة بين الرجل والمرأة ، ويحاولون إنشاء مجتمعات محررة ما أمكن من التزامات الوطن والدين والعائلة ، يريدون أن يتساوى فيها رجل الفكر مع رجل العمل ، رجل الجامعة مع رجل المصنع والمزرعة ، وهم يؤملون أن تسير أغلب الأمم والشعوب معهم . يؤملون أن يخرج الفرد إلى العالم وهو يعتمد فى نشأته وتعليمه وتدريبه على المجتمع بأكمله لا على نفسه ، أى أن المجتمع يرسم للفرد حياته التى يعيشها ولذلك قال لينين : « سيكون العالم كله مكتبا واحداً ومعملا واحدا » .

التضحية :

وقال أساطين الحركة أن البناء الشيوعى أو الإنشاء السوفيتى يتطلب من كل فرد تقديم التضحية ، بغير نفسية التضحية كما تعلمها الأديان — وسيكون الغرض من التضحية إيجابياً إنشائياً إنتاجياً لا غرضاً نفسانياً إنفرادياً يشعر بلذة داخلية .

العالم بنا يبدأ :

وعلى الفرد أن يدرس ويعلم ويحاضر ويبحث ويلاحظ : أنهم يقولون أن العالم يبدأ بهم وأن تاريخ الإنسانية مر على مرحلتين : المرحلة الأولى إنفرادية تسودها الفوضى ، والمرحلة الثانية هى مرحلة الإنشاء والخلق وسيطرة المجتمع على الطبيعة ، إن نظريتهم تشبه نظرية السلف الصالح الذى كان يقول بأن الإسلام يجبّ ما قبله وينسخ ما تقدمه فالمرحلة الأولى لديهم جاهلية والمرحلة التى بدأت بثورتهم هى المرحلة الإنسانية فى تاريخ البشرية .

أكبر أداة قتال تهزم :

هذه فكرة النظام الذى تلقى بصدره فى الحرب العالمية الثانية أكبر أداة قتال رآها العالم : وهى الجيش الألمانى ، وخسر أكثر من أربعة ملايين مقاتل فى المعارك بين سمولنسك ولينينجراد وموسكو واستالين جراد ، ثم عادت جيوشه فحاربت وانتصرت واحتلت الجزء الشرقى من أوروبا ، وخضعت لها بولونيا وتشيكوسلوفاكيا والمجر ورومانيا وغيرها : ولقد وصلت القوات الروسية المعبأة إلى ٥٥٠ فرقة ووصلت القوات الألمانية إلى ٣٥٠ فرقة ، وهذا مجهود جبار كما ترى من الجانبين .

التعاون مع السوفييت :

وفى أبان تلك الحرب العالمية طار روزفلت وتشرشل إلى يالتا وإلى طهران واجتمعا بالزعيم البلشفى « استالين » ، ووضعت الخطط للتعاون بين السوفييت والديموقراطيات ، وكان رئيس وزراء بريطانيا يقول أنه يتحالف مع الشيطان ليكسب الحرب ضد هتلر ، أنه كان يخشى النازية أكثر من الشيوعية وكان روزفلت يتوهم أنه بسياسته البورتيانية سيكسب السلام مع الروس ، لقد غلبت عليه روح أولئك البوريتان النازحين من بريطانيا للدفاع عن عقيدتهم الدينية ، وغاب عن ناظريه أو نسى أن الروس إسيويون أحفاد أولئك الذين جمعتهم سيطرة الخان الأكبر أو الخاقان الأعظم ، فهم أتباع إرادة حازمة ونظام محكم ، وأن فلسفتهم الجديدة تقول بأن ظهور الجبال العالية كان نتيجة تصادم كذلك هبوط المحيطات العالمية جاء على أثر عوامل انشقاق وثورة جامحة بين عناصر الطبيعة ، فما نراه على الأرض ليس وليد تطور دائماً ؛ بل هو أثر من آثار تصادم وتفاعل عنيف بين عناصر الطبيعة ، أى أن الثورة والعنف كانتا قانون المجتمع كما كانتا قانون الطبيعة على الأرض .

بوادر التفكك والشكوك :

لقد لمس هؤلاء القادة الديموقراطيون حينما اجتمعوا فى أوتاوه بعد ذلك بوادر التفكك والشكوك بين روسيا وحلفائها وكانوا فى حيرة أمام الشعوب ، لقد كسبوا الحرب ولكنهم كانوا على وشك أن يفقدوا النصر ، ومعنى هذا أنه يسود العالم الديموقراطى الفوضى التى مرت بأوروبا سنة ١٩١٩ وقلبت الأوضاع السياسية كلها وجعلت المجتمعات الأوروبية على استعداد لتلقى مبادىء موسكو كعلاج للخروج من أكبر نكبة رماها بها التاريخ ، لقد واجهوا فى السنوات ٤٥ — ٤٧ حالة فى منتهى الخطورة ، ومع هذا فقد عجزت الشيوعية عن

اكتساح أوروبا مرة ثانية ، وأظهرت الظروف أنها — أى أوروبا — فى سنة (١٩٤٤ إلى ١٩٥٠) أكثر منها مناعة عن سنة ١٩١٩ : فما هى أسباب ذلك ؟

تيمورلنك والروسيا :

إننى أذكر كل هذا وأضع أمامى خريطة هذا الركن من العالم عام ١٤٠٠ ميلادية لقد كانت جيوش تيمور لنك تهدّد مصر وتركيا بعد أن فتحت أواسط آسيا وإيران والقوقاز ، فوصل سفراء ملك القبجاق أى روسيا الحالية إلى سلطان مصر والشام الملك الظاهر برقوق ، ووصفوا له ما تعرضت له بلادهم من عمل هذا الفاتح الأسيوى ، فوعدهم خيراً ثم التفت لأمراء جيوش مصر وقال « ما أخشى اللنك (أى الأعرج تيمور) إذ الكل يقف معى ضده ولكننى أخشى ابن عثمان » ، وكان على حق فإن دولة ابن عثمان قضت على ملك مصر واستقلالها بعد مائة وخمسة وعشرين عاماً ، بعد أن زالت أخطار تيمور وإمبراطوريته التى تبخرت من غرب آسيا وزالت من أقاليم روسيا بعد سنوات قليلة . . . لأن ابن عثمان كان فى وسط العالم الإسلامى من يعطف عليه ويؤازره كما تبين لبرقوق ملك مصر .

تشرشل يحالف الشيطان :

وأرجح أن تشرشل حينما كان يحالف الشيطان قد توهم تماما أن النازية خطر يعطف عليه الكثيرون من أبناء أوروبا وأمريكا وفى انتصار هتلر القضاء على عظمة بلاده وأميركا ، بينما الروسيا السوفييتية وهى تشبه فى أراضيها وخطرها تيمورلنك ودولته ، تحمل فى قوتها أسباب ضعفها لقد كان تشرشل يعتقد فى قرارة نفسه أن أغلب سكان بلاده سيقفون فى صفه ولا يعطفون على الروس . إذن لا خطر عليه فى صداقتهم .

روسيا تقعد بدخولها أوروبا :

ولقد أظهرت الأيام أن وصول الروس إلى قلب أوروبا كان بمثابة أكبر

دعاية ضد الأساليب الشيوعية والأنظمة التى يحملونها معهم فى فتوحاتهم ، لقد ثبت أن عدد المعجبين بهم فى تضاؤل مستمر بينما كان عدد الذين يكرهون هذا النوع من الحياة فى ازدياد ، وعليه لا يهتم تشرشل إذا تعانق مع الروس ما دام الشيطان سيبقى شيطانا فى عقول عدد كبير من سكان أوربا الغربية .

وليس لدينا فى سنة ١٩٥١ ما ينقض رأيه فى هذه الناحية بالذات ، رغم الجهود الجبارة التى تبذلها الدعاية الروسية ، ورغم المشاكل التى تركتها الحرب ورغم مجاهرة بعض الشعوب الشرقية بالعطف عليهم .

أوربا بعد الحرب العالمية الثانية :

فلنلق إذن نظرة على أوربا بعد الحرب .

لقد ثبت بصورة لا تقبل النقض ، أن الدول التى اشتركت فى الحرب خرجت محطمة — سواء منها التى انتصرت أم انهزمت — بل أن الفريق المنتصر خرج وهو أكثر تحطيما مما كان يتصور وينتظر .

وقد قال المراقبون أن صورة أوروبا وسط الإنهيار والتفكك التى تركتها عليها الحرب العالمية الثانية ليس لها مثيل فى التاريخ إلا الانهيار الذى أعقب تحطيم الدولة الرومانية تحت هجمات الشعوب الإسيوية من الهون وغيرهم .

ولقد بذل روزفلت وتشرشل جهدهما لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من أوروبا ، علما منهما أن عصب العالم الديمقراطى هو أوروبا الغربية ، وأن إيقاف الزحف السوفييتى لا يكون إلا باستعادة قوة الشعوب الأوربية وقدرتها على النهوض مرة أخرى .

فرنسا تتعزى بامبراطوريتها :

وإذا كانت نظرية الفرنسيين تتلخص فى أن إنعاش فرنسا لا يكون إلا

بطريق التمسك بالمستعمرات ؛ فقد جاءت نظرية الديمقراطيات بإنعاش أوربا أولا ولو كان هذا الإنعاش على حساب فقدان المستعمرات . لماذا ؟ لأن مشكلة الاستعمار لم تبق هولندية أو بريطانية أو فرنسية او برتغالية ، لقد أصبحت عالمية وأن إعطاء المستعمرات حريتها واستقلالها هو خير ضمان لبقائها تحت السيطرة الديمقراطية المجتمعة إقتصادياً .

انقسام العالم لمعسكرين :

فكأن انقسام العالم لمعسكرين قد عجل بإنعاش أوربا وساعد على تحرير الشعوب المظلومة والحصول على استقلالها أو على شئ من حرياتها .. المفقودة .

إذن ما هى علاقة الشعوب الأسيوية والأفريقية بالمعسكرين ؟ وما شأن الملايين من أهل الصين وآسيا الوسطى بالسوفييت ؟ وما هو أثر الدول العربية والإسلامية والشرقية أو بعبارة أخرى هذه الشعوب الملونة فى نظر الأمريكيين والمظلومة فى نظر الدعاية السوفيتية والمتخلفة عن غيرها فى نظر هيئة الأمم المتحدة ؟ الحقيقة الثابتة هى أنها — أى الشعوب — فى نظر المستعمرين تعد فى الوقت الحالى آلات يسهل تحريكها أو أسماء لأماكن جغرافية ومواقع استراتيجية لا غير عند نشوب الحرب.

لقد كان « لينين » أول من نادى باستقلال الشعوب وحريتها وجمع ممثلى الأمم الشرقية فى مؤتمر بموسكو وتحادث معهم بشأن تحرير الأمم المظلومة ولما انتهت حملة فارسوفيا على غير هواه عقب الحرب العالمية الأولى وتبين لقادة الروسيا أن أوربا لا تقهر بالسهولة التى تصورها الكثيرون منهم . تغيرت سياسة السوفييت نحو الشعوب المظلومة واستعادوا سياسة القمع . ولقد كانت شعوب القوقاز مستقلة ولها ممثلون سياسيون فى موسكو ولم يمض غير أشهر حتى انتهى استقلال هذه الشعوب وضمت إلى الاتحاد السوفييتى وهذا ما حدث على طراز آخر بالنسبة لشعوب أوربا الشرقية بعد الحرب العالمية الثانية . .

فالفكرة التى تجول بخاطر السوفييت بالنسبة للشعوب المظلومة هى نفس الفكرة التى تجول بعقلية الديمقراطيات أى أن هذه الأمم المظلومة لا تستطيع أن تفعل لنفسها شيئاً وهى بعبارة أخرى فى حاجة للانعاش الاقتصادى والمساعدة العسكرية وللخبراء والقيادة من كل جهة .. ما دامت فى حالة تخلف عن غيرها .

الأسيويون كجنود :

وفى الوقت الذى قامت فيه الثورة الروسية ، كان جل اعتمادها على الكتائب الأسيوية من المغول والصينيين الذين استعملوا فى حملات تأديبية طول مدة الحرب الأهلية نظراً لطاعتهم العمياء وجهلهم ، ولما قامت الحرب العالمية الثانية أمكن تجنيد عدة فرق من الصينيين الشيوعيين أرسلت لعدة ميادين ، وإذا أردت تتبع تاريخ القواد والزعماء فى الصين وكوريا الشمالية وجدت أكثرهم من خريجى المدارس العسكرية فى الروسيا ، ولكن هناك حقيقة فى الصين لا يمكن إزالتها سريعاً من العقول هى أن الصين الشيوعية مثل الصين الوطنية تحمل فى أقسامها المختلفة عوامل الضعف والتفكك الكامنة فى الكيان الصينى نفسه : ولقد أظهرت تجارب السنوات الأخيرة أن الصين بالوعة ضخمة للمعدات الحربية فقد استحوزت الصين الوطنية على أسلحة الجيوش اليابانية بعد تسليم اليابان ، ثم أخذت من المعدات الأميركية أيام تشان كاى تشك ما يكفى لتسليح قارة ومع ذلك انهارت الصين الوطنية سريعاً .

الصين الشيوعية بالوعة للمعدات :

وحلت محلها الصين الشيوعية التى قامت على مساعدات روسيا ومعداتها ولا أظن أن حرب كوريا قد أقنعت كثيرين — رغم وجود القيادة الفعلية بيد الروس — إن القوات الصينية المعبأة والمدربة على الطريقة السوفيتية قد قامت بما كان ينتظره الكثيرون منها ، لقد أصبحت الصين الشيوعية بالوعة للحصول على المعدات الروسية على طريقة الصين الوطنية بالنسبة لأمريكا .

ثلاث احتمالات عن موقف الأمم الشرقية :

والآن ما هو موقف الأمم العربية والإسلامية والشرقية من الحرب العالمية الثالثة ؟ هناك ثلاث احتمالات : الحرب مع الديمقراطيات ، الحرب فى معسكر السوفييت ، الوقوف على الحياد ... ولا رابع لذلك .

إن الدول الديمقراطية قد وضعت خطط الدفاع عما سمته البلاد الخارجة عن نطاق السور الحديدى وهى منذ عام ١٩٤٤ تقلب أوجه تثبيت خط دفاعى يمكنها من المقاومة حسب الخطط الاستراتيجية المبنية على تحقيق الدفاع عن العالم بأكمله والانتقال من المدافعة إلى الهجوم . ويجب النظر إلى الخلاف القائم بين ترومان وماك آثر على أنه مظهر من مظاهر تأكيد هذه الاستراتيجية العالمية .

وللاجابة عن الاحتمالات الثلاثة القائمة يصح أن نستعرض بعض ما تنقله الأنباء ،ففى المصرى الصادر يوم ١٥ يونية ١٩٥٠ خبر من ليك سكس يقول بأن شارل مالك ينادى بدعوة الدول العربية إلى عقد معاهدة «دفاع مشترك» مع اسرائيل فى حالة الحرب ، وأن ممثلى مصر وسوريا والعراق فوجئوا بهذا البيان ولكن أتى تعليق واحد عليه كأنه كان على موعد معه وهو تعليق بن جوريون رئيس وزراء إسرائيل الذى قال « نحن على استعداد للدفاع عن نظم الحكم لدينا إذا ما اعتدى أحد عليها إلا أننى أشك فى أن يقف العرب هذا الموقف لو اعتدى أحد عليهم » .

فهو يقرر أنه سيدافع عن كيانه ضد من؟ ضد الهجوم السوفييتى طبعاً ؟ الذى سيغير نظام الحكم فى اسرائيل . . .

!!! أما العرب فهو يشك فى موقفهم أى انهم سيقفون على الحياد حتى فى حالة الاعتداء عليهم .

ومعنى هذا فى نظره ان غيرهم هو الذى سيتولى الدفاع عن اراضيهم و بلادهم كما حدث فى الحرب العالمية الأولى ثم الثانية .

و بينما يعلق بن جوريون على تصريح شارل مالك بقنبلة لها أثرها فى المحافل الدولية ، نقرأ تصريحاً لأمين الجامعة العربية السابق يقول بإنشاء كتلة ثالثة بين المعسكرين الشرقى والغربى لموازنة القوى بين روسيا واميركا ، كيف ينشأ هذا المعسكر ؟ واين يؤسس ؟ وما هى اهدافه ؟ امور لم يفصح عنها امين الجامعة .. ولم يعلق عليها احد سوى ما يرتسم من ابتسامة القارىء العادى .

و إنما جاء فى اقواله انه إذا نشبت الحرب بسبب إيران فلن يتخلى العرب عنها.

هل ستسمح حينئذ إيران للجيوش الروسية باحتلالها ؟ وهل تهب الكتلة الإسيوية لمساعده إيران فتحالف الروسيا ؟ أو يقصد وقوف العرب مع إيران فى حالة اعتداء الروس عليها ؟امور تبقى بغير إجابة كالعادة .

الثورة الروسية قامت على العنف :

بين يدى كتاب عن الحرب العالمية الثالثة[1] يقول فيه صاحبه : إن الثورة الروسية قد قامت بقوه السلاح واستعمال وسائل العنف ، و ن مبادئها أن تثبت وتركز فى قلوب الشعوب الخاضعة لحكومتها ، إلا إذا خففت من وسائل الضغط والإرهاب والقوه والبطش السائده فيها ، ولكن روسيا تخشى نفسها وتخشى بقية العالم ، فهى لا تطمئن إلا إذا رأت بقية الدنيا تحكمها حكومات على نسقها وطبقاً لخططها » هل هذا صحيح ؟ لا أدرى .

وقال الإنسان مالها ؟ يومئذ تحدث اخبارها ! !

(1) War Between Conintents Page 197 F. O. Miksche. and. E Combeaux

الفهرس

صفحة

صفحة

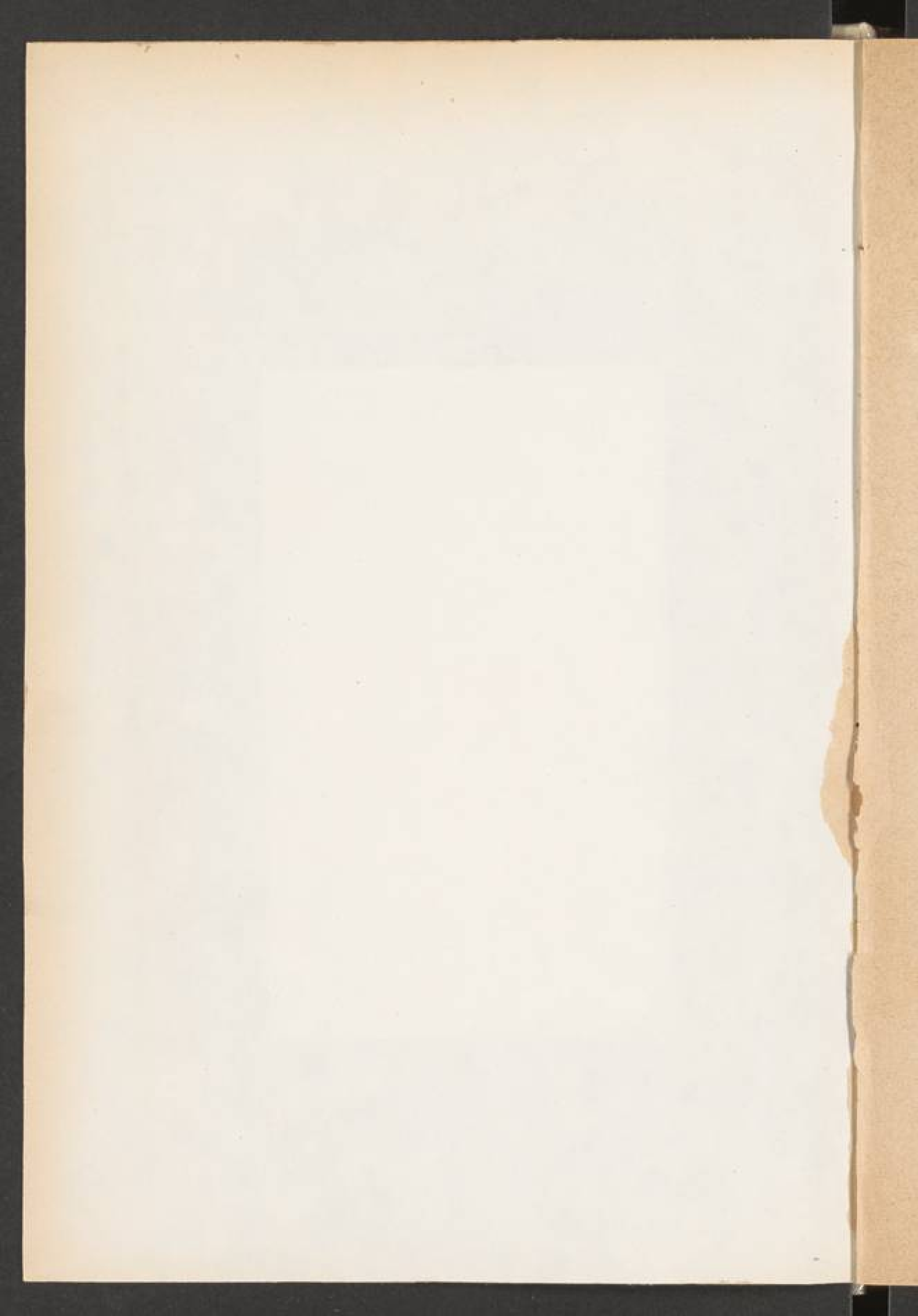
[تم بحمد الله وجميل توفيقه طبع هـذا الكتاب فى مطبعة لجنة البيان العربى بالقاهرة فى يوم الخميس ١٤ من شوال سنة ١٣٧٢ هـ الموافق (٢٥ من يونيه سنة ١٩٥٣) والحمد لله أولا وآخراً]

سيد محفوظ كامل

المدير الفنى للمطبعة

سجل الأخطاء

خطأ	صواب	صفحة	سطر
قوته الخارقه	قوته الخالقة	٦	١٠
القدر المحترم	القدر المحتوم	٩٩	٦
تلقاه	تلقاء	١١٧	٧
خطب	خطبهم	١١٧	٩
وخمسين	وخمسين متراً	١١٨	١٣
جميعها	جمعها	١٢٠	٥
الاستبار	من الاستتار	١٢٤	٢
إذا	إذ	١٢٤	١٤
قيمتها	قيمته	١٢٤	١٦
نور الشهيد	نور الدين الشهيد	١٢٩	٢٠
لا تسكبت عنك	لا تسكبت سهمك	١٣٠	١٤
فى عرض	عن غرض	١٣٠	١٤
تحمل	يحمل	١٣١	١٧
لا تزال	لا تزال	١٣٩	١
لورد نجهوفن	لورنجهوفن	١٣٩	١٥
الجراح	من الجراح	١٤٩	١٩
والقصور	قصورها	١٥٠	١٨
المستعمرون	المستعمرين	١٦٠	١
كل انه اذن	أنه إذن	١٦٢	٨
يبقى	بقى	١٩٢	٨
يهجز	يجهز	٢٠٥	١١
وفاه	وفاه	٢٠٥	١٤
المستعصلا	المستعصم	٢٠٦	١٦
المنجاق	القبجاق	٢١٠	١٢
صاحب النجوم	صاحب النجوم الزاهرة		
السكليه	الكلمة	٢١١	١
قرغانه	فرغانه	٢١٢	٤
بأن	فقد	٢١٢	١٥
بلوشين	بلوشية	٢١٥	٣
والسكاس	والعكس	٢٢٢	١١
اقرس	اقوش	٢٣١	٣
علمته	اعلمته	٢٣٤	٩
أولاد المرك	أولاد الملوك	٢٦٩	فى الحاشية
العامة	التامة	٣٠٧	١١
العا العربي	العالم العربى	٣١٤	فى الحاشية





بقلم المؤلف :

الاستعمار الفرنسي في شمالي أفريقيا

من وحي فلسطين

منادمة الماضي جزء أول

« الحروب « «

العلاقات الاقتصادية بين الدول العربية

* * *

قريبا :

سفارة ستين يوما

خمس سنوات في سوريا ولبنان

(وسط الحرب العالمية الثانية ١٩٣٩ — ١٩٤٤)

الثمن ٣٥ مجـ